التاريخ الحديث والمعاصر (٤)

موسوعة الثقافة
التاريخية والأثرية والحضارية

الحربان العالميتان وتطور الفكر العربى الحديث





موسوعة
الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية
التاريخ الحديث والمعاصر

المجلد الرابع
الحربان العالميتان وتطور الفكر العربى الحديث

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٠٩,٨ موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية-التاريخ الحديث والمعاصر.
م و ت ا الحربان العالميتان وتطور الفكر العربى الحديث/ تأليف مجموعة من المؤلفين. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨.
٥ ج: ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية؛ ٤).
تدمك: ٤ - ٢٢٩٥ - ١٠ - ٩٧٧.
المحتويات: ج١ - تطور الفكر العربى الحديث.
ج٢ - الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى.
ج٣ - العرب والحرب العالمية الأولى.
ج٤ - العرب والحرب العالمية الثانية.
ج٥ - الجذور التاريخية للحربين العالميتين.


المحتويات

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

تقديم

اختلف المؤرخون بالنسبة لتحديد بدايات تاريخ العالم الحديث والمعاصر، فمنهم من اعتبر بداية التاريخ الحديث سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين أو النهضة الأوروبية أو حركة الكشوف الجغرافية.

أما بالنسبة لتاريخ العرب الحديث فمن المؤرخين من اعتبر بداية الحكم العثمانى للبلاد العربية فى مطلع القرن السادس عشر بداية لتاريخ العرب الحديث، ومنهم من اعتبر الحركة الوهابية، ومنهم من اعتبر اتصال العرب بالغرب بداية لتاريخهم الحديث فرأى البعض أن الحملة الفرنسية على مصر أو قيام حكم محمد على تمثل بداية تاريخهم الحديث، بينما رأى آخرون أن ثورة الشريف حسين على الحكم العثمانى هى بداية تاريخ العرب الحديث.

أما بالنسبة للتاريخ المعاصر فيرى كثير من المؤرخين أن الحرب العالمية الأولى تمثل تلك البداية، بينما يرى آخرون أن الحرب العالمية الثانية تمثل البداية باعتبار أن كثيرا من دول العالم قد تحقق لها الاستقلال منذ تلك الحرب.

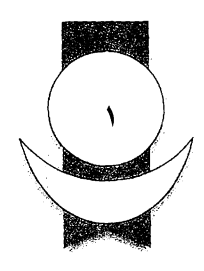
وعلى ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام أن التاريخ الحديث هو تلك القرون الأخيرة من حياة البشرية، بينما يمثل التاريخ المعاصر العقود الأخيرة من تاريخ الإنسانية.

أ.د.عادل حسن غنيم



تأليف
أ. د. رؤوف عباس حامد
كلية الآداب - جامعة القاهرة







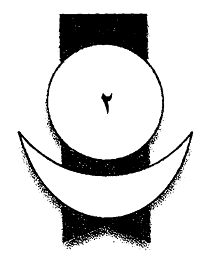
مقدمة

اختلف المؤرخـون فى تحديد التـاريخ الذى يمكن اعتبـاره بداية للعصـر الحديث فى الوطن العربى، فـهناك من يعتبرون مطلع القـرن السادس عشـر (تاريخ ضم العثمانيين لبـلاد العرب إلى إمبراطوريتـهم ١٥١٦/١٥١٧ تحديدا) بداية للعصر الحديث، باعتـبار مواكبة هذا التاريـخ لاكتمال العصر الحديث فى أوروبا بقيام حركة الإصـلاح الدينى، وباعتبار التأثر بفكرة «المركزية» الأوروبية عند هذا الفريق من المؤرخين.

وهناك من يجدون شـواهد على وجود إرهاصـات للتحديث شـهدها المجتـمع فى القرنين السابع عشر والثامن عشر جـاءت نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثـقافية التى شهدتها بعض المراكز العربية فى تلك الحـقبة، وأن هيمنة المماليك على السلطة فى مصر، والعـصبيات فى الشام أعاقت إمكانية حدوث تحول سياسى حقـيقى فى ذلك الاتجاه، وجاءت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١ لتجهض وتبدد تلك الفرصة.

وهناك فريق ثالث يرى أن المنـطقة عاشت فى ظل التخـلف والجمود والركود حـتى جاءت الحملة الفرنسية فأشاعت الأنوار فى أرجاء الإقليم، وجلبت معها تباشير «الحداثة». وأصحاب هذا الاتجاه أشد إيمانا «بالمركزية الأوروبية» من الفريق الأول الذى ربط التغير فى أوروبا فى مطلع القرن السادس عشر بشروق فجر العصر الحديث فى الوطن العربى.

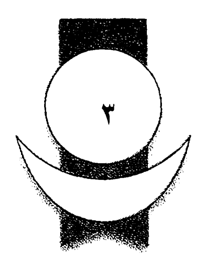
وقد أثبتت البحوث المستفيضة فى تاريخ العصر العثمانى صحة رؤية الفريق الثانى من حيث بدايات «التحديـث» تأسيسا على التغـيرات التى شهدتهـا المنطقة فى القرنين السابع عـشر والثامن عشر؛ ولكن تلك البدايات التى تعثرت على يد العسكر وأجهضت على يد العدوان الخارجى، ما لبثت أن شكلت حجر الزاوية فى التـحولات التى شهدتها مصر والشام فى عـهد محمد على من حيث إصلاح النظام الإدارى وتبنى مـشروع للتنمية فى بعديه الاقـتصادى والثقافى، وجاء التـغير الاجتـماعى نتـاجا له، ولم يكن مـقصودا لذاته؛ لذلك نرى فـى القرن التاسع عـشر عـصر بناء المجتمع الحـديث، عصر البحث عن منـحى فكرى جديد يواكب التحولات الاقـتصادية والثقـافية والسياسية التى تحققت بالفعل، عصر الحيرة بين الموروث والمكتسب، بين التقليد والتجديد.



ويهدف هذا الكتاب إلى تقديم إطار عام لحركة التجديد فى الفكر العربى فى العصر الحديث، مركزا على الاتجاهات والتيارات الرئيسية التى وضعت أصول التوجهات الفكرية الأساسية التى توجد اليوم على الساحة الثقافية والسياسية العربية. كما يهدف إلى توعية الشباب بأصول تلك التوجهات، ومدى تعبيرها عن المجتمع العربى فى مرحلة التحول الحافلة على طريق التحديث.

ويتضمن الكتاب خمسة فصول تعالج بواعث التحديد الفكرى واتجاه المزج بين الموروث والمكتسب، وتيار الجامعة الإسلامية، والتيار العلمانى، والفكرة القومية. قدمنا فى كل منها الإطار العام للاتجاه أو التيار بالقدر الذى يفى لإدراك مراميه، دون الخوض فى التفاصيل التى يجدها من أراد الاستزادة فى قائمة المراجع الواردة فى آخر الكتاب.

والله ولى التوفيق،،،

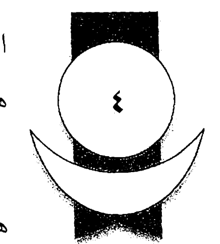


الفصل الاول
بواعث التجديد الفكرى

لعل من حسنات الحكم العثمانى للبلاد العربية، عدم التدخل فى أمور الناس بالتنظيم أو التعديل والتبديل، فقد ترك العثمانيون الناس يحيون حياتهم التى اعتادوها من قبل تحت جناح مجتمع القرية فى الريف، ومجتمع القبيلة والعشيرة فى البادية، ومجتمع الطوائف فى المدن. وكل منها كان يعتمد فى تنظيم علاقة الفرد بالجماعة بتقاليد راسخة، لم يصبها من التعديل إلا القليل، بما يتفق مع درجة التطور وتغير الأحوال. كما كانت الخدمات الأساسية: كالعلاج والتعليم وأعمال البر والإحسان (أو ما يسمى اليوم بالخدمات الاجتماعية) مسئولية الرعية وليست من مسئوليات الحاكم، تقوم بها الأوقاف التى رصدها أهل الخير على المساجد، والمدارس، والمشافى، والتكايا وغيرها من أوجه البر. وقد يساهم الحكام (كأفراد) فى تلك الأعمال فيقيمون المساجد والمدارس وغيرها ويوقفون عليها العقارات التى تجرى بها أرزاقها لتغطى نفقة ما شيدوه من تلك المؤسسات، وقد لا يساهمون، فالأمر يتوقف على نوازع الخير عند الحاكم (كفرد)، ولم يكن ذلك من



الكُتاب أساس التعليم فى مصر عبر القرون الماضية



اختصاص الدولة، وجاء إبقاء العثمانيين على ذلك الوضع إيجابيا للحفاظ على هوية الإقليم وعادات أهله.

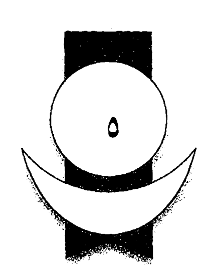
ولا يعنى ذلك أن العثمانيين وعوا ذلك، أو قصدوه، بل كان ما يهمهم هو بقاء الولايات العربية فى حظيرة الدولة. . فالسيادة للسلطان، وله شارات الاعتراف بها: سداد الخراج، وسك العملة باسمه، والدعاء له يوم الجمعة، وعدم الخروج على سلطته، وفى مقابل ذلك يقع على عاتقه واجب حماية البلاد والدفاع عنها ضد العدوان الخارجى، وحفظ الأمن فى الولاية، وإقامة العدل بين الناس. وبعبارة أخرى كانت السلطة جهاز جباية للأموال، وجهاز أمن، وسلطة قضائية تتولى إقامة العدل بين الناس.

وإذا كان الحكم يرتكز على الأصول الفقهية لصلاحيات ولى الأمر وحقوقه، فقد اتسمت سلطة القضاء بالتعددية المذهبية وكان القاضى يملك حق الاجتهاد فى حدود المدارس الفقهية الأربع، وإن كان المذهب الحنفى ملزما للقاضى الرئيسى الذى يجلس فى محكمة الباب العالى. كذلك كان من حق الطوائف الدينية غير الإسلامية أن تحتكم لرؤساء طوائفها فيما يتصل بالأحوال الشخصية والمواريث حسب شرائعهم الخاصة.

وانقسم المجتمع إلى نخبة حاكمة يقال لها «الخاصة» وهم: الحكام ورؤساء العسكر وكبار رجال الهيئة الدينية ومن لاذ بالحكام من كبار العلماء. أما بقية المجتمع فهم «الرعية» أو «العامة» أى من ليس لهم دور فى السلطة، ولكن هؤلاء انقسموا بدورهم إلى ثلاث فئات اجتماعية حسب درجة الثراء. . فهناك الأعيان، والفئة الوسطى، والفئة الدنيا من المعدمين والفقراء، وتفاوتت بالطبع المكانة الاجتماعية لكل فئة من الفئات الثلاث، كما تفاوتت الحالة الثقافية عندهم. وقد برز دور الفئة الوسطى من متوسطى وصغار التجار والحرفيين فى الحياة الاجتماعية والثقافية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان لهذا الدور أثره الفعال فى الإصلاحات التى شهدها مطلع القرن التاسع عشر، واعتمدت - أساسا - على تلك الفئة الاجتماعية.

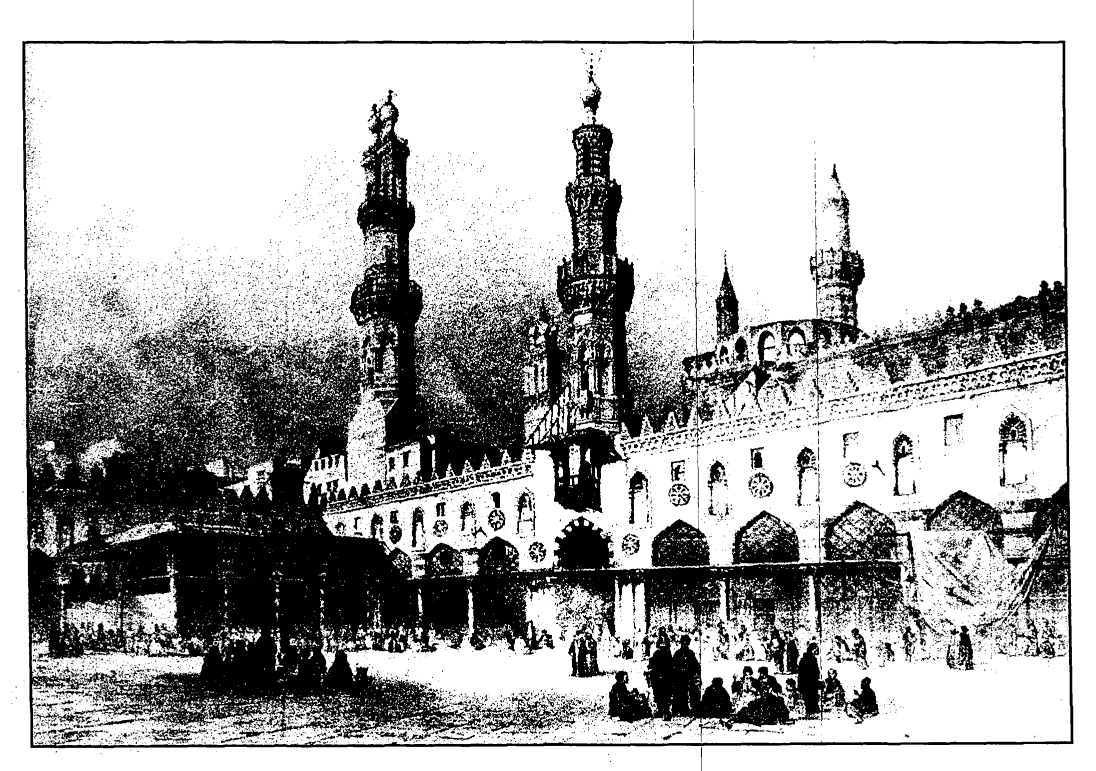
وكان التعليم فى ذلك العصر يقع على كاهل المدارس الدينية على اختلاف مستوياتها، ويركز على اللغة والنحو والعروض وعلوم القرآن والحديث والفقه وغيرها من العلوم الدينية، ولكن القرنين السابع عشر والثامن عشر شهدا اهتماما بالعلوم العقلية كالفلك والرياضيات والطب وعلم الكلام، غير أن التأليف فى تلك العلوم كان مقتصرا على ما حققه علماء المسلمين فيها من تقدم فى العصر العباسى الثانى، مع النزر اليسير من الإبداع والتجديد.

ومهما كانت دوافع محمد على التى جعلته يقدم على ما أقدم عليه من إصلاحات فى مصر، ثم فى الشام عندما مد حكمه إليه، فلا ريب أن تلك الإصلاحات قد خلقت واقعا

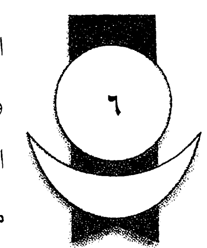


اجتماعيا - ثقافيا جديدا، كان له الدور البارز فى خلق الظروف الموضوعية الملائمة للتجديد الفكرى. وجاءت التطورات التى شهدتها مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (وخاصة عصر إسماعيل)، وشهدتها الشام والعراق فى نفس الفترة على عهد حركة الإصلاح العثمانى (التى عرفت بالتنظيمات الخيرية) لتكمل ما نقص من تلك الظروف الموضوعية، وتهيئ المجال لانطلاق أفكار التجديد، على اختلاف توجهاتها ومذاهبها.

ويأتى إدخال التعليم الحديث فى مقدمة تلك الظروف الموضوعية التى هيأت سبيل التجديد الفكرى، وإذا كان بناء الجيش الحديث يمثل محور حركة الإصلاح الذى قام به محمد على، فإن ذلك تطلب تنظيم الإدارة والاقتصاد مما تطلب وجود خبرات وكفاءات لا يستطيع أن يوفرها التعليم التقليدى. وهكذا نشأ التعليم الحديث فى مصر أولا، ثم فى بلاد الشام والعراق. ولما كان محمد على حريصا على توفير الكوادر اللازمة للإدارة والإنتاج ولدور السلطة الجديد فى مجال الخدمات وأن تكون تلك الكوادر من أبناء البلاد، فقد ارتبط التوسع فى التعليم بحاجات الحكومة إلى الأفراد للخدمة فى مصالحها، كما تم إيفاد البعثات إلى أوروبا (وخاصة فرنسا) لدراسة العلوم



الأزهر حمل شُعلة العلم الدينى فى مصر منذ الدولة الفاطمية - ويُعد أول جامعة إسلامية



الحديثة: الطب والهندسة والإدارة والقانون، وحذت الدولة العثمانية فى هذا الجانب من الإصلاحات التى شهدها النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حذو محمد على فى تنظيم المدارس الحديثة وإيفاد البعثات إلى أوروبا.

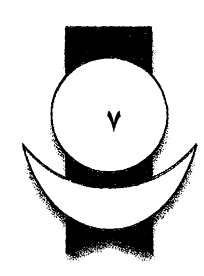


قاضى القضاة فى الدولة العثمانية

ولكن أكبر إنجاز تحقق فى عهد محمد على فيما يتصل بالعلم والثقافة كان حركة الترجمة الكبيرة لكتب فى مختلف فروع المعرفة إلى اللغة العربية، ويقدر عدد الكتب المترجمة التى تم طبعها فى المطبعة الأميرية ببولاق نحو ٢٥٠٠ كتاب.

وكان لهذه الحركة أهميتها فى إطلالة العالم الإسلامى على علوم الغرب وثقافته، فقد أعيدت ترجمة ما نقل إلى العربية من أمهات الكتب إلى اللغتين الفارسية والتركية. ولاريب أن

محمد على باشا فى ديوانه



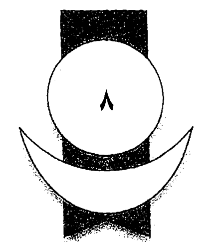
تلك الترجمات فتحت الباب على مصراعيه أمام من أخرجتهم المدارس الحديثة، وغيرهم من القراء للوقوف على الثقافة الغربية. وإذا كان إيقاع الترجمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد أبطأ إلا أن الكثير من أمهات الكتب فى الفكر الاجتماعى والسياسى تمت ترجمتها، ونشر بعضها منجما على صفحات الجرائد، فأفاد منه قطاع عريض من القراء.

وكانت الصحافة، التى بدأت فى القرن التاسع عشر وكثر عددها فى النصف الثانى منه، عاملا هاما لنقل الأفكار الوافدة من الغرب، وتفتيح الأذهان على أشياء جديدة لم تكن مألوفة من قبل كالدستور، وحقوق المواطن تجاه الحكومة، والأوضاع الاجتماعية وغيرها من القضايا التى خلقت أرضية خصبة لتجديد الفكر، ونافذة أطل منها جيل جديد من الكتاب تأثر بالثقافة الغربية بدرجة أو أخرى، أو استفزته الثقافة الغربية فراح يكيل النقد لها، ويطرح فى المقابل أفكارا (إصلاحية) مستمدة من التراث الثقافى التقليدى.

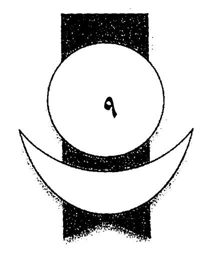
فإذا أضفنا إلى ذلك كله نشاط الإرساليات التبشيرية فى الشام ومصر، وما أقامته من مدارس تقدم ثقافة أوطانها، وتركز على تعليم اللغات الأجنبية، مع اهتمام خاص ببعث الأدب العربى القديم فى الشام وحدها، إذا أضفنا هذا الدور الذى لعبته مدارس الإرساليات التبشيرية نجد مناخا عاما فى الحياة الثقافية العربية فى ذلك القرن، هيأ الفرصة لوفود الثقافة الغربية وفكرها إلى الوطن العربى مما كان يمثله من تحدٍّ للثقافة الإسلامية التقليدية، جاءت الاستجابة له فى صورة أطروحات التجديد الفكرى التى يعرض لها هذا الكتاب.

والعصر عندئذ مشحون بروح التحدى، فهو عصر التوسع الأوروبى فيما وراء البحار، بعدما حققت الرأسمالية درجة عالية من النمو بعد الثورة الصناعية، وأصبحت الحاجة ماسة للسيطرة على مصادر المواد الخام، وتأمين الأسواق لتصريف الإنتاج، وفتح مجالات جديدة لاستثمار فائض رؤوس الأموال. ولعب الفكر دورا هاما فى تهيئة الأرض لحركة التوسع الاستعمارى ابتداء من الفكر العنصرى الذى لا يرى الحضارة إلا فى الغرب، ويرى فى التوسع الاستعمارى «رسالة» على الغرب القيام بها لنشر الحضارة بين الشعوب «المتبربرة». وفسرت نظرية التطور عند دارون لتبرير الهيمنة الغربية على العالم.

فلا غرابة - إذا - أن يهتم المثقفون العرب بهذا الفكر الوافد، ليتبينوا موضع الإفادة منه، ومكمن الخطر فيه الذى يجب تجنبه، فهو - عندهم - هم متصل بواقع بلادهم ومستقبلها،



وخاصة أن بلادهم وقعت فى شراك السيطرة الأجنبية بمختلف صورها، فالاهتمام بالفكر الوافد يختلف باختلاف رؤية صاحب هذا الاهتمام له، وسواء كان مبعثه تجنب ذلك الفكر، أو تبنى بعضه، أو البحث عن صيغة فكرية جديدة تجمع بين الموروث والمكتسب، فإن التعرف على تلك الأفكار يصبح ضروريا. وهكذا جاء طرح الفكر الوافد محفزا على انبعاث أفكار التجديد الفكرى التى عرفها الوطن العربى فى القرن التاسع عشر، الذى يروق لبعض الباحثين أن يصفه بعصر «النهضة» وهو ما سنراه فى الفصول التالية.

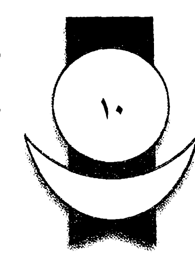


الفصل الثانى
التقليد والتجديد عند رفاعة الطهطاوى

ولد الطهطاوى عام ١٨٠١م بمدينة طهطا بصعيد مصر، لعائلة بارزة من علماء الأزهر تنتسب إلى الدوحة النبوية الشريفة، أعدته للدراسة فى الأزهر الذى التحق به عام ١٨١٧م حيث تتلمذ على الشيخ حسن العطار (١٧٦٦-١٨٣٥م) أحد كبار علماء الأزهر، وشيخه فى عهد محمد على. وأتم دراسته فى الأزهر عام ١٨٢٢م، وتولى التدريس به مدة عامين، ثم ألحقه أستاذه بوظيفة إمام بإحدى فرق الجيش المصرى الحديث، وزكاه عند محمد على عندما كان يبحث عن إمام يصحب البعثة التعليمية الأولى الموفدة إلى فرنسا، ويفتى لطلابها فيما يعن لهم من أمور تتصل بالدين خلال حياتهم فى مجتمع غريب عليهم.

وقد تركت هاتان التجربتان أثرهما على الشيخ رفاعة الطهطاوى، فقد كان الجيش الحديث محور بناء الدولة المصرية الحديثة، وظل الطهطاوى طوال حياته مقدرا للجيش المصرى ومنجزاته العسكرية، ولكن باريس كان لها الأثر الأكبر عنده، فقد ظل هناك خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١م) كانت من أهم سنوات عمره. ورغم أنه كان إماما وليس طالبا، فقد انغمس فى دراسة الفرنسية بحماس ونجاح كبيرين، وتقديرا لكفاءته فى هذا المجال، طلب العالم الفرنسى الذى تولى الإشراف على البعثة المصرية فى باريس من محمد على الموافقة على أن يصبح الطهطاوى طالبا إلى جانب عمله كإمام، مما أتاح للطهطاوى التعمق فى دراسة الفرنسية ونحوها، وانكب على قراءة أمهات الكتب فى التاريخ القديم والفلسفة اليونانية والأساطير والجغرافيا والرياضيات والمنطق، كما قرأ أعمال فولتير وكونדياك وروسو ومونتسكيو من مفكرى القرن الثامن عشر، وقد ترك هذا الفكر أثرا باقيا على الطهطاوى، ومن خلاله على الفكر العربى عامة.

وعندما عاد الطهطاوى إلى مصر عام ١٨٣١م، عين مترجما ومدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الطب، ثم نقل بعد ذلك بعامين إلى نفس وظيفته بمدرسة المدفعية. وعلى مدى أربعة أعوام، ترجم بعض الكتب الفرنسية فى الهندسة والچيولوچيا وعلم الفلزات والجغرافيا والطب، ونشر عام ١٨٣٤م كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، الذى قدم فيه وصفا للمجتمع الفرنسى كما شاهده أثناء إقامته هناك، وقد قرئ هذا الكتاب على نطاق واسع فى البلاد العربية



والإسلامية، فقد أعيد نشره عام ١٨٤٨م، ١٩٠٥م، ١٩٥٨م، ١٩٧٤م، وطبعت ترجمته التركية عام ١٨٣٩م تحت عنوان: «سفرنامه رفاعة بك».


رفاعة الطهطاوى

ولما كان الطهطاوى من بين أوائل العرب الذين زاروا أوروبا فى القرن التاسع عشر، وأول من نشر كتابا عن تلك البلاد الغربية، فقد وقع على عاتقه تقديم صورة المجتمع الأوروبى لقراء العربية، وقد نجح فى تلك المهمة، وقدم لقرائه - برشاقة وحرص- جوهر الحضارة الغربية. وعندما كان يعرض لمصطلحات أوروبية ليس لها نظير فى العربية، قدم صياغة عربية للمصطلح، وفى بعض الحالات صاغ مصطلحات عربية - لأول مرة - كترجمة لأشياء أوروبية غير معروفة في الثقافة العربية. ويضم «تخليص الإبريز» وصفا كاملا للمؤسسات السياسية الرئيسية فى فرنسا، والأحداث السياسية الكبرى التى شاهدها خلال إقامته، وألقى الضوء على طبيعة وأوضاع العلم فى أوروبا، وقدم لقرائه أعمال كبار المؤلفين، وملامح الثقافة الفرنسية.

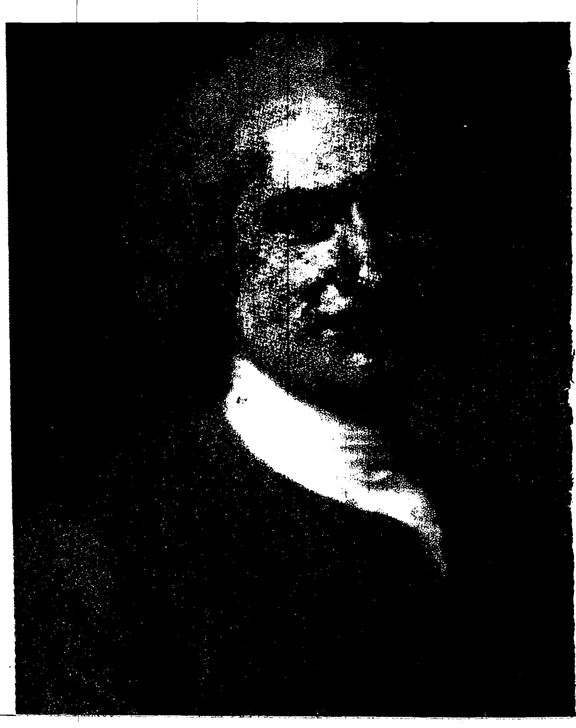
وفى «تخليص الإبريز» قدم الطهطاوى لقرائه العناصر الجديدة للمجتمع الأوروبى مثل: وضع النساء ودورهن فى المجتمع، والطبقات الاجتماعية المختلفة، والأحوال الدينية، والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمع الفرنسى الحديث، ولكن وصفه لتلك الظواهر الغريبة لم يخل من نظرات نقدية، واهتم بإبراز ما للتقدم العلمى من أثر كبير فى النهضة الحضارية الغربية، وعبر عن حاجة البلاد الإسلامية إلى التزود بالعلم حتى ترقى مدارج التقدم الحضارى.

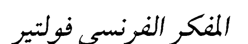
وفى عام ١٨٣٥م، أصبح رفاعة الطهطاوى ناظرا لمدرسة الترجمة (مدرسة الألسن) التى أنشئت حديثا استجابة لاقتراح تقدم به الطهطاوى نفسه إلى محمد على باشا، وتطورت المدرسة على مدى ست سنوات، واتسع مجال الدراسة فيها ليشمل الأدب، والقانون الفرنسى، والشريعة

الإسلاميـة، والفلسفة، واللغات الأوروبية مـع اهتمام خاص باللغة الفـرنسية، وفى عام ١٨٤١ حدث تطوران هامان: فقد تغـير اسم المدرسة ليصبح «مدرسة الألسن والمحـاسبـة»، وأنشئ «قلم التـرجمـة» ملحقـا بها، واسـتمـر رفاعـة الطهطاوى مـديرا (ناظرا) لهـا. ولعب رفـاعة دورا هـاما فى تنظـيم مشـروع الترجمة في الرياضيات والفـيزياء، والطب، والآداب، والعلوم الإنسانية، كما نظم قسما للترجمة التركية، وكان دوره رئيسـيا فى اختيار الكتب التى يتم ترجمتها، وإسناد مهمة الترجمة إلى المترجمين الأكفاء، كما راجع بنفسه بعض تلك الأعمال المترجمة.

وإلى جانب عـمله بالمدرسة وقلم التـرجمة، أسنـدت إلى الطهطاوى مهمـة التفـتيش على المدارس، وكان عضـوا فاعلا فى اللجان الخاصة بالتـعليم والامتحانات، ومحـررا لجريدة «الوقائع المصرية» التى كانت تصـدرها الحكومة باللغتين العربية والتـركية، وكانت أول صحيـفة تصدر فى مصر. وقد لعب الطهطاوى دورا هاما فى تحويلها من مـجرد نشرة رسمية تنقل أوامر الحكومة إلى الناس، إلى صحيفـة أسبوعية متعددة الاهتـمامات تحاكى الصحف الأوروبية، فأصبـحت تتضمن ركنا للأخـبار الدوليـة، وآخـر للشئـون الاقتـصـادية، وثالثا للعلـوم والآداب، ورابعا للتـحليل والتعليـقات. . . فكان للطهطاوى فـضل ابتكار أدب المقالة العـربية فى تلك المجـالات، والكتابة بأسلوب سهل يستطيع أن يفهمه كل من يعرف القراءة.

المفكر الإنجليزى روسو





المفكر الفرنسى فولتير



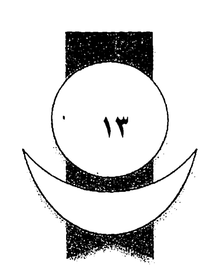
لقد كانت أعمال رفاعة الطهطاوى تلبى رغبة الحاكم فى النهوض بالبلاد عن طريق التزود بمعارف الغرب، وأسباب القوة والمنعة عنده، وتعتمد على الظروف السياسية التى تمر بها الدولة، ومن ثم كان تحجيم قدرات محمد على العسكرية، وانحسار دولته داخل حدود مصر دافعا لتحجيم التعليم لعدم حاجة الدولة إلى الكوادر اللازمة للخدمة العسكرية والمدنية. ولعل ذلك يفسر اتجاه خليفتى محمد على: عباس الأول (١٨٤٨-١٨٥٤م)، ومحمد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣م) إلى تصفية المدارس التى أقامها محمد على باشا.

ففى العامين الأولين من حكم عباس الأول، تركت مدرسة الألسن لتمضى على طريق الاضمحلال بسبب نقص المخصصات المالية، حتى أغلقت رسميا عام ١٨٥١م، وألغى معها «قلم الترجمة»، وكان رفاعة الطهطاوى قد أبعد إلى الخرطوم عام ١٨٥٠م ناظرا لمدرسة ابتدائية تقرر إنشاؤها هناك. وكان النقل - فى حقيقة الأمر - نفيا وإبعادا لرفاعة وغيره من الأساتذة الذين قامت على كواهلهم تجربة التعليم العالى فى عهد محمد على. فقد كره عباس الغرب، واعتبره مسئولا عن انتكاس مشروع جده (محمد على)، ومن ثم سخط على أقطاب التعليم الغربى، وعلوم الغرب، وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوى.

وشغل الطهطاوى نفسه خلال السنوات الأربع التى قضاها بالسودان بترجمة كتاب فينيلون «مغامرات تليماك»، فكان بذلك أول رواية أوروبية تنقل إلى العربية. وكانت الرواية قد صيغت فى قالب نصائح أخلاقية كتبها صاحبها لتثقيف وتوجيه تلميذه الدوق بورجون، وتضمنت نقدا ضمنيا لاستبداد لويس الرابع عشر، وبذلك جاءت ترجمتها تنفيسا عما فى صدر الطهطاوى من ضيق باستبداد عباس الأول.

وما لبث تغير الحاكم أن غير الأقدار بالنسبة لرفاعة الطهطاوى، فعندما تولى محمد سعيد باشا الحكم خلفا لعباس الأول (عام ١٨٥٤م) استدعى الطهطاوى إلى القاهرة ليصبح وكيلا للمدرسة الحربية، ثم ناظرا لها، فأعاد إنشاء «قلم الترجمة» بتلك المدرسة، وأدخل فى برامج الدراسة بها الأدب، والرياضيات، واللغات الأجنبية. ولكن المدرسة أغلقت عام ١٨٦١م - نتيجة اضطراب سياسات سعيد - وتم الاستغناء عن جميع معلميها بمن فيهم رفاعة الطهطاوى.

وحالف الحظ رفاعة الطهطاوى بعد عامين عندما مات سعيد وانتقل الحكم إلى إسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٩) الذى كان شديد الحماس للثقافة الفرنسية، فأعاد افتتاح مدرسة الألسن، وقلم الترجمة، وعين رفاعة ناظرا لهما، فجمع تلاميذه حوله، واستأنف معهم حركة ترجمة

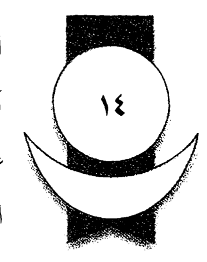


جديدة تواصلت مع تلك التى بدأها فى عهد محمد على باشا، وفى إطار هذا النشاط، ترجمت تشريعات نابليون إلى العربية (١٨٦٦م)، كما ترجم القانون التجارى الفرنسى (١٨٦٨م)، واستخدم فى تلك الترجمة المصطلحات الفقهية المستمدة من الشريعة الإسلامية، فكان لتلك الترجمات القانونية أثرها على الفقه القانونى العربى الحديث الذى استوحى صياغاته من تلك الترجمة الرائدة التى وضعها الطهطاوى وتلاميذه.

وإلى جانب إدارته لمدرسة الألسن وقلم الترجمة، استعاد رفاعة مكانه فى اللجنة التى وضعت نظام التعليم، وفى غيرها من اللجان المتصلة بالنهضة العلمية والنشاط الثقافى فى عصر إسماعيل. ورغم ذلك اتسع وقت رفاعة الطهطاوى ليقدم المزيد من الإنجازات الثقافية والعلمية، ففى عام ١٨٧٠م، أسندت إليه مهمة تحرير مجلة «روضة المدارس» التى أصدرها «ديوان المدارس»، وظل رئيسا لتحريرها حتى وفاته عام ١٨٧٣م. وقد استخدم مقالاته الافتتاحية أداة لنشر أفكاره عن الحضارة، ونقده لبعض العادات والتقاليد السائدة، كما نشر على صفحاتها ثلاثة من كتبه منجمة: أولها، «القول السديد فى الاجتهاد والتجديد»؛ وثانيها، «رسالة البدع المتقررة فى الشيع المتبربرة» التى كانت دراسة فى الحضارة الإنسانية، وأخيرا، «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» التى كانت أول دراسة حديثة للسيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام.

وفى نفس السنة التى تولى فيها الطهطاوى مهمة تحرير «روضة المدارس» صدر له عمل هام هو «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» الذى أعده ليكون كتاب قراءة فى المدارس، ولكنه كان فتحا جديدا فى الفكر العربى الحديث، حدد معالم الطريق الذى يرشحه لمصر لتسلكه فى نهضتها، وبين كيفية الاستفادة بعلوم الغرب وثقافته مع الحفاظ على ما هو إيجابى من الموروث الثقافى العربى والإسلامى، وصاغ المفاهيم الأساسية للوطن والوطنية. وفى عام ١٨٧٢م نشر كتابه الثانى الهام «المرشد الأمين للبنات والبنين» الذى أودعه خلاصة فكره الاجتماعى والثقافى، وكان - أيضا - كتاب قراءة فى المدارس. ومن ثم نستطيع أن ندرك مدى تأثير فكر رفاعة الطهطاوى فى الجيل الذى تلقى تعليمه فى عصر إسماعيل، وتفتح وعيه السياسى والثقافى فى عهد الاحتلال البريطانى، ولعب دورا هاما فى صياغة المشروع الوطنى السياسى - الثقافى فى إطار التطورات التى شهدتها مصر والبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى.

لقد كانت بعض الأفكار الأساسية فى النظام السياسى الفرنسى لا تبدو غريبة على الطهطاوى الذى شب على الفكر السياسى الإسلامى من حيث تحقيق الفرد لذاته فى إطار



الجماعة، واتخاذ مبدأ «العدل» أداة لتحقيق الصالح العام، والتزام الحاكم بتوفير أسباب الحياة للناس. ولكن كانت هناك أفكار جديدة نستطيع أن نلمس تأثيرها عند الطهطاوى، منها: أنه يجب على الناس أن يشاركوا مشاركة فعالة فى الحكم، وأنه يجب أن يتم إعدادهم لذلك، وأن القوانين يجب أن تواكب ظروف المجتمع لأن ما يصلح فى زمان ومكان معين قد لا يصلح فى غيرهما. ونجده أيضا يستمد فكرته عن «الأمة» من أفكار مونتسكيو، الذى أكد أهمية الأحوال الجغرافية (الطبيعية) فى صياغة القوانين، وذلك يعنى أن المجتمع يرتبط بموقع جغرافى معين، وأن تكوين المجتمع يأتى نتاجا للعيش فى مكان واحد. وأن قيام الدول وسقوطها مرده إلى أسباب بعينها يمكن أن نجدها فى روح الأمة، وأن حب الوطن يمثل ركيزة كل الفضائل السياسية، والعكس بالعكس.

ولم تكن أفكار الطهطاوى مجرد عرض جديد للنظرة التقليدية، ولا مجرد ترديد للأفكار التى تعرف عليها فى باريس، بل كانت تتسم بالجدة، والمزج بين الموروث التقليدى الإسلامى والفكر الغربى المكتسب. ورغم اتباعه فى طرح تلك الأفكار الطريقة التقليدية، مستشهدا فى إثبات كل مسألة بالمأثور عن النبى ﷺ والصحابة، وينظر إلى السلطة السياسية من خلال المنظور الإسلامى التقليدى، نجده يتوسع فى بعض النواحى توسعا كبيرا، ويطرح اجتهاده فيها، دون أن يقطع الصلة بين ما بدأ به وانتهى إليه.

فكانت فكرة الطهطاوى عن «الدولة» تعبر عن الفكرة الإسلامية المأثورة، فهو يحاول النظر إلى الأسس النظرية للفكر السياسى الأوروبى فى ضوء الإسلام، فيرى أن الحكومة ضرورية للمجتمع ولا حياة له بدونها، والنظام السياسى يقوم على «قوة حاكمة» ترعى مصالح الأمة وتدرأ عنها المفاسد، و«قوة محكومة» تتمتع بالحرية والمساواة ولها حق المشاركة فى «المنافع العمومية» (الموارد الاقتصادية). فهو هنا


الخديو إسماعيل

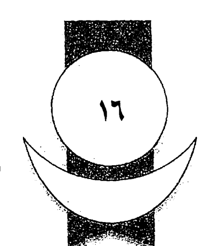
يعتـبر الحكومة والناس طرفين يقـوم عليهما المجـتمع، لكل وظائفه ومـجاله، فالناس ليسوا ملكا للحكومة، ولكنهم أحرار لهم حق التمتع بخيرات بلادهم.

أما الفكرة القـائلة بأن الحكم يجب أن يكون فى يد «الشـعب»، فهى لا تتلاءم - عـنده - مع ظروف بلاده التى يحكمهـا حاكم فـرد مسـتبد مـسلم، والأمل فى الإصـلاح - فى نظره - أن يقـوم هذا الحاكم باسـتـخدام سلطتـه استخـداما رشيدا. ولكن ذلك لا يعنى أن الحـاكم مطلق اليد، فهناك حدود السلطة التى تفـرضها الشريعـة التى تعلو فوق الحـاكم، كما تفـرضها الـقواعد الخلقـية السامـية. وفى شـرحه للفكرة الإسلاميـة التى تضع الشريعة فوق الحاكم، نجـده يستعير فكرة الفصـل بين السلطات التى قال بها مونتـسكيو، فيرى أن أعـباء الحكم لا يستطيع حـملها فرد واحـد؛ ولذلك وجب على الحاكم أن يفوض سلطته للمجـالس التى تقام لهذا الغرض، وللحاكم، فرغم ما للحاكـم من امتيازات، فإنه تقع على كاهلـه واجبات نحو رعـاياه، غير أنـه يتولى الحكم بإرادة الله، ويعد مـسئولا أمـامه - سبحانه وتعالى - عن أعماله، ولكنه يجب أن يستعين بالعلماء الذين يقدمون له المشورة، وهو هنا يوسع مفـهوم «العلماء» فـلا يجعله مقـتصرا على علمـاء الدين، بل يشمل العلماء فى مـختلف مجالات المعرفة.

ويذهب الطهطاوى إلى أن العـلاقة بين الحـاكم والرعيـة تقوم على الحـقوق والواجـبات. فللحاكم على الناس حق الطاعـة، غير أنه يجب - فى مقابل ذلك - أن يؤدى واجـباته تجاههم. ومن ثم وجب على الرعية أن يعرفوا الشـريعة حق المعرفة لحماية حقوقهم، كـما عليهم أن يعرفوا القوانين المدنية والإجراءات الحكومية، أما واجب الحكومة، فيمثل فى إقامة العدل، وتحقيق المساواة والحرية، وحماية أرواح الناس وممتلكاتهم وفقا للشريعة، فيجب على الحاكم التزام أحكام الشريعة في كل ما اتصل بشئون الناس.

وبالإضافة إلى مـا للناس من حقوق تجاه الحكـومة، ذكر الطهطاوى نوعا آخـر من الحقوق التى للشعب، سماها «الحقوق المدنية» وتعبر عما للناس من حقوق تجاه بعضهم البعض التى تجعل كل فرد ملزما بمساعـدة غيره على فعل كل شىء لا يخالف الشرع، وحق الفـرد فى ممارسة حريته بشتى أنواعـها دون المسـاس بحرية الآخرين، فـالحقـوق المدنية - عنده - نوع من التـعاقد (غـير المكتوب) بين المواطنين، تقوم على أساسه الدولة.

ويذهب الطهطاوى إلى أن الناس جـميعا سـواء بحكم الطبيعـة، رغم اختلافـهم فى القوة البدنـية والقدرات العـقلية والثـروة المادية. غيـر أنهم سواء أمـام القانون بغض النظر عـن تفاوت



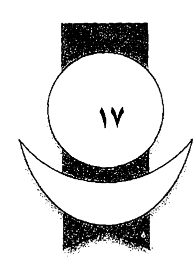
درجاتهم الاجتماعية، وهم شركاء على قدم المساواة فى الواجبات التى عليهم القيام بها نحو وطنهم، ويعنى ذلك أن الطهطاوى يعلى من شأن المساواة القانونية، ويعتبرها حقا طبيعيا للناس، وليس منحة من الدولة.

وإذا كانت المساواة تمثل حجر الزاوية فى الحقوق المدنية للأمم المتحضرة، فإن الحرية تعد جوهر الحقوق المدنية فى تلك الأمم، وتعبر عن بلوغها درجة الاستقلال، ويعنى الطهطاوى بالحرية، حق الناس فى التنقل، وفى العمل، طالما كان ذلك لا يتعارض مع حرية الآخرين، وأنه لا يجب وضع القوانين التى تحد من حرية الناس وتقضى بتعرضهم للنفى أو غيره من العقوبات إلا فى إطار القانون وبحكم القضاء، وتضمن مفهوم الحرية عنده - أيضا - حق المواطن فى التصرف فى ثروته وفى التعبير عن آرائه ما دام ذلك فى إطار القانون.

وحرص الطهطاوى على أن يجعل تلك الأفكار التى طرحها لأول مرة على القارئ العربى مستساغة عنده، فأكد أنه لا يوجد فرق كبير بين مبادئ «الشريعة الإسلامية» ومبادئ «القانون الطبيعى» الذى يرتكز إليه التشريع الأوروبى الحديث، مما يعنى إمكانية تفسير الشريعة الإسلامية تفسيرا يتفق مع حاجات العصر. وفى تبريره لذلك أبرز القاعدة الفقهية التى تجيز للمؤمن أن يقبل بتفسير لنص شرعى مستمد من مذهب آخر غير مذهبه اعتمادا على مبدأ «المصلحة». ويستطرد الطهطاوى ليقرر أن من واجب العلماء تفسير الشريعة على ضوء المصلحة التى تغيرت نتيجة الحاجات التى استحدثت، وحتى يتم ذلك على أكمل وجه، فإن عليهم أن يتعرفوا على العالم الحديث، وأن يدرسوا العلوم العقلية التى كان لها شأن كبير فى الحضارة الإسلامية من قبل.

وكان الطهطاوى أول مفكر عربى يصوغ مصطلح «الوطن» ويستخلصه من إطار الموروث التاريخى لمفهوم «الأمة» الإسلامية، ليضع بذلك بذرة الوعى القومى فى الثقافة العربية لأول مرة. وكانت صياغة هذا المصطلح بمثابة علامة على تجاوز المفهوم الإسلامى التقليدى للأمة الذى ينحصر فيمن يدينون بالإسلام، ولا يرتبط بوطن محدد، وهو المفهوم الذى ظل شائعا فى البلاد الإسلامية حتى بدأ مفهوم «القومية» يفد فى الربع الأخير من القرن فى إطار التأثر بالفكر الغربى.

وقدم الطهطاوى تعريفا للأمة تجاوز به كثيرا المفهوم الإسلامى التقليدى، فلم يجعل «الدين» من بين الأسس التى يجب أن تقوم عليها «الأمة». فالأمة - عنده - تناظر «العرق»، فهى جماعة من الناس يعيشون معا فى بلد واحد، ويتحدثون لغة واحدة، ويشتركون معا فى العادات والتقاليد والأخلاق (القيم الاجتماعية)، ويخضعون لحكومة واحدة وقانون واحد. وأن مثل هذه «الأمة»



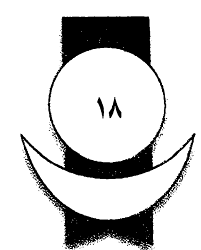
يجب أن تتحلى بالشجاعة والرزانة، وتتطلع إلى الرفعة والمجد، وتقدر قيمة الاستقلال، وتحترم الأكفاء من حكامها، وتخضع للقانون، بينما يعد «الوطن» بيتا لهم، ومن ثم وجب عليهم التضامن لأن الفرقة والبغضاء تؤديان إلى تعريض سلامة الوطن للخطر.

وحاول الطهطاوى أن يوفق بين «الوطن» (مصر) والانتماء إلى «الأمة» الإسلامية، فذكر أن مصر جزء من الأمة الإسلامية، ولكنه أضاف أنها كانت تمثل «أمة» قائمة بذاتها فى الأزمنة القديمة والحديثة على السواء؛ ولذلك كانت لها مكانة فريدة فى التاريخ. ورأى أن كل من يعيشون على أرض مصر يكونون «أمة» تشترك فى نفس الحقوق والواجبات دون تمييز. ولما كانوا سواء أمام القانون، وجب عليهم أن يتحدوا معا لمواجهة أعداء الوطن. وأضاف إلى ذلك القول بأن العلاقة بين الناس والوطن علاقة عضوية كالجسد الواحد. فالمواطن الذى يحب وطنه، يجب أن يضحى بكل شىء من أجله: ماله وحياته، وأن يعمل من أجل المصلحة العامة لبلاده متحليا بالأمانة والحرص والتضامن مع إخوانه فى الوطن.

كان الطهطاوى يدعو إلى بناء مجتمع جديد من خلال إعادة ترتيب العلاقات الأسرية. وقد قاده سعيه إلى تحقيق التوازن فى العلاقة بين الزوجين، إلى أن يطرح - للمرة الأولى فى العالم الإسلامى - الدعوة إلى حقوق المرأة، فأكد المساواة بين المرأة والرجل فى الصفات الجسدية والقدرات العقلية، ووجه الاختلاف بينهما فى النوع، وإذا كان الله قد خص النساء برعاية الأسرة والأبناء وتخفيف آلام المرضى، فلا يعنى ذلك أن دور المرأة يقتصر على ذلك، وخاصة أن التاريخ الإسلامى حافل بالنساء اللاتى كان لهن مساهمات بارزة فى العلم والأدب والشريعة شأنهن فى ذلك شأن الرجال. فالزوجان متساويان فى الحقوق والواجبات، وعليهما أن يشتركا معا فى إدارة أمور الأسرة وتربية الصغار، وأن يكون الود والرحمة أساس التعامل بينهما، وليس علاقة السيد بالمسود؛ ولذلك وجب تعليم البنات لتحقيق الزواج المتجانس، وتربية الصغار تربية صالحة، وقيام النساء بالعمل فى حدود قدراتهن لإنقاذهن من براثن النميمة فى الحريم.

واقترح الطهطاوى نوعا من تقسيم العمل بين الرجال والنساء، بحيث يختص النساء بالتمريض والتعليم، إلى جانب تربية الأطفال التى تعد من أجل الأعمال، فالعمل «يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة»، ولكن ذلك لا يعنى اشتغال المرأة بالسياسة أو أن تتولى مناصب الحكم والقضاء، وأرجع الطهطاوى ذلك إلى موقف الشرع الذى يمنع الاختلاط.

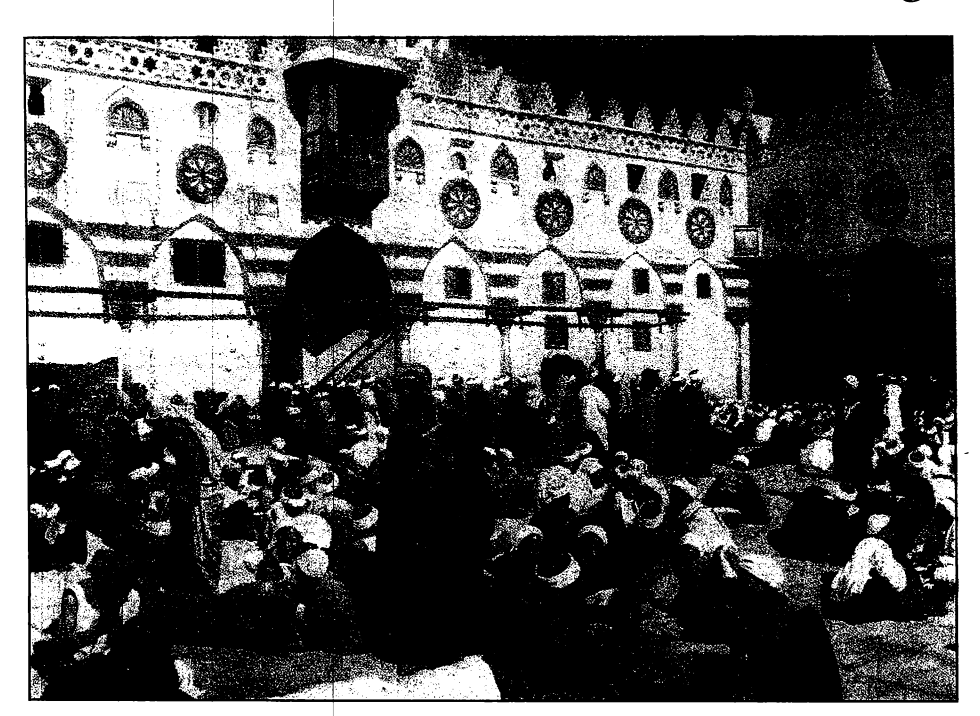
ولمس الطهطاوى - برفق - مشكلة تعدد الزوجات، فركز على ما فرضته الشريعة من شروط للتعدد جاء فى مقدمتها «العدل»، وانتهى إلى أن التعدد «غير مستحب» لأن العدل ليس له



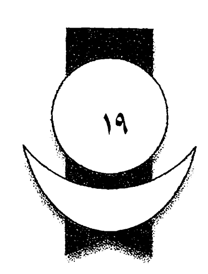
مضمون مادى فحسب، بل يتضمن جانبا عاطفيا، لـذلك يصبح تحقيق العدل بين الزوجات مستحيلا، وبذلك يفقد التعدد مبرره الشرعى، وقد طور المفكرون اللاحقون هذه النقطة، ليصلوا إلى القول بأن القيود التى وضعت لتعدد الزوجات تجعل منه أمرا مستحيلا بل ومكروها.

وذهب الطهطاوى إلى أن التقدم الحضارى لا يتحقق إلا بتحقيق التقدم فى العلوم والفنون التى يصيبها الانحطاط فى الأمم الأقل حظا من الحضارة. ولما كانت المعرفة هى السبيل للرقى الحضارى، وجب على الحكومة أن تتولى تشجيع التعليم ورعاية العلماء، وأن تضمن حرية تداول المطبوعات وتشجيع العلماء على تأليف الأعمال الهامة وإتاحتها للقراء، ورعاية العلماء ماديا.

ورأى أن التعليم ضرورى للإنسان، ضرورة الخبز والماء، ولما كان الإنسان يتمتع بميزة العقل التى جعلته يفضل جميع الحيوانات، فإن عليه أن يتعلم كيف يفكر، كما رأى أن هدف التعليم هو بناء الشخصية، وليس مجرد حشو الأذهان بالمعلومات، فيجب أن يتضمن المعرفة بالصحة البدنية، والعائلة وواجباتها، وقواعد وآداب السلوك، وفوق كل ذلك «الوطنية» التى تحرك الإنسان لبناء مجتمع متحضر، فعلى الحكومة أن تتخذ من التعليم أداة لتكوين عقلية الشباب - ذكورا وإناثا - بما يتفق مع أحوال الأمة ونظامها الاجتماعى.



طلاب العلم فى الأزهر الشريف



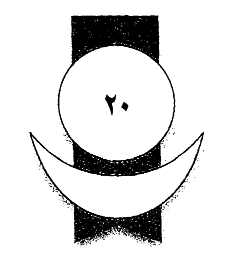
واعتبر الطهطاوى الدين من الأسس الروحية للحضارة التى يجب أن توضع فى مناهج التعليم العام، فالتعليم الدينى - عنده - يمثل حجر الزاوية فى تكوين الأخلاق وسلامة السلوك، ويتضمن منهج الدين: القرآن، والسنة، والفقه. وأكد أن الأمور التى قررها الدين لا تخضع للتفكير العقلى، لأن الدين يتولى تحديد إطار السلوك الإنسانى. ولذلك كان تدريس الدين ضروريا على طريق طلب الحضارة.

وذهب الطهطاوى إلى أن الوقت قد حان كى يتجه المسلمون إلى أوروبا طلبا للعلم دون تردد، فالاتصال بأوروبا يحفز التقدم الحضارى طالما كان الدافع له طلب العلم والمعرفة لتزويد الوطن بأسباب التقدم. ودعا إلى استيعاب كل فروع المعرفة عند الغرب ما عدا ما اتصل بالدين المسيحى والفلسفة التى تتناول أشياء تتعارض مع ما جاء بالكتب المقدسة، ورأى الطهطاوى أن المسلمين يجب أن يقتبسوا بعض المظاهر النافعة من الحضارة الغربية، على ألا يتعارض ما يقتبسونه مع القيم الخلقية والشريعة الإسلامية.

فهو هنا لا يجد مناصا من الاستفادة من الجانب المادى فى الحضارة الغربية ولكن على أساس انتقائى.

وهكذا كان رفاعة الطهطاوى رائد التجديد فى الفكر العربى فى القرن التاسع عشر، بما قدمه من أفكار جديدة التمس لها أصولا فى الثقافة الإسلامية، متخذا لها من الفكر الغربى فروعا وأغصانا. وكان له بادرة القول بتطوير المجتمع العربى - الإسلامى على أسس تحقق تقدمه على طريق الحضارة بأسلوب انتقائى يركز على الجوانب المادية وما ارتبط بها من مجالات معرفية، ويتعامل بحذر مع النظريات والأفكار.


النساء فى مصر العثمانية - كتاب وصف مصر





الفصل الثالث
تيار الجامعة الإسلامية

رأينا كيف كان الطهطاوى رائدا لتجديد الفكر العربى، بما يكفل المواءمة بين الموروث الثقافى والمكتسب من الغرب، أو - بعبارة أخرى - التمسك بما هو إيجابى فـى الثقافة الإسلامية واقتباس ما له نفع مادى من الثـقافة الغربية فى شكل «هجين» ينتج نمـوذجا ثالثا «عصريا» يحمل قـسمات مشتركة، متوافقة، تشكل نسيجا جديدا.

هذا الاتجاه كان له انعكاسه عند دعاة تجديد الفكر الإسلامى، أو إصلاح المجتمع الإسلامى مع التركـيز على احتفـاظه بهويته الإسلامـية، فى إطار من «الترابط» فى الطريق إلى «التـوحد». وترجع أصول هذا الاتجاه إلى ما درج عليه المسلمون عند مواجهـة التحديات الخارجية من الاعتقاد بأن المستهدف هو عقيدتهم، فإذا أصابتهم الهـزيمة على يد معتد أجنبى، راحوا يفتشون عن أسباب الهزيمة فى أسلوب ممارستـهم للعبادات، وفى مدى التزامـهم بأوامر الدين ونواهيه، فيرجـعون ما أصابهم إلى وهن فى الإيمـان، وزيغ عن طريق الحق، وتفريط فى العبـادات وفى التمـسك بالقيم الدينية. حدث هذا زمـن «الحروب الصليبية»، وعند مـحنة الغزو المغولى، كمـا حدث عند قدوم الحملة الفرنسية على مصر، بل وعند وقوع هزيمة ١٩٦٧م.

هذا النوع من «مـراجعـة» النفس، قـد يصل أحـيانا إلى درجـة عـالية من درجـات «جلد الذات»، وفى كل الأحوال يتم التعبير عنه بطرح أفكار شـديدة الميل إلى التشدد، تضيق بالاجتهاد الذى كان - دائما - عاملا لتنمية الفقه الإسلامى. ويرافق ذلك - عادة - نوعا من الحنين إلى أيام الإسلام الأولى: زمن الرسول الكـريم ﷺ، والخلافة الراشدة، وتأكيـد أن «صلاح» الإسلام، إنما يكون بما صلح به أوله، أى التمسك بتراث «السلف»، والعودة إلى نموذجـهم القيمى دون تغيير أو تبديل، ولذلك يطلق على هذا الاتجاه مصطلح «السلفية».

ويحظى الجانب الأخلاقى، والجانب العقدى عند السلفيين بالقدر الأوفر من الاهتمام، فهم يحاربون البدع والضلالات وخاصة ما يقوم به المتصوفة من ممارسات فى احتفالاتهم، والتوسل إلى الله بالأولياء، وما شـاع بين الناس من ارتكاب «الخطايا». ويرون أن تلك الأمور التى تندرج تحت جناح الجانب الأخلاقى تؤدى إلى ضعف العقيدة، والتورط فى «الشرك»، والمروق من الدين.

ويعد تقى الدين أحـمد بن تيـمية، فقيـه القرن الثامن الهـجرى/ الرابع عشـر الميلادى، رائد التأصـيل للفكر السلفى، وإمام السـلفيين، ويعد كـتابه: «السياسة الشـرعية فى إصلاح الراعى والرعية» دليل العـمل عندهم، بالإضافة إلى ما كتبه تلميذه شمس الدين محمد بن قيم الجوزية صاحب «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية». واستندت إلى فـكرهما دعوة محمد بن عبد الوهاب فى النصف الأول من القرن الثامن عشـر الميلادى، وفكر معاصره محمـد بن على الشوكانى، وكانت نجد قاعدة ابن عبد الوهاب، واليمن قاعدة الشـوكانى. وكذلك شهاب الدين بن محمود الآلوسى فى العراق فى النصف الأول من القرن التـاسع عشر، ويتفق هؤلاء جميـعا فى ضرورة العودة إلى ما بدأ به الإسـلام، وتنقية العقـيدة الإسلاميـة من البدع والخرافات التى جـاءت إلى الإسلام من ثقافـات أخرى، والتمسـك بعقيدة «التـوحيد». ويخـتلفون عن بعضهم البعض فى قضايا فرعية مثل: إباحة الاجتهاد أو تقييده، قبول الـتأويل أو تجنبه، وكذلك الموقف من الفـقه، والموقف من التصوف.

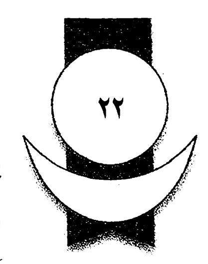


الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية

ولكن التيار السلفى ظل تيـارا أصيلا فى الفكر الإسلامى طرح بإلحـاح منذ القـرن الثامن عـشـر الميـلادى، كرد فـعل لما تعرضت له البـلاد الإسلاميـة من ضعف وتخلف، صـاحبهـما تصـاعد التـدخل الغربى في بلاد المسلمين بمختلف الصـور من الاستغلال، إلى الهيمنة، إلى الاحتلال. فقامت حركات سياسية اتخـذت من الفـكر السلفى دليـلا لهـا لـعل أبرزها مـا أسفـرت عنه دعوة مـحمـد بن عبـد الوهاب من تكوين إمارة آل سعود بنجد، والحركة السنوسية فى ليبيا وشمال أفريقيا، وحركة محمد أحمد المهدى فى السودان. وكلها حركات قامت اسـتجابة لتحديات إقليميـة ولكنها تنتمى إلى تيار إسلامى مؤثر، حظى بانتشار واسع بين السنة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى، ولا زالت أصداؤه تتردد - بصـورة أو بأخرى- فـى بعض الحركـات الإسـلاميـة المعاصرة.



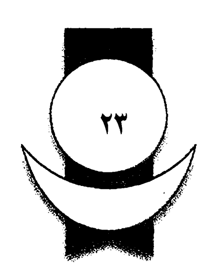
السنوسى



وإذا كنا نحرص على تسجيل ما أحرزه التيار السلفى من انتشار، فإن ذلك لا يعنى أن السلفيين ساهموا فى «تجديد» الفكر الإسلامى، لأنهم لا يقبلون به من حيث المبدأ، ولأنهم لا يرون أن هناك ما يتجاوز المفهوم النصى الحرفى لآى الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف، وما استنه الرسول الكريم ﷺ وصحابته، وأن المجتمع «المثالى» هو ما كان سائدا فى صدر الإسلام. ولكن تأثير السلفيين كان - ولا يزال - كبيرا على جماهير المسلمين نتيجة سيطرتهم على منابر المساجد، وبساطة خطابهم الدينى، ودغدغته لمشاعر المؤمنين، وتأثيره على ضمائرهم.

ولكن عبء «تجديد» الفكر الإسلامى، أو الدعوة إلى ضرورة إيجاد صيغ فكرية إسلامية جديدة لمواجهة خطر الغزو الغربى: المادى والثقافى، وإلى ضرورة البحث عن علاج للتخلف الاقتصادى والعلمى الذى يعانى منه العالم الإسلامى، والبحث عن إطار ملائم يحقق نوعا من «الترابط» أو «الاستقواء» فى مواجهة التهديد الاستعمارى، مع احتفاظ المسلمين بهويتهم الدينية والثقافية. وبعبارة أخرى، كان هَمُّ أولئك المفكرين المجددين هو البحث عن علاج ناجع لكل ما تعانيه البلاد الإسلامية من أمراض بنيوية جعلتها واهنة عاجزة فى مواجهة الزحف الغربى، حتى إذا تخلصت البلاد الإسلامية من تلك الأمراض، وقفت على أقدامها صحيحة البنية، صامدة أمام الخطر الخارجى، فعلى حين نظر «السلفيون» إلى المشكلة نظرة «عاطفية . . وجدانية»، نظر «المجددون» إليها نظرة «عقلانية» موضوعية تهتم بتشخيص المرض استنادا إلى الأسباب وليس إلى الأعراض الناجمة عنه؛ لذلك كان من الطبيعى أن يختلف «المجددون» عن «السلفيين» من حيث الثقافة والتكوين، رغم انطلاقهما من قاعدة دينية وثقافية واحدة. فقد كان «المجددون» أناسا أتيح لهم ما أتيح للطهطاوى من فرصة التعرف على واقع المجتمعات الغربية، وعوامل تفوقها المادى، بصورة أو بأخرى، واقتنعوا بإمكانية الاستفادة من الجوانب المادية فى التجربة الغربية بما لا يمس أصول العقيدة الإسلامية، وجوهر الثقافة الإسلامية. فالمجددون يمثلون «النخبة»، وما قدموه من أفكار كانت خطابا «نخبويا» موجها لأهل الرأى وصناع القرار فى الأغلب الأعم، ولكن السلفيين قدموا أفكارا تخاطب وجدان الجماهير البسيطة التى تسود الأمية بينها؛ لذلك لقيت قبولا واسعا عند تلك الجماهير، حتى أن بعض الجماعات السلفية الحديثة أعلت من شأن الأمية، وبررت ذلك بمقولة: «الإسلام دين الفطرة».

وإذا كان ابن تيمية إمام السلفيين، فقد كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩-١٨٩٦م) رائد التجديد فى الفكر الإسلامى وداعية «الجامعة الإسلامية»، ولعب تلاميذه دورا كبيرا فى حركة التجديد الإسلامى، كما تبنى بعضهم الفكرة الإسلامية التى بشر بها.



لقد أثارت شخصية الأفغانى اهتمام العديد من المؤرخين فى الشرق والغرب على السواء، فراح البعض يقيم الدليل على أصوله الفارسية الشيعية، وراح البعض الآخر يقيم الدليل على أنه كان يعمل لحساب بريطانيا تارة، وروسيا تارة ثانية، والدولة العثمانية تارة ثالثة، وهى جهات تناقضت مصالحها وتضاربت، ولا يستقيم منطق قبولها استخدام من عمل لصالح خصومها.

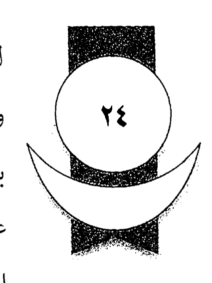


الشيخ جمال الدين الأفغانى

ومهما كان الأمر، فقد كان السيد جمال الدين الأفغانى شخصية فريدة فى عصرها يحيطها الكثير من الغموض. تنقل بين فارس وأفغانستان والهند والحجاز واستانبول ومصر ولندن وباريس وبطرسبورج، طالت إقامته فى بعضها، وقصرت فى بعضها الآخر، وغادرها - فى معظم الأحوال - مطرودا مبعدا بسبب نشاطه السياسى، ولم يحط عصا الترحال إلا فى مصر التى عاش فيها ثمانى سنوات كانت من أخصب سنى حياته، وكذلك استانبول التى قضى فيها سنوات عمره الأخيرة، ومات ودفن بها، عندما استدعاه السلطان عبد الحميد الثانى، ليستغل دعوته للجامعة الإسلامية لخدمة أغراضه السياسية، فعاش تلك السنوات (أسيرا فى قفص من ذهب) محاطا بجواسيس السلطان، ممنوعا من التحرك والسفر حتى قضى نحبه.

كان الأفغانى يجيد عدة لغات، محدثا لبقا، وخطيبا مفوها، ولكنه كان قليل الإقبال على الكتابة، فلم ينشر سوى رسالة صغيرة فى «الرد على الدهريين»، وأخرى فى الرد على محاضرة للمستشرق الفرنسى رينان عن «الإسلام والعلم» وبعض الافتتاحيات التى كتبها لمجلة «العروة الوثقى» التى أصدرها فى باريس بالاشتراك مع تلميذه محمد عبده، وقد وصلتنا معظم أفكاره من خلال ما كتبه تلاميذه من مقالات نشرت بالصحف، ويجمع من عرفوه عن قرب على إخلاصه لعقيدته وغيرته على الدين، وبساطته وتقشفه، مع حدة فى الطبع، وعناد فيما يراه الحق. وقف الجانب الأكبر من حياته للدفاع عن حياض الإسلام التى اخترقتها سهام التوسع الغربى.

وجوهر القضية عند الأفغانى هو إقناع المسلمين بأن يحسنوا فهم دينهم، وأن يتمسكوا بتعاليمه وقيمه حتى يستطيعوا مواجهة التحدى الغربى. إذ اعتقد أن الدول الأوروبية لم تكن متفوقة بالفطرة على البلاد الإسلامية، وأن الفكرة السائدة عن تفوق إنجلترا على غيرها من الأمم



ليست سوى وهم، تتجلى خطورته فى بث الجبن والخوف فى نفوس المسلمين، ويرجع تفوق الإنجليز وغيرهـم على المسلمين إلى تفرق المسلمين، وخلافهم مع بعضـهم البعض. فـإذا اجتمع المسلـمون على كلمة سـواء، واستـخلصوا من عقـيدتهم ما يقـرب بينهم (يقصـد الشيعـة والسنة)، لوقفوا فى وجـه العدوان الغربى وقفة رجل واحد، ولهابهم الأعداء.

ولكنه لم ينظر إلى وحدة المسلمين وتكاتفـهم نظرة وجدانية حماسـية، ولكنه لفت الأنظار إلى أن ما حـققته أوروبـا من انتصارات إنما تحقـق بفضل تقدم العلم فى الغـرب وتطبيقـه التطبيق الصحيح. ونبه الأذهان إلـى أن تخلص البلاد الإسلامية من الجهل والتخـلف الاقتصادى لا يمكن أن يتحقق بمجرد التقـليد، ومحاكاة ما فعله الأوروبيون. لأن التجـربة الأوروبية جاءت ثمرة لنظام اجتـماعى له إطاره الفكرى وقيـمه، وضوابطه القانونـية، فلا يمكن للمسلـمين أن يحققوا التـقدم العلمى والنهـوض الاقتـصادى إلا بإصـلاح المجتـمع، وتخليـصه من الفـساد، وهذا الإصـلاح الاجتـماعى لا يتحـقق - فى رأيه - إلا بتحقـيق الرفاهية الاجـتماعـية عن طريق توفيـر العدالة الاجتماعيـة بمفهومها الإسلامى، وتنمية مواهب الفرد ووعـيه وفكره من خلال نظام تعليم سوى، ورأى أن ذلك ما كانت عليه الأمة الإسلامية فى أوج مجـدها، وما حققه المسلمون من انتصارات عسكرية فى الماضى كان رمزا لازدهار المدنية الإسلامـية، وأن ما تحقق فى الماضى يمكن أن يتحقق فى الحاضر على ركيزتين: قطف ثمار علوم الغرب، وإعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية.

وهكذا، غلبت دعوة المسلمين إلى الوحـدة على كتابات الأفغانى، فـهو يدعو المسلمين إلى تجاوز الخلافات العقيدية، والخصومات التـقليدية، والاختلافات الطائفية، وأن يتحدوا لصد الخطر المشترك الذى يهددهم، والدفاع عن بلادهم وثقافـتهم. ورأى الأفغانى أن إدراك الخطر كفيل بإزالة أعمق الخلافات بين السنة والشيعة، وفكر فى آخر أيامه فى تحقيق التقارب بين الفريقين وصولا إلى نوع من المصالحة تمثل حجر الزاوية فى «الوحدة الإسلامية».

وحذر الأفغانى من أن تحول الخلافات السياسـية ومصالح الحكام دون تحقيق الوحدة، فعلى الحكام أن يغلبوا مصلـحة الأمة الإسلامية علـى مصالحهم الخاصة، ودعـا الناس إلى التخلص من حكامهم الذين يقفـون حجر عثرة فى طريق الوحدة الإسلامـية، ولم تكن تلك الوحدة - عنده - اندماجية تضم البلاد الإسلامية فى دولة واحدة مركزية، ولكنه تصور أن تتخذ الوحدة طابعا روحيا يتمثل فى الخضوع لخليفة واحد، على أن تكون لكل دولة إسـلامية مطلق اليد فى شئونها الداخلية مع الالتزام بنسق موحـد للسلطة يسمح بصياغة سـياسة خارجية وتنمـوية واحدة، ورأى أن الأمر

يتطلب أن يكون الحاكم قويا، عادلا، واعيا بخطورة الموقف، تتوفر لديه همة عالية. فهو يحبذ الحكم المطلق، ولا يقبل تقييد سلطة الحاكم إلا بالشريعة ومشورة «الحكماء».

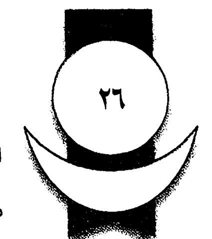
والوحدة الإسلامية - عنده - لا تعنى وحدة الحكام أو تضامنهم، ولكنها تعنى وحدة الأمة وتضامنها، وشعور أبناء الأمة بمسئوليتهم تجاه بعضهم البعض، والعمل معا لخير بلادهم، ورأى الأفغانى أن الرابطة الدينية لا تتعارض مع الروابط القومية القائمة بين أقوام يعتنقون أديانا مختلفة، بل دعا إلى نوع من التضامن الطبيعى الذى يربط بين جميع شعوب الشرق التى يتهددها التوسع الأوروبى، متعديا بذلك حدود الأمة الإسلامية، معبرا عن وعى عبقرى بضرورة قيام حركة موحدة لشعوب الشرق فى مواجهة الاستعمار.

ودعا الأفغانى إلى تحرير الفكر الدينى من قيود التقليد، وفتح باب الاجتهاد لإبداع فقه جديد يستجيب لحاجات العصر، ونادى بضرورة التدقيق فى النصوص الدينية واستخلاص الصحيح منها بالاعتماد على القرآن والسنة وما أجمع عليه المسلمون فى صدر الإسلام، أما آراء الفقهاء والمدارس الفقهية المختلفة فيتم الاستئناس بها، ولا تعد ملزمة للأمة الإسلامية لأنها اجتهادات صدرت عن الفقهاء استجابة لظروف المجتمع فى عصر معين يختلف عن ذلك العصر. ورأى الأفغانى أن القرآن لا يناقض حقائق العلم، فإذا ظهر خلاف بينهما فمرده إلى عجز وقصور فى تفسير الآيات القرآنية. وذهب إلى ضرورة اطلاع العلماء المسلمين على التيارات الفكرية الحديثة وقبول ما لا يتعارض منها مع الشريعة الإسلامية، ويفيد المسلمين فى حياتهم، ورفض ما عدا ذلك بالحجج العقلية والبراهين المنطقية.

والتف حول الأفغانى أثناء وجوده فى مصر مجموعة من الشباب من بينهم الطالبان الأزهريان محمد عبده وسعد زغلول والصحفى القبطى ميخائيل عبدالسيد، والكاتب والمسرحى والصحفى اليهودى يعقوب صنوع، والأزهرى السورى عبد القادر المغربى، والكاتب والصحفى السورى أديب إسحاق وغيرهم ممن اجتذبتهم مجالسه، وعبروا عن أفكاره فى مقالات جرت بها أقلامهم فى الصحف المصرية والشامية، ولعبوا أدوارا متفاوتة الأهمية، متنوعة التوجه فى الحياة السياسية والثقافية فى مصر والمشرق العربى. وكان هذا شأن الأفغانى أينما حل يجتذب الشباب المشغول بهموم أمته حوله.

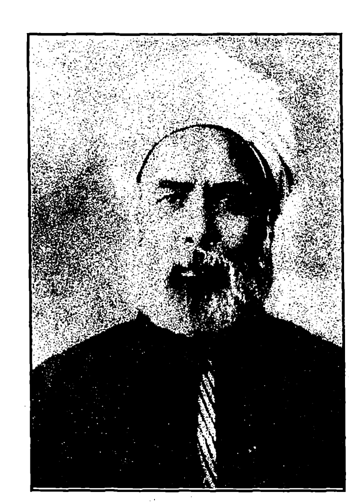


الزعيم سعد زغلول



ونظرة إلى هذا التنوع فى الأوطان والمعتقدات الدينية بين تلاميذه تكشف لنا عن جانب آخر فى فكر الأفغانى أو قل - إن شئت - فى تصوره للنهضة الإسلامية. فرغم تمسكه الشديد بالعقيدة الإسلامية واعتبارها حجر الزاوية فى مشروعه السياسى؛ إلا أن هذا التنوع فى تكوين ومعتقدات تلاميذه يوحى بأنه نظر إلى الإسلام كحضارة وثقافة يشترك فيها كل من ينتمى إلى بلاد الإسلام بغض النظر عن ديانته. ورغم أنه رأى أن التعصب للدين الإسلامى يعد دافعا للتقدم، أبدى نفوره من التعصب الأعمى للدين، ورأى أن الثقافة الإسلامية تحدد هوية أبناء الأمة من المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

ويعد الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) أبرز تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى، وتعاون معه فى إصدار مجلة «العروة الوثقى» بباريس، بل حمل عبء تحرير القسط الأكبر منها، كان محمد عبده منفيا لمدة ثلاث سنوات جزاء تعاونه مع رجال الثورة العرابية، فذهب إلى بيروت، ثم التحق بالأفغانى فى باريس وشاركه نشاطه، وبعد توقف إصدار «العروة الوثقى» ذهب إلى تونس ثم عاد إلى بيروت حيث اشتغل بالتدريس هناك. وفى عام ١٨٨٨م حصل على عفو من الخديو فعاد إلى مصر، وعين قاضيا بالمحاكم الأهلية ثم أصبح مفتيا عام ١٨٩٩م، وكان العفو، وتولى هذه المناصب بتدخل أطراف عدة منها الأميرة نازلى فاضل عند اللورد كرومر المعتمد البريطانى، ومن ثم كانت هذه العودة وما صاحبها من توثيق علاقته بسلطات الاحتلال البريطانى معلما لتحول فى فكره نأى به عن أسلوب العمل السياسى الذى مارسه أستاذه الأفغانى.



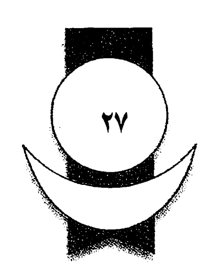
الشيخ محمد عبده



أحمد عرابى سنة١٨٨٢
زعيم الثورة العرابية



اللورد كرومر

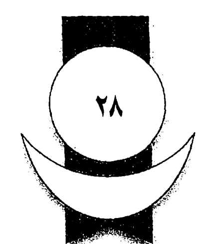


لم يكتف محمد عبده بما حصله من تعليم فى الأزهر، فتعلم اللغة الفرنسية، فكانت النافذة التى أطل منها على الفكر الأوروبى على نطاق واسع، وكان على اتصال ببعض المفكرين الأوروبيين مثل تولستوى وسبنسر، وكان يتردد على أوروبا من حين لآخر ليمعن النظر فى أحوالها، والتفكير فى إصلاح شأن العالم الإسلامى.

شغل فقهاء المسلمين منذ ابن تيمية بالفارق الكبير بين المجتمع الإسلامى كما جاء فى المأثور عن النبى ﷺ وصحابته، وما آلت إليه أحواله فى زمانهم، وعاد السؤال يُطرح بإلحاح على يد المفكرين من دعاة تجديد الفكر الإسلامى: كيف يتم التوفيق بين ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع الإسلامى، وبين ما بات عليه واقعه الآن؟ وإلى أى مدى يمكن القول أن المجتمع الإسلامى لا زال إسلاميا حقا؟

كان محمد عبده مدركا لأهمية الإصلاحات القانونية التى شهدها عصر إسماعيل، وتلك التى تمت فى عهد الاحتلال البريطانى، ويرى فيها مصلحة لمصر، ولكن أقلقته تلك الازدواجية فى النظام القانونى، فبقى القضاء الشرعى على حاله دون إصلاح، وقام إلى جانبه نظام قانونى دنيوى، يسير كل منهما عكس اتجاه الآخر. وخشى محمد عبده أن يترتب على ذلك نمو النزعة إلى توطيد العلمانية فى مجتمع يتعارض جوهريا مع تلك النزعة، مما قد يؤدى إلى الانقسام والازدواجية فى كل ناحية من نواحى الحياة، فهناك إلى جانب الأزهر والمدارس الدينية، المدارس الحكومية التى تقدم تعليما حديثا، ومدارس الإرساليات الأجنبية التى تقدم تعليما أجنبيا خالصا. وخشى محمد عبده أن يؤدى ذلك إلى إيجاد طبقتين من المثقفين لكل منها عقليته الخاصة: العقلية الإسلامية التقليدية التى لا تقبل بالتغيير، وعقلية المثقفين ثقافة غربية الذين لا تربطهم بثقافتهم التقليدية روابط متينة مما ينعكس سلبيا على القيم الخلقية للمجتمع، ويحدث نوعا من الاغتراب عند أصحاب الثقافة الحديثة يجعلهم يكتفون بتقليد المظاهر الخارجية للحضارة الغربية دون الوقوف على جوهرها، فى الوقت الذى يعزفون فيه عن تعميق ثقافتهم الوطنية.

ذهب محمد عبده إلى ضرورة سد هذه الثغرة القائمة فى المجتمع الإسلامى بالاعتراف بالحاجة إلى التغيير، وربط ذلك التغيير بمبادئ الإسلام، لأن التغيير - فى حد ذاته - من متطلبات فهم الإسلام على حقيقته. فالإسلام يقدم الأساس الصالح للتغيير والرقابة السليمة عليه، ولم يكن محمد عبده يضع الأخذ بالمؤسسات والأفكار الغربية والأفكار فى المجتمع الإسلامى موضع تساؤل، ولكن كان شغله الشاغل أن لا يتزعزع إيمان المسلم الذى يعيش فى العالم الحديث، وكان



أشد ما يقلقه أدعياء الثقافة الحديثة الذين يشككون فى صلاحية الدين كأساس للحياة، واعتبرهم يمثلون الخطر الأكبر على الأمة.

ورأى محمد عبده أن الإسلام صالح تماما لتقديم الأساس الخلقى لمجتمع حديث عصرى، فالإسلام يردع المؤمن عن ارتكاب ما يتعارض مع قيمه وتعاليمه، وهذا الردع يجعل المسلمين قادرين على التمييز بين الصالح والطالح فى مختلف نواحى التغيير والابتكار التى تقع فى المجتمع؛ لذلك دعا إلى تنقية الإسلام من البدع والضلالات التى أصابته فى عصور الانحطاط، والعودة به إلى «نقائه الأول» أيام السلف الصالح قبل ظهور الخلافات (أى أيام الرسول ﷺ والراشدين)، واعتبار الدين من ضمن «موازين العقل البشرى» التى وضعها الله لضبطه وتقويمه حفاظا على البشرية.

كما دعا إلى التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، ورد الحاكم عن خطئه بنصح الأمة له «بالقول والفعل».

ورأى محمد عبده أن الإسلام «دين الفطرة» الذى يحتل مركز الوسط بين انسجامه التام مع متطلبات العقل البشرى واكتشافات العلم الحديث، والإيمان بالله تعالى. ففى الإسلام جواب على قضايا العالم الحديث، ويستطيع أن يقدم للأوروبيين ما يقيهم فتن المدنية الحديثة ومفاسدها السياسية. وكان مفتاح دفاعه عن الإسلام، فهمه الخاص للدين الحق، وهو فهم يميز بين ما هو جوهرى لا يقبل التغيير، وبين ما هو غير ذلك ويمكن تغييره دون حرج. فالإسلام عنده عقيدة بسيطة تتضمن المعتقدات الخاصة بأخطر أمور الحياة، وبعض القيم الخاصة بالسلوك البشرى، ورأى أن العقل والكتاب العزيز ضروريان لاكتشاف هذه المعتقدات، ولتجسيدها فى أمور الحياة. فالمسلم الحقيقى هو الذى يستعمل عقله فى شئون الدنيا والدين، فالإسلام لم يدْعُ أبدا إلى تعطيل عمل العقل، بل يحض - دائما - على التفكير والتدبير وطلب العلم.

ورأى محمد عبده أن المسلمين اليوم مطالبون بأن يقوموا بإعادة تأويل الشريعة وتكييفها وفقا لمتطلبات الحياة الحديثة، ولتحقيق ذلك لابد من الأخذ بمبدأ «المصلحة» قاعدة لاستنباط فقه خاص بالسلوك الاجتماعى، وكذلك مبدأ «المواءمة» الذى يتيح للقاضى أن يختار الرأى الشرعى المناسب للحالة التى ينظرها، من بين مختلف المذاهب، ولعل ذلك كان وراء سعى محمد عبده عندما أصبح مفتيا لمشروع المقارنة العلمية بين المذاهب السنية الأربعة بهدف التوصل إلى صيغة فقهية موحدة، وهو اتجاه نال اهتماما من الدولة منذ مطلع العشرينيات من القرن العشرين، تبلور فى قانون المحاكم الشرعية وتعديلاته التى أخذت بمبدأ الاستفادة من فقه المذاهب الأربعة.

وفيما يتعلق بالرؤية السياسية لمحمد عبده، نجده يتفق مع أستاذه الأفغانى فى أن الأمة الإسلامية تعانى من التخلف (الانحطاط)، وأن الأمر يقتضى إصلاحها من الداخل، وأن تبنى المؤسسات الغربية وحده لن يحقق الإصلاح المنشود، فالأمر يتطلب إعادة تفسير الشريعة، يحتاج إلى اجتهاد يبدع فقها جديدا. ومن الضرورى بعث الخلافة الصحيحة ذات السلطة الروحية التى يتولاها خليفة يلعب دور «المجتهد الأكبر»، لأن وحدة الأمة - فى تصوره - وحدة معنوية لا تتعارض مع انقسام البلاد الإسلامية إلى دول قومية، ولأن أقوى وحدة هى تلك التى تجمع بين من ينتمون إلى وطن واحد، وأن انتساب غير المسلمين إلى الأمة، لا يقل أصالة عن انتساب المسلمين أنفسهم إليها، وهنا نلمح أثر النظرة إلى الإسلام كحضارة وثقافة التى وجدناها عند أستاذه الأفغانى، والتى تعززها هنا - عند محمد عبده - حالة مصر على وجه الخصوص، فقد كان يرى أن «للأمة المصرية» كيانا مستقلا، ولكنها شاركت الأمة الإسلامية انحطاطها؛ ولذلك لا أمل لها فى حكم نفسها بنفسها (الاستقلال) قبل أن تصلح حالها.

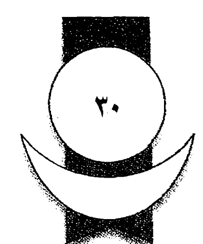
ورأى أن المتطلب الأساسى فى الحاكم أن يكون عادلا، يحكم وفقا للشريعة الإسلامية، ومشورة أعيان البلاد، ورأى أن مصر لم تتهيأ بعد للحكم الدستورى لأن المصريين فى حاجة للتمرس - تدريجيا - على أصول الحكم، وأن ذلك يتم من خلال مجالس محلية واستشارية قبل الوصول إلى الدستور والمجلس النيابى، ولعل ذلك يفسر موقفه المعارض لدعوة مصطفى كامل إلى إنهاء الوجود البريطانى فى مصر.

وجاء الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) ليمثل الحلقة الثالثة فى تيار التجديد الإسلامى الذى يدعو إلى الوحدة الإسلامية، أو «الجامعة الإسلامية»، الذى يجمع بين تجديد الفكر الإسلامى، وتصور لمشروع سياسى للنهوض بالأمة الإسلامية.



الزعيم مصطفى كامل بملابسه الرسمية

سنة١٩٠٨



ومحمد رشيد رضا يعد تلميذا لمحمد عبده، وهو من أبناء طرابلس الشام، التقى بمحمد عبده هناك عام ١٨٩٤م، وجاء إلى مصر عام ١٨٩٧م ليصدر فى العام التالى مجلة «المنار» التى ورثت «العروة الوثقى» فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وأثرت فى جيل جديد من الشباب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى. وقد حدد محمد رشيد رضا رسالة «المنار» فى افتتاحية العدد الأول بما لا يخرج عن إطار الفكر الإصلاحى لأستاذه محمد عبده، وهى: الإصلاح الإسلامى بإصلاح التربية والتعليم، وبيان تقصير علماء المسلمين فيما يجب عليهم من الإصلاح، ومقاومة البدع والمنكرات.



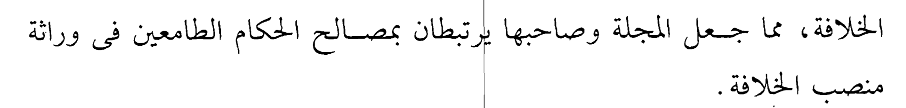
الشيخ محمد رشيد رضا

ويبدو تأثره بمحمد عبده فيما طرحه من أفكار تتصل بالتجديد والإصلاح الدينى: كالدعوة إلى استقلال الفكر، وحرية العقل، وتجنب تقليد العلماء السابقين، وإبطال التقاليد والعادات التى أفسدت العقائد والأخلاق والأعمال، وارتبطت بالبدع والخرافات، وتجنب كل ما يخالف القرآن والسنة من قيم وسلوكيات اجتماعية، والدعوة إلى الاجتهاد، وحفظ المصالح، ودرء المفاسد، ومراعاة العرف، وإصلاح نظام التربية والتعليم والدعوة إلى الإقبال على التخصص فى العلوم والفنون التى تحتاجها الأمة فى النهوض باقتصادها، وطالب بالاهتمام بالوعظ فى بلاد الإسلام، وإعداد الدعاة لنشره خارج ديار الإسلام.

وجملة القول أن محمد رشيد رضا كان داعية لفكر أستاذه محمد عبده، ولكنه نحا بمجلة «المنار» نحوا جعلها أقرب ما تكون إلى السلفية ودعاتها، وبقى من فكرة الجامعة الإسلامية على صفحاتها الحملة التى شنتها المجلة ضد قرار أتاتورك إلغاء الخلافة فى تركيا، وتبنى الدعوة إلى إحياء



مصطفى كمال أتاتورك أول رئيس تركى أسقط الخلافة



الخلافة، مما جعل المجلة وصاحبها يرتبطان بمصالح الحكام الطامعين فى وراثة منصب الخلافة.

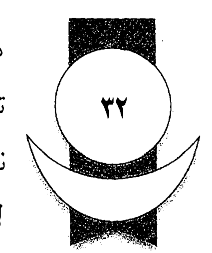
ولم يكن ذلك وحده ما أصاب فكر محمد عبده على يد تلميذ من تلاميذه ممن حرصوا على الدفاع عن الإسلام أكثر من حرصهم على توضيح جوهره على نحو ما فعل أستاذهم. من هؤلاء محمد فريد وجدى الذى ذهب فى كتابه «المدنية والإسلام» أن الإسلام ينطوى - ضمنا - على كل ما تم التوصل إليه عن طريق العلم الحديث، وهو تحوير لفكرة محمد عبده القائلة بأن المدنية الحقيقية مطابقة للإسلام، أى أن ما تعارض منها مع الإسلام كان زائفا، فجاء محمد فريد وجدى ليؤكد أن كل ما جاءت به المدنية الحديثة موجود فى الإسلام، وبذلك «يذوب» الإسلام فى كتابات وجدى ومن ساروا على دربه، يذوب فى الفكر الأوروبى ويفقد هويته التى حرص عليها محمد عبده.



قاسم أمين

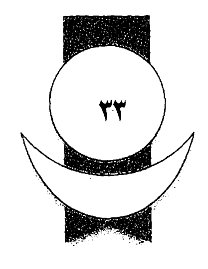
ومن بين تلاميذ محمد عبده الذين تأثروا بفكره، ودفعوا الجانب الاجتماعى من فكرة الإصلاح عنده خطوة إلى الأمام: قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨م) الذى نشر عام ١٨٩٩ كتابه «تحرير المرأة»، انطلق فيه من فكرة انحطاط الإسلام الذى رآه نتيجة لتدهور القوة الاجتماعية وليس سببا لها، ويعود إلى اختلال العلاقة بين الرجل والمرأة، والأم والولد؛ ولذلك وجب تعليم النساء حتى تتم تربية النشء تربية سوية وأن تتاح للمرأة الحرية والمكانة اللازمة لتلعب دورها فى المجتمع وهو «إصلاح» أخلاق الأمة. فالشريعة الإسلامية ساوت بين المرأة والرجل فيما عدا تعدد الزوجات والميراث. ولا يجب أن تقتصر تربية البنات على العناية بتدبير المنزل، بل تتولى إعداد المرأة لكسب الرزق مما يتطلب القضاء على الحجاب والخدر.

أثار كتاب قاسم أمين عاصفة احتجاج وصدرت سلسلة من الكتب والمقالات كانت المعارضة فيها أكثر حظا من التأييد، فرد قاسم أمين على معارضيه بكتاب آخر هو «المرأة الجديدة»



ذهب فيه إلـى أن حرية المرأة أساس كل الحريات، وتقـدم معيارا لها، فـعندما تكون المرأة حرة يصبح المواطن حرا، وأن الحجج المستخدمة ضد جزية المرأة هى نفس الحجج المضادة لكل الحريات. وجاء الكتاب الأخير ليؤكد أن الدين وحده لا يخلق دولة ومجـتمعا ومـدنية لأن ذلك يتطلب توافر عوامل عـدة من بينها الدين. وبذلك قطع قـاسم أمين الصلة التى أقامـها محـمد عبـده بين الإسلام والمدنية، مع احتـرامه الكامل للإسلام (الذى جعله يرد على افتراءات الدوق داركـور بكتاب نشره بالفرنسيـة)، فقد أعطى قاسم أمين للمـدنية الحق فى أن تبنى قواعدها الخـاصة بها وتتخـير آليات عملها. وهذا يعنى أن المدنية يجب أن تقاس على أساس هذه القواعد، فهناك فرق بين التسليم بأن الإسلام دين الحق، والقول بأن المدنية الإسلاميـة هى المدنية الأفضل، طالما كان واقع الحال يكشف عن تخلف العالم الإسلامى فى ذلك العصر.

وبذلك اقترب قاسم أمين - قـليلا - من التيار العلمانى، وإن اختلف مـعه تماما فى تقدير دور الدين فى بناء المجتمع وإرساء دعائم قيمه الخلقية.



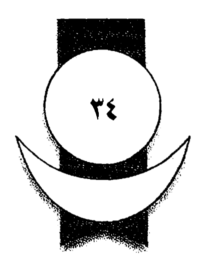


الفصل الرابع
التيار العلمانى

كان لجهود التجديد فى الفكر الإسلامى التى قام بها محمد عبده وتلاميذه، التى هدفت إلى محاولة صياغة المبادئ التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى صياغة جديدة على ضوء ما يمكن اقتباسه من الأفكار الغربية التى لا تتعارض مع جوهر الإسلام، كان لتلك الجهود أثرها فى ظهور فكرة إمكانية إقامة مجتمع «قومى» علمانى، يحتفظ فيه بالإسلام كعقيدة ورابطة اجتماعية، ولكن دون أن يكون الدين مصدرا للتشريع أو للنظام السياسى، وفى اتجاه مواز لجهود تلاميذ محمد عبده، كان هناك فريق من الكتاب المسيحيين الشوام، تطورت على أيديهم هذه الفكرة، فكان لهم دور بارز فى تحديد مجرى التيار العلمانى.

وجدير بالملاحظة اختلاف طرح الكتاب المسيحيين العرب للفكرة العلمانية عن فهم إخوانهم المسلمين لها، وكان لهذا الطرح أثره فى النظرة السلبية الشائعة بين الناس إلى العلمانية باعتبارها نقيضا للدين ورفضا له، ومرادفا للإلحاد، وخاصة أنهم هم الذين صكوا مصطلح «العلمانية» (بفتح العين) العربى ترجمة للكلمة الفرنسية Laîc والإنجليزية Secular بمعنى غير كنسى أو دنيوى. فقد كانت الكنيسة تفرض سلطانها على الأفكار، وتقف سدا منيعا فى وجه التفكير العلمى؛ ولذلك كان لابد من التخلص من سلطة الكنيسة فى المرحلة التى شهدت النهضة الأوروبية المصاحبة لتطور الرأسمالية التجارية والتكوين القومى لبلاد أوروبا، فكانت الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة، أى بين الكنيسة والسلطة السياسية، حجر الزاوية فى الفكر الدنيوى الذى يغلب النزعة العقلية على غيرها. ومن الطبيعى أن يعبر الرواد المسيحيون العرب عن هذه الفكرة على ضوء معاناتهم من السلطة الكنسية، فمالوا إلى القول بتناقض الدين للعلم، وفصل الدين عن السياسة.

وكان الأمر مختلفا عند إخوانهم المسلمين من تلاميذ محمد عبده لأن الإسلام لم يعرف السلطة اللاهوتية الكنسية، فالمؤمن يؤدى فروض العبادة دون حاجة إلى «رجل دين» يقيم له طقوس العبادة. ولم يكن الفقهاء الذين أثروا الشريعة الإسلامية باجتهاداتهم، يلبسون مسوح رجال الدين، أو يتولون مناصب دينية، لأنه لم تكن هناك «هيئة دينية» ذات نظام تراتبى إلا فى العهد العثمانى. وكان الفقهاء يتكسبون من الاشتغال بالتعليم أو القضاء، أو الأعمال الحرفية والتجارية.



وحتى عندما أصبحت هناك «هيئة دينية» رسمية، لم يكن لها من السطوة والنفوذ ما كان للكنيسة فى أوروبا، فما يقدمه عضو الهيئة الدينية المسلم من فتوى ينتهى دائما بعبارة «والله أعلم» لتعنى أن ما يقدمه من (رأى) ليس بالضرورة حكما إلهيا واجب الاتباع. هذا فضلا عما يتضمنه القرآن من حض على إعمال الفكر، والتدبر، والعلم، والتحديد الصريح لمسئولية الفرد عن عمله أمام الله سبحانه وتعالى وحده.

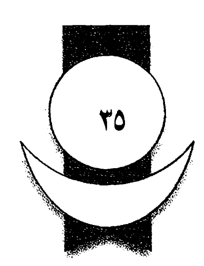
لذلك كان اتجاه محمد عبده وتلاميذ إلى إصلاح المجتمع من خلال تجديد الفكر الإسلامى بالاجتهاد، واقتباس ما ينفع المجتمع من أفكار الغرب، والجمع بين «الدينى» و«الدنيوى»، يستند إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولا يرى تعارضا فى ذلك، فالإسلام يبيح الاجتهاد فى شئون الدنيا (أنتم أعلم بشئون دنياكم)، ويقبل تقنين العرف طالما حقق «المصلحة» للناس، ولم يتعارض مع نص دينى صريح. فلا عجب أن نجد تيار الإصلاح الإسلامى الذى دعا إليه محمد عبده وتلاميذه قبل بما روج له دعاة «العلمانية» من إخوانهم الكتاب المسيحيين العرب ولكنهم اختلفوا معهم فى دعواهم إلى تنحية الدين جانبا باعتباره «مسألة شخصية»، وكذلك فى دعواهم إلى رفض الدين كمعوق للعلم، منافٍ له.

ومن الغريب أن التيار «السلفى» الإسلامى رأى «العلمانية» بعيون أولئك الكتاب المسيحيين العرب، ومن سار على دربهم، فعدوا القول بها «كفرا بيِّنا»، وأن لا معنى لها سوى الإلحاد، والتزموا بظاهر النص الدينى بما يشبه التزام «الكنيسة» بالنص الدينى الذى جعل من تصفية نفوذها نقطة انطلاق على طريق النهضة.

ويرتبط رواج الدعوة للتيار العلمانى بالمجلات التى صدرت فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وعرضت على صفحاتها الأفكار الأوروبية السياسية والاجتماعية والعلمية بأسلوب ضمنى حينا، وأسلوب صريح حينا آخر. من تلك المجلات «الجنان» التى أصدرها بطرس البستانى وابنه سليم فى بيروت، وصدرت فى المدة (١٨٧٠-١٨٨٦م)، و«المقتطف» التى أصدرها يعقوب صروف وفارس نمر ببيروت أيضا عام ١٨٧٦م ثم انتقلت إلى القاهرة حيث استمرت فى الصدور حتى العقد الرابع من القرن العشرين، وأخيرا مجلة «الهلال» التى أصدرها جرجى زيدان بالقاهرة عام ١٨٩٢م، ولا زالت تصدر حتى اليوم.

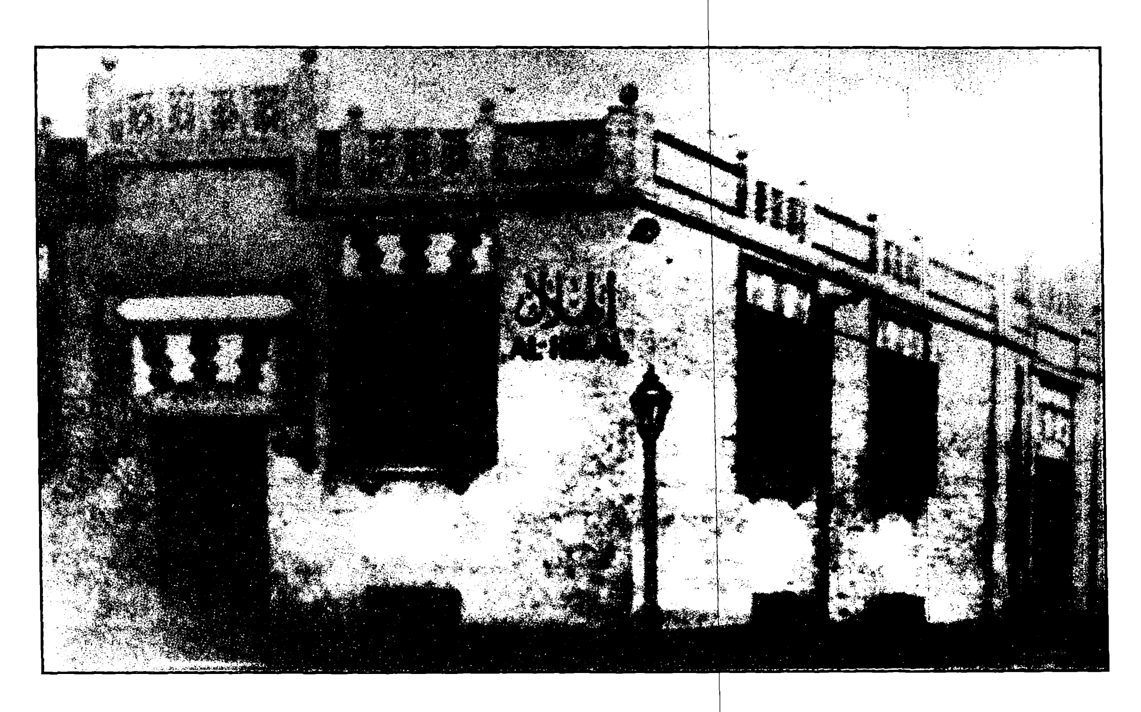


جورجى زيدان سنة ١٨٩٢

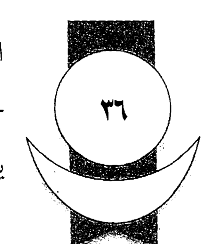


وقد نأت تلك المجلات بنفسها عن الخـوض فى أمور السياسة المحلية أو الدين حتى لا تثير ضدها المعارضة، ولكن الموضوعات التى نشرتها دارت حول «المدنية» بـاعتبـارها الخيـر ذاته، وأن الأخذ بهـا وتنميتـها فـيه صـلاح الأمور وتهذيب السلوك، وأن العلم أساس المدنية ويمكن للعرب أن ينقلوه إلى ثقافتهم العربية؛ لأن الاكتـشافات العلمية الحديثة هى سر قـوة المجتمع الذى يقوم على قاعدة المصلحة «الوطنية».

وبرز من بين ذلك النفر من الكتاب شبلى شُميِّل (١٨٥٠-١٩١٧م)، وكان ينتمى إلى عائلة لبنانية اسـتقرت بمصـر على عهد الخديو إسـماعيل، درس الطب بالكليـة البروتسـتـانتية (الجامـعة الأمريكية الآن) ببيروت، ثم استكمل دراسة الطب بفرنسا، ومارس مهنته فى مصر، ولكنه لم ينل شهرته كطبيب، وإنما كمبـشر بنظرية دارون فى النشوء والارتقاء، فكان أول من طرح هذه النظرية وما أحدثته من ثورة فى التـفكير البيولوچى على القراء العرب، وقدم ترجمـة عربية لشرح بوخنر لأفكار دارون. فكان يعـتبـر «العلم» أساس كل شىء، وهو جـدير بالتقـديس لأنه «الدين» الذى يجب الإيمان به، ووجه بهذا الصدد نقدا مُرّا للكنيسـة وهيمنتها على المجتمع، وطالب بحق الفرد فى اختيار طـريقه والتعبير عن ذاته، وعـد الحكم القائم على الدين حكما زائفا فاسـدا، يستخدم



مبنى دار الهلال فى شارع الأمير قدادار قرب ميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن) الهلال سنة ١٨٩٢

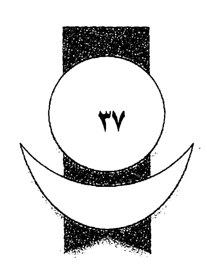


السلطة لمنع نمو العقل البشرى نموا صحيحا، ويرسى قواعد الاستبداد وإنكار حقوق الأفراد الذين يجب أن يعيشوا «وفقا للطبيعة» وقوانينها، لأن التطور يتحقق بالصراع من أجل البقاء، والبقاء لا يكون إلا للأصلح.

والمجتمع الأصلح - عنده - هو المجتمع الذى تعمل جميع خلاياه من أجل خير الجميع، والقوانين والنظم الاجتماعية والسياسية تقام لخدمة الصالح العام وتتغير بتغير واقعه، فلا تتصف بالثبات لأن الثبات يعنى الجمود والفناء. ولا يمكن الاتفاق على ما يعنيه «الصالح العام» إلا إذا توفرت الحرية، وخاصة حرية الفكر. ويتطلب ذلك - فى رأيه- فصل الدين (باعتباره عنصر تفرقة) عن الحياة السياسية، فالأمم تقوى بمقدار ضعف سلطان الدين فيها، والتعصب القومى الأعمى - عنده - لا يقل شرا من التعصب الدينى الأعمى؛ لذلك لابد أن تحل «الوطنية العالمية» محل الولاء لوطن محدد، فالتقدم الاجتماعى يواكب التقدم العلمى، وسوف يتطور مفهوم «الوطن» يوما ما ليشمل العالم كله.

وكان شبلى شميِّل - أيضا - أول من قدم الفكرة الاشتراكية فى العالم العربى للقراء، وإن كان قد سماها «الاجتماعية»، وفى طرحه للفكرة لم يهتم بمبدأ الملكية العامة لوسائل الإنتاج، بل كان يعبر عن اعتقاده بالتزام الحكومة العمل على تحقيق التقدم الاجتماعى وإرساء أسس التعاون فى سبيل الصالح العام للمجتمع، فعلى الحكومة أن تتيح العمل للقادرين، وتضمن لهم الأجور العادلة، وتوفر لهم الخدمات الصحية، وأن تقيم جامعة عصرية تدرس العلوم، ومدارس فنية، ومدارس ابتدائية فى كل قرية وحى، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه والطاقة، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الصحف لتنوير الرأى العام. وكلها إصلاحات يمكن أن تتحقق فى ظل مجتمع رأسمالى ليبرالى.

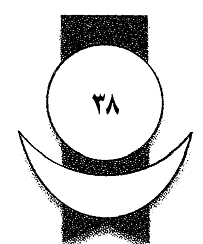
لم يكن المجتمع فى مصر أو غيرها من البلاد العربية قد عرف التطور الرأسمالى على نحو ما عرفته أوروبا، ولم تكن الأرض بعد خصبة لتلقى المبادئ الاشتراكية، ولكن طرح شميل لها ساعد على توعية القراء فى البلاد العربية بما يجب أن تكون عليه الحكومة العصرية، فكان لهذا الطرح أثره فى الدعوة إلى الحكم الدستورى فى مصر وبلاد الدولة العثمانية. فقد كان شميل من أنصار جماعة «تركيا الفتاة»، معارضا لاستبداد السلطان عبد الحميد الثانى. وقد وصف أنصار «تركيا الفتاة» بأنهم من أنصار التقدم الاجتماعى، والحرية، والوحدة الاجتماعية التى تتجاوز حدود الفوارق الدينية، وعدهم «طلائع» لحركة البشرية تجاه المجتمع العالمى.



كتب شميل هذا الكلام عام ١٨٩٨م، قبل أن يصل رجال تركيا الفتاة إلى الحكم بعشر سنوات، وعندما نجح انقلابهم كشفوا عن تعصبهم للقومية التركية، وعصفوا بالقوميات الأخرى التى انضوت تحت لواء الدولة العثمانية (على نحو ما سنرى فى الفصل التالى)، مما يكشف عن النظرة «المثالية» التى اتسمت بها رؤية شميل لهم.

وإذا كان شبلى شميل قد فصم عرى العلاقة بين الدين والعلم فى إطار طرحه للأفكار التى استلهمها من الغرب، فقد ارتبط اسم معاصره (اللبنانى أيضا) فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢م) الذى نزل مصر عام ١٨٩٧م، وأصدر بها مجلة «الجامعة» وانتقل إلى المهجر، وإن ظل يتنقل بين القاهرة ونيويورك وأصدر هناك عددا من المجلات العربية. واستفزت كتاباته محمد عبده بسبب حملته على الدين، واعتباره نقيضا للعلم. فدار بين الرجلين حوار حول دراسة فرح أنطون التى نشرها عن حياة ابن رشد وفلسفته متبعا منهج المستشرق الفرنسى رينان، وأهداها «إلى البيت الجديد فى الشرق.. إلى أولئك العقلاء من كل ملة ودين فى الشرق، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين فى عصر كهذا العصر، فصاروا يطلبون وضع أديانهم فى مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا، ومجاراة تيار التمدن الأوروبى الجديد، لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم». وذكر فى مقدمة الدراسة أنه يكتب عن حياة ابن رشد ليقضى على الفرقة بين عناصر الشرق، ويغسل القلوب من أحقادها، ويجمع كلمة أهل الشرق على نهج التمدن، لأن الزمان زمان الفلسفة والعلم، الذى يلزم كل فريق باحترام رأى غيره، وعقيدة غيره.

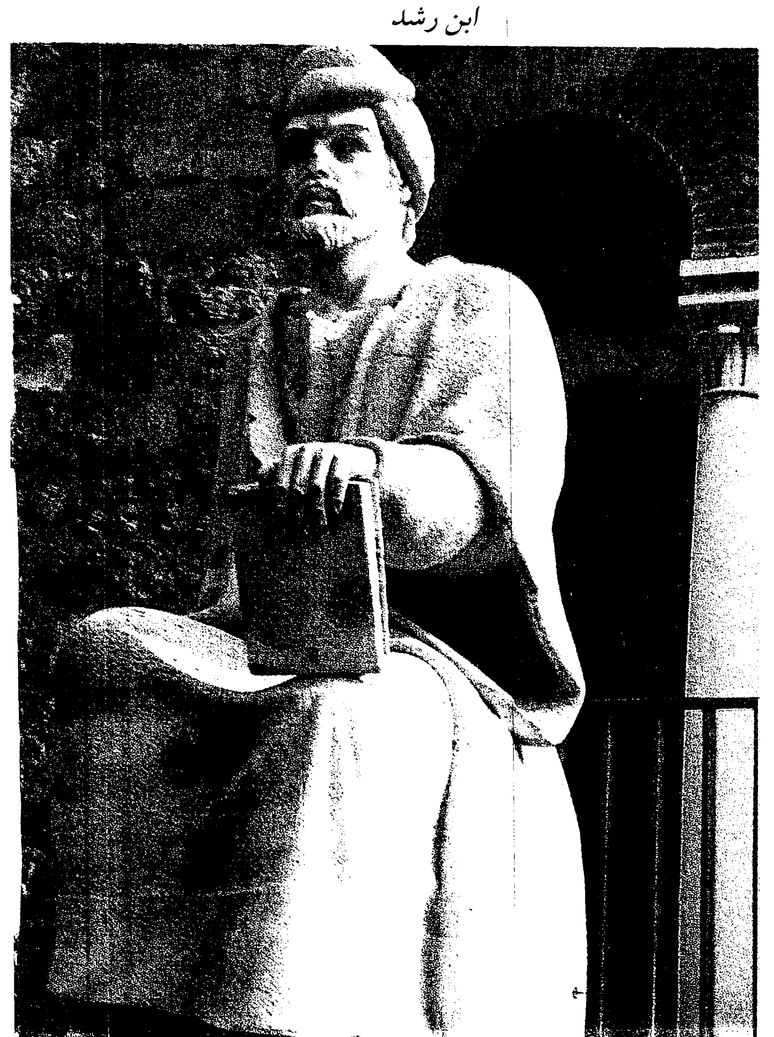
كان كتاب فرح أنطون شبيها بكتابات شبلى شميل من حيث اتخاذه طابع «البيان السياسى»، رمى فيه إلى وضع أسس دولة علمانية تقوم على كاهل مواطنيها من المسلمين والمسيحيين على قدم سواء. ولتحقيق ذلك، رأى ضرورة التمييز بين ما هو جوهرى، وما كان عرضيا فى جميع الأديان. أى الفصل بين مبادئ الدين ومجموعة الشرائع المنسوبة إليه. ورأى أن المبادئ واحدة فى جميع الأديان، وأن الشرائع غايتها حث الناس على الفضيلة والخلق القويم، وهو القاعدة التى يجب التركيز عليها فى تفسير الشرائع، ولو عن طريق التأويل وليس التمسك بحرفية النصوص. فالشرائع - عنده - وسيلة لغاية وليست غاية فى حد ذاتها؛ لأن الطبيعة البشرية واحدة فى جميع الأديان، وكذلك حقوق الإنسان وواجباته واحدة، يتفق فيها أصحاب الديانات مع من لا دين لهم.

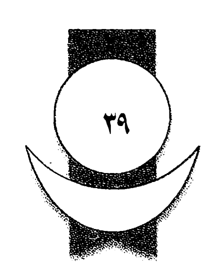


وبنى فرح أنطون على ذلك قواعد العلمانية: الفصل بين السلطتين الزمنية والدينية، لتناقضهما مع بعضهما البعض، ولأن قيام النظام الاجتماعى على ترابطهما واتحادهما يؤدى إلى اضطهاد السلطة الحاكمة للذين يخالفونها الرأى، وخاصة أهل الفكر، بينما هدف السلطة ضمان الحرية البشرية فى حدود الدستور، ومن ثم لا يتعرض أصحاب الآراء المعارضة للاضطهاد. ومن مبررات الفصل بين السلطتين - أيضا - ضرورة أن يقوم المجتمع المتمدن على المساواة المطلقة بين أبنائه دون النظر إلى دياناتهم. كما أن السلطة الدينية تتعامل مع الآخرة، بينما السلطة الزمنية تتعامل مع شئون الدنيا. والجمع بين الدين والسياسة يضعف الدين ذاته عندما ينزله إلى حلبة الصراع السياسى، ويجعله عرضة لكل مزالق الحياة السياسية. ولما كان الدين الحق واحدا، فالمصالح الدينية المختلفة تؤدى إلى الحروب وما يترتب عليها من نكبات.

أثارت أفكار فرح أنطون الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، وكانت فى تلك الأفكار نقاط قد يقبل بها محمد عبده، فقد ميز - أيضا - بين ما هو جوهرى أصيل فى الدين، وما كان عرضيا، كما قال بأن جميع الأديان تعبر عن حقيقة واحدة، ولكنه رأى فى الإسلام وحده الدين المعبر عن الحقيقة التامة، وإذا كان محمد عبده قد قبل بأن يكون للحكومة الحق فى حرية التشريع، فقد حرص على أن تكون القوانين الحديثة فى إطار الشريعة ولا تخرج عنه، ويرى ضرورة التزام الحكام برأى فقهاء الشريعة، وإذا كان يؤمن بحق غير المسلمين فى المساواة مع إخوانهم المسلمين، فذلك فى إطار الدولة الإسلامية. وساء محمد عبده ما

ابن رشد

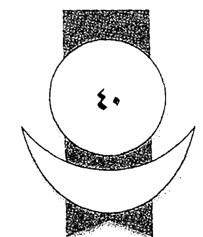




ذكره فرح أنطون من أن الإسلام اضطهد العلم بأكثر مما فعلته المسيحية، فكتب محمد عبده كتابه عن «الإسلام والمسيحية» للرد على أنطون، كما كتب كتابه الآخر «الإسلام دين العلم والمدنية» للرد على رينان، ودعاة العلمانية عموما.

وفى ردوده على محمد عبده، عارض أنطون مقولة محمد عبده من أن الدين إذا عاد إلى نقائه الأول يصبح أساسا متينا للحياة السياسية، فقال أنطون بأن العالم قد تغير، ولم تعد الدول الحديثة قائمة على الدين بل على الوحدة الوطنية والعلم الحديث. وضرب مثلا بانتصار محمد على باشا على الوهابيين رغم أنهم أصحاب دعوة تنقية الإسلام مما شابه من معتقدات، وعزى انتصار محمد على عليهم إلى كونه أول من أدرك فى الشرق أن العالم قد تغير. وأبدى أنطون اعتراضه على دعوة محمد عبده إلى الوحدة الإسلامية، وأكد صعوبة تحقيقها، وأنها حتى إذا تحققت، فلن تغير من واقع الحال شيئا، لأنها لن تستطيع صد الزحف الأوروبى.

محمد على باشا

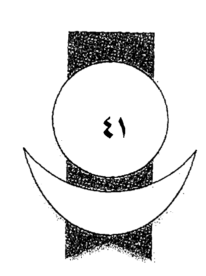


وفى دحضه لما ذهب إليه محمد عبده من استحالة الفصل بين الدين والدولة، لأن الحاكم لا يستطيع التخلص من تأثير الدين عليه، وأن الإنسان جسد وروح، فلا حياة له إن زهقت روحه، وكذلك المجتمع لا حياة له إذا نحى الدين جانبا. رد فرح أنطون بشرح النظام الديمقراطى من حيث التزام الحاكم بالدستور وبالقوانين التى يصدرها مجلس منتخب من الشعب، فالشعب مصدر السلطات، وحكمة ممثليهم أوسع مدى من حكمة الحاكم الفرد، وقدراتهم الذهنية تفوق قدراته. فالمجلس المنتخب أعلى منزلة من الحاكم ومن السلطة الدينية معا. وعندما تكون الحكومة علمانية، تضع للسلطة الدينية حدودا لا تتجاوزها، ولا تتدخل الحكومة فى الشئون الدينية طالما كانت السلطة الدينية بعيدة عن السياسة. فالحكومة تعمل لخدمة الشعب، وما يهم الشعب شئون الدنيا.

لقد تأثر بأفكار شبلى شميل وفرح أنطون جيل آخر من الكتاب فى النصف الأول من القرن العشرين، كان منهم سلامة موسى، وعزيز ميرهم، وعزيز فهمى، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل وغيرهم من الكتاب الذين عبروا عن التيارات الفكرية والسياسية اللبرالية والاشتراكية، وواجهوا مشكلة التعامل مع الدينى والزمنى من مختلف الزوايا، وتراوحت



أساتذة الجامعة المصرية، فؤاد بعد ذلك، يتوسطهم أحمد لطفى السيد، وبجانبه منصور فهمى، وفى الصورة طه حسين بالنظارة، وإلى يساره على العنانى، وأحمد ضيف وبعض الأساتذة الأجانب



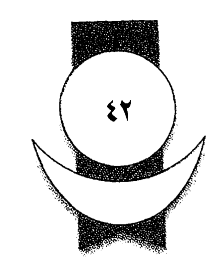
مواقفهم بين التمسك بأن يكون للدين عالمه، وللسياسة عالمها، وبين النظرة الخاصة إلى ظروف وواقع المجتمع العربى التى تجعل من الدين مكونا أساسيا للمجتمع، وتنظر للقضية من منظور حضارى - ثقافى، وتدرك ما فى ذلك من ركائز إيجابية لمشروع نهضوى، يلحق الأمة بركب المدنية.

إن الرواد الذين قدموا الفكر العلمانى، فاتهم إدراك واقع المجتمع الذى طرحوا عليه هذا الفكر، وجاءت فكرة تنحية الدين جانبا لتثير نفور القاعدة العريضة من المثقفين الذين كان تيار الإصلاح الإسلامى يستوعبهم، ولعب السلفيون الدور الأكبر فى وصم العلمانية بالإلحاد، ودعم وجهة نظرهم ما حدث فى تركيا بعد الحرب العالمية الأولى من إعلان مصطفى كمال (أتاتورك) علمانية الدولة التركية الحديثة بما تضمنه من وضع قانون للأحوال الشخصية ضرب عرض الحائط بالشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والزواج والميراث. وصحب ذلك إلغاء الخلافة الإسلامية، فتكرست فى أذهان الجماهير أن النموذج التركى خير برهان على أن العلمانية والإلحاد صنوان، وأن ما ارتبط بها من أفكار اجتماعية وسياسية هدفها تقويض أركان الإسلام. وغالى البعض فى هذا الاتجاه إلى حد الربط بين الأصول الغربية لليبرالية والاشتراكية والقومية، فجمعوها فى سلة واحدة باعتبارها من الأدوات التى سعى الغرب إلى تصديرها إلى بلاد الإسلام، مستهدفا بذلك النيل من العقيدة الإسلامية.



مصطفى كمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٢٠

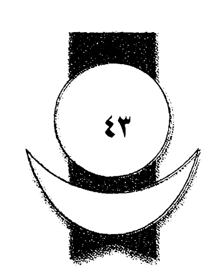
وهكذا ألحق الطرح السيء للفكرة، دون اعتبار للبون الشاسع بين تجربة الغرب وواقع مجتمعات الشرق. والنموذج التركى لتطبيق العلمانية الذى اشتط بدوره فى محاولة توجيه خطاب إلى أوروبا بأن تركيا الحديثة قطعة من أوروبا، وهو خطاب لم يلق الصدى الذى توقعه أتاتورك حتى يومنا هذا. ألحق الطرح السيء والنموذج التركى أبلغ الضرر بالعلمانية، ودعاتها، والحركات السياسية التى تركز عليها.





كانت «القومـية» من أهم ما تعلمه المثقـفون العرب من اطلاعهم على الفكر الغـربى، فقد كانت الفكرة القومية بارزة عند مفكرى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر، وكانت ثمارها واضحة للعيـان فى القرن التاسع عشـر الذى شهد بروز ألمانيا وإيطـاليا كدولتين قومـيتين. وخلبت الفكرة القومية لب من اختلفوا إلى أوروبا من أبناء الشرق، وخاصة من جاءوا من الدولة العثمانية، أتراكا كانوا أم عربا. وانتـقلت عدوى الفكرة إلى بلاد البلقان التابعـة للدولة العثمانية. وسـاعد التعليم

نابليون يغزو مصر فى الحملة الفرنسية



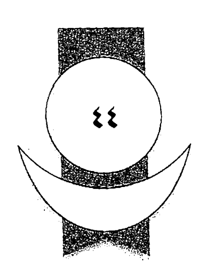
الحديث، سواء كان حكوميا أم أهليا فى مدارس الإرساليات التبشيرية، وتعلم اللغات الأجنبية، وتيسير الكتب المترجمة بفضل الطباعة، وكتابات الطهطاوى وغيره ممن أعادوا اكتشاف أوروبا فى القرن التاسع عشر، ساعد ذلك كله - بصورة أو بأخرى - على التعرف على الفكرة القومية، واهتمام المثقفين بإعادة طرح سؤال الهوية.

كان الشعور السائد بين المسلمين من رعايا الدولة العثمانية هو الانتماء للإسلام أو «للأمة الإسلامية»، وهو شعور فضفاض غلب عليه طابع الشعور بالحاجة إلى التضامن بين أبناء الأمة فى أوقات المحن والشدائد على نحو قريب الشبه بمفهوم «العصبية» عند ابن خلدون. مثال ذلك ما حدث عند غزو نابليون لمصر (الحملة الفرنسية) فتنادى العرب بالجهاد، وجاء «المجاهدون» إلى مصر من الحجاز وشمال أفريقيا للدفاع عن حياض الإسلام، وابتهل الجميع إلى الله أن ينصر «الإسلام والمسلمين». وعندما أدخل محمد على نظام التجنيد الحديث، لم يثر فى الجنود مشاعر «الوطنية» المصرية، ولكنه أثار عندهم «فريضة الجهاد»، وجعل خطباء المساجد يؤكدون عليها، وسمى الديوان الخاص بشئون الجيش «ديوان الجهادية».

حقا كان رفاعة الطهطاوى أول من عرف «الوطن»، الذى كان يعنى عنده مصر ذات التاريخ الممتد منذ الفراعنة، وشبه فى كتاباته محمد على بالإسكندر الأكبر، فلقبه «بالمقدونى الثانى»، وقدم - على نحو ما رأينا - تعريفا لمفهوم «الوطنية» شد الاقتراب مما طرحه العلمانيون فيما بعد، ولكن الطهطاوى لم يتجاوز تلك الحدود للحديث عن الفكرة القومية، بل ظل يعتبر مصر «وطنا» متميزا، لجميع سكانه حقوق متساوية بحكم اشتراكهم فى «المنافع العمومية» (أى موارد البلاد)، وجعل الأخوة فى الوطن كالأخوة فى الدين، فغلب الولاء للوطن على التعاطف مع أهل الديانات ممن يعيشون فى أوطان أخرى، ولكنه أكد انتماء مصر إلى «الأمة الإسلامية».

ورغم الدور الذى لعبته الجندية كبوتقة للشعور الوطنى، والتركيز على ما لمصر من «كيان» خاص فى ظل أسرة محمد على، ورغم كتابات الطهطاوى، ظل السواد الأعظم من الناس يغلب عندهم الشعور بالانتماء إلى «أمة» الإسلام، والتضامن مع إخوانهم المسلمين فى الملمات، وخاصة أن طرح الأفكار الجديدة لم يتجاوز نخبة المثقفين العارفين لفكر الغرب، ليصل إلى الجماهير العريضة التى كانت تلك الأفكار الجديدة بالنسبة لها «رطانة» يصعب فهمها.

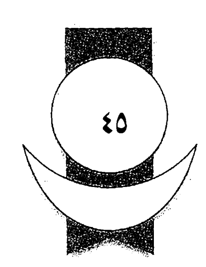
وليس صحيحا ما يرد فى بعض المؤلفات من أن إبراهيم باشا بن محمد على، كان لديه إحساس قوى بالعروبة، ورغبة فى إقامة «إمبراطورية عربية» استنادا إلى تفسير أحد الفرنسيين



لعبارة سمعـها من إبراهيم، ذكر فيها أنه قدم إلى مصر صغـيرا، وأن جو مصر وشمسها جعلاه عربيا، وربط البعض هذه العبارة بطلب إبراهيم من أبيه أن يأمر بوقوف الجيش المصرى فى توسـعه شمالا بالشام على حساب الدولة العـثمانية يقف عند جـبال طوروس، فقـد كان يخـشى العبـور إلى الأناضول لسـببين: أحدهما سيـاسى، والآخر إستراتيجى، لأن ذلك قد يؤدى إلـى استثارة الدول الكبرى لما يمثله توسيع العمليـات العسكرية إلى الأناضول من إخلال «بالتوازن» الإقليمى، وهو مبـدأ هام فى السياسة الأوروبية عندئذ، مما قـد يدفع تلك الدول إلى التدخل ضد محمد على (وهو ما حدث بالفعل)، والسبب الثانى يتعلق بخطورة التوسع عبر طوروس واختراق هضبة الأناضول، لما يترتب عليه من إطالـة خطوط الإمداد والتموين، فأشاع من أوّلوا هذا الموقف من إبراهيم، أنه طلب من والده أن يتوقف الجـيش حيثمـا لا يجد من يتحدث العـربية!!، وذلك لتأكيـد فكرة نية إقامة «إمبـراطورية عربية»، وهو ما لم يكن واردا - عندئذ - بذهن مـحمد على وولده إبراهيم. فمـا قصده إبراهيم - فى حـديثه إلى الفرنسى - أنه قـد أصبح عربيـا هو أنه قد تمصر، لأن المصريين عندما يرد ذكرهم بوثائق محمد على، يقال لهم «أولاد العرب» تمييزا لهم عن



إبراهيم باشا فى معركة صفين

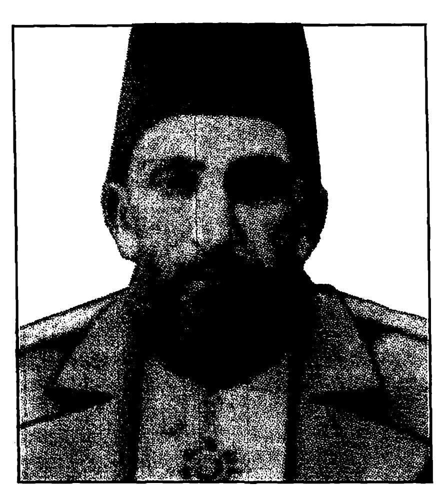


الترك والفرنجة، واستخدم وصف «أولاد العرب» للمصريين من المسلمين والأقباط على حد سواء.

على كل، لم يظهر الشعور القومى عند العرب إلا فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ولعل تطبيق نظام التجنيد في الولايات العربية فى ظل حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية، وما عاناه العرب من التمييز من جانب ضباطهم الأتراك، وكذلك إحساس طلاب المدارس العثمانية من العرب (وخاصة المدارس العسكرية) بهذا التمييز فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، لعل ذلك كان وراء شعور العرب باختلافهم عن الأتراك، ومن ثم كان تفكير نخبة المثقفين العرب فى أن يكون لبلادهم كيانا «ذاتيا» فى الدولة العثمانية. وقد شارك هؤلاء فى حركة المعارضة لاستبداد عبد الحميد الثانى، وتحالفوا مع جماعة «تركيا الفتاة» للإطاحة بحكمه، وإقامة حكومة دستورية تسمح للعرب بقدر من المشاركة فى صنع القرار، فكان ارتباطهم بحزب «الاتحاد والترقى»، الذى نجح فى تدبير انقلاب ١٩٠٨م.

وإذا كان العرب قد شاركوا فى هذه الحركة، فقد كان لمسيحيى الشام الدور الأكبر فى المشاركة العربية: فقد كانت هناك صلات تعود إلى ستينيات القرن التاسع عشر بين نخبة المثقفين المسيحيين فى بيروت وبين دعاة الإصلاح فى الدولة العثمانية فى العاصمة إستانبول. وكانت الصحف العربية فى بيروت تعبر عن آراء شبيهة بآراء «تركيا الفتاة» مع ميل أوضح نحو العلمانية. فقد دعت مجلة «الجنان» التى أسسها بطرس البستانى عام ١٨٦٠م، واستمرت فى الصدور حتى ١٨٧٦م، دعت إلى ضرورة قيام حكم عادل صالح بدلا من الحكم الفاسد الذى كان سببا فى تخلف الشرق. ولا يمكن لذلك الحكم أن يقوم إلا بمشاركة جميع أبناء البلاد فيه، والمساواة بين أبناء جميع الديانات، وأن يتم فيه الفصل بين الدين والدولة، والفصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، على أن يكون التعليم إجباريا، وأن يتم التركيز على تقوية الشعور الوطنى بين أبناء البلاد.

واستمر الكتاب الشوام ينشرون الأفكار المعارضة لاستبداد عبد الحميد الثانى حتى وقوع ثورة ١٩٠٨م، وشاركت «المقطم» و«الأهرام» من مصر فى موجة النقد والمعارضة، ومن أمثلة ذلك ما كتبه خليل غانم اللبنانى المارونى الذى كان نائبا فى مجلس المبعوثان (النواب) العثمانى عام ١٨٧٧م، وانضم لتركيا الفتاة، وكان من قادتها، ونشر كتابا عن سلاطين آل عثمان، ذهب فيه إلى أن ما أفسد «الأمة العثمانية» أمران: الاستبداد الذى يفسد الروح ويقضى على العدل والإنصاف، والإسلام الذى ما لبث أن تحول إلى التعصب والاستبداد. ورأى أن الحكم الدستورى هو حجر الزاوية فى الإصلاح المنشود.

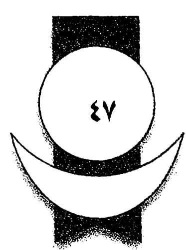


السلطان عبد الحميد الثانى

كانت حركة «تركيا الفتاة» بمثابة جبهة وطنية تضم من ليست لهم ميول قومية محددة من دعاة الإصلاح (مثل خليل غانم)، ومن كانوا قوميين أتراكا قبل كل شيء يرون استمرار سيطرة العنصر التركى على السلطة حتى فى ظل الحكم الدستورى (مثل أحمد رضا ورفاقه)، وهناك من يطلبون المساواة بين الأجناس والأديان فى الدولة، ويدعون إلى لا مركزية السلطة (الحكم الذاتى للولايات) مثل الأمير صباح الدين، وما ربط بين هؤلاء وأولئك العمل من أجل إسقاط حكم السلطان عبد الحميد الثانى. وعندما قام انقلاب ١٩٠٨م، وتم عزل عبد الحميد وسيطرة «حزب الاتحاد والترقى» على الحكم، كشف القوميون الأتراك عن نواياهم الحقيقية فى سيادة العنصر التركى وتتريك شعوب الدولة العثمانية، ومن ثم كانت الفرقة بين حلفاء الأمس على نحو ما حدث بالنسبة لدعاة القومية العربية.

وإذا كان المسيحيون الشوام قد لعبوا دورا ملحوظا بين صفوف دعاة القومية فى جبهة «تركيا الفتاة» التى أطاحت بالحكم الاستبدادى للسلطان عبد الحميد، فقد كان دعاة التجديد الإسلامى ينظرون للقضية من زاوية أخرى هى عودة الخلافة إلى العرب، واستردادها من مغتصبيها العثمانيين. وكان أشراف مكة هم المرشحون لتولى الخلافة عند من فكروا فى هذا الموضوع من أهل السياسة إما نكاية فى السلطان على نحو ما فعل الخديو المخلوع إسماعيل عندما كان يمول سرا مجلة «النحلة» التى أصدرها فى لندن لويس صابونجى، وهو رجل دين كاثوليكى، روج على صفحات المجلة لفكرة عودة الخلافة إلى العرب. وإما خدمة لمصالح الدول الطامعة فى المشرق العربى، فراح رجالها يفكرون فى شريف مكة كخليفة بديل للسلطان العثمانى، أو تعبيرا عن مطامع بعض الحكام مثلما قيل عن سعى الخديو عباس حلمى الثانى لتنصيب شريف مكة خليفة وإعلان نفسه «سلطانا»، وهو قول لم يقم عليه دليل. ولكن لكل ذلك دلالة واضحة على إدراك التناقض بين العرب والترك، والتفكير فى خلافة عربية كبديل للخلافة العثمانية.

وإذا كان اللعب بورقة الخلافة واردا على مائدة السياسة، فقد ساهم مفكر عربى فى طرح فكرة الخلافة العربية فى إطار مفهوم الجامعة الإسلامية بما يشبه المزج بين الفكرة الإسلامية والفكرة



القومية. أو بعبارة أخرى، إقامة خلافة إسلامية اتحادية متعددة القوميات، يقودها خليفة عربى... هذا المفكر هو عبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩-١٩٠٣م).

جاء الكواكبى من عائلة حلبية، وتلقى تعليما عربيا وتركيا، وعمل بخدمة الحكومة، ثم عمل بالصحافة فانتقد الحكم العثمانى مما جلب عليه سخط الحكومة، فهرب إلى مصر عام ١٨٩٨م وجعل القاهرة مستقرا له حتى وفاته عام ١٩٠٣م. وكتب العديد من المقالات فى صحيفة «المؤيد» ومجلة «المنار»، ونشر كتابين هما: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». ويهمنا هنا الكتاب الأخير الذى يعبر عن الربط بين الجامعة الإسلامية والفكرة العربية.

ويعرض الكواكبى فى «أم القرى» لمؤتمر إسلامى تخيل انعقاده فى مكة للنظر فى أحوال العالم الإسلامى: أسباب ضعفه، وكيفية علاج هذا الضعف. ومن الجدير بالملاحظة أن الكواكبى وزع الوفود المشاركة فى المؤتمر على الأقطار الإسلامية جاعلا أغلبية المقاعد للعرب: فهناك وفد هندى، ووفد أفغانى، وثالث تركى، ورابع فارسى، أما المقاعد الأخرى فجعلها لوفود من مختلف البلاد العربية: العراقى، والشامى، والمصرى، واليمنى، والمغربى، والحجازى... إلخ. وهذا التوزيع يكشف عن تصوره للوزن العربى فى الدولة الإسلامية المقترحة.



الزعماء الذين شاركوا فى المؤتمر الإسلامى المنعقد فى القدس سنة ١٩٣٢

وفى عرضه لأسباب انحطاط (تخلف) الأمة الإسلامية، نجده يردد الأفكار التى طرحها قبله دعاة التجديد الإسلامى، وهى: انتشار البدع، وخاصة الممارسات الصوفية الغريبة عن روح الإسلام، والإغراق فى التقليد، والعزوف عن الاجتهاد، وعدم التمييز بين ما هو جوهرى فى الإسلام وما هو عرضى هامشى. واتهم الحكام المسلمين المتأخرين بتشجيع ذلك كله ليستبدوا بالأمر مما أفسد المجتمع كله.

وعلاج هذا الانحطاط، واسترداد شوكة الإسلام إنما يكون بقيام دولة عادلة، يعيش الناس فيها أحرارا، فى فكرهم ومعاشهم، تخضع فيها الحكومة لرقابة الشعب. ولتحقيق ذلك يجب إصلاح الشريعة بإقامة نظام شرعى موحد عن طريق الاجتهاد، ويجب أن يربى النشء تربية دينية صحيحة. وفوق ذلك كله لابد من أن تكون الخلافة عربية قرشية لأن العرب هم مادة الإسلام وحفظته، ولأن القرآن نزل بلسان عربى مبين. على أن يقوم ممثلو «الأمة» باختيار الخليفة الذى يتخذ من مكة مركزا له، ويتمتع بسلطة روحية على جميع المسلمين، ويعاونه مجلس شورى يعينه حكام المسلمين، ويتولى إدارة أمور الحجاز بمساعدة مجلس من أهل البلاد.

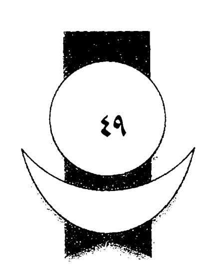
لقد عبر الكواكبى فى هذا الكتاب عن تصور مدرسة التجديد الإسلامى للمسألة القومية من منظور إسلامى محض، على حين كان البستانى وتلاميذه يعبرون عن نفس المسألة من منظور علمانى فهم يدعون إلى الحكم الذاتى للولايات العربية، وإلى التمسك باللغة العربية كلغة رسمية في الولايات العربية.

وقدم نجيب عازورى تصورا لدولة عربية علمانية تظلها سلطة روحية لخليفة عربى يتخذ من مكة مركزا له، متأثرا فى ذلك بفكرة الخلافة العربية عند الكواكبى، ولكن من منظور مختلف تماما.

ونجيب عازورى مسيحى كاثوليكى من الشام، تربى تربية فرنسية، وعمل بخدمة الإدارة العثمانية بالقدس فترة من الزمن، ثم ترك منصبه لأسباب مجهولة، وهاجر إلى باريس حيث أسس هناك «عصبة الوطن العربى»



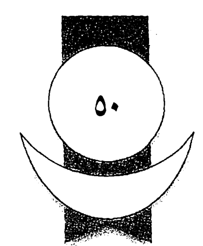
عبد الرحمن الكواكبى صاحب فكرة المؤتمر الإسلامى



عام ١٩٠٤م، ونشر كتابا بالفرنسية بعنوان «يقظة الأمة العربية» عام ١٩٠٥م، ضمنه رؤيته للدولة العربية، كما أصدر - أيضا - مجلة بالفرنسية بعنوان «الاستقلال العربى» عام ١٩٠٧م، ولكنها لم تعمر طويلا. وانتقل من باريس إلى القاهرة التى قضى فيها بقية سنوات عمره حتى وفاته عام ١٩١٦م، فكان يكتب من حين لآخر فى «الأهرام» وغيرها من الصحف المصرية.

وفى كتابه «يقظة الأمة العربية»، يذهب نجيب عازورى إلى أن هناك أمة عربية واحدة - بالمفهوم العلمى والسياسى للكلمة - وأن هذه الأمة تجمع بين المسلمين والمسيحيين، وأن المشاكل الطائفية التى تنشأ بينهم هى - فى حقيقتها - مشاكل سياسية، تقف وراءها قوى خارجية تغذيها لخدمة مصالحها الخاصة، وأن المسيحيين لا يقلون عروبة عن المسلمين؛ ولذلك لابد من أن تكون اللغة العربية هى اللغة المستخدمة فى الكنائس العربية على اختلاف مذاهبها. ولكنه استبعد مصر من إطار العروبة، لأنه كان يرى أن المصريين ليسوا عربا، ومن ثم لا تدخل مصر ضمن «الدولة العربية» التى يدعو لاستقلالها عن الحكم التركى. واعتبر الترك مسئولين عن تخلف البلاد العربية، فلولا وقوع بلاد العرب تحت حكمهم لكان العرب فى طليعة الأمم المتمدنة، والدليل على ذلك - فى رأيه - تفوق العرب على الترك فى جميع المجالات. ولا أمل فى أن يقوم إصلاح فى الدولة يراعى مصالح العرب والأكراد والأرمن؛ لذلك لا سبيل للخلاص أمام هذه «الأمم» الثلاث سوى بالاستقلال، ويرى أن ذلك يمكن تحقيقه عن طريق العمل فى اتجاهين: الداخل بالعمل على تقويض أركان الدولة العثمانية وخاصة أن جهازها الإدارى يتسم بالضعف والفساد، والاتجاه الآخر يتمثل فى الاستعانة بالدول الأوروبية لمساعدة العرب على تحقيق الاستقلال.

ولكن ما هى الدول التى يركن العرب إليها طلبا للعون؟ خصص العازورى قسطا كبيرا من كتابه لاستعراض مصالح الدول الأوروبية فى المشرق العربى، وانتهى إلى أن إنجلترا وفرنسا هما اللتان تستطيعان مساعدة العرب على تحقيق حكم الاستقلال؛ لأن تقاليد «الحرية» راسخة فيهما، وخاصة فى فرنسا تحديدا. وكان نجيب عازورى فى ذلك لا يشذ عن غيره من نخبة المثقفين العرب عندئذ الذين تطلعوا إلى مساعدة انجلترا أو فرنسا لهم. فإذا كان عازورى قد راهن على فرنسا فقد سبقه فى ذلك مصطفى كامل الزعيم الوطنى المصرى، كما أن «حزب اللامركزية» الذى كان من أقطابه محمد رشيد رضا وغيره من الشوام المسلمين دعاة الجامعة الإسلامية، علقوا آمالهم على إنجلترا. ولعل ذلك يرجع إلى إدراكهم أن أى تغير إقليمى يقوم على حساب الدولة العثمانية لابد أن تتبناه الدول الكبرى.

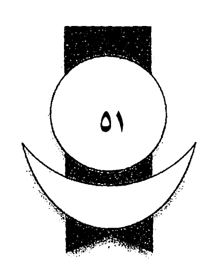


غيـر أن نجيب عـازورى انفرد بين دعاة القـوميـة العربية من أبـناء جيله باستشراف الخطر الذى تمثله الصهيـونية، وإدراكه لخطورة ما ترمى إليه من إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، فقال: «تبـرز فى البلاد الآسيوية التابعة للدولة العثمانية ظاهرتان متناقضتان رغم طبيعتهما الواحدة، هما: يقظة الأمة العربية، وسعى اليـهود الخـفى لإعادة ملك إسـرائيل القديم على نطاق واسع، ومـقدر لهاتين الحركتين أن تصطدما ببعضهما البـعض حتى تتغلب إحداهما على الأخرى، ويتوقف مصير العالم أجمع على النتيجة الأخيرة لهذا الصراع».

أما الدولة العربيـة المستقلة - فى رأيه - فيجب أن تـكون سلطنة دستورية ليبراليـة، يرأسها سلطان عربى مـسلم، على أن يلتزم باحـترام الاستـقلال الذاتى للبنان ونجـد واليمن. وأن تكون السلطة الروحية لخليفة عربى فى مكة على أن تـكون له سلطة إدارية فى الحجاز على نحو ما للبابا من صلاحـيات فى الفـاتيكان، ولكن عازورى لم يحـدد من يراه مرشـحا للسلطنة، ومـن يشغل منصب الخليفة، طالما كان القرار بيد الدولة الكبرى التى تتبنى مشروع «الدولة» العربية المستقلة.

وفكرة «الاستـقلال العربى» التى روج لهـا نجيب عازورى تعـبر عن إدراك مبكر من جـانبه لعدم استعداد جماعة «تركيا الفتاة» للاعتراف فعليا بحقوق القوميات التى تخضع للدولة العثمانية، وقد صدق حدسه عند وصول أولئك القوم إلى الحكم بعد إطاحة عـبد الحميد الثانى، فاتجهوا إلى اتباع سياسة «عثـمنة» جميع شعوب الدولة، أى جعلهم «وطنيين» عثمانيين، وفـرض اللغة التركية لغة رسمية للدولة، ورغم ما حققه نظام الحكم الجديد من اصطلاحات فى الإدارة المحلية، والأمن العام، وبعض المشروعـات العامة، والتعليم، والتشـجيع على تحرير المرأة، شعر القومـيون العرب والأرمن والألبان والأكراد بما تمثله سياسة «التتريك» من خطر داهم على هويتهم القومية، وتطلعهم إلى نيل حقوقـهم القومية، فتفـرقت بهم وبإدارة «الاتحاد والترقى» السبل، وراح دعاة كل قـومية يعملون من أجل تحقيق تطلعاتهم السياسية.

ولكن دعاة القومية العربية لم يكونوا على قلب رجل واحد، فـتعددت التنظيمات السياسية التى عملوا من خلالهـا، وتباينت مواقفها تبـاين تصور أصحابها لسبـيل تحقيق مراميهـا وأهدافها السـياسـية. فالجـمعـيات السـرية التى كـونها المثـقفـون العرب (بعـد ثورة ١٩٠٨م) من المدنيين والعسكريين مثل: الجمعـية القحطانية التى أسسها بعض الضبـاط عام ١٩٠٩م كان من بينهم عزيز على المصرى، الذى أسس فى عام ١٩١٤م جمعية «العهد»، وجمـعية «العربية الفتاة» التى أسسها بعض المثقفين المدنيين وطلاب المدارس العليـا عام ١٩٠٩م أيضا. هذه الجمعيـات كانت تعمل من

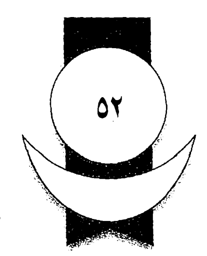


أجل استـقلال الولايات العربيـة فى المشرق عن الدولة العـثمانيـة، ولكنها لم توحد صفوفها فى تنظيم واحد، رغم وحدة الغاية والتوجه عند كل من انضووا تحت لواء تلك الجمعـيات. وقد ذهبت إحداها (عـام ١٩١١م) إلى إصدار بيان اتهمت فـيه الأتراك بالتسبب فـيما يعانيـه العرب من بؤس، وبمسئوليـتهم عن التخلف الاقتـصادى للبلاد العربية، وانتشـار الفقر، والعمل على محو الـثقافة العربية، والتضحية بالبلاد من أجل مصلحة الأجانب، فهى بعيدة تماما عن الإسلام، وعلى العرب الاتحاد مـعا (مـسلمين ومسـيحين ويهـود) للتخلص من نيـر الحكم العثـمانى، وفى نفـس العام (١٩١١م)، وجه بعض المنتسبين إلى تلك الجمعيات رسالة إلى الشريف حسين بن على عن طريق السيد طالب النقيب زعـيم البصرة، يقولون فيها أن العرب على استـعددا للوقوف وراءه للتخلص من الحكم العثمانى، وأنهم سـوف يبايعونه بالخلافة إذا استجاب لهم. فالجـمعيات السرية - إذا - لم تر بديلا للاستقلال عن الـدولة، وفقدت الأمل فى حصول العرب على حقـوقهم المشروعة فى إطار تلك الدولة.



الشريف حسين فى عمان

غيـر أن فريقا آخـر من الشوام المقـيمين بمصر، ومـعظمهم من المشـايعين لفكرة «الجامـعة الإسلامـية» ظلوا يتـمسكون بالدولة العـثمانـية، ويرون ضرورة المحـافظة عليهـا باعتـبارها دولة «الخـلافة» الإسـلاميـة. ولكنهم عـملوا من أجل الحصـول على الحكم الذاتى فى إطار «الوطنيـة العثـمانية»، وعلقـوا آمالهم على دعم بريطانيا لهم لـتحقيق أهدافـهم. ففى عام ١٩١٢م أسـسوا

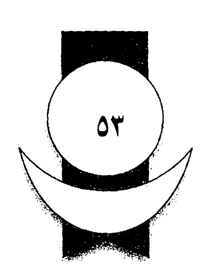


بالقاهرة «حزب اللامركزية الإدارية العثمانى» الذى كانت تربطه قنوات اتصال مع بعض الليبراليين دعاة اللامركزية من رجال «تركيا الفتاة»، كما كانت له شبكة من «لجان الإصلاح» فى المدن العربية المشرقية، وخاصة بيروت. وكانت مطالب الحزب متواضعة مثل: استخدام العربية لغة رسمية فى الولايات العربية، وأن ينفرد العرب بتولى الوظائف الإدارية فى تلك الولايات، وألا يعين أحد فى وظائف الولايات دون استشارة أعيان تلك الولايات، وأن تقتصر خدمة المجندين العرب على الولايات التى ينتمون إليها فى زمن السلم، وأن تخصص بعض الموارد المالية المحلية لسد حاجات الولاية صاحبة تلك الموارد، وأن يتم توسيع اختصاص مجالس الولايات، وتنظيم إدارات الشرطة والقضاء والضرائب على أسس حديثة بالاستعانة بالخبراء الأجانب. ورأى رجال الحزب أن يكون العمل العلنى، القانونى، السلمى، أداتهم لتحقيق تلك المطالب.

ولكن مع تفاقم سياسة التتريك عام ١٩١٣م، وتصاعد التمييز ضد العرب من جانب الحكومة العثمانية التى جعلت السيادة للعنصر التركى، قام فريق من دعاة «العروبة» بعقد مؤتمر «عربى» فى باريس، اشترك فيه نحو خمسة وعشرين شخصا كان من بينهم عراقيان، والآخرون من الشوام، معظمهم من الطلاب أو المقيمين بباريس، ولم تكن الحكومة الفرنسية بعيدة عن الترتيبات الخاصة بعقد هذا المؤتمر، ومن هنا جاء حرص حزب اللامركزية على التواجد حتى لا ينفرد أنصار «العربية الفتاة» بأمر المؤتمر. وتكشف المناقشات التى دارت بالمؤتمر عن الميل نحو الاعتدال، فقد ربط الخطباء بين الرغبة فى الرقى الحضارى كدافع للمطالبة بالإصلاح، وأنهم يعلقون آمالهم على وقوف أوروبا إلى جانب مطالبهم العادلة بالضغط على الحكومة العثمانية لتحقيق الإصلاح، وعولوا على فرنسا لإقناع الدول الأوروبية الأخرى بعدالة قضيتهم. وأكدوا حرصهم على الدولة العثمانية ورغبتهم فى تقويتها بشرط أن يكون نظام الحكم ديمقراطيا قائما على مبدأ المساواة، ومن ثم لابد من اشتراك العرب فى الحكومة المركزية، وأن تنال الولايات العربية استقلالا ذاتيا، وأن تصبح العربية لغة رسمية فى البرلمان العثمانى ودوائر الحكومة المحلية، وألا يكون هناك تمييز بين العرب على أساس الدين.

سارعت الحكومة العثمانية بإرسال مبعوث عنها للتفاوض حول المطالب التى طرحت أمام المؤتمر، ولكن الأعضاء تبينوا أن نية الإصلاح لا تتوفر عند الدولة، فمالت الكفة إلى جانب دعاة استقلال البلاد العربية.

ولكن رؤية «القوميين» العرب للاستقلال لم تكن تتضمن إجماعا على الوحدة العربية السياسية، على نحو ما رأينا عند عازورى، فكان هناك من يدعون إلى استقلال سوريا، ويبررون

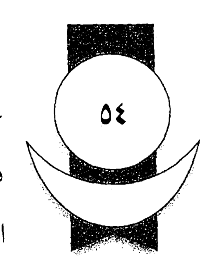


ذلك بتوفر عناصر الوحدة التاريخية والجغرافية، والتنوع البشرى الثقافى؛ لذلك يجب أن تقام فى سوريا (الكبرى) دولة علمانية ديمقراطية اتحادية، مؤلفة من وحدات إدارية يتمتع كل منها بالحكم الذاتى، ويراعى فى تحديد تلك الوحدات الطبيعة السكانية الغالبة فيها من حيث العرق والدين، وهى الأفكار التى روج لها خليل غانم وجورج سمنة.

وهناك من فضلوا استقلالا إداريا للولايات العربية فى إطار الدولة العثمانية وفق مطالب «حزب اللامركزية الإدارية» حرصا على بقاء «الخلافة»، وخشية وقوع تلك الولايات بين براثن الاستعمار الأوروبى، كما حدث لمصر وتونس والجزائر من قبلهما، وهؤلاء كانوا يفكرون فى صيغة «الملكية الثنائية» كحل مناسب، استلهموا فيه حالة إمبراطورية النمسا والمجر، فتكون الدولة العثمانية دولة الترك والعرب، يحكمها السلطان باعتباره - أيضا - ملكا للعرب، وتتكون الدولة من اتحاد بين دولة عربية وأخرى تركية. ونفر هؤلاء من فكرة الثورة على الدولة، لما قد يترتب على ذلك من إضرار بوحدة «الأمة الإسلامية»، وتمكين أعداء الإسلام منها لخدمة مصالحهم.

وحتى دعاة «الدولة العربية المستقلة» كانت الانقسامات سائدة بينهم حول حدود الدولة ونظام الحكم فيها: رأى البعض أن تكون الدولة علمانية ديمقراطية يحكمها ملك عربى، بينما رأى البعض الآخر فى تلك الدولة كيانا أوسع يضم الولايات العربية فى دولة واحدة يحكمها «خليفة» عربى، تمتد سلطته الروحية إلى العالم الإسلامى كله، كانت الغالبية تسلم بضرورة قيام «كيان عربى»، وذهب المشاركون فى المؤتمر العربى بباريس إلى أن العرب يشكلون «أمة» وفق توصيف مفكرى الغرب لمفهوم الأمة: فهم أصحاب لغة وثقافة واحدة، يجمعهم تاريخ متواصل مشترك، وتربطهم ببعضهم البعض مصالح مشتركة، ولهم تطلعات متماثلة. ومن ثم رأوا أن هناك «قومية عربية» واضحة المعالم.

ولكن القومية - بهذا الوصف - ذات طبيعة علمانية خالصة، غير أن العرب لم يتقبلوا فكرة الفصل بين القومية والدين (وهو هنا الإسلام) على نحو ما فعل الترك بعد الحرب العالمية الأولى. فهم يرون فى الإسلام حجر الزاوية فى ثقافتهم، ولا يرون العروبة من منظور غير منظوره، وهم الذين يعدون أنفسهم «مادة» الإسلام. وهى إشكالية ممتدة كان لها تأثيرها على رؤية المسلمين والمسيحيين العرب للقومية. فأصر المسلمون على اعتبار الإسلام أساسا لشعور العرب بوحدتهم كأمة، مع الاعتراف بانتماء المسيحيين العرب إليها.



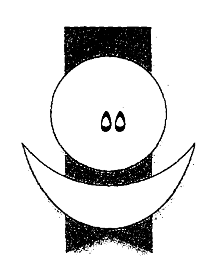
وإذا كان ميشيل عفلق - داعيــة البعث العربى - قد حاول الوصول إلى حل لهذه الإشكالية بتــأكيد الدور المركزى للإسلام فى تكوين «الأمــة» العربية، فإن ساطع الحصرى ركز على الصفة العلمانية للقومية العربية مؤكدا أن «الثقافة» العربية هى المحدد للهوية القومية وليس الدين.

ولكن أفكار عــفلق والحصــرى تعبــر عن جيل آخــر غيــر أولئك الذين اشتغلوا بالحركة العربية قبل الحرب الأولى، ثم تحطمت آمالهم بما حدث للمشرق العربى فى نهاية الحرب من تجــزئة على يد الدول الأوروبية ذاتهــا التى علقوا عليــها آمالهم لتكون عــونا لهم على الاستقلال. واســتعاض الجيل الآخر من «القــوميين» العرب عن النظر إلى القومية العــربية كخطوة لابد منها لإحياء الإسلام، بالنظر إلى الإسلام كمكون أساسى للأمة العربية ومصدرا لثقافتها.

ويأتى قسطنطين زريق المؤرخ الدمشقى المولد المعروف، فى مقدمة من ربطوا القومية العربية بالإسلام فى كــتابه «الوعى القومى» (نشــر ١٩٣٩م) مؤكدا حــاجة العرب إلى القومــية باعتــبارها «العقيدة» التى تولد الشعور بالمسئولية المشتركة، والإرادة فى خلق مجتمع، والحفاظ عليه، ولما كان المجتمع العــربى يستمد وحــيه ومبادئه من الدين، وهذا الدين هو الإســلام؛ لذلك يجب التسليم بهذه العلاقة الجوهرية بين الإسلام والعروبة، يستــمد العرب منه المبادئ الخلقية التى توجد فى كل الأديان، وتعبر عن نفسها بأسلوب مختلف فى كل دين، ولكن جوهرها واحد، ولا يتعارض ذلك مع قيام كيان عربى عصرى يستمد روحه من الدين، ونهضته من منجزات الحضارة الغربية.

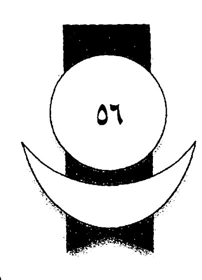
على أن ذلك لا يعنى أن سفينة «القومية العربيــة» قد استقرت فى نهاية المطاف على شاطئ تحقيق الأمل المنشــود فى إقامة الدولة العربيــة الواحدة، فقد ظل ذلك حلمــا يداعب دعاة الوحدة العربية، دون أن يتحول إلى حقيقة ملموســة. ولكن هناك تيارات «قومية» ذات توجهات إقليمية، عرفتها بعض البلاد العــربية فيما بين الحربين العالميتين هما «القوميــة المصرية» و«القومية السورية». وقد سبق أن ألمحنا لجذور فكــرة القومية السورية قبل الحرب العــالمية الأولى، وقد تطورت على يد أنطون سعادة، و«الحزب القومى السورى»، فالتمس سعادة للفكرة السورية أصولا فينيقية، جعلت سوريا تنتمى إلى البحر المتوسط أكثر من اتصالها بظهيرها العربى.

أما القومــية المصرية فقد روج لها قــبل الحرب الأولى أحمد لطفى السيد، بمفــهوم علمانى خالص، يرفض تماما فكرة الجــامعة الإسلامية ويعــتبرها ذات طابع «استعمــارى». ولكنه عبر عن



اتجاه نخبة ضيقة من المثقفين. أما غالبية المصريين الذين التفوا حول «الحزب الوطنى» بزعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد، فقد أيدوا فكرة الجامعة الإسلامية لأنها تعنى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية. ولما كان «الحزب الوطنى» متمسكا بالسيادة العثمانية باعتبارها طوق النجاة من الاحتلال البريطانى، فقد كان عليه التمسك بالفكرة الإسلامية، وهو نفس الشعور الذى ساد تونس والجزائر؛ لذلك اعتبر المصريون الدعوة إلى القومية العربية، وإقامة دولة عربية نوعا من «المؤامرة» الاستعمارية التى تهدف إلى تفتيت الدولة العثمانية، لأن تفتيت الدولة العثمانية يعنى تكريس الوجود البريطانى فى مصر. ومن ثم كانت النظرة إلى دعاة القومية العربية (قبل الحرب الأولى) باعتبارهم «أدوات» فى يد القوى الاستعمارية.

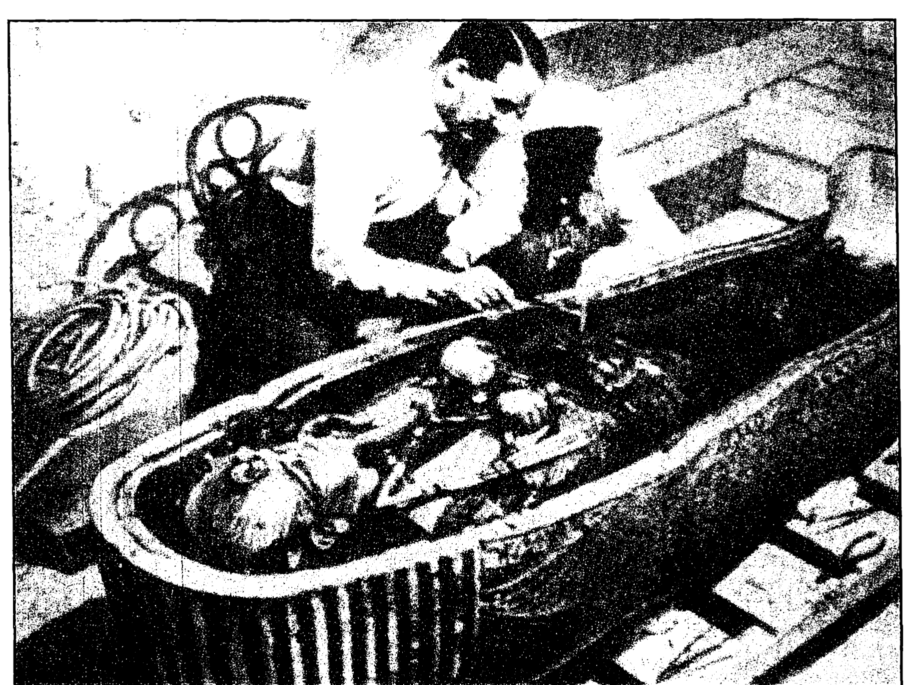
محمد فريد رئيسا للحزب الوطنى



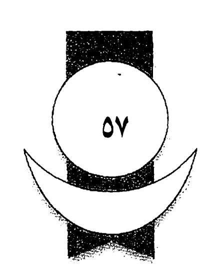
ولكن هزيمة الدولة العثمانية فى الحـرب، وتفكيك أوصالها جاء لمصلحة دعاة «القومية المصرية» التى لقيت دفعة قوية فى زخم ثورة ١٩١٩م، وما ترتب على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون من انـبهار عالمى بالحضارة المصرية القديمة، فاتخـذ بعض دعاة «القـومية المصـرية» من ذلك كله سبيـلا لتأصـيل جذورها وصولا إلى العصور الفرعونية، وتأكيد (أصالة) مصر وهضمها لجميع الغزاة بما



مشاركة المرأة فى ثورة ١٩١٩



هوار كارتر يكتشف مقبرة توت عنخ أمون سنة ١٩٢٢

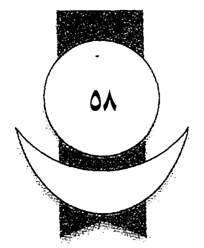


فيهم العرب، بل ذهب البعض إلى اعتبار الحقبة الإسلامية من تاريخ مصر نوعا من «الردة» الحضارية التى عانت منها البلاد. وتمادى البعض فى المطالبة بأن تسترد مصر وجهها الثقافى الأصيل فتكون لها لغتها وأدبها. وذهب البعض الآخر إلى القول بانتماء مصر إلى حضارة البحر المتوسط بحكم تأثير الحضارة المصرية القديمة على حضارة اليونان التى أثرت بدورها فى الحضارة الرومانية التى تعد ركيزة الحضارة الأوروبية الحديثة. فمصر شاركت فى صنع الحضارة الأوروبية؛ ولذلك يجب أن تأخذ بجميع مكونات تلك الحضارة دون حرج، وأن تنسى تماما كل روابطها بالدائرة العربية - الإسلامية. وهنا نجد فكرة «القومية المصرية» تلتقى مع فكرة «القومية السورية» فى الانتساب إلى حضارة البحر المتوسط. وبلغ الغلو فى هذا الاتجاه، حد ادعاء وجود «إنسان البحر المتوسط» الذى يختلف فى بنيته ومزاجه عن إنسان «الصحراء» (ويقصد بذلك العرب).

ولكن . . هل كانت «القومية» بتشعباتها المختلفة، عربية كانت أم إقليمية (مصرية أو سورية) تعبر عن إدراك الجماهير فى مختلف أرجاء الوطن العربى لهويتهم؟ أم كانت مجرد أفكار تدور فى أذهان نخبة المثقفين، يعبرون عنها فى كتاباتهم؟

قبل الإجابة على هذا السؤال الجوهرى، يجب أن نضع فى اعتبارنا أن فكرة القومية التى وفدت إلينا مع الفكر الغربى فى القرن التاسع عشر كانت تعبيرا عن مرحلة معينة من مراحل التطور عرفها المجتمع الأوروبى، ارتبطت بالنمو الاقتصادى الرأسمالى، وما ترتب عليه من إفراز قوى اجتماعية جديدة (البورجوازية)، زحزحت القوى القديمة الإقطاعية عن مواقعها، وطرحت أفكارا جديدة لتصفية مجموعة القيم التى ارتكز عليها المجتمع الاقطاعى القائم على نظام تراتبى صارم، يجمد الناس فى مواقعهم الاجتماعية فلا يملكون منها فكاكا. ومن ثم كانت أفكار عصر التنوير التى دعت إلى الحريات بمختلف أبعادها، وإلى المساواة، وحقوق الإنسان، والحكم الدستورى. وجاءت الثورة الفرنسية لتقدم الإطار السياسى لنظام يقوم على تلك الأفكار.

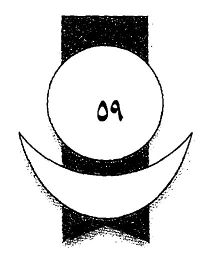
أما البلاد العربية فلم تشهد مثل هذا التطور فى ظل الحكم العثمانى، فكان المجتمع إقطاعيا زراعيا، رعويا، وتراوحت فرص النمو الرأسمالى بتوافر الظروف الموضوعية لتطور رأس المال التجارى أو غياب تلك الظروف نتيجة سطوة العسكر على السلطة وابتزازهم التجار بالقدر الذى استنزف كل ما استطاعوا تحقيقه من تراكم. وظلت القيم الاجتماعية السائدة فى الوطن العربى قيما أبوية، قيدت - إلى حد كبير - قدرة الفرد على الحركة والإبداع.

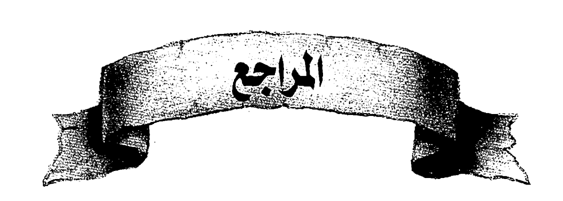


وهكذا كانت الفكرة «القومية» عند طرحها فى أواخر القرن التاسع عشر نبتة غريبة، اقتلعت من تربة توفرت فيها كل المقومات التى ساعدت على نموها، ونقلت إلى البلاد العربية حيث كانت التربة تفتقر فيها إلى إمكانات النمو فضلا عن الإثمار؛ ولذلك كانت تلك الفكرة مجرد «رطانة» مثقفين، لم تتجاوز حلقاتهم الضيقة لتنتقل إلى الجماهير التى كانت تعيش حالة ذهنية ومزاجية تختلف تماما عن تلك التى عاشها المثقفون. كما كان دعاة «القومية» يمثلون - فى واقع الأمر - أقلية بين المثقفين الذين كانت غالبيتهم تربت تربية تقليدية سواء فى المدارس الدينية الإسلامية، أو فى المدارس الحديثة التى أقامتها الدولة العثمانية فى عصر الإصلاح أو أقامها محمد على وخلفاؤه فى مصر، وهى مدارس جمعت فى برامجها الدراسية بين الإسلامى والحديث معا. ومن ثم كان القطاع العريض بين المثقفين يناصر فكرة المواءمة بين الموروث الثقافى الإسلامى، وما يتم اكتسابه من علوم الغرب ومعارفه على نحو ما أشرنا من قبل. أما من تربوا فى مدارس الإرساليات التبشيرية فقد حسموا اختيارهم للنموذج الغربى بما فيه فكرة «القومية»، وليس غريبا أن يكون دعاة «القومية الإقليمية» من بين هؤلاء.

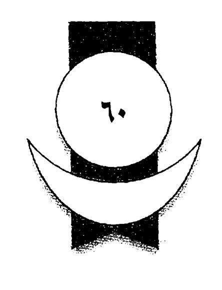
أما الجماهير العريضة فكانت بعيدة تماما عما يدور فى حلقات المثقفين ثقافة غربية، ولعل ذلك يرجع إلى تعالى هؤلاء على الجماهير التى كانت تغط فى الجهل والأمية، ولا تستجيب إلا لمن يدغدغ مشاعرها الدينية، وتتحرك تضامنا مع أخوة الدين؛ لذلك كان دعاة الفكر «السلفى»، أكثر تأثيرا بين الجماهير من غيرهم، يليهم من حيث التأثير دعاة فكرة «الجامعة الإسلامية».

ولعل ذلك يفسر قلة حماس الجماهير للفكر القومى، لأن من طرحوه عليهم، ومن بذلوا جهدا لجعل «الوحدة» العربية حقيقة ملموسة، لم يوفقوا فى تقديم ما يقنع الجماهير بأهمية تلك الفكرة؛ لذلك تركت الساحة خالية أمام التيار الإسلامى «السلفى» الذى يملك القدرة على التأثير من خلال خطابه الدينى فوق منابر المساجد. وسيظل هذا التيار الرجعى مسيطرا على الساحة طالما كان المشروع النهضوى العربى الذى يحقق التنمية بمختلف أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، غائبا عن الوجود.





- البرت حورانى: الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٨٩-١٩٣٩م، ترجمة كريم عزقول، بيروت، ١٩٦٨م.
- أديب إسحق: منتخبات، الإسكندرية، د.ت.
- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٨م.
- جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده: العروة الوثقى، بيروت، ١٩٧٠م.
- سامى الدهان: عبد الرحمن الكواكبى، القاهرة، د.ت.
- شكيب أرسلان: السيد رشيد رضا، إخاء أربعين سنة، دمشق، ١٩٣٧م.
- رفاعة رافع الطهطاوى: الأعمال الكاملة، جمع وتحقيق محمد عمارة، جـزآن، بيروت، ١٩٧٣م.
- على المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٨٩-١٩١٤م، بيروت، ١٩٧٨م.
- عائشة الدباغ: الحركة الفكرية فى حلب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بيروت، ١٩٧١م.
- عبد العزيز الدورى: الجذور التاريخية للقومية العربية، بيروت، ١٩٦٠م.
- فيليب دى طرازى: تاريخ الصحافة العربية، بيروت، ١٩١٣م.
- قدرى قلعجى: جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق، بيروت، ١٩٥٦م.
- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٣١م.
- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٢م.
- محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة، صيدا، ١٩٧١م.
- محمد حسين هيكل: تراجم شرقية وغربية، القاهرة، ١٩٢٩م.
- نور الدين زين: نشوء القومية العربية، بيروت، ١٩٦٨م.



٦٠



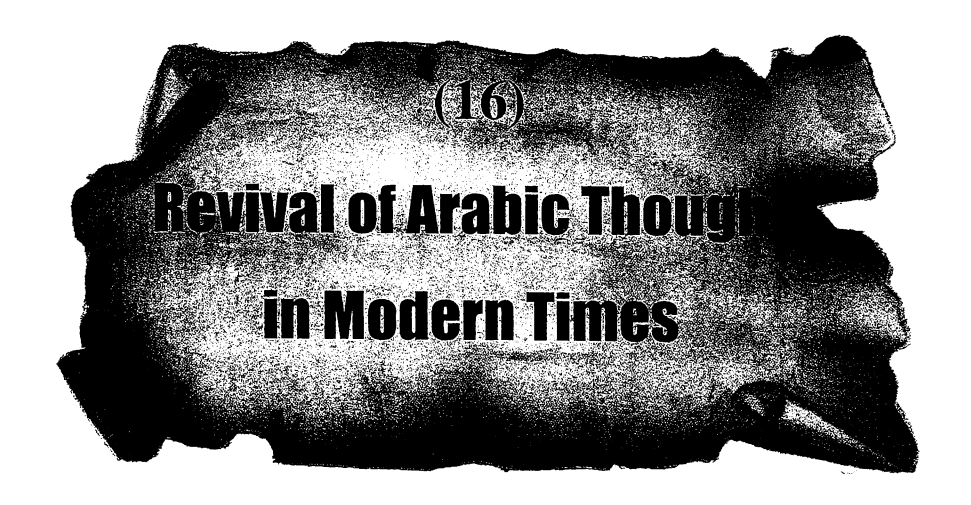
محتويات الكتاب



This work presents a general framework to the Arabic Thought Revival in Modern Times, explaining the various trends and attitudes in the domains of politics and culture allover the Arab World.

The author intends to convey a message of awareness to the younger generations in order to grasp the background and roots of current events and transformations in Modern Times.

Dr. Raouf Abbas



Dr. Raouf Abbas





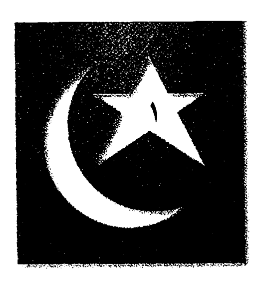
تأليف

أ. د. جمال زكريا قاسم

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

جامعة عين شمس







مقدمة

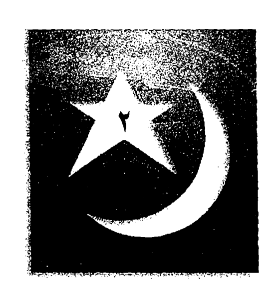


تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك



انهيار مبنى البنتاجون فى واشنطن

تلعب جماعات الضغط الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية دورا كبيرا فى صناعة القرار السياسى وخاصة فيما يتعلق بتوجهات السياسة الأمريكية إزاء مشكلات الشرق الأوسط بصفة عامة وما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى والقضية الفلسطينية بصفة خاصة. وقد استطاع اليهود أن يصلوا إلى تلك المكانة بفضل تماسكهم وبكونهم يشكلون جالية واحدة وذلك على نقيض الجاليات العربية التى لم تصل إلى درجة من التماسك وهو أمر يرجع إلى كونها لا تمثل نظاما سياسيا واحدا وإنما تتمثل فيها العديد من الأنظمة السياسية والأيديولوجية المتباينة. إضافة إلى أن التنظيمات العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية لا تجد من الأنظمة العربية ما تلاقيه التنظيمات الصهيونية من إسرائيل من دعم ومساندة. ولعل ذلك القصور لا يزال يقف حائلا دون أن تلعب الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى دورا مماثلا لدور اللوبى الصهيونى فى ممارسة الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية من أجل أن تتبع سياسة متوازنة فى الصراع العربى الإسرائيلى أو فى أن يكون لها تأثير فى صناعة القرار الأمريكى.



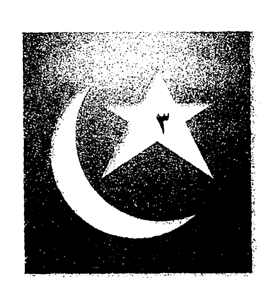
وعلى العكس من ذلك فإن الجاليات العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية تتعرض فى كثير من الأحيان لحملات من العداء والكراهية التى تشنها عليها أبواق الدعاية الصهيونية بهدف تشويه صورة العرب بصفة خاصة والمسلمين بصورة عامة واتهامهم بالتخلف وممارسة الإرهاب، وليست حوادث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى ترتب عليها تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن بعيدة عن الأذهان.

ولم تكن صورة العرب فى ذهن الأمريكيين ترتبط بتلك الأحداث الأخيرة فحسب، وإنما تعرض العرب منذ بداية هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لموجات من الكراهية كما استمرت نظرة الأمريكيين إلى المجموعة العربية باعتبارها من المجموعات العرقية المهملة والقليلة الأهمية فى المجتمع الأمريكى، وذلك على الرغم من ازدياد عدد أفرادها فى الوقت الحاضر إلى ما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة وفدوا من أجزاء مختلفة من العالم العربى، وبعضهم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو كان يدرس أو يعمل ثم اختار البقاء.

ولعل التحدى الذى تواجهه المجموعة العربية من وسائل الإعلام الأمريكى الذى تسيطر عليه جماعات الضغط الصهيونية كان دافعا للجاليات العربية إلى التماسك فيما بينها من أجل تصحيح صورة العرب بصفة عامة وصورة العرب الأمريكيين بصفة خاصة، ومواجهة موجة العداء والتمييز العنصرى الذين صاروا معرضين له فى مختلف المجالات. وقد تبلورت تلك الجهود فى تأسيس العديد من التنظيمات العربية الأمريكية مما سوف نعرض لها من خلال تلك الدراسة.

وتشكل الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى من حيث الواقع تجمعات متميزة ورصيدا مهما لدعم وتفعيل العمل العربى إذا ما أحسن الاتصال بها والتواصل معها، إلا أن ما يحول دون ذلك أن هناك كثيرا من العوامل أدت إلى الانقطاع والتباعد بينها وبين أوطانها ، منها مرور الزمن وبعد المكان فضلا عن الاندماج فى المجتمع الأمريكى والتحدث بلغته، وإن كانت هناك بعض الروابط التى لا تزال تربط العرب حديثى الهجرة بأوطانهم الأولى . ويمكن القول بصفة عامة أن العرب الأمريكيين على الرغم من مظاهر اندماجهم فى المجتمع الأمريكى إلا أن شعورهم بهويتهم العربية لا يزال قائما.

وليس من شك فى أن الدور الذى ينشط فيه العرب الأمريكيون من أجل تحقيق فاعلية لوجودهم فى المجتمع الأمريكى، والتحول إلى جماعة من جماعات الضغط السياسى، بهدف



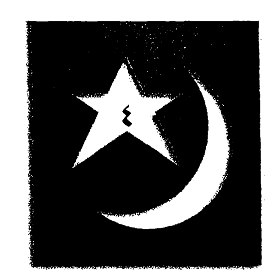
التأثيـر على القرار الأمريكى لن يتـحقق إلا بوصولهم إلى قدر أكـبر من الترابط والتـماسك، فضلا عن استـمرار توثيق الصلات فيـما بينهم وبين أوطانهم التى هاجـروا منها والتـفهم الجـيد للمشـكلات التى تعانيـها، والأهم من ذلك كله أن يجـد العـرب الأمريكيـون مـساندة من الأنظمـة العربية فـى تحركاتهم السياسـية من أجل إبراز القضايا العـربية لدى الرأى العام الأمريكى ودفع الاتهامات التى توجه للعرب والمسلمين بصفة عامة بالتخلف أو الإرهاب.

والأمر الذى لا شك فيه أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١التى وقعت فى كل من نيـويورك وواشنطن أرجـعت العـرب الأمـريكيين إلى الوراء على الرغم من أنهم مـوجـودون فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من مائة عام.

ولعل مما تجدر الإشارة إليـه أنه تم عقب أحداث الحادى عشر من سـبتمبر تغيـير عديد من القوانين الأمريكية التى تمثلت فى إمكانية احتجاز أى عربى أمريكى دون تمثيل قانونى عكس ما كان متبـعا فى السابق. ومن المؤكـد أن اللوبى الصهيونى له تأثيـر كبير فى تغـيير القوانين الدسـتورية الأمريكيـة بهدف إضعـاف ما وصل إليه العـرب من نفوذ فى المجتـمع الأمريكى، إضافـة إلى ما يحدث فى المجتـمع الأمريكى حاليا من ملاحـقة العرب وتحديد مناطق وجـودهم. ولعل ما يؤكد ذلك احتـجاز وكالة المخـابرات المركزية لآلاف من الطلاب العـرب الذين يدرسون فى الجامـعات الأمريكيـة أو ترحيلهم إلى بلادهم، وهذا بالطبع ناتج عن تأثير اللوبى الصـهيونى ونفوذه الكـبير داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

وسوف نحاول من خلال تلك الدراسة تتبع الهجرات العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية محللين أسـبابها ونتـائجها وذلك بهـدف إلقاء الضوء على أوضـاع الجاليات العـربية فى الولايات المتحدة الأمريكية التى شكلت إحـدى مهاجر العرب الرئيسية منذ أواخر القـرن التاسع عشر وحتى وقتنا الحاضر.

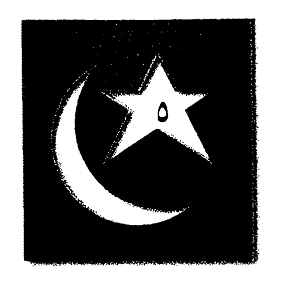
وتقع الدراسة التى بين أيدينا فى ثمانية فـصول حيث يتناول الفصل الأول البدايات الأولى للاتصـالات العربيـة الأمريكيـة موضحـا الأسبـاب التى أدت إلى تأخـر معرفـة العرب بالعـالم الأمريكى، والرواد العرب الأول الـذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكيـة. ويتناول الفصل الثانى الهجرات العربية الأولى ودوافعها السياسية والاقتصادية والدينية. ويركز الفصل الثالث على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمـهاجرين العرب الأول. كما يهتم الفصل الرابع بأدبيات عرب المهجـر من صحافـة وأدب مهجـري، اختلف فى مـذاقه عن الأدب الكلاسيكـى الذى تميز به فى الوطن العربى.



ويتناول الفصل الخامس النشاط السياسى للجاليات العربية الأولى وارتباطهم بقضايا أوطانهم الأولى، بينما عنى الفصل السادس بالهجرات العربية الإسلامية وما ترتب عليها من ظهور العديد من المؤسسات الإسلامية. كما يتناول الفصل السابع هجرة الكفاءات العلمية والمهنية والأسباب التى أدت إليها، وما شكلته الولايات المتحدة من عوامل جذب لتلك الكفاءات التى كان لها تأثير على ظهور التنظيمات العربية الأمريكية التى عالجها الفصل الثامن الذى عنى بالنشاط السياسى لتلك التنظيمات. وتنتهى الدراسة بمجموعة من التوصيات التى تستهدف تماسك المجموعة العربية الأمريكية وتحسين صورة العرب فى المجتمع الأمريكى ودفع الاتهامات التى توجه لهم بصفة خاصة وللمسلمين بصفة عامة فى الأوساط الأمريكية .

والله من وراء القصد،،،

أ.د. جمال زكريا قاسم





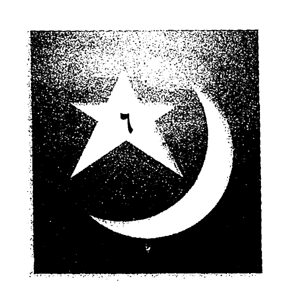


كريستوفر كولمبس

لم تكد تنقـضى سنوات قليلة علـى اكتـشاف كـريسـتوفـر كولمبس للعـالم الجديد فى عـام ١٤٩٢ حتى بدأت موجـة التوسع العثمانى فى العالم العربى فى عـام ١٥١٦، وما تبعها من خضوع معظم البلدان العربية للدولة العثـمانية. ولما كان من المتفق عليه أن العرب عاشوا خلال العهد العـثمانى الأول الذى يمكن تحديده فيما بين السنوات الأولى من القرن السادس عشر والسنوات الأخيرة من القرن الثـامن عشر فى عزلة عن التطورات السـياسية والاقـتصادية والثقافـية التى كانت تسود العالم الغـربى فى ذلك الحين فإن تلك العزلة قد أثرت تأثيرا سلبيا على علاقة العرب بالعالم الجديد.

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بعض الاتصالات الرسمية التى حدثت بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربى فى تلك الفتـرة المبكرة ، وكان لتلك الاتصالات أثرها فى وصول العديد من الرواد العرب إلى الولايات المتـحدة الأمريكية. ولعل أولى تلك الاتصـالات حدثت بين الثوار الأمريكيين وبين إيالة الجـزائر خلال نشوب حرب الاسـتقلال الأمريكية. وتشـير بعض الدراسات بصدد ذلك إلى المؤتمر القـارى الذى انعقد فى فـيلادلفيا وقـرر التفاوض مع إيالة الجـزائر فى عام ١٧٧٩ لكى تمده بالجـياد اللازمـة لتحـركات الجـيش الأمريكى. وتؤكـد تلك الدراسـات وصول شحنات كبيرة من الجياد كان يرافقها عدد من الجزائريين.

وبالإضافة إلى الاتصالات الأولى التى قامت بين الجـزائر والثوار الأمريكيين تؤكد الوقائع التاريخيـة أن سلطنة مراكش كانت أول بلد عربى يمنح اعـترافا واقعـيا ببيان الاسـتقلال الأمريكى الصادر فى عام ١٧٧٦، وعلى أثر ذلك أبرمت معاهدة تعاون وصداقة بين مراكش والمؤتمر القارى فى عـام ١٧٨٦ . وعقب عـدة سنوات من إعلان الجـمهـورية الأمـريكية فى عـام ١٧٨٩ طلبت



الولايات المتحدة الأمريكية من السلطان المراكشى محمد الثالث أن يستخدم مساعيه الحميدة من أجل عقد معاهدات صداقة وتعاون بين الولايات المتحدة الأمريكية وحكام تونس والجزائر وطرابلس، وقد نجحت تلك المساعى وأسفرت عن عقد معاهدات بين الولايات المتحدة وبين تلك الأقطار فى أعوام ١٧٩٥ و١٧٩٦ و١٧٩٧ على التوالى.

أما فيما يتعلق بعلاقة الولايات المتحدة الأمريكية ببلدان المشرق العربى فقد جاءت متأخرة بعض الشيء. وكانت المعاهدة الاقتصادية التى أبرمتها الولايات المتحدة الأمريكية مع السيد سعيد سلطان مسقط وزنجبار

فى عام ١٨٣٣ أولى المعاهدات التى تعقد فى هذا الشأن. وفيما يبدو أن السلطان كان حريصا على دعم العلاقات الاقتصادية بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية حتى أنه أرسل فى عام ١٨٤٠ إحدى سفنه الشراعية الكبرى المسماة بالسلطانة لكى تسلم أول شحنة من البضائع الأفريقية. وقد وصلت السفينة سلطانة إلى ميناء نيويورك على رأس وفادة عمانية برئاسة أحمد بن نعمان. وقد مكث النعمان وأفراد طاقم سفينته قرابة ثلاثة أشهر وجدوا فى خلالها اهتماما وترحيبا من عمدة وتجار مدينة نيويورك. ولا تزال مكتبة لجنة الفن بقاعة مدينة نيويورك تحتفظ ضمن مقتنياتها بصورة زيتية لأحمد بن نعمان. وقد عادت السفينة سلطانة إلى زنجبار وهى محملة بالبضائع الأمريكية.

وإلى جانب تلك الاتصالات الرسمية، هناك صلات قامت بين الشمال الأفريقى وبعض المستعمرات الإنجليزية على الساحل الشرقى من أمريكا الشمالية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث نقلت إلى هناك عن طريق القرصنة والاسترقاق أعدادا ليست بالقليلة من المغاربة المسلمين أثناء الصراع الذى كان دائرا بين القوى الإسلامية والمسيحية فى الحوض الجنوبى من البحر المتوسط خلال تلك الفترة.

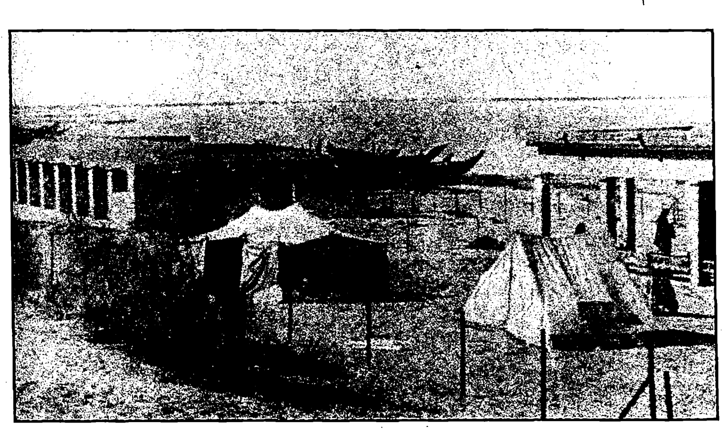
وإذا تجاوزنا الاتصالات الرسمية التى قامت بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين بعض دول وإيالات الشمال الأفريقى منذ أواخر القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر، أو تلك الاتصالات التى قامت بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة مسقط وزنجبار فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإنه لم تحدث صلات أوسع مدى، ولعل ذلك مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن الأمريكيين هم الذين اكتشفوا العالم العربى حين بدأوا اتصالاتهم ببلاد الشام منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، حيث لعبت البعثات

التبشيرية الأمريكية ورحلات الحج إلى بيت المقدس والسياحة دورا كبيرا في تحقيق تلك الاتصالات.

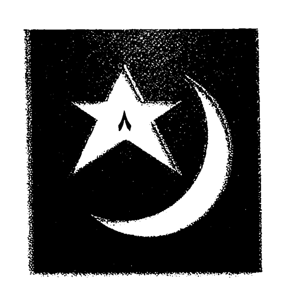
وليس من شك في أن مدارس البعثات التبشيرية الأمريكية قدمت إلى العرب كثيرا من المعلومات والمعارف المختلفة عن الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة فيما يتعلق بنظمها وثرواتها وكيفية الوصول إليها. ويتضح ذلك بصورة أكثر جلاء عند مطالعتنا للسيرة الذاتية لإبراهام رحبانى الذى كان من طلائع المهاجرين الشوام إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أورد فى سيرته هذه أنه هاجر من لبنان فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوضح تأثير مدارس الإرساليات الأمريكية عليه وعلى معرفته بالتاريخ الأمريكى وبالمؤسسات الأمريكية. ولعل تعرف أبناء الشام على العالم الأمريكى كان سببا فى أن أصبحت بلاد الشام مصدرا رئيسيا للهجرات العربية الأولى إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكننا التعرف على أعداد قليلة من العرب الذين وفدوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تتدفق موجات الهجرة العربية إليها، بل نستطيع القول بأن هؤلاء الرواد الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف القرن التاسع عشر هم الذين مهدوا الطريق للهجرات العربية الأولى التى أخذت تتدفق على الولايات المتحدة الأمريكية منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين.

وتركز العديد من الدراسات التى تناولت البواكير الأولى لتعرف العالم العربى على العالم الأمريكى على رحلة إلياس الموصلى. ويرجع تاريخ هذه الرحلة إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر وعلى وجه التحديد بين عامى ١٦٦٨-١٦٨٣. وقد بدأ الموصلى رحلته بزيارة بيت المقدس ثم اتجه إلى البندقية وزار إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وركب البحر من قادش إلى العالم الجديد، حيث زار جهات بنما ثم اتجه شمالا إلى أمريكا الوسطى وزار المكسيك واتجه منها إلى مدينة لوس أنجلوس التى أصبحت فيما بعد عاصمة ولاية كاليفورنيا، ومن الطريف أنه ترجم اسمها إلى اللغة العربية حيث دعاها مدينة شعب الملائكة وأورد مرادفا لها باللغة الإسبانية La Peupla de Los Angelos.



إحدى الإرساليات الطبية فى الكويت



وترجع أهميـة رحلة الموصلى إلى أنها تسجل أقدم رحلـة قام بها أحد أبناء المشرق العربى إلى العالم الجديد. ولم يكن هدف الموصلى من رحلته هـذه الاستقـرار فى العالم الأمـريكى، وإنما باعتـبار كونـه كاهنا مسـيحـيا لأحـد الأديرة فى العراق كـان يهدف إلى جـمع تبرعـات من المسيحيين فى أوروبا وأمريكا لبنى جلدته فى المشرق العربى.

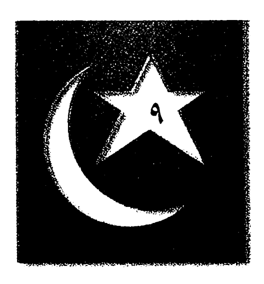
أما عن البدايات الأولى للهجرات الفردية والاستـقرار فى العالم الأمريكى فترتبط برائدين عربيين رحـلا من بلاد الشام إلى الولايات المتـحدة الأمريـكية فى بداية النصف الثـانى من القرن التاسع عشر الميلادى، وهما أنطونيوس البشعلانى، والحاج على.

ويعد الـبشعـلانى أول مهـاجر عـربى من لبنان رحل إلى الولايات المتـحدة الأمريكـية فى منتصف القـرن التاسع عـشر. وتشيـر الدراسات التى عنيت بسيـرته أنه سمع عن أمـريكا قبل أن يهاجـر إليها فى خريف عـام ١٨٥٤، وتمت له تلك المعرفة عن طريق اتصـالاته المستمرة بالتـجار والسيـاح الأمريكيين الذين كـانوا يتوافـدون دوما على بلاد الشام، وعلى الأخـص على الأماكن المقـدسـة فى فـلسطين فى رام الله وبيت لحم والقدس، حيث كان يقـدم لهم خدمـاته بحكم عمله ترجمانا، وهى مهنة كان يتعين على من يزاولها أن يقوم بتهـيئة وسائل الانتـقال للزوار وإمدادهـم بالخيام والمـأكولات اللازمـة وهدايتهم إلى أسـهل الطرق وأكثـرها أمنا خـلال تجـوالهم فـى المدن والأمـاكن المقدسة.

وليس مـن شك فى أن اتصال البشـعلانى بالأمريكيين شـدد فيـه الميل للهـجـرة إلى

بيت لحم- لوحة للفنان الأسكتلندى روبرتس سنة ١٨٣٩

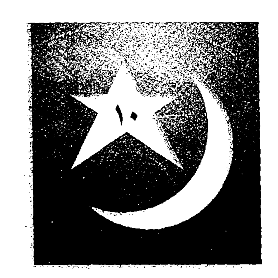




الولايات المتحدة الأمـريكية، وخاصة أنه استطاع أن يكون لنفـسه أصدقاء عديدين. ويتأكـد لنا ذلك فى أن البشعلانى ما كـاد يحط رحاله فى ميناء بوسطن حتـى انتقل إلى نيويورك لمـقابلة أصدقـائه الذين كان قـد تعرف عليهم أثناء زيارتهم لبلاد الشام. وفور استقرار البشعلانى فى نيويورك بدأ دراستـه للغة الإنجليزية وتفـهم العادات والتقاليـد الأمريكية فى المجـتمع الجـديد الذى انتقل إليـه كمـا أخـذ يعلم اللغة العـربيـة لمن يطلبهـا من الأمريكيين مما مكنه من الحصول على معاش لا بأس به استطاع أن يغطى به نفقات حياته. على أنه لم يقدر للبشـعلانى أن يعمر طويلا حـيث وافاه الأجل بعد سنتين من هجرته ولم يكن عـمره قد تعدى التاسعة والعشرين.

وعلى الرغم من الفترة القصيرة التى عاشهـا البشعلانى فى الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنه استطاع خلالها أن يحرز ثقة ومحبة من التقى بهم من الأمريكيين وأصبح موضع إعجابهم حتى أنهم شيدوا له بعد وفاته ضريحا مناسبا. ويذكـر «فيليب حتى» أنه عثر بطريق الصدفة على شاهد ذلك الضريح فى المقبرة العامة فى جرينوود بحى بروكلين فى نيويورك. ولعل ما سجل على شاهد ذلك الضريح يحكى الكثير من الدوافع التى دفعت البشعلانى للهجرة إلى العالم الجديد حيث جاء فيه ما ترجمته " أنطونيـو بشعلانى ولد بجوار بيروت فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٧ وتوفى فى نيويورك فى ٢٢ أغسطس ١٨٥٦. ربى على المذهب المارونى الكاثوليكى ووجـد بعد البحث الطويل المدقق وبعد أن عانى مشقات وأخطارا أن فى الكتاب المقدس كـلمات الحياة الأبدية، وعملا بالوصية التى كانت دائما شـفتاه ترددانها - مجانا أخـذتم مجانا أعطوا _ جاء إلى أمريكا ليؤهـل نفسه للعمل التـبشـيرى وواكب على الدرس بـهمـة لا تعرف الملل إنما اللـه ابتلاه بمرض ودعـاه لوطنه الأبدى فأصدقـاؤه العديدون يعتبـرونه رجلا لا يعرف الخوف وخـاليا من كل شائبة ومنفـردا بالحكمة فى إزهاق الباطل وإحقـاق الحق . . فهل لكِ أيها القارئ أن تجـتمع به فى السماء !؟. "وقـد حفرت تلك الكلمـات على شاهد من الرخـام الأبيض وضع على قـاعدة من الحـجر المحـبب وفى أعلى النصب وضع طربوش من الرخام الأحمر حـفر النقاش تحته أسدا وحية وحـملا وربما كانت رموزا لشجاعة الميت وحكمته ووداعته.

أما المعلومات المتعلقـة بالرائد العربى الآخر الذى كان معاصرا للبـشعلانى فى تاريخ هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهو الحاج على أو كما عرفه الأمريكيون بهاى جولى فتشير إلى أنه مثل قـرينه البشعلانى غـادر بلاده فى بادية الشام ليصل إلى الـولايات المتحدة الأمريكيـة فى عام ١٨٥٦ وإن كانت سيرته ودوافع هجرته تختلف اختلافا كبيرا عن البشعلانى، إذ إنه أتى بدعوة من



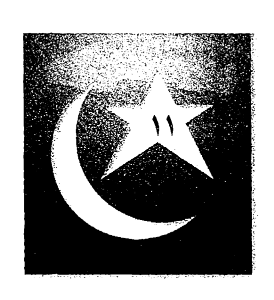
حكومة الولايات المتحدة الأمريكية للاستفادة من خبرته فى إدخال الجمال كوسيلة من وسائل النقل والمواصلات داخل المناطق الصحراوية فى الجنوب الغربى من الولايات المتحدة الأمريكية. وتذكر بعض الدراسات أن الحاج على كان كبيرا للجمالة وأنه أحضر معه عند مجيئه إلى الولايات المتحدة الأمريكية سلالات جيدة من الجمال.

وعلى الرغم من أن تجربة استخدام الجمال كانت تجربة مفيدة وصادفت بالفعل نجاحا كبيرا، إلا أن تلك التجربة سرعان ما انهارت واستبعدت نهائيا بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١-١٨٦٥، وذلك لما ترتب على تلك الحرب من تطورات هائلة شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية فى وسائل النقل والمواصلات، ومن ثم تركت الجمال لتعيش هادئة فى صحراء أريزونا. أما الحاج على فقد فضل البقاء فى الولايات المتحدة الأمريكية عن العودة إلى بلاده حيث التحق بالجيش الأمريكى وخدم فيه عدة سنوات ما لبث بعدها أن ترك الجيش ليعمل فى التنقيب عن الذهب فى كاليفورنيا حيث أصبح فيما بعد واحدا من كبار المنقبين. وتتفق الروايات على تاريخ وفاته فى عام ١٩٠٢، ومن الطريف أن ولاية أريزونا قد اعترفت بما أسداه لها من خدمات فأقامت حول مقبرته فى عام ١٩٣٥ نصبا تذكاريا هرمى الشكل محاطا بجمل مصنوع من المعدن!.

وإلى جانب البشعلانى والحاج على وغيرهما من رواد الهجرة العربية فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ارتحل رواد آخرون ارتحالا مؤقتا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم، ففى عام ١٨٦٤ جاء إلى الولايات المتحدة الأمريكية أحد الموارنة اللبنانيين ويدعى سهيل سابرنجى، وكان ذلك بدعوة خاصة تلقاها من المبشر الأمريكى ذائع الصيت كورنيلوس فان ديك لكى يتعاون معه فى تصحيح التجارب الخاصة بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية. وتشير دراسات أخرى إلى اثنين من تجار الحرير



صورة نادرة عائلة «جوزيف عربيلى» أول أسرة سورية هاجرت إلى أمريكا سنة ١٨٧٨م

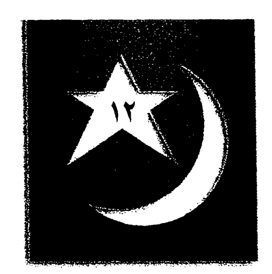


فى بيروت ارتحلا إلى الولايات المتحدة الأمريكية عقب إعلان إفلاسهما حيث نزلا فى ميناء بوسطن، ولم تكد تمضى فترة طويلة على وجودهما هناك حتى عادا إلى بلادهما وهما محملان بثروات كبيرة. وليس من شك فى أن ما حدث لهذين التاجرين المفلسين كان من الأسباب التى أغرت الكثيرين من مواطنيهما على اقتفاء أثرهما.

إضافة إلى تلك الحالات الفردية من الهجرة العربية تجدر الإشارة إلى بعض التجار الفلسطينيين الذين قدموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لعرض بضائعهم الدينية على الأمريكيين، ومن ثم يمكن القول أن تجارة الأيقونات كانت عاملا من العوامل التى دفعت كثيرا من السوريين إلى الهجرة نظرا لما أدركه هؤلاء بفطرتهم التجارية الحماس الشديد الذى كان يقبل عليه الحجاج الأمريكيون عند زيارتهم لبيت المقدس فى شراء تلك الأيقونات، ومن ثم سافر كثير من أبناء الشام خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لبيع تلك التحف الدينية المقدسة التى تكاثر الأمريكيون على شرائها بأثمان سخية، وهكذا كان لأولئك الرواد الأول عند عودتهم إلى بلادهم الفضل فى تعريف بنى جلدتهم بالعالم الأمريكى وبالمكاسب التى يمكن تحقيقها هناك، إذ كان لهم الفضل فى اكتشاف الفرص الاقتصادية المتاحة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

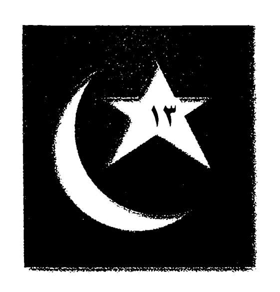
وعلى الرغم من كثرة التجار السوريين الذين وفدوا على الولايات المتحدة الأمريكية فى تلك الفترة، إلا أن الهجرة العربية ظلت مع ذلك تتخذ طابعا فرديا ولم تظهر بشكل جماعى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. ومع غلبة الطابع الفردى الذى كان سمة واضحة لإرهاصات الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، إلا أنه من الطبيعى أن تكون قد حدثت بعض الاستثناءات التى شذت عن هذه القاعدة.

ولعل أبرز ما نشير إليه بصدد ذلك وصول أسرة سورية إلى الولايات المتحدة الأمريكية بهدف الاستقرار الدائم، وهى أسرة جوزيف عربيلى التى استقرت فى مدينة نيويورك فى عام ١٨٧٨ وقد قضى عميد تلك الأسرة حياته الجديدة فى الولايات المتحدة الأمريكية يعمل فى تأليف بعض الكتب المتعلقة بقواعد اللغة الإنجليزية، وكان يهدف بذلك إلى مساعدة بنى وطنه المهاجرين على تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن لاحظ تعثر الكثيرين منهم فى أعمالهم بسبب جهلهم أو عدم معرفتهم بتلك اللغة المعرفة الصحيحة. وفضلا عن ذلك فقد وثق صلاته بالكثير من المبشرين الأمريكيين وساعدهم على ترجمة ومراجعة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية، كما كان يقوم إلى



جانب ذلك بتدريس اللغة العربية للمبشرين الأمريكيين، وقد توفى فى نيويورك فى ١٢ أغسطس من عام ١٨٩٢.

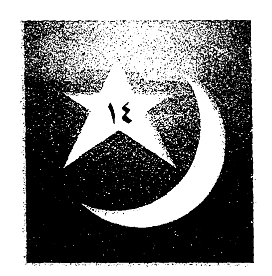
وتعد أسرة عربيلى بما تميزت به من استقرار وطابع ثقافى ممتاز استثناء فى تلك الفترة المبكرة التى شهدت إرهاصات الهجرة العربية التى تدفق فى خلالها التجار الجائلون والفلاحون الذين لم ينالوا نصيبا يذكر من العلم والثقافة، فضلا عما تميزت به تلك الهجرات من طابع فردى لم يأخذ تجمعا أسريا كما حدث بالنسبة لما أقدمت عليه تلك الأسرة التى يمكن اعتبارها رائدة فى مجال الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.





أخذت إرهاصات الهجرات العربية تفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ممهدة الطريق للموجات الأولى من الهجرات الجماعية التى يمكن إرجاعها إلى السنوات الأخيرة من ذلك القرن والسنوات الأولى من القرن التالي. وفى تحليلنا لتلك الهجرات يسترعى انتباهنا بعض الحقائق الهامة التى من أبرزها أن غالبية المهاجرين وفدوا من بلاد الشام بصفة عامة ومن جبل لبنان بصفة خاصة، وذلك بعد أن استقر فى أذهانهم أن الولايات المتحدة الأمريكية دولة عظيمة الثراء، وأن من سبقوهم فى الهجرة إليها استطاعوا جمع أموال كثيرة، وأن الفرصة لا تزال متاحة لاقتناص الثروة وامتلاك الأراضى الواسعة.

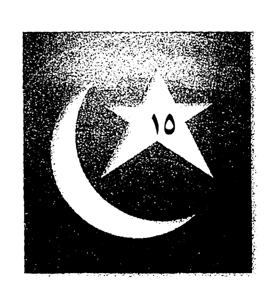
ويعد الدافع الاقتصادى دافعا رئيسيا من دوافع الهجرات العربية، ذلك أن جدب الأراضى اللبنانية كانت تشكل ظروفا اقتصادية سيئة أدت إلى إشاعة الفقر والانحلال الاجتماعى. ولعل مما يؤكد ذلك أن أكبر موجة من موجات الهجرة اللبنانية حدثت على عهد المتصرفية ١٨٦١-١٩١٥، وكانت تلك الموجة متأثرة إلى حد كبير بالضائقة الاقتصادية التى عاشها اللبنانيون خلال تلك الفترة، إذ إنه قبل نشأة نظام المتصرفية لم تكن الضائقة الاقتصادية قد وصلت إلى تلك الدرجة من السوء التى وصلت إليها بعد نشوء ذلك النظام، إذ كان لبنان يحصل على كل ما يحتاج إليه من المواد الغذائية من سهل البقاع الخصيب أو من شمال سوريا والساحل اللبنانى، وكل هذه المناطق كانت تابعة له. بينما نتج عن نشوء نظام المتصرفية اقتطاع أجزاء كبيرة من تلك الأراضى لكى تنضم إلى سوريا. يضاف إلى ذلك ما ترتب على التقدم فى وسائل النقل البرى والبحرى إلى انفتاح البلاد أمام السلع الأوروبية التى أخذت تتدفق فى الأسواق، وكانت تلك السلع تتكون من المنسوجات القطنية والصوفية الواردة من المصانع البريطانية فى مانشستر ويوركشير وغيرها. وليس من شك فى أن الغزو الصناعى الأوروبى أحدث تأثيرا كبيرا فى كساد المصنوعات اليدوية المحلية التى كان يعتمد عليها اقتصاد البلاد، وترتب على ذلك أن أخذت تلك المصنوعات تتراجع بشكل واضح أمام البضائع الأوروبية ذات المستوى العالى فى الصناعة. كما انقرضت فى كثير من القرى



اللبنانية معظم الصناعات التقليدية التى كان يشتهر بها اللبنانيون كالصباغة والحياكة والمصنوعات الخزفية وغيرها.

وقد شكل ازدياد خصوبة نساء لبنان مع قلة خصوبة التربة الجبلية، وعدم مقدرة الأرض الزراعية المحدودة فى مساحتها على الوفاء باحتياجات السكان المتزايدة، عوامل هامة دفعت بالكثيرين إلى مغادرة بلادهم بحثا عن آفاق جديدة. إضافة إلى الظروف الاقتصادية السيئة التى عانى منها جبل لبنان، كانت هناك ظروف أخرى أسهمت فى دفع تيار الهجرة، من بينها النظام الضريبى المتعسف الذى كان متمثلا فى ضغط السلطات العثمانية على الفلاح واستيلائها على عشر محصوله وفرض الخراج الميرى على الأراضى الزراعية المملوكة له، وفضلا عن ذلك كانت تجبى من الفلاح ضرائب إضافية لأسباب متعددة كالإعانة أو إنشاء سكك حديدية أو طرق جديدة. وكانت جباية تلك الأموال تخضع لطرق شاذة غير إنسانية، حيث كان يتوجه جابى الضرائب أو الخيال كما كان يطلق عليه، وهو على الأغلب كردى أو تركى أعجم إلى القرية، وهناك كان الفلاحون يتعرضون لصنوف شتى من الإهانة والتعذيب. إضافة إلى نظام ملكية الأراضى الزراعية التى كانت تتسم إلى حد كبير بالطابع الإقطاعى، فضلا عن أساليب الإنتاج والتعسف فى جباية الضرائب، وقف الفلاح السورى نتيجة تخلفه وفقره وجهله عاجزا عن مواجهة أمراض المحاصيل الزراعية، وعلى الأخص وباء الفيلوكسر الذى أخذ يزحف فى نهاية عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر من العريش إلى المناطق الزراعية فى بلاد الشام. وما كاد يحل عام ١٨٩٠ حتى انتشر انتشارا مذهلا فى جميع البساتين وخاصة بساتين الكروم. ومن المعروف أن منتجات الكروم كانت تعد من المصادر الرئيسية للاقتصاد الزراعى فى بلاد الشام. ومن ثم يتخذ كثير من الباحثين ذلك العام باعتباره مؤشرا واضحا للهجرة اللبنانية بمعدلاتها الكبيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

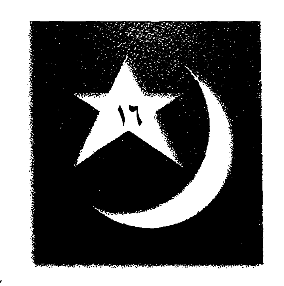
وإلى جانب التعسف فى جمع الضرائب كانت أساليب الزراعة تتسم بطابع الإنتاج التقليدى الذى كان يؤثر بدوره على قيمة المحصول، وبالتالى فإن مجرد حدوث قحط عارض أو انهيار مفاجئ فى إنتاج أحد المحاصيل الزراعية كان كافيا لكى يدفع الكثيرين إلى الهجرة والبحث عن أراض جديدة. ومن ناحية أخرى كانت الطبيعة الطبوغرافية لجبل لبنان بصفة خاصة لا تشجع عمليات الاتصال التجارى على حين قدم اتساع البحر الطموح أمام الكثيرين للبحث عن الثروة والثراء فى الآفاق البعيدة، ولعل ذلك مما دفع كثيرا من الباحثين إلى القول بأن جبل لبنان كان مكانا غير مضياف للعيش فيه على حين كان مكانا ممتازا للرحيل منه.



نخلص من ذلك إلى أن الأوضاع الاقتصادية السيئة وتخلف الإنتاج الزراعى وافتقار الصناعة إلى مواد أولية وانحطاط التجارة وازدياد معدلات الزيادة السكانية كانت جميعها من العوامل الرئيسية المحركة للهجرة. وعلى الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والديموجرافية كانت أكثر تأثيرا على الهجرة، فلا يمكن مع ذلك أن نغفل أو نقلل من الدوافع الأخرى ونعنى بها الضغوط السياسية والاجتماعية والدينية والطائفية، إذ أسهمت تلك الضغوط جميعها فى إرغام الكثيرين على ترك بلادهم. وتشير العديد من الدراسات بصدد ذلك إلى أن بلاد الشام أصبحت تحت ضغط وتعسف السلطات العثمانية معرضة لمجموعة من القيود والإجراءات التى كانت تؤدى إلى كبت الحريات الشخصية والعامة، كما كانت الأوضاع الدينية والطائفية المضطربة وخاصة بين الدروز والموارنة تشكل بدورها عوامل مؤثرة على استمرار تعقد الموقف. ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نؤكد فى هذا المقام إلى أن الهجرات العربية الأولى التى كانت تتشكل فى غالبيتها من المسيحيين السوريين لم تفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية فرارا من الاضطهادات الدينية أو الأوضاع الاجتماعية المتدنية فحسب- كما يركز على ذلك بعض الكتاب المسيحيين - إنما كانت تلك الهجرات مرتبطة فى واقع الأمر بالدوافع الاقتصادية والسياسية.

ومن الواضح أن الدوافع السياسية التى دفعت المسيحيين للهجرة قد اختلفت بالنسبة للمسلمين، ذلك أن المسيحى على الرغم من كونه جزءا من المجتمع الإسلامى، إلا أنه كان لا يستطيع أن ينمى شعور الولاء للخلافة العثمانية كقرينه المسلم، وكان الشكل الوحيد للولاء الذى عرفه هو التوق إلى قريته والشوق إلى عائلته والإحساس بالتضامن مع أبناء طائفته، حيث لم يبرز الولاء المستند إلى العاطفة القومية إلا فى مرحلة متأخرة بعض الشيء.

ومن ناحية أخرى يرى بعض الباحثين أن السلطات العثمانية كانت مسئولة عن تزايد حدة الأزمات بين المسلمين والمسيحيين، حيث كان الموظفون العثمانيون يميلون إلى الشدة فى تعاملهم مع الموارنة بسبب التدخل الأجنبى لصالحهم، وكانت تلك التدخلات الأجنبية والاستعمارية كثيرا ما تثار فى المجالس الإسلامية الخاصة والعامة، ومن ثم أخذ المسلمون ينظرون بعين الريبة والقلق إلى أوجه النشاط الأوروبى فى بلادهم بما فى ذلك الأنشطة التى كانت تقوم بها الإرساليات التبشيرية، وسيطرت الفكرة القائلة بتحالف الأوروبيين مع الطوائف المسيحية بهدف ضرب الدولة العثمانية على أذهان الكثيرين مما جعل الولاة العثمانيين يتحيزون للمسلمين حتى فى المشكلات والقضايا الفردية التى يكون أحد المسيحيين طرفا فيها، ومع ذلك كانت السلطات العثمانية العليا لا تستطيع



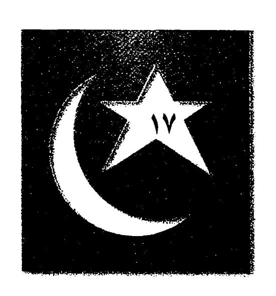
أن تتمادى فى هذا الاتجاه بسبب ما كانت تصطدم به دائما من احتجاجات القناصل الأوروبيين.

وعلى الرغم مما عمدت إليه كثير من المصادر إلى التركيز على النواحى الدينية والطائفية واتخاذها دوافع رئيسية للهجرة السورية، إلا أن كثيرا من المهاجرين السوريين لم يقرروا صراحة أنهم غادروا بلادهم نتيجة اضطهادات دينية أو طائفية تعرضوا لها، كما لم يكن يخطر على بالهم مغادرة بلادهم نهائيا، وإنما العودة إليها بعد فترة قصيرة أو طويلة يقضونها فى جمع المال والثروة. كما علل كثير منهم سبب هجرتهم بسوء الأوضاع الاقتصادية ومساوئ الحكم العثمانى وما ارتبط به من اضطهاد سياسى ونقص فى الحريات.

ولعلنا نخالف ما ذكره بعض الباحثين من أن أسرة عربيلى هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة اضطهادات دينية، ويدللون على ذلك بما صرح به عميد تلك الأسرة بأن سبب هجرته كانت من أجل حريته وحرية أبنائه، أو على حد قوله حينما حط رحاله فى نيويورك " ها أنا والأولاد سعدنا بالحرية "، إلا أن تعبير الحرية هنا لا يقتصر بالضرورة على الحرية الدينية وإنما له معان واسعة. وفضلا عن ذلك فإن ميخائيل رستم السورى يقرر صراحة فى كتابه " الغريب فى الغرب " بأنه "لم يكن القصد من تغربنا وتركنا الوطن إلا الحصول على المال بأول درجة، وراحة البال فى الدرجة الثانية، وأعنى بذلك السكنى حيث توجد حكومة عادلة تحت راية العم سام، والتخلص من حكومة الترك الكلام" .

وإذا كنا أكثر ميلا فى التركيز على الدوافع الاقتصادية للهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فليس معنى ذلك أننا نقلل أو نتجاهل الدوافع الدينية، ولكن علينا فى نفس الوقت عدم المبالغة فى إبرازها على النحو الذى تطغى فيه على ما عداها من دوافع أخرى. وفى تقديرنا أن العوامل


جورج واشنطن

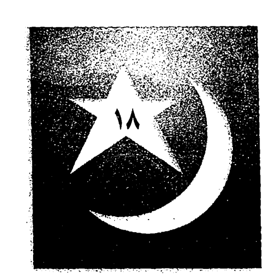


الدينية كانت من عوامل الهجرة دون أن تكون عوامل رئيسية فى دفعها، إذ لو سلمنا بكونها عوامل رئيسية لاستقر المهاجرون المسيحيون فى مهاجرهم دون أن يفكروا فى العودة إلى أوطانهم الأولى، فمن المعروف أن كثيرا من المهاجرين كانوا يفضلون العودة بعد فترة يقضونها فى جمع المال.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن ما ذكر من اضطهادات سياسية وانعدام الحرية وتعسف الإدارة الحكومية فى بلاد الشام، لم تكن مساوئها وقفا على المسيحيين وحدهم، وإنما تعرضت لها الطوائف الأخرى بما فى ذلك المسلمين أنفسهم. وقد يكون صحيحا أن المسيحيين قد أحسوا بتلك الضغوط أكثر من غيرهم، وهذا يرجع إلى ازدياد نسبة المتعلمين وانتشار الوعى الثقافى بينهم، بسبب ارتباطهم أكثر من المسلمين بالإرساليات التبشيرية ومؤسساتها العاملة فى بلاد الشام. وإذا كان طلب المال والثروة هو الدافع الرئيسى للهجرة، فليس معنى ذلك أن وضع المسيحيين الاقتصادى كان مترديا، وإنما على العكس من ذلك كان وضعهم الاقتصادى أكثر استقرارا من المسلمين أنفسهم.

وتؤكد تلك الحقيقة العديد من المصادر التى تعرضت للأوضاع الاقتصادية فى بلاد الشام، وأشارت إلى أن السلطات العثمانية كانت تشجع منح الأراضى للموارنة لأنهم كانوا أكثر إنتاجا من الطوائف الأخرى، بل كان ملاك الأراضى من المسلمين أنفسهم يفضلون الفلاحين الموارنة للعمل فى مزارعهم باعتبارهم أكثر دأبا على العمل من غيرهم من الدروز أو المسلمين.

إلى جانب الدوافع الاقتصادية والدينية، شكلت اليقظة الفكرية والثقافية فى بلاد الشام عاملا هاما من عوامل الهجرة، فمن المسلم به أن احتكاك السوريين بالمؤثرات الغربية أدى إلى إنعاش النواحى التعليمية والثقافية والفكرية. ولما كانت مدارس الإرساليات التبشيرية هى المؤسسات التعليمية الأكثر نشاطا، فقد كان من الطبيعى أن يترتب على وجودها تثقيف الناشئة المسيحيين مما عمق من وعيهم السياسى والفكرى. وقد لعبت الإرساليات التبشيرية دورا كبيرا فى إثارة اليقظة الفكرية بما قدمته للناشئة من صور براقة للحياة فى الدول الديمقراطية. حيث كان يكفى أن تقوم مدارس الإرساليات التبشيرية بتدريس التاريخ والجغرافيا أو بعض مبادئ اللغة الإنجليزية أو التعريف بوسائل الحياة الأمريكية لكى تفتح أذهان الشباب إلى الهجرة. وبصدد ذلك يقرر إبراهام رحبانى فى سيرته الذاتية أنه بينما كان يتلقى دروسه فى المدرسة التبشيرية الأمريكية فى قريته بجبل لبنان عرف الكثير عن أمريكا حين درس تاريخها وجغرافيتها، وعرف الكثير عن محررها جورج

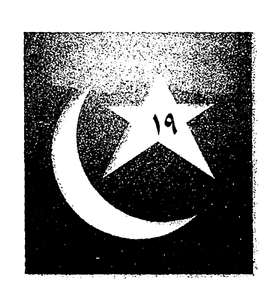


واشنطن، ولكن المعلومات المثيرة تلقاها عن طريق أقرانه العائدين الذين كانوا يتحدثون عما فى أمريكا من ثروات، وكيف تمكنوا من الحصول على أموال كثيرة فى سنوات قليلة لم يكونوا ليستطيعوا جمعها فى بلادهم فى عدة أجيال.

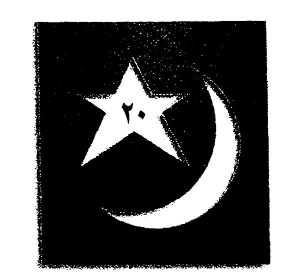
ومع أهمية الوعى السياسى والثقافى والاجتماعى فى دفع تيار الهجرة العربية، إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى الدوافع المرتبطة بالعوامل الثقافية والتعليمية، إذ إن الدراسة المتأنية تكشف أن جانبا كبيرا من المهاجرين الأول كانوا من الأميين والفلاحين، وإن كان ذلك لا يقلل فى الوقت نفسه من أهمية الوعى الثقافى فى تحريك تلك الهجرات التى تخللها رواد من المفكرين والمثقفين، كانت لهم إسهامات عديدة فى مجالات الفكر والصحافة والأدب فى المهجر الأمريكى كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد.

بقى أن نشير إلى أن دوافع الهجرة العربية لم تقتصر على الدوافع الاقتصادية والسياسية والفكرية والدينية فحسب، وإنما كانت هناك العديد من العوامل الأخرى التى يمكن أن نضعها إلى جانب تلك الدوافع، أو على الأقل اعتبارها من العوامل الثانوية التى ساعدت على تدفق تيار الهجرة، ومن بين تلك العوامل كثرة السماسرة ومقرضى الأموال، ووكلاء البواخر الذين كانوا يتجولون فى القرى اللبنانية والسورية لتشجيع الشباب على الهجرة. كما لا ينبغى أن نقلل من أهمية تأثير المهاجرين، وخاصة أولئك الذين حققوا نجاحا فى هجرتهم على أقاربهم وأصدقائهم، ودفعهم إلى الاقتداء بهم سواء تم ذلك عن طريق المراسلات التى كانوا يبعثون بها إليهم ويحدثونهم فيها عن أحوالهم، أو عند عودتهم لزيارة بلادهم، أو عودة البعض منهم عودة نهائية إذا لم تطب لهم الإقامة، أو إذا حققوا طموحهم فى الحصول على الثروة التى كانوا يفضلون استثمارها فى بلادهم.

كما شكلت الأموال التى كان يبعث بها المهاجرون إلى بلادهم عاملا آخر من عوامل الهجرة، حيث بدأت تظهر فى بلاد الشام العمائر الكبيرة التى بنيت بأموال المهاجرين، وكانت بمثابة دعاية حقيقية للهجرة إلى أمريكا. وليس صحيحا ما تشير إليه بعض المصادر إلى أن الحكومة العثمانية فتحت الباب واسعا لهجرة المسيحيين؛ لأنها اعتقدت أن نزوحهم من أراضى الدولة يمكن أن تتخلص من مشاكلها مع الدول الأوروبية. وفى تقديرنا أنه لا يمكن أن يكون ذلك سياسة معلنة من قبل الدولة العثمانية، حتى لا تتهم من قبل الدول الأوروبية بطرد رعاياها المسيحيين، ولعل ما يؤكد لنا عكس تلك المقولة فى أن كثيرا من السوريين المسيحيين كانوا يتجهون إلى رشوة السلطات



العثمانية فى الموانئ السورية كى تتـغاضى عن هجرتهم، كما أن الكثيرين منهم كانوا لا يعلنون عن هجرتهم إلى أمريكا، وإنما كـانوا يتخذون مصر سـتارا لـهجـرتهم. ويمكننـا أن نذهب فى القـول إلى أنه على الرغم أن الهجـرة إلى الولايات المتحدة الأمـريكية فى زمن العثـمانيين كانت غـير محبذة على المستوى الرسمى، إلا أنهـا كانت تتم بصورة فعلية وبمعدلات متزايدة نتيجة الدوافع المختلفة التى أشرنا إليها.



الفصل الثالث
الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجاليات العربية الأولى

على الرغم من أن قرار الهجرة يتصل اتصالا وثيقا بالظروف الشخصية أو الذاتية لكل فرد، إلا أنه يمكن القول مع ذلك أنه كانت هناك دوافع رئيسية للهجرة وهى الضيق الاقتصادى والأوضاع السياسية والدينية. وقد شكلت تلك الدوافع أسباب الهجرة العربية إلى العالم الجديد وإن كان الدافع الاقتصادى هو المحرك الأول لها.

ويمكن تحديد المراحل التى مر بها المهاجرون العرب فى بداية هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالمراحل الثلاث التالية :

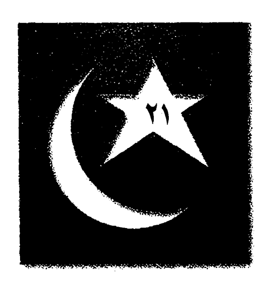
- **المرحلة الأولى،** وهى مرحلة اشتغالهم بالتجارة الجائلة.

- **المرحلة الثانية،** وتتميز بأنها كانت مرحلة التوسع والاستقرار فى الأعمال التجارية، ونجاح الكثيرين منهم فى تحقيق قدر كبير من الكسب والثراء، الأمر الذى وضح أثره فى إنشائهم المستودعات والمحلات التجارية الكبيرة التى لا يزال بعضها قائما فى حى بروكلين فى نيويورك حتى وقتنا الحاضر.

- **المرحلة الثالثة،** وقد جاءت متأخرة بعض الشيء، وهى مرحلة الاندماج والانصهار فى الحياة الأمريكية. وهذه المرحلة وإن كانت لم تتضح لدى الجيل الأول أو الثانى من المهاجرين، إلا أنها كانت أكثر شيوعا بصفة خاصة بالنسبة لأبناء المهاجرين الذين ولدوا فى الولايات المتحدة الأمريكية ولم تعد لديهم نفس العاطفة التى كانت لدى آبائهم أو أجدادهم من حيث علاقتهم بالأوطان العربية أو بأصولهم الأولى .

ولعل من المفيد الإشارة فى هذا المقام إلى أنه على الرغم من حرص المهاجرين العرب الأول على نقل العادات والتقاليد الشرقية واللغة العربية إلى أبنائهم، إلا أن هؤلاء بسبب ظروف نشأتهم فى الأرض الأمريكية، سرعان ما انصهروا فى المجتمع الأمريكى.

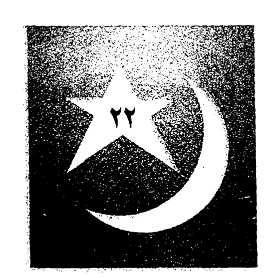
وليس هناك شك فى أن المهاجرين العرب الأول اصطدموا اصطداما عنيفا بالمجتمع الأمريكى الذى كان غريبا تماما عن المجتمعات التى نشأوا فيها. ويمكن القول أن تلك الصدمة



كانت أشد وأعنف من تلك الصدمة الحضارية التى واجهها أبناء المجتمع المصرى عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، إذ كانت تلك الحملة بالإضافة إلى أهدافها العسكرية تحمل معها الكثير من المنجزات والمؤثرات الحضارية الأوروبية. وإذا كان المصريون قد اصطدموا بتلك المؤثرات، فقد كان ذلك اصطداما هامشيا على عكس ما حدث للمهاجرين العرب الأول الذين تعرضوا للمؤثرات الغربية بطريقة أشد عنفا، حيث إنهم انتقلوا بأنفسهم إلى المجتمع الأمريكى، ومن ثم تعرضوا كلية لجميع مؤثراته.

ومع أن المجتمع الأمريكى قد عرف بكونه بوتقة انصهار، إلا أن المهاجرين العرب الأول جهدوا فى بداية الأمر فى الحفاظ على كيانهم ولغتهم وتقاليدهم. على أنه لا ينبغى مع ذلك أن نبالغ فى ذلك القول إذ إن الأمر لم يكن رغبة المهاجرين فى الحفاظ على أصالتهم بقدر ما كان محاولة منهم للدفاع عن أنفسهم إزاء المجتمع الجديد الذى انتقلوا إليه، مما جعلهم يتجهون فى بداية الأمر إلى التماسك فيما بينهم، وتكوين مجتمعات أو بيئات خاصة بهم. وفى تلك التجمعات التى أقاموها احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، حتى كان يطلق على شارع واشنجتن القديم بمدينة نيويورك " سوريا الصغيرة " - إذ كانت بلاد الشام تمثل النسبة الكبيرة من المهاجرين - حيث أقاموا هناك تجمعا كبيرا كثرت فيه محلاتهم ومقاهيهم ومطاعمهم، كما احتفظوا بعاداتهم كشرب القهوة التركية وتدخين النارجيلة وصناعة الأطعمة السورية. وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى ما ذكرته جريدة نيويورك صن فى عددها الصادر فى ٨ فبراير ١٨٩٤ بأنك " إذا مررت فى شارع واشنجتن بالقسم الجنوبى من نيويورك يأخذك الاستغراب عند مشاهدتك سكان ذلك الشارع يزاحمون بعضهم بعضا فى مرورهم، إذ إن هذا الشارع خصص لسكنى السوريين بمحلاتهم المليئة بالسلع الشرقية وعمالها الذين يلبسون السراويل الطويلة ويضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمراء مما يجعل المرء ينتقل بفكره وخياله متجاوزا البحار إلى بلاد الشرق البعيدة " .

وعلى الرغم من حرص المهاجرين العرب الأول على التجمع والتماسك فيما بينهم، إلا أن تفكك أواصر الوحدة الدينية والإقليمية قد أثرت تأثيرا كبيرا على أوضاعهم الاجتماعية فى أرض المهجر، حيث بدأت تظهر العديد من الجمعيات والأندية الطائفية والإقليمية منها ما ينتمى إلى الموارنة ومنها ما ينتمى إلى الأرثوذكس أو الدروز أو المسلمين، ومنها ما ينتمى إلى بعض المدن أو القرى اللبنانية أو السورية كزحلة ودمشق وبيروت وغيرها. ومن ثم لفتت الجالية السورية الأولى نظر الكثير من الباحثين، وربما يرجع ذلك بسبب تعقد تركيبها من النواحى الإقليمية والدينية



والمذهبية. وعلى الرغم من أن المسيحيين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من أفراد تلك الجالية، إلا أنهم كانوا مقسمين إلى طوائف الكاثوليك والأرثوذكس، كما كان الكاثوليك ينقسمون بدورهم إلى الموارنة والملكانيين والسريان والأرمن، هذا إلى جانب التعصب الإقليمي بالنسبة للعناصر السورية واللبنانية الذين كانوا يشكلون عناصر تلك الجالية.

وقد ترتب على التفكك داخل الجالية السورية مواجهة أفرادها لكثير من المصاعب والمعاناة التى باتوا يتعرضون لها من قبل العناصر الأخرى من المهاجرين، وخاصة من تلك العناصر والجاليات الأخرى التى كانت ترى فى وجودهم مزاحما لها فى المجال الاقتصادى. ولعل ذلك مما دفع أفراد الجالية السورية إلى محاولة التماسك والتجمع والتجاوز عن الخلافات الإقليمية والمذهبية لمواجهة التحديات التى كانوا يتعرضون لها.

وقد بذل المثقفون السوريون إلى جانب الصحافة العربية فى المهجر الأمريكى جهودا كبيرة لتصحيح صورة المهاجرين السوريين فى ذهن الأمريكيين، والتأكيد بأنهم ليسوا تجارا جائلين أو نهازى فرص أو شحاذين كما كانوا يتهمون بذلك، وإنما هم ورثة حضارة غابرة كان لها دورها فى تاريخ الإنسانية، وفضلا عن ذلك فإنهم يسهمون بأنشطتهم الاقتصادية والثقافية والعملية فى المجتمع الأمريكى، وفى تحقيق الكثير من الإيجابيات لذلك المجتمع الذى هاجروا إليه وعاشوا فيه، وهو أمر يظهر فى مجالات متعددة من مجالات الحياة العامة.

ومما هو جدير بالذكر أن تدفق الهجرة السورية بمعدلاتها المتزايدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قد أثار كثيرا من الكتاب والمفكرين السوريين الذين ركزوا على ما يمكن أن تتعرض له بلاد الشام من تدهور نتيجة فقد سكانها. وفى محاضرة بعنوان " المهاجرة وأضرارها " ألقاها يوسف أبو خاطر فى جمعية القديس يوسف المارونية فى بيروت فى ٢٤ يونيو ١٩٢٤ أكد فيها "إن كسب المال ليس هينا بقدر ما يتوهم الكثيرون بل إن دون بلوغ المهاجر إلى نيل قوته الضرورى فى ديار بعيدة نائية مصاعب ومتاعب تخور أمامها الهمم وتيئس النفوس وتضمحل العزائم، إذ يجد المهاجر نفسه تحت قوانين صارمة ونظامات قاسية يجب عليه التقيد بها، وقد يكون حقيقة أن هناك فئة نجحت ولكن هناك ألوفا مؤلفة من الذين ذهبوا ضحايا مطامعهم ". ويضرب يوسف أبو خاطر كثيرا من الأمثلة على ذلك، فهناك على حد قوله آباء يبيعون كل ما يملكون فى أرض الوطن ويهاجرون بنسائهم وصغارهم. وهناك عائلات بأسرها تنزح من لبنان إلى ديار الغربة ولا يحسب أربابها لحوادث الأيام حسابا، وإنما وضعوا نصب أعينهم أن السعادة فى المهاجرة!.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدعاوى التى ظهرت فى السنوات الأولى من القرن الماضى للكف عن الهجرة لم تقتصر على الكتاب العرب فى الأوطان التى نزح منها المهاجرون، بل ظهرت تلك الدعاوى أيضا بين كتاب ومفكرى المهجر أنفسهم الذين ألحوا على بنى جلدتهم بضرورة الكف عن الهجرة، بل وإلى دعوة المهاجرين بالرجوع إلى أوطانهم التى خسرت خسارة عظيمة بنزوح أبنائها عنها، وأن الأموال التى أرسلها المهاجرون والعمائر التى أقاموها فى قرى سوريا ولبنان لا تغنى فتيلا عن الأيدى العاملة والعقول المفكرة والثروات الكامنة فى أفراد المهاجرين ومجموعهم.

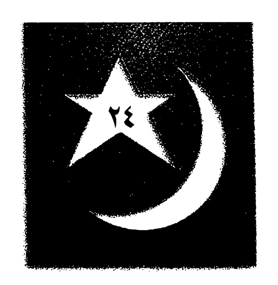




السلطان
عبد الحميد الثانى

على أنه فى الوقت الذى تمادى فيه الكثير من المفكرين فى تصويرهم لخطورة الهجرة وأضرارها، فقد اعتبرها آخرون كسبا كبيرا لأوطانهم، بل لقد اعتبرها البعض سببا هاما من أسباب اليقظة العربية التى حدثت فى بلاد الشام فى أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، إذ كان المهاجرون بصحفهم ومطبوعاتهم وبرسائلهم إلى ذويهم وزياراتهم إلى أوطانهم يحملون إلى مواطنيهم الأفكار الجديدة والمعتقدات السياسية المتحررة فيما يتعلق بتقرير المصير والحكم الديمقراطى وحب الاستقلال والتحرر من السيطرة العثمانية أولا، ثم من الانتداب الفرنسى ثانيا. وكان كثير من الكتاب والمفكرين الذين نادوا بتلك الآراء التحررية من الذين صدرت ضدهم أحكام بالسجن أو الإعدام على عهد السلطان عبد الحميد الثانى أو الاتحاديين أو سلطات الانتداب الفرنسى، ولكنهم تمكنوا من الإفلات إلى مصر ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وجدوا هناك التربة الخصبة للمناداة بأفكارهم التحررية.

ومما يثير الانتباه أنه على الرغم من انتشار التعليم فى بلاد الشام إذا ما قورن بالولايات العثمانية الأخرى، إلا أن الهجرات العربية الأولى تميزت مع ذلك بأن السواد الأعظم من المهاجرين كانوا من الفئات غير المتعلمة، كما كانوا من الفقراء الذين بلغ فقرهم درجة كانوا لا يستطيعون معها دفع نفقات سفرهم، ومن ثم كانوا يستدينون لتدبير تلك النفقات، أو يسافرون مع آخرين يدفعون عنهم تلك النفقات وهناك كانوا يتقاضونها من أرباحهم لفترة قد تستغرق عدة سنوات. وكان ذلك الوضع يشبه إلى حد كبير نظاما عرف فى إيطاليا باسم النظام البادرونى Padrone System شاع استخدامه فى الهجرات التى تدفقت من جنوب إيطاليا إلى الولايات المتحدة



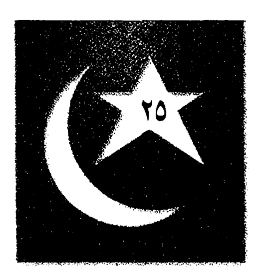
الأمريكية منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادى. ويعد ذلك النظام صورة من صور الاسترقاق أو بالأحرى تحايل على نظام الاسترقاق التقليدى، إذ كانت العلاقة بين المهاجر ومن يقرضه المال تقوم على أساس العقد المبرم بينهما والذى كان ينص فيه على أن يقدم صاحب المال " نولون " السفر للمهاجر ومن ثم يستخدم المهاجر لحسابه الخاص عدة سنوات يقوم فى خلالها بإطعامه وكسائه وإسكانه مقابل مقاسمته الأرباح التى يحصل عليها من كده وعمله.

وتشير العديد من المصادر إلى المشاق التى كان يتكبدها المهاجرون الأول سواء من قبل سماسرة الموانئ أو من المصاعب الطبيعية التى كانوا يتعرضون لها خلال الرحلة الشاقة من عواصف البحار والمحيطات. وقد يكون من الطريف أن نعرض فى هذا المقام لما ذكره يوسف أبو خاطر فى مقال كتبه فى مجلة المشرق إذ كتب يقول " تمثلوا حالة لبنانى مسكين ملأ السماسرة والمحتالون رأسه خرافات وأوهاما عن أحوال أمريكا والمهاجرين إليها وحشوا دماغه بأباطيل دفعته إلى بيع كل ما يملك فى أرض الوطن ليقطع ورقة سفر بالدرجة الثالثة وما يكاد يهبط ذلك اللبنانى المسكين إلى بيروت حتى يتلاعب به سماسرتها ومحتالوها فيلبسونه لباسا إفرنجية وقبعة يصبح معهما كأحد ممثلى الروايات الهزلية ثم يستنزفون آخر فلس فى جيبه إرواء لمطامعهم، وهم جماعة لا قلب لهم ولا شفقة، وأخيرا يقذفون به على ظهر إحدى البواخر إلى حيث ألقت ".

ولعل قصة مهاجر عربى واحد تشكل نموذجا لما كان يلقاه المهاجرون من تلك المتاعب والمشاق. فقد كان على المهاجرين فى بداية الأمر أن يدخروا المال اللازم للسفر أو يستدينونه من أحد سماسرة الهجرة، ثم كان عليهم بعد ذلك توديع أقربائهم وأصدقائهم ممن لن يرونهم مرة أخرى. وكانوا يبدأون الرحلة بالسفر من قراهم إلى الموانئ التى يقلعون منها، وكان بعضهم يقطع الرحلة سيرا على الأقدام، أما المحظوظون منهم فكانوا يجمعون أمتعتهم القليلة فى عربات يبيعونها قبل أن تطأ أقدامهم متن السفينة، وقد يتوقف بعضهم على طول الطريق للعمل فى الحقول حتى يجدوا ما يقتاتون به، وكثيرا ما كانوا حتى قبل



عند شاطئ البحر فى صيدا - لبنان - قبل الهجرة لأمريكا أوائل ق ٢٠



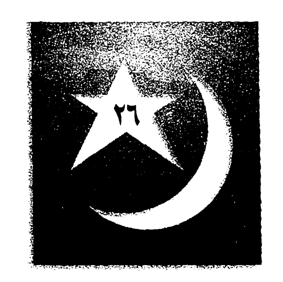
بلوغهم الموانئ يتعرضون لفتك الأمراض أو لهجمات قطاع الطرق واللصوص. كما كان عليهم الانتظار طويلا بعد أن يصلوا إلى ميناء بيروت حتى يجدوا من سماسرة الهجرة من ينجح فى تهريبهم من رقابة السلطات العثمانية إلى سفينة تقلع من بيروت إلى مرسيليا، وهناك ينتظرون باخرة أخرى تقلهم إلى نيويورك.

وفى ميناء مرسيليا يقع المهاجرون مرة أخرى فريسة لسماسرة اليهود الذين يبتاعون لهم تذكرة السفر، وعلى ظهر الباخرة المتجهة إلى نيويورك وفى عنابرها الضيقة كان يرقد المئات من المهاجرين. وبعد رحلة قاسية قد تستغرق ثلاثة أشهر تصل الباخرة إلى نيويورك. ولم تكن إدارة الهجرة الأمريكية تسمح لكثير من المهاجرين الذين لا يحملون جوازات سفر أو تأشيرة دخول أو شهادات طبية من دخول البلاد، وإنما كان يتم ترحيلهم وإعادتهم على نفس الباخرة التى جاءوا بها!.

وهناك حالات كثيرة عن مهاجرين منعوا من الدخول بسبب مرض التراكوما، وهو من الأمراض التى تصيب العين، إذ كانت السلطات الصحية الأمريكية تتشدد فى فحص المهاجرين للتأكد من عدم إصابتهم بذلك المرض. ويشير السناتور جورج هور فى سيرته الذاتية إلى تدخل الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت شخصيا لدى إدارة الهجرة لكى تسمح لطفلين سوريين منعتهما السلطات الصحية من دخول البلاد على أساس اشتباهها فى إصابتهما بمرض التراكوما، بينما سمحت لأمهما بالدخول للحاق بزوجها فى وورشستر بولاية ماساشوستس. وطبقا لما ذكره السناتور هور أنه حينما علم بذلك أسرع بإرسال برقية إلى الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت الذى أصدر أمره بالسماح للطفلين بدخول البلاد للحاق بأبويهما. وفى أثناء زيارة روزفلت لمدينة ورشستر بعد ذلك بعدة سنوات قدم له عمدة المدينة الطفلين اللذين اتضح أنهما لم يكونا مصابين بالتراكوما، وإنما جاء الورم الذى أصاب أعينهما نتيجة الرحلة الشاقة التى تعرضا فى خلالها لوهج الشمس الشديد أثناء عبورهما للمحيط الأطلنطى.

تيودور روزفلت

ومما هو جدير بالذكر أن الهجرات العربية الأولى بدأت بأعداد قليلة نسبيا، فلم يهاجر من القرية أو البلدة الواحدة سوى عدد قليل من الأفراد، ولكن هؤلاء بعد وصولهم كانوا يشجعون

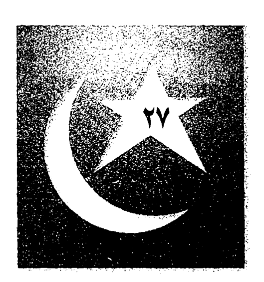


غيرهم على الهجرة، ومن ثم أخـذت معدلات الهجرة فى الازدياد. ولما كان المهاجرون بعـد استقرارهم لعدة سنوات ينجحـون فى الحصول على ثروة لا بأس بها فإنهم كانوا يرسلون بعض الأموال إلى أقربائهم وذويهم لكى يلحقوا بهـم، وخاصة إذا كان هؤلاء غيـر ذى ثروة ومن ثم دفعهم الفقر أو الطموح إلى أن يقتدوا بما فعله أقرانهم.

ولعل مما يثيـر الانتباه أن فكرة التـوطن فى أرض المهجر لم تكن تخطر على بال المهـاجرين الأول، بل كـان جل اهتمـامهم منصـرفا إلى جـمع المال، وبأقـصر مـا يمكن من الوقت ومن ثم الرجوع إلى وطنهم لكى ينـعموا بما جمـعوه من ثروات. وترتب على ذلك أن المهاجـرين العرب الأول لم يهتموا بالأعمال التى تتطلب قدرا من الاستقرار كالزراعة أو غيرها من الأعمال النظامية، وإنما كان اهتمامهم بالتجارة غير المستقرة، أو فيما يطلق عليها التجارة الجائلة Peddling Trade. ومن ناحيـة أخرى فإن الأعـمال المسـتقرة كـانت تحتاج إلى رءوس أمـوال لم تكن متـوافرة لدى المهاجرين الأول فى بداية الأمر.

ويتأكد لدينا عدم رغـبة المهجرين فى الاستقرار الدائم فى المجتـمع الجديد الذى انتقلوا إليه من بعض عبارات المجاملة التى شاعت فيما بينهم، ففى مجتمعاتهم المغلقة التى أقاموها فى المهجر الأمريكى كان إذا شـرب أحدهم القهوة مثلا فى بيـت أحد أصحابه أو معارفـه، فإن كلمة الشكر التى يقدمها لمضيفه " برجوعك إلى الوطن إن شاء الله " فيجيبه المضيف "برفقتك يا سيدى ".

والأمر الـذى لا شك فيه أن الجـاليات العـربية الأولى اسـتطاعت الحـفاظ على ثقـافتـها وشخصيتها ولغتها وعاداتهـا وتقاليدها. وكانت المقاهى التى أنشأها المهاجرون السوريون فى شارع واشنجتن بمدينة نيويورك هى مـركز تجمع الجـالية السورية، إذ كان من المألوف تجـمع أفرادها فى تلك المقاهى لشرب الـقهوة أو لعب الطاولة أو تدخين النارجيلة أو الحـديث عن شئون وطنهم. وأبى بعضهم أن يتخلى حتى عن الطربوش العثمانى وتربيج النارجيلة والشوارب العريضة والتربيعة فى الجلوس، كما حـرص كثير من المهاجـرين على الاحتفاظ بألقابهـم التى جاءوا بها من الوطن القديم كلقب البك أو الأفندى أو الشيخ أو الأمير، غـير أنهم احتفظوا بما هو أخطر من هذا كله، ونعنى بذلك خلافاتـهم المذهبية والطائفية وحـتى القروية، وأحيانا كانت تقـع بعض جرائم القتل استجـابة لثأر قديم قام فى الوطن. ونتج عن ذلك أن المجـتمع الأمريكى لم يعر الجاليـات العربية الأولى التفاتا ولم يحس بوجـودها. ووصل الأمر إلى حد وصف أحد الباحثين المجـتمعات التى

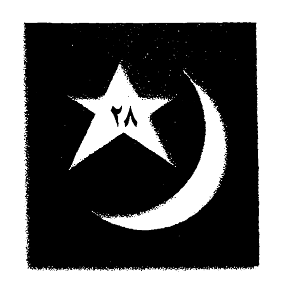


أنشأها المهاجرون العرب الأول بالمياه الراكدة المتجمعة على ضفاف النهر، على حين يهدر تيار المدنية الجارف بقربها.

ويمكننا تحليل ظاهرة انغلاق تلك الجاليات على أنفسها بأن هناك حواجز كثيرة حالت بين أفرادها وبين الاحتكاك بالمجتمع الأمريكى من بينها جهلهم باللغة الإنجليزية، وكان ذلك من أكبر المصاعب التى واجهتهم بالنسبة للاندماج أو التكيف فى المجتمع الأمريكى، ولأن معظم المهاجرين السوريين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بلا تعليم ولا كفاءة ولا لغة فقد كان كل شيء يبدو لهم غريبا، ومن ثم اضطروا إلى التجمع معا فى مناطق سكنية متجاورة وفى أحياء خاصة أقاموها لأنفسهم كأسلوب من أساليب الدفاع عن النفس ثقافيا واجتماعيا. على أنه إذا كان الحاجز اللغوى أو الثقافى قد استطاع أن يؤخر اندماجهم فى المجتمع الأمريكى، فإنه من ناحية أخرى كان عاملا هاما فى احتفاظهم بشخصيتهم وبلغتهم القومية.

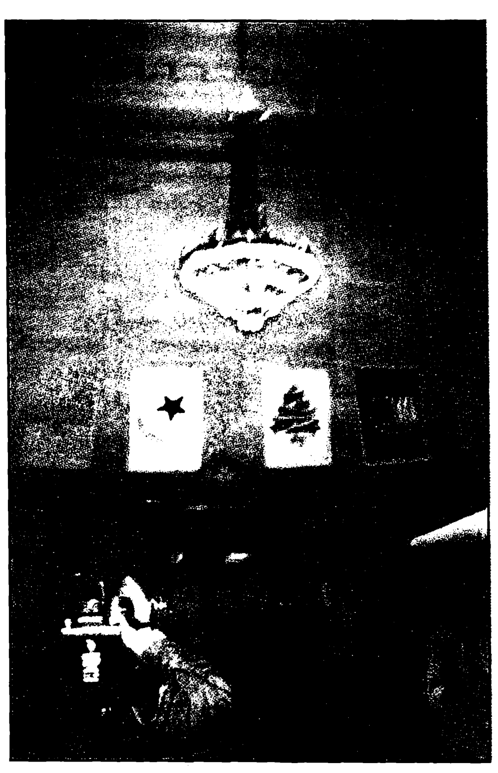
غير أن تلك الظاهرة الانغلاقية كانت ترتبط بالجيل الأول من المهاجرين، إذ لم تلبث أن تغيرت الأوضاع فى الأجيال التالية التى انصهرت وتم استيعابها فى البوتقة الأمريكية. ولم تكن عملية الاستيعاب هذه واضحة فى الجيل الأول من المهاجرين الذين واجهوا صراعا غير متكافئ مع المجتمع الأمريكى، ومن ثم أحسوا بالقلق والضياع والحنين إلى الوطن والتمرد على المجتمع الجديد قبل أن يضطروا للخضوع إليه والانصهار فيه فى نهاية الأمر. ويصور لنا عبد المسيح حداد فى مجموعته القصصية " حكايات المهجر " الصدمة العنيفة التى كانت تصيب المهاجرين الأول أمام عظمة المدينة الأمريكية، إذ كان معظم أولئك المهاجرين وافدين من قرى شرقية هادئة إلى مدن كبيرة مكتظة بالحركة والسكان ذات تقاليد وأنظمة معقدة، ومن ثم لم يكن غريبا أن يحس أولئك المهاجرون بالتشتت وتشوش الفكر والغربة والوحشة.

غير أنه على الرغم من حرص المهاجرين العرب الأول عن الابتعاد عن التيارات الغربية التى كانوا يخشون الاصطدام بها، إلا أنهم لم ينجوا مع ذلك من تغلغل بعض التأثيرات الاجتماعية بجوانبها السلبية، أو فيما يمكن تسميته بالأمراض الاجتماعية التى أخذت تظهر بينهم نتيجة جو الحرية الذى لم يألفوه فى أوطانهم القديمة، حيث أدمن كثيرون منهم شرب الخمر ولعب الميسر، ومنهم من تعلق بفتاة أفقدته ما جمعه من أموال بشق النفس، ومنهم من هجر زوجته لكى يتعلق بامرأة أخرى. كما ظهرت بعض المؤثرات الاجتماعية المتمثلة فى عدم الاهتمام بولادة الذكور، أو



تفضيلهم على الإناث، وفى تخلى المرأة المسلمة عن الحجاب، وتخلى المسيحية عن غطاء الرأس، ولم تكن قد مضت سنوات كثيرة على إقامتهم بالمهجر الأمريكى.

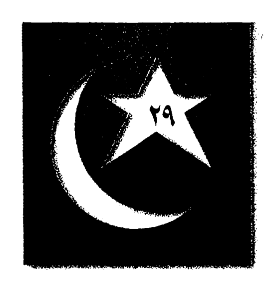
ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الجالية السورية عاشت فى هدوء نسبى، إذ إن دراسة سلوك أفراد تلك الجالية تؤكد أنهم لم يرتكبوا جرائم خطيرة كما حدث ذلك بالنسبة لعناصر أخرى من المهاجرين، وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة التى وقعت داخل الجالية السورية، والتى وصلت فى بعض الأحيان إلى جرائم قتل، نجد أن الجالية السورية بشكل عام لم تكن مصدر إزعاج للسلطات الأمريكية، إذ إن كل ما سجل لبعض أفراد تلك الجالية لا يعدو أن يكون معظمه أكثر من مخالفات عادية كان أكثرها شيوعا التجول بالبيع دون ترخيص، أو عدم فهم المهاجرين الأول لأنظمة البلاد وقوانينها المعقدة، وخاصة أن تلك الأنظمة والقوانين كانت تختلف من ولاية إلى أخرى.



الهلال والنجمة مع الشعارات الأخرى فى محطة القطار المركزى

وإذا تجاوزنا عن بعض السلبيات التى ظهرت فى الجالية السورية نتيجة الخلافات المذهبية والطائفية التى انتقلت معهم إلى المهجر الأمريكى، فإن أكثر ما كانت تتميز به الجالية السورية هو شدة تعلق أفرادها بأوطانهم القديمة، ومن ثم كانوا شديدى الاهتمام بما يجرى فيها من أحداث، ولم يتوانوا عن تقديم التبرعات السخية لأبناء وطنهم فى مختلف الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التى كانوا يمرون بها، وظهر ذلك واضحا خلال المجاعات التى حدثت فى سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها، كما كانت المدخرات التى يبعثون بها إلى بلادهم أكثر قيمة وارتفاعا إذا ما قورنت نسبيا بالمدخرات التى كانت تبعث بها العناصر المهاجرة الأخرى إلى أوطانهم التى نزحوا منها.

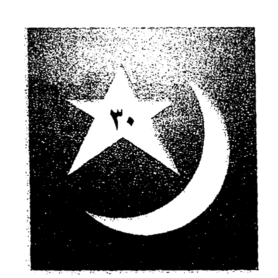
ولعل مما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من أنه لم يكن فى نية المهاجرين العرب الأول الإقامة



بصفة دائمة فى مهجرهم الأمريكى، إذ كان كثير منهم يخطط للعودة إلى وطنه القديم بعد تكوين ثروة مناسبة، إلا أن قليلا من أولئك المهاجرين هو الذى تحقق له ذلك. ويرجع السبب فى تقديرنا إلى عاملين رئيسين، العامل الأول أن تكوين الثروة ليس بالأمر الهين، وإنما يتطلب البقاء لفترة طويلة أكثر مما كانوا يتوقعونه، أو مما لم يكن فى حسبانهم عندما غادروا أوطانهم. أما العامل الثانى فيرتبط إلى حد كبير بالعامل الأول، ونعنى بذلك أنه حتى لو نجح أولئك المهاجرون فى تجميع ثروة لهم، فإن ارتباطهم بأوطانهم القديمة أخذ يهن بعض الشيء نتيجة إنجابهم لأبناء أصبحوا بحكم مولدهم أمريكيى الجنسية، ومن ثم أخذوا ينظرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية كوطن لهم لا يعرفون لهم وطنا غيره ، كما أصبحوا أميل إلى التقاليد والعادات الأمريكية منهم إلى العادات والتقاليد الشرقية.

ولعل مما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من أن المهاجرين العرب الأول وفدوا من مناطق ريفية، إلا أنهم كانوا أكثر ميلا للاستقرار فى المناطق العمرانية، ولذلك كانت مدينة نيويورك هى المركز الرئيسى الذى استقبل الهجرات العربية، واستقر فيها معظم المهاجرين. ولم تلبث الجاليات العربية أن امتدت بعد ذلك إلى العديد من المدن الأمريكية والولايات الأخرى، وخاصة فى ماساشوستس وبنسلفانيا وميتشجن وأوهايو. وبنشوب الحرب العالمية الأولى أخذت العديد من الجاليات العربية تتحرك إلى المراكز الصناعية لكى تسهم فى الصناعات الحربية، وخاصة فى دير بورن وديترويت، بينما تحركت جاليات عربية أخرى إلى الجنوب كى تشتغل بالأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الهجرات العربية الأولى كانت تتشكل فى غالبيتها من العناصر المسيحية بطوائفها المتعددة، بينما لم يشكل المسلمون فى تلك الهجرات سوى جانب ضئيل. وتؤكد العديد من الدراسات أن نسبة المسلمين حتى بداية القرن العشرين لم تكن تتعدى أكثر من ١٠٪ من مجموع الهجرات العربية التى وفدت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأن جبل لبنان أسهم وحده بما لا يقل عن ٩٠٪ من مجموع تلك الهجرات. ويذكر أحد الباحثين بصدد ذلك أنه كانت هناك قرية شهيرة فى جبل لبنان تسمى بيت الشباب، لم تلبث أن أخذ الناس يطلقون عليها بيت العجائز لكثرة هجرة الشباب من أبنائها. وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من يهود الشام رافقوا الهجرات العربية الأولى، إلا أن اليهود ما لبثوا أن انفصلوا عن السوريين والتحقوا بالجالية اليهودية التى كانت قد تأسست فى وقت أسبق بكثير من وصول الهجرات العربية الأولى.

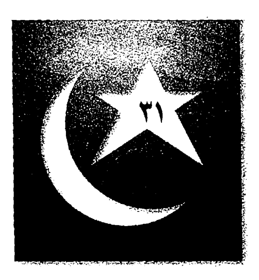


أدت الأزمات الاقتصادية فى بلاد الشام الناجمة عن ظروف الحرب العالمية الأولى، وما تبعها من كوارث طبيعية فضلا عن الكساد الاقتصادى العالمى فى فترة ما بين الحربين إلى زيادة معدلات الهجرات العربية، وتمكنت تلك الظروف أن تتغلب إلى حد كبير على مخاوف المهاجرين المسلمين من فقدانهم الانتماء لعقيدتهم، أو أن يصبحوا أقلية دينية فى بلاد يتشكل معظم سكانها من المسيحيين، وخاصة أن قسوة الظروف الاقتصادية كانت تقع على عاتق الفقراء المسلمين أكثر مما كانت تقع على المسيحيين.

وقد ارتبط تزايد معدلات الهجرة العربية بالتطور الذى حدث بالنسبة لوضع الجاليات العربية فى المجتمع الأمريكى، وكان أبرز ما تميز به ذلك التطور هو اختفاء طابع التجارة غير المستقرة أو التجارة الجائلة، حيث نجح الكثيرون بعد أن نمت الثروات فى أيديهم إلى الاستقرار وإنشاء المحلات والمستودعات التجارية. وقد نجح بعض الأفراد فى التوسع فى مشروعاتهم الاقتصادية، على الرغم من الشعور المعادى الذى أخذوا يتعرضون له من قبل بعض العناصر العرقية الأخرى، وخاصة تلك العناصر التى تعرضت لمنافسة السوريين واللبنانيين لهم فى المجال التجارى. وقد تركت تلك التحولات الاقتصادية أثرها على تحسن الأوضاع الاجتماعية لكثير من أفراد الجاليات العربية، وخاصة فى مدينة نيويورك، كما هجر الكثيرون منهم الأحياء السكنية الفقيرة، وأخذوا ينتقلون إلى الأحياء الراقية.

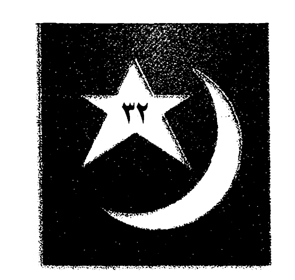
ومما يسترعى الانتباه أن هجرة المرأة أحدثت استقرارا كبيرا فى الهجرات العربية الأولى. ففى بداية الأمر كان المهاجرون العرب الأول لا يعتزمون الاستقرار نهائيا فى أرض المهجر، ولكن حين كثرت الثروة فى أيديهم، أخذوا يرسلون فى استدعاء أولادهم وزوجاتهم. وتشير بعض المصادر أن النساء أصبحن يشكلن فى السنوات الأولى من القرن الماضى ما يقرب من ٤٧٪ من الهجرات العربية الأولى، إما أن يلحقن بأزواجهن، أو للاشتغال بالتجارة لحسابهن الخاص، أو لكى يبحثن عن فرص للزواج بعد أن هاجر الذكور.

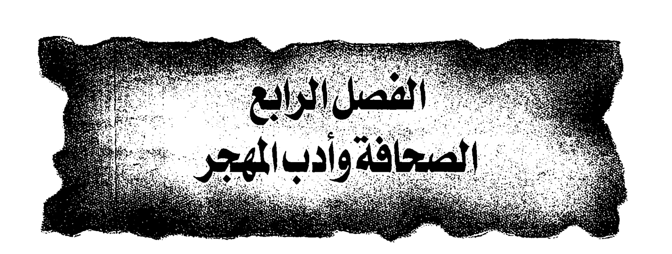
وعلى الرغم من أن النشاط الاقتصادى تركز بصفة خاصة على التجارة، إلا أن المجالات الاقتصادية الأخرى لم تخل مع ذلك من إقبال نسبة لا بأس بها من المهاجرين، حيث عمل الكثيرون فى المجالات الزراعية والصناعية والمهنية المختلفة. وقد استحوذت ولاية مينسوتا على عدد كبير من المهاجرين العرب الذين عملوا فى المجال الزراعى، وامتد نشاطهم إلى العديد من الولايات الأخرى ومن بينها نورث داكوتا وجورجيا وتنيسى وكارولينا وتكساس ونيو مكسيكو وغيرها، واستطاع بعضهم تجميع ثروات كبيرة مكنتهم من أن يصيروا من أصحاب المزارع الخاصة.



أما فى المجال الصناعى فقد استحوذت صناعات النسيج فى مصانع نيو إنجلند ونيوجرسى ومعامل الحرير فى باترسن، وصناعة مسابك الحديد فى بتسبرج اهتمام كثير من أفراد الجاليات العربية. وترتب على صناعة المعدات الحربية خلال الحرب العالمية الأولى تدفق العديد من العمال العرب إلى المناطق الصناعية فى شيكاغو وجاكسونفيل وفلوريدا ودير بورن وغيرها. كما استحوذت مدينة ديترويت على جانب كبير من الهجرات العربية، باعتبارها عاصمة لصناعة السيارات فى العالم. وقد عمل كثير من العرب فى مصانع فورد، وتذكر إحدى الدراسات أن العمال اليمنيين كانوا أول من تدفق على تلك المدينة، حيث استقروا بالقرب من مصانع فورد فى منطقة هاى بارك لاند، وعملوا فى تلك المصانع كعمال غير مهرة. ولم يلبث أن تزايد حجم الجاليات العربية فى المدينة نتيجة تدفق أعداد كبيرة من اللبنانيين الذين شيدوا المحلات التجارية والمقاهى، ثم تبعهم الفلسطينيون والعراقيون والمصريون وغيرهم، وأصبحت لكل جالية من تلك الجاليات طابعها الخاص بها. وعلى الرغم من الكساد الذى تعرضت له صناعة السيارات منذ سبعينيات القرن العشرين، فلا تزال الجاليات العربية فى مدينة ديترويت تعد من أكبر التجمعات العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويرجع ذلك إلى نشوء أجيال جديدة أصبح وجودها لا يرتبط بالضرورة بتلك الصناعات التى كانت عامل جذب للهجرات العربية الأولى.

وإلى جانب الأنشطة الاقتصادية المتعددة التى عمل بها المهاجرون العرب الأول فى المجالات التجارية والزراعية والصناعية، فقد كان من بينهم من مارس بعض المهن الفنية والعلمية، وإن كان يلاحظ أن ذلك حدث فى مرحلة متقدمة نسبيا وبدرجة محدودة. ويستلفت النظر ظهور فئات من الأدباء والصحفيين والأطباء والمهندسين والصيادلة والمعلمين والمحامين والموظفين وأصحاب مهن أخرى متنوعة. وقد أسهم عاملان رئيسيان فى ظهور تلك الفئات، أولهما تمكن بعض المهاجرين من إتقان اللغة الإنجليزية والتثقف بالثقافة الأمريكية، وتفهمهم لقوانين وأنظمة المجتمع الأمريكى، والعامل الثانى، ارتبط بوجود عدد لا بأس به من الطلاب العرب الذين قرروا البقاء بعد تخرجهم، حيث مارسوا المهن التى أعدوا لها فى دراساتهم، هذا بالإضافة إلى وجود فئات أخرى ممن أتموا دراساتهم فى بلادهم، وتخرج معظمهم من الجامعة الأمريكية فى بيروت، ثم آثروا الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان لتلك الفئات تأثيرها فى المجالات الثقافية والأدبية ليس فى المجتمع الأمريكى فحسب، وإنما امتد ذلك التأثير إلى ما حظيت به الثقافة العربية من العديد من المؤثرات التى يمكن تبين ملامحها فى الصحافة والأدب والثقافة، فيما صار يعبر عنه بالأدب والصحافة المهجرية، كما سنعرض لذلك فى الفصل القادم.





الفصل الرابع
الصحافة وأدب المهجر

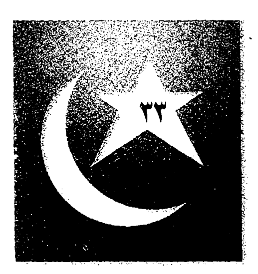
لم يقتصر نشاط الرعيل الأول من المهاجرين العرب على التجارة أو غيرها من المجالات الاقتصادية الأخرى، وإنما أخذوا يبرزون إلى جانب ذلك فى المجالات الصحفية والأدبية والثقافية.

وعلى الرغم من أن هجرة المثقفين بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنهم كانوا من القلة ومع ذلك فقد استطاعوا أن يحدثوا تأثيرات أدبية وثقافية واسعة لم تقتصر على الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى وحده، وإنما امتد أثرها إلى مواطنهم الأولى. وقد أقبل الكثيرون منهم على اكتساب العلوم والمعارف وتأليف الكتب والروايات الأدبية، حتى أصبح المهجر الأمريكى يفاخر أبناء الوطن القديم بأدبائه وعلمائه وشعرائه المجيدين الذين طرقوا كثيرا من الأمور الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية وغيرها.



نسخة من أوائل أعداد جريدة (كوكب أمريكا) وهى أول جريدة عربية صدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية - تأسست عام ١٨٩٢

وهناك العديد من المصادر التى عنيت بالتعريف بنوابغ العرب فى المهجر الأمريكى، ولا نعنى بذلك أولئك الذين ذاع صيتهم فى المجالات التجارية فحسب، وإنما أولئك الذين نبغوا فى الميادين الثقافية والفكرية والصحفية. وقد حظيت الصحافة بصفة خاصة باهتمام الرعيل الأول من المثقفين العرب. ولعل مما يسترعى انتباه الباحث عند دراسته للصحف والمجلات العربية التى صدرت فى السنوات الأولى من الهجرة العربية كثرة عددها حتى تجاوزت المائة والعشرين . ويمكن تعليل ذلك بعاملين رئيسيين :



- العامل الأول، تعدد المذاهب والطوائف والنعـرات الإقليمية فى المهجـر الأمريكى، بحيث كانت تلـك الصحف تعبر عن تلك الخـلافات والانقسامات بين الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى.

- العامل الثـانى، يرجع إلى أن كثـيرا من منشئـى تلك الصحف كانوا من الشوام الذين اكتسبوا خبرة فى العمل الصحفى قبل هجرتهم من بلادهم، وكان لكثير منهم أنشطتهم الثقافية والصحفية والأدبية قبل هجرتهم إلى الولايات المتحدة، ومن ثم واصلوا اهتـمامـاتهم بتلك الأنشطة بعـد هجرتهم، حـيث أسسـوا العديد من الصـحف والمجلات.

وقد يكون من المهم التـركيز على بعض تلـك الصحف، ونخص من بينها جـريدة الهدى المارونية. وكانت تلك الجريدة تشن الحملات العنيفة على الحكم العثمانى، وكثيرا ما كانت تطالب المهاجـرين بتقديم العون إلى إخـوانهم المتخلفين فى الوطن القديم. وقـد حددت الجريدة مبـادئها وأهدافها على النحو التالى :

- أولا، الإخلاص للولايات المتحدة الأمريكية واحترام أنظمتها السياسية.

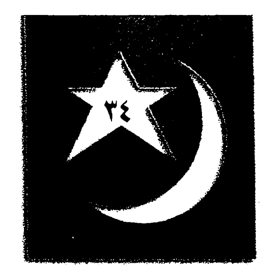
- ثانيا، السعى لحفظ الروابط والصلات الروحية بين الجاليات اللبنانية فى مختلف الأقطار، وبين المهاجرين وذويهم فى الوطن القديم.

- ثالثا، استقلال لبنان تحت لواء الحرية والأنظمة الديمقراطية.

- رابعا، مقاومة الأنظمة الاستبدادية فى لبنان وفى غيره من الأقطار.

ويرجع تاريخ صدور جريدة الهدى إلى عام ١٨٩٨، ولذلك تعد من أوائل الصحف العربية التى صدرت فى المهـجر الأمريكى. وقد أسس تلك الجـريدة نعوم مكرزل الذى يعد أبا الصـحافة العربيـة فى المهجر الأمـريكى. ونظرا لما لاحظه من تشوق المهاجـرين العرب للوقوف على أخـبار وطنهم القـديم، فقد اهتم بتـعيين مـراسلين فى معظم المدن والقـرى اللبنانية لكى يمدوه بالأخـبار والأوضاع السائدة فى بلاد الشام بصفة عامة وفى متصرفية لبنان بصفة خاصة.

وليس من شك فى أن إنشاء الصـحف الأولى فى المهجر الأمـريكى لم يكن عملا سـهلا، فالثقافة والأدب والسياسة كانت آخر الأشـياء التى يفكر فيها المهاجرون العرب الأول، الذين كانوا فى غالبيتهم من الأمـيين، فضلا عن أنهم كانوا يكافحون كفاحـا مريرا من أجل العيش، وبالتالى كانوا يعـتبرون الصـحف والمجلات نوعا من الكمـاليات، ولم يكن يعنيهم فى المقـام الأول سوى

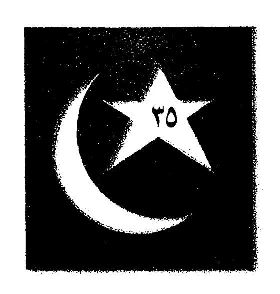


التجارة والبيع والشراء، ومن ثم لم تحظ الأخبار العالمية أو حتى المحلية بأى اهتمام من قبلهم، ومن ثم اعتبر إنشاء الصحف والمجلات فى المهجر الأمريكى من الأعمال الصعبة والرائدة فى هذا المجال.

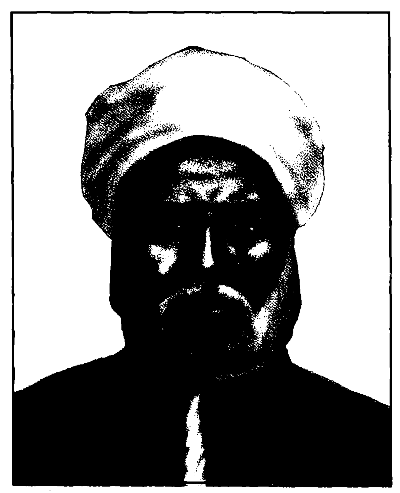
وقد عنيت جريدة الهدى على حث الأميين من المهاجرين على اكتساب جانب من الثقافة والتعليم. وعمل مؤسس الجريدة _ نعوم مكرزل _ على تخصيص نسخ مجانية من الجريدة كان يبعث بها إلى كل من يحس منه رغبة فى الاستفادة من المعرفة والثقافة. ولم يكن مكرزل رائدا فقط فى مجال الصحافة واللغة العربية فى المهجر الأمريكى فحسب، بل كان له دور فى الأنشطة السياسية والثقافية. وعلى الرغم من الجهود التى قام بها فى تلك الميادين، إلا أن ما يؤخذ عليه أنه كان إقليميا وطائفيا فى نزعاته، وانعكس ذلك التوجه على جريدته التى كانت لسان حال الطائفة المارونية، ومن ثم انغمست الجريدة، أو على الأحرى انغمس مؤسسها فى معارك عنيفة مع الصحف الأخرى، واستهدف من تلك المعارك التأكيد على الهوية اللبنانية المارونية، وفصلها عن الهوية السورية.

وإلى جانب جريدة الهدى، صدرت من الصحف العربية الأولى فى المهجر الأمريكى جريدة المرآة، وقد أسس تلك الجريدة نجيب دياب فى عام ١٨٩٩، وكانت جريدة يومية تعبر عن الطائفة الأرثوذكسية. وقد برز دور المرآة فى مطالبة الدولة العثمانية بالإصلاح واللامركزية ومنح الحكم الذاتى للولايات العربية. كما أسس الشيخ سليمان بدور جريدة البيان فى عام ١٩١٠ لكى تعبر عن أوضاع الطائفة الدرزية فى المهجر الأمريكى، وإن كان مما يسترعى الانتباه أن جريدة البيان، على الرغم من أنها كانت تدافع عن قضايا الدروز ونشر أخبارهم، إلا أنها كانت تصف نفسها بكونها جريدة عربية أمريكية مستقلة.

ومع أن معظم الصحف العربية فى المهجر الأمريكى كانت تتميز باتجاهاتها الطائفية والإقليمية، إلا أن هناك من الصحف التى حاولت التغلب على تلك النعرات، ففى عام ١٩٠٣ أسس أمين الغريب مجلة المهاجر التى نادى فيها بضرورة توثيق الروابط بين المهاجرين العرب على اختلاف نزعاتهم، وتدعيم الصلة بينهم وبين أوطانهم الأولى. وحول ذلك الهدف أيضا كان تركيز فرح أنطون ١٨٧٤-١٩٢٢، حين نقل مجلة الجامعة التى كان يصدرها فى القاهرة إلى نيويورك فى عام ١٩٠٧، وكان يدعو فيها إلى جمع شمل الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى وتأكيد الرابطة الوطنية فيما بينهم، ومن ثم حفلت مجلته بالمقالات الكثيرة التى تدعو إلى الحرية الدينية والتسامح الدينى. ومن المعروف أن فرح أنطون كان يعد واحدا من أبرز المفكرين العرب، وقد



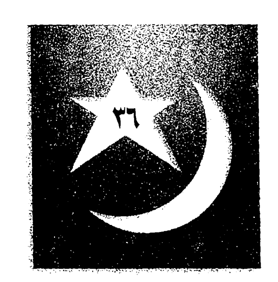
عرف فى مصر بنشاطه الثقافى والفكرى وبآرائه الفلسفية واشتهر بمحاوراته مع الشيخ محمد عبده. وإلى جانب الصحف السياسية ظهرت العديد من الصحف والمجلات الأدبية والفنية، كما صدرت العديد من الصحف والمجلات النسائية، أو تلك التى كانت تتناول النواحى الاقتصادية والتجارية.


الشيخ محمد عبده

وعلى الرغم من أن الصحافة العربية فى المهجر الأمريكى قد حققت انتعاشا كبيرا قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، إلا أنه مما يسترعى الانتباه قلة عدد تلك الصحف فى فترة ما بين الحربين العالميتين، ويعزى ذلك إلى العديد من الأسباب من بينها توقف الهجرات العربية أو نقصان معدلاتها نتيجة القوانين المقيدة للهجرة التى طبقتها الحكومة الأمريكية وما ترتب عليها من عرقلة الهجرة العربية أو التقليل من معدلاتها عما كانت عليه قبل نشوب الحرب العالمية الأولى. كذلك تجدر الإشارة إلى الأزمة الاقتصادية العالمية التى اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية عقد العشرينيات من القرن العشرين.

ومن الملاحظات الأخرى التى تثير الانتباه احتجاب العديد من الصحف التى كانت تصدر باللغة العربية، مما يعطى مؤشرا هاما عن بداية ظهور أجيال جديدة من العرب الأمريكيين الذين ولدوا فى الأرض الأمريكية، وأصبحوا أكثر تشبعا بالثقافة الأمريكية نتيجة عملية التأمرك التى تعرضوا لها إلى درجة نسيانهم اللغة العربية. وكان من نتيجة ذلك تحول العديد من الصحف التى كانت تصدر باللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية، أو جمعها بين اللغتين العربية والإنجليزية، كما حدث بالنسبة لجريدة الإصلاح التى بدأت فى الظهور فى عام ١٩٣١ باللغتين العربية والإنجليزية. وفى العام التالى ١٩٣٢ صدرت مجلة الأخبار السورية باللغة الإنجليزية فى مدينة لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا Syrian American News ، كما أصدرت مارى مكرزل مجلة العالم السورى The Syrian World فى عام ١٩٣٦.

غير أن الصحف العربية لم تلبث أن عاودت انتعاشها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ويرجع السبب فى ذلك إلى تدفق الهجرات العربية، وخاصة من الفلسطينيين الذين هاجر كثير

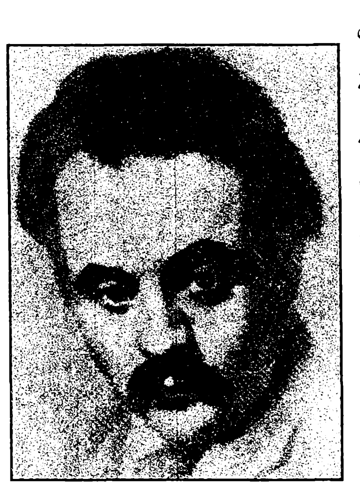


منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية عقب الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨. كما تميزت صحافة المهجر بأنها لم تعد صحافة سورية أو لبنانية فحسب، وإنما شارك فيها كثير من العرب المنتمين إلى شتى بلدان العالم العربى، ومن ثم تنوعت فى اتجاهاتها السياسية أو الفكرية أو الأيديولوجية، وعلى سبيل المثال هناك من الصحف الشامية من أكدت على الوحدة السورية على عكس الصحف المارونية التى أكدت على الكيان اللبنانى وفصله عن الهوية السورية. وأصبحت كل صحيفة تعبر عن أوضاع الجالية العربية المنتمية إليها.

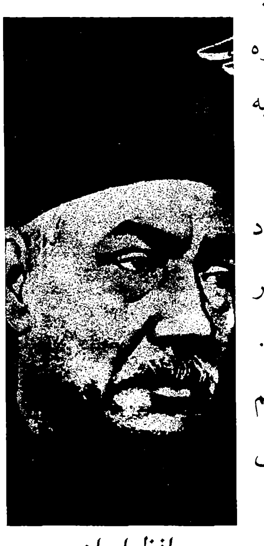
أما على الساحة الأمريكية فقد تصدت صحف المهجر لما عاناه المهاجرون العرب من نظرات متدنية لهم فى المجتمع الأمريكى، ووقع ذلك على عاتق المثقفين والأدباء العرب فى المهجر الذين حرصوا على تعريف الأمريكيين بالثقافة العربية. وهذا الطراز من المفكرين والكتاب العرب كانوا حصاد حضارتين، العربية والغربية، كما جمعوا بين اللغتين العربية والإنجليزية فأصبحوا ثنائى اللغة والثقافة Bilingual & Bicultural، بل كان بعضهم يتقن أكثر من لغة أجنبية إلى جانب اللغة العربية.

لقد غادر أولئك الكتاب أوطانهم القديمة إلى أرض جديدة منحتهم الحرية والإبداع الفكرى والأدبى، ولكنها لم تمنحهم الاستقرار فأحسوا بالغربة والتعاسة، وعكس إنتاجهم الأدبى أحوالهم النفسية القلقة حتى غدت تجربة الهجرة منبعا عميقا من منابع إنتاجهم، فما يكاد القارئ يمضى فى قراءة نثرهم أو شعرهم حتى يحس بمرارة التجربة مترسبة فى أعماق نفوسهم بما فيها من شعور موحش بالغربة والفراق.

ولعل من أبرز أولئك الكتاب بلا منازع جبران خليل جبران ١٨٨٣-١٩٣١ الذى أصدر العديد من المؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية، وعبر فى الكثير من أشعاره عن حنينه إلى وطنه الأصلى فى جبل لبنان. كما تجدر الإشارة أيضا إلى معاصره إيليا أبوماضى الذى هاجر من لبنان إلى مصر فى عام ١٩٠٠، ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩١١ التى عمل فيها بالتجارة فى بداية الأمر، ثم اشتغل بالصحافة وتمكن من خلالها أن يملأ فراغا فى أدب المهجر وفى تطوير الحياة الاجتماعية والثقافية للمهاجرين العرب، ونشر عدة دواوين اكتسب فيها الشعر العربى مذاقا خاصا.


جبران خليل جبران

وإلى جانب جبران خليل جبـران وإيليا أبوماضى تجدر الإشارة إلى ميخائيل نعـيمة الذى أتاح له عمره الطويل أن يكتب سيـرته الذاتية بنفسه حين بلغ السبعين من عمره، ولذلك تعد الأجزاء الثلاثة من سيرته الذاتية التى أطلق عليهـا " سبعون عـاما. . حكاية عمـر " من أهم المصادر لمن يريد دراسة أدبه أو الترجمة لحياته. وقد بلغت مؤلفاته بالعربية والإنجليزية أكثر من ثلاثين مؤلفا تضمنت العديد من المقـالات والمجموعات القصصية التى توضح فلسـفـته فى الحـيـاة. ويعد كـتـابه " مرداد " الذى أصـدره بالإنجليزية ثم نقله بعـد ذلك إلى اللغة العربية ذروة إنتاجـه الفكرى، وفيه تذكير برسالة الشرق وروحانيته التى طغت عليها مدنية الغرب وجلبته.



حافظ إبراهيم

شاعر النيل

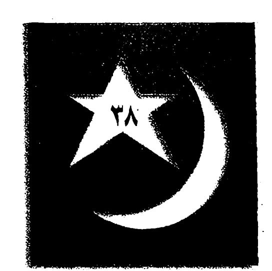
ومن أدباء المهـجر الأمريكى تجـدر الإشارة إلى عـبد المسـيح حداد ونسيب عريضة ووليام كاتسفليس وغـيرهم كثيرون. ومما هو جدير بالذكر أن أدباء المهجر كان لهم فـضل كبير فى إعلاء شأن اللغة والثقـافة العربية. وقد امـتدح شاعـر النيل حافظ إبراهيم الدور الذى قـاموا به، واعتـبرهم عاملا هاما فى نشـر اللغة والثقافة العربية فـى المهجر الأمريكى وذلك فى إحدى قصائده التى تضمنت عدة أبيات من بينها :

بـأرض كــــولمب أبـطـال غطـارفــــة ... أسـد جــيــاع إذا مـا ووثبـــوا وثبــوا

رادوا المنـاهل فـى الدنـيـــا ووجـــدوا ... إلى المجـرة ركـبـا صـاعـدا ركـبــوا

ســـعــــوا إلى الـكسب مـــحـــمــودا ... وما فتئت أم اللغات بذلك السعى تكتسب

كان لأدباء المهـجر دورهم فى ظهور حركـة أدبية لها خـصائصها التى تميـزت بغلبة الروح الرومانسـية والبـعد عن السـمات الكلاسيكيـة التى كانت تـتـصف بها الحـركة الأدبيـة فى المشرق العربى. وقد أتيح لأولئك الأدباء الاتصال بالثقافات الأوروبية إضافة إلى اتجاهات الأدب الأمريكى ونزعاته، وامتزجت تلك الثقـافات جميعها فى نفوسهم امتـزاجا أدى إلى ظهور أدب عربى جديد فيه ملامح من الشـرق والغرب، ومع ذلك فإن غالبية أولئك الكتـاب والأدباء والشعراء لم يجدوا فى الغرب كل القيم التى كانوا يتطلعون إليها،



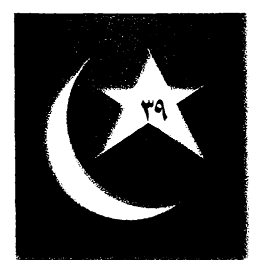
مما جعلهم يعانون من القلق والحيرة، بل وينطوون على أنفسهم أحيانا أو يفرون إلى الطبيعة ويندمجون فيها، أو يتطلعون إلى المثل العليا. ويتضح حنينهم إلى أوطانهم القديمة وما لهم فى ربوعها من ذكريات فى كثير من قصائدهم.

وقد عبرت الحركة الأدبية فى المهجر الأمريكى عن وجودها بشكل تنظيمى بتأسيس ما عرف بالرابطة القلمية التى كانت من أعظم المآثر التى حققتها الجاليات العربية الأولى فى المهجر الأمريكى، وأصبحت مدرسة أدبية فريدة بحكم نشأتها فى بيئة غير بيئتها، بل استطاعت التأثير فى أدب الوطن الأم بما كان لها من أثر عميق فى تطوير الأساليب العربية. ويعزى تأسيس تلك الرابطة التى أعلن عن قيامها فى نيويورك فى عام ١٩٢٠، والتى يمكن مقارنتها بالعصبة الأندلسية التى ظهرت فى البرازيل، إلى جبران خليل جبران ورفاقه من الأدباء المعاصرين له من أمثال ميخائيل نعيمة وإيليا أبوماضى وندرة حداد ووليام كاتسفليس وغيرهم. وكان لتلك الرابطة تأثير كبير على الأدب العربى وعلى الأخص فى الشعر، إذ أتت بنوع جديد تحرر فيه من وضعه القديم، إذ كان شعراء الرابطة القلمية يميلون إلى التجديد الشامل فى الشعر العربى شكلا ومضمونا.

ويتضح من أهداف الرابطة القلمية التى وردت فى مقدمة قانونها الأساسى الذى وضعه ميخائيل نعيمة أنها كانت ثورة على الجمود والتقليد، حيث جاء فى تلك المقدمة " ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدبا، ولا كل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالأديب، فالأدب الذى نعتبره هو الأدب الذى يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها، والأديب الذى نكرمه هو الأديب الذى خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر فى تموجات الحياة وتقلباتها ".


ميخائيل نعيمة

وتمضى المقدمة إلى التأكيد على أهمية الروح الجديدة التى ترمى إلى الخروج بالأدب العربى عن دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار، وتنعى على تلك التى تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء، ومع ذلك فإن تنشيط الروح الأدبية الجديدة كما تنص المقدمة لا يكون بقطع كل علاقة مع الأقدمين إذ إن فيهم من ستبقى آثاره

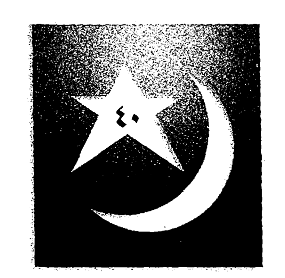


مصدر إلهام للكثيرين غدا وبعد الغد، بيد أن تقليدهم ليس فيه إلا موت لأدبنا ومن ثم " فإن المحافظة على كياننا الأدبى تضطرنا للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطالب غدنا، وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا ".

وعلى الرغم من النجاح الذى أحرزته الرابطة القلمية، إلا أنها أدت فى الوقت نفسه إلى نقمة أنصار الجمود والتقليد عليها. وقد اختلف أصدقاء الرابطة وأعداؤها عما إذا كان سبب قوتها وبعد تأثيرها يرجع إلى ثورتها على التقليد أو إلى تأثرها بالأدب الأمريكى أو بجو الحرية الذى عاشه أعضاؤها. وكما يقرر بعض الباحثين أن تأثير الرابطة على الأدب فى البلدان العربية يرجع إلى أن أعضاءها لم يقفوا فى إنتاجهم عند حدود المجتمع الذى عايشوه أو فى حدود البيئات العربية التى كونوها فى مهجرهم، وإنما ظلوا على ارتباط وثيق بمشكلات المجتمع الذى خلفوه فى الوطن القديم وبقضاياه ومشكلاته الكثيرة التى لم تكن بعيدة عن حياتهم الجديدة.

لقد سبق أن أشرنا إلى أن المهاجرين السوريين حملوا معهم إلى المهجر كل ما كان يسود فى مجتمعاتهم التى تركوها من نزعات دينية ومذهبية وطائفية وإقليمية وصلت إلى حد التعصب للمدينة أو القرية، ومن ثم اتجه أدباء المهجر ومفكروه إلى محاربة هذا الشعور الضيق الذى كان يمزق وحدتهم سواء فى وطنهم القديم أوفى مهجرهم الجديد، ودعوا إلى التعاون والتفاهم بين أفراد الجاليات العربية فى المهجر والتسامح فى العقائد المذهبية، وعنوا عناية خاصة بتطهير الحياة الروحية فكشفوا عن مفاسد المتعصبين من رجال الدين، وحاربوا تسلطهم الوهمى على العقول. وبصدد ذلك دعا ميخائيل نعيمة إلى فهم الدين فهما واعيا عميقا يبعد به عن التعصب وهو المرض الذى تفشى فى مجتمع الوطن القديم وانتقل إلى مجتمع المهاجرين. كما كتب جبران خليل جبران الكثير من المقالات التى بلغ من عنفها أن أثارت عليه رجال الدين فى الوطن القديم والجديد على السواء. ودعا أدباء ومفكرو المهجر الأجيال الشابة إلى التحرر من أوهام الماضى ونبذ التقاليد البالية التى تغل عقولهم وتعطل نموهم وائتلافهم مع المرحلة التاريخية التى يعيشونها، ونادوا بتحطيم الرجعية والإقطاع وبناء الحياة الجديدة بناء اشتراكيا تتكافأ فيه الفرص أمام المواطنين جميعا. ولعل جبران خليل جبران كان خير من عبر عن ذلك فى تحذيره للأمة التى تلبس مما لا تنتج وتأكل مما لا تزرع وتشرب مما لا تعصر.

استطاع الأدباء والمفكرون العرب فى المهجر الأمريكى بأعمالهم التى نشروها خلال النصف الأول من القرن الماضى أن ينجزوا رسالتين هامتين، الأولى، إثارة انتباه الأمريكيين إلى أهمية

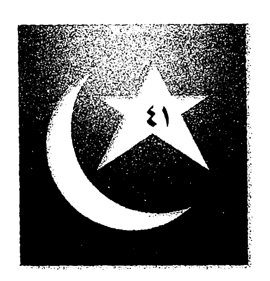


الفكر العربى، وحدث ذلك بفضل ثقافتهم ومعرفتهم باللغة الإنجليزية التى استطاعوا بها أن يؤكدوا للأمريكيين بأن المهاجرين العرب ليسوا تجارا فحسب، وإنما هم ورثة حضارة تليدة. واستطاعوا بذلك التغلب على عقدة النقص التى كان يشعر بها المهاجرون العرب إزاء العناصر الأخرى. وفى تقديرنا أن المهاجرين العرب كانوا شديدى الحساسية بالنسبة لطبيعة الأعمال التى كانوا يزاولونها فى بداية الأمر، ونعنى بذلك تجارتهم الجائلة، إذ إن دراسة الكثير من الهجرات العرقية الأخرى كالهجرات الأيرلندية والإيطالية واليهودية وغيرها توضح أن العناصر المهاجرة من تلك المجموعات العرقية قد عملت فى بداية هجرتها بكثير من المهن الدنيا التى لم تكن أعلى من تلك المهن التى مارسها العرب، وعلى سبيل المثال فقد اشتغل الأيرلنديون عمالا فى أرصفة الموانئ، وعمل الإيطاليون ماسحى أحذية واشتغل اليهود بالتجارة الجائلة. أما الرسالة الثانية التى أداها أدباء ومفكرو المهجر فقد ارتبطت بما أثاروه فى أوطانهم القديمة من حركات وطنية سياسية دعت إلى اعتماد القوميات أساسا للأوطان بدلا من الطوائف والمذاهب والأديان.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الحركة الأدبية والفكرية فى المهجر الأمريكى لم تقتصر على كتاب الرابطة القلمية، وإنما ظهر إلى جانبهم العديد من المفكرين الذين كان لإبداعاتهم الفكرية والأدبية أثر كبير فى تعريف الأمريكيين بالحضارة العربية. ولن يكون المجال متسعا للتعرض لهم جميعا، ونكتفى بالإشارة إلى أمين الريحانى صاحب الرحلات المعروفة فى جزيرة العرب وصاحب الآراء الفلسفية فى السياسة والاجتماع والإصلاح حتى اشتهر بفيلسوف الفريكة نسبة إلى المكان الذى نشأ فيه فى جبل لبنان.


أمين الريحانى سنة ١٩٣٥

ومن الرواد الأكاديميين فى المهجر الأمريكى تجدر الإشارة إلى فيليب حتى الذى كانت لدراساته عن المشرق العربى أثر كبير فى تعريف الأمريكيين بالحضارة العربية، وعلى الرغم من أن الكثيرين قد يختلفون حول آرائه ومفاهيمه بالنسبة للحضارة العربية أو الإسلامية، إلا أنه يعد بلا منازع المؤسس الأول للدراسات العربية الأكاديمية فى الجامعات الأمريكية.



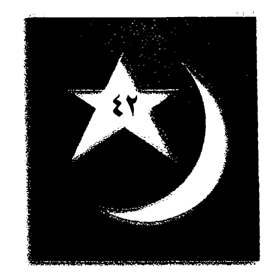
الفصل الخامس
النشاط السياسى للجاليات العربية الأولى فى المهجر الأمريكى

ارتكز النشاط السياسى للجاليات العربية الأولى فى المهجر الأمريكى على ما قام به المثقفون منهم فى التصدى للقضايا السياسية التى ارتبطت بشئون أوطانهم الأولى أو تلك القضايا التى مست وضعهم عموما فى المجتمع الأمريكى. وظهر التعبير عن ذلك واضحا فى صحافتهم وتجمعاتهم فضلا عن الأندية والجمعيات التى أقاموها فى مهجرهم.

ولعل أولى القضايا التى تصدى لها المهاجرون العرب ارتبطت بمساوئ الحكم العثمانى فى الولايات العربية، وبأسلوب الاتحاديين المناهض للحركات الإصلاحية ولدعاوى القومية العربية فى الولايات العربية ومن ثم كرس المهاجرون العرب جهودهم فى محاولة إنقاذ الأوضاع السياسية والدعوة إلى الإصلاح ومنح العرب حقوقهم فى الحكم الذاتى وتحقيق اللامركزية فى الحكم.

ولما كان هناك عدد كبير من المثقفين العرب الذين هاجروا نتيجة الضغوط الفكرية والسياسية التى عانوها فى أوطانهم الأولى، فقد أتاحت لهم أجواء الحرية فى المجتمع الأمريكى أن يكونوا أكثر قدرة على انتقاد الأوضاع السياسية فى أوطانهم دون خوف أو وجل، كما كان فى وسعهم المجاهرة بما يعتقدونه من آراء مرتبطة بالقومية والعروبة بعد أن تعرفوا على معانى الديمقراطية. ومن ثم أخذوا يؤسسون الجمعيات والأندية، كما أصدروا الصحف والنشرات السياسية واشتركوا فى كثير من المؤتمرات القومية التى كانت تعقد فى العواصم الأوروبية ليعبروا عن مطالب أبناء وطنهم، وكان لذلك النشاط السياسى أثره فى نضوج الفكر القومى العربى.

وعلى الرغم من أن الجمعيات والمنتديات وغيرها من المحافل التى أقاموها كانت مرتبطة إلى حد كبير بالنواحى المذهبية أو الطائفية أو الإقليمية، إلا أنها كانت تمثل إلى حد كبير الأفكار والاتجاهات السياسية التى كانت سائدة بين أفراد الجاليات العربية الأولى. ولعل أقدم رابطة سياسية تأسست فى المهجر الأمريكى هى الرابطة السورية أو العصبة السورية The Syrian Junta التى تأسست فى عام ١٨٩٩ وكان من أهدافها إثارة السوريين فى الوطن القديم ضد الدولة العثمانية والمطالبة بالحكم الذاتى وتحقيق الإصلاح واللامركزية فى الحكم، ومع ذلك فلم يترتب على قيام تلك الرابطة أثر يذكر بسبب بعد المسافة بين المهاجرين وأوطانهم الأولى.

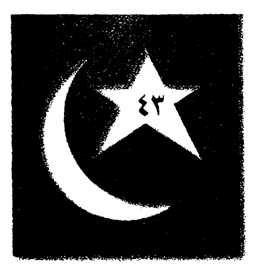


ومن أهم المشكلات التى واجهها المهاجرون العرب فى المجتمع الأمريكى هى تلك الصورة السيئة التى ارتبطت فى ذهن الأمريكيين عنهم، وذلك بعد أن أسهمت مجموعة من المحددات الحضارية والتاريخية فى تشكيل تلك الصورة التى كان من نتائجها أن خلط الأمريكيون بين العرب والترك، ومن ثم فقد تحمل المهاجرون العرب الأول كل العداء الذى كان يحمله المسيحيون عموما للأتراك العثمانيين وللدولة العثمانية. وكان من الطبيعى أن تؤدى المذابح التى قام بها الأتراك ضد الشعوب المسيحية فى البلقان والتى بالغت الصحافة الأجنبية فى تصوير بشاعتها إلى تشويه الصورة العربية لدى الشعب الأمريكى، وخاصة أن الأمريكيين كانوا يبدون تعاطفا مع حركات التحرر والاستقلال التى كانت تقوم بها الشعوب البلقانية.

والأمر الذى لا شك فيه أن المهاجرين العرب الأول عانوا الكثير نتيجة ما تعرضوا له من نظرات متدنية من المجتمع الأمريكى حتى أصبحوا فى حكم الجاليات المهملة، ومن ثم كان على النخبة المثقفة من المهاجرين أن يتصدوا لتلك الصورة المشوهة بأنشطتهم الثقافية. ولم يصل الأمر فى تلك المرحلة من مراحل الهجرات العربية الأولى إلى تكوين منظمات سياسية تعنى باستجلاء صورة العرب، إذ لم يتعد الأمر أكثر من الاتجاه إلى تعريف الأمريكيين بالثقافة العربية وبالتراث العربى الحضارى وذلك من خلال الأعمال العلمية أو المحاضرات العامة التى أسهم فيها الكثيرون من الكتاب والمثقفين.



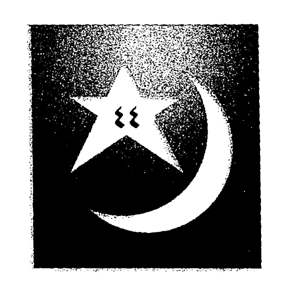
من أوائل مؤتمرات الجالية العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩١٨م



ومما يلفت الانتباه أن المهاجرين العرب الأول ظلوا قاصرين عن الممارسات السياسية فى الساحة الأمريكية. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن _ حتى الحرب العالمية الثانية _ مرتبطة فى أذهان العرب بالعمل ضد قضاياهم، بل على العكس من ذلك كان العرب يعتمدون على مناصرتها سياسيا فى كثير من قضاياهم. وقد ظهر ذلك واضحا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حيث أظهرت الولايات المتحدة الأمريكية تعاطفا ملحوظا مع كثير من القضايا العربية، وأرسلت العديد من اللجان الأمريكية إلى بعض البلدان العربية للتعرف على رغبات شعوبها، ولعلنا نشير بصدد ذلك إلى لجنة كنج كران وغيرها. ومن ثم فإن النشاط السياسى الذى قام به المهاجرون العرب فى تلك الفترة الأولى من فترات هجرتهم لم تكن تستهدف الساحة الأمريكية وإنما كانت تستهدف فى الدرجة الأولى الساحة العربية التى نزحوا منها.

وقد ظل المهاجرون العرب على اتصال وثيق بقضايا بلادهم التى أصبحت شغلهم الشاغل. ولعل أهم القضايا السياسية التى كانت تلح فى أذهان المهاجرين الأول، خاصة اللبنانيين منهم، هى الدفاع عن جبل لبنان، ومن أجل ذلك تأسست فى عام ١٩١١ جمعية النهضة اللبنانية فى مدينة نيويورك، وكان الهدف من تأسيسها المحافظة على استقلال لبنان والمطالبة بإرجاع المقاطعات التى سلخت عنه منذ بداية عهد المتصرفية، والسعى لإقامة حكومة دستورية مستقلة، والعمل على تعزيز جامعته الوطنية وترقية شئونه السياسية. ومما يثير الانتباه تأثير الحياة الأمريكية على أفكار المهاجرين الأول، فعلى الرغم من اتجاهاتهم الإقليمية والطائفية الواضحة، إلا أنهم حاولوا نبذ التعصب الطائفى والمذهبى، إذ إن ما ورد فى القانون الأساسى لجمعية النهضة اللبنانية من عبارة "تعزيز الجامعة الوطنية " كانت تتضمن فى حقيقة الأمر الكثير من المعانى التى كان من أبرزها جمع اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم الدينية والطائفية بجامع الوطنية داخل سياج الوطن لا فارق بينهم فى الدين ولا تمييز بينهم فى الجنس.

ومن القضايا الأحرى التى تصدى لها المهاجرون العرب الأول قضية الإصلاح فى الدولة العثمانية، ومن ثم كانت مشاركة ممثلين منهم فى المؤتمر العربى الذى انعقد فى باريس فى عام ١٩١٣، نشير من بينهم إلى نجيب دياب صاحب جريدة مرآة الغرب، الذى اختارته جمعية الاتحاد السورى الأمريكى ليكون ممثلا لها، وكان له دور ملحوظ فى القرارات التى اتخذت فى المؤتمر، ونعوم مكرزل الذى اختارته جمعية النهضة اللبنانية ليكون ممثلا لها فى أعمال ذلك المؤتمر.



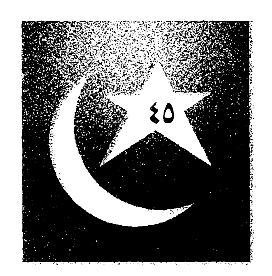
وعلى الرغم من المحاولات التى بذلت لإيجاد تقارب بين أفراد الجاليات العربية، إلا أن ما يثير الانتباه استمرار التضارب فى المواقف السياسية، وخاصة فيما يتعلق بما سوف تسفر عنه الحرب العالمية الأولى من نتائج بالنسبة لمستقبل سوريا ولبنان. فبينما كان المسلمون لا يريدون وصاية أوروبية ويفضلون قيام مملكة عربية فى سوريا، كان المسيحيون فى غالبيتهم يعارضون قيام مملكة عربية فى سوريا ويريدون إسناد الوصاية على بلادهم إلى إحدى الدول الأوروبية وبالذات فرنسا بحكم علاقتها التقليدية ببلاد الشام. وقد رفع أنصار هذا الاتجاه مذكرة إلى مؤتمر الصلح فى باريس ١٩١٩ احتجوا فيها على قيام مملكة سورية حجازية وتضمنت اعتراضا شديدا على مطالب الأمير فيصل بن الحسين بإنشاء مملكة عربية فى بلاد الشام على أساس أن السوريين راضون عن إنشاء تلك المملكة، أما الحقيقة فهى على حد زعمهم على خلاف ذلك مؤكدين أن سيادة الحجاز على بلاد الشام البالغة حدا كبيرا من التمدين العصرى سيكون عقبة فى مسيرة البلاد نحو التقدم والارتقاء.



فيصل بن الحسين

ولعل مما يثير الانتباه أنه حينما بدأت فرنسا بحكم انتدابها على سوريا ولبنان تنفذ سياستها الاستعمارية التى كان من نتائجها نشوب الثورات الوطنية المتتابعة فى أنحاء كثيرة من البلاد أخذ كثير من المهاجرين المسيحيين الذين سبق لهم أن تشيعوا لفرنسا يعيدون النظر فى موقفهم من الانتداب الفرنسى، ومن ثم أخذت ترتفع فى الصحف والجمعيات السياسية أصوات النقد والمعارضة، وبالإضافة إلى ذلك ظهر حزب سياسى أطلق على نفسه حزب تحرير سوريا أخذ يدعو إلى مناهضة الانتداب الفرنسى، كما تشيع كثير من أدباء ومفكرى المهجر لهذا الاتجاه، وبرز إيليا أبوماضى فى مجلته السمير التى أشبع فيها الانتداب الفرنسى ورجاله تهكما وندد بأعمالهم.

ومع تأجج الثورات الوطنية فى سوريا ولبنان ضد الانتداب الفرنسى عادت مشكلة الوحدة السورية تطرح نفسها من جديد، وتبع ذلك حدوث انقسامات حادة بين المهاجرين من بين الفئات التى تتشيع للهوية السورية الموحدة أو تلك التى كانت تنادى بانفصال لبنان بهويته وكيانه عن سوريا. وقد أدت تلك الخلافات إلى إثارة النعرات الإقليمية والطائفية بين أفراد الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى. ووضح ذلك عند زيارة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر للولايات المتحدة



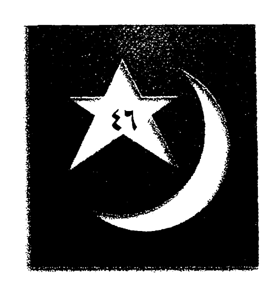
الأمريكية فى ربيع عام ١٩٢٤ لكى يدعو إلى قضية الوحدة السورية، إذ ما كاد يصل إلى نيويورك ويباشر اتصالاته بأفراد الجالية السورية واللبنانية حتى تصدى له الكثيرون من ذوى الاتجاهات الانفصالية، وقد أدى ضغط الموارنة المعارضين للوحدة السورية إلى إجباره على إنهاء زيارته. وفيما يبدو أن بعض الدوائر الرسمية الأمريكية قد طلبت منه ذلك بدعوى أن بقاءه سيكون مدعاة لتوسيع شقة الخلاف والصراع بين أبناء الجالية السورية.

وعلى الرغم من دعاوى الانفصال اللبنانى، إلا أنه مما يلفت النظر أنه عند قيام الثورة السورية الكبرى فى عام ١٩٢٠ بادر السوريون فى المهجر بتأليف الاتحاد السورى، أو فيما عرف برابطة سوريا الجديدة، وكانت أشبه ما تكون بحزب عربى سياسى فى الولايات المتحدة الأمريكية أسهمت فى تقديم الكثير من المساعدات للثوار السوريين وعملت على إغاثة منكوبى الثورة، وأصبح لها العديد من الفروع فى كثير من الولايات الأمريكية، بالإضافة إلى كندا ودول أمريكا اللاتينية. وفيما يبدو أن الاتجاه كان قويا فى دعم الثورة السورية إلى درجة ظهور أثره بين الموارنة أنفسهم، ولعل مما يؤكد ذلك أن جريدة الهدى المارونية على الرغم من تركيزها على الكيان اللبنانى إلا أنها تجاوبت مع أحداث الثورة السورية وجند كتابها أقلامهم لكشف مخططات الاستعمار. وبالتالى فلم تستطع الاتجاهات الإقليمية أن تصمد طويلا وإنما أخذت تخبو بأحداث الثورة السورية، كما ظهرت العديد من الجمعيات العربية الوحدوية، إلى جانب المؤتمرات التى عقدت بهدف بحث القضايا العربية السياسية والاقتصادية والثقافية.



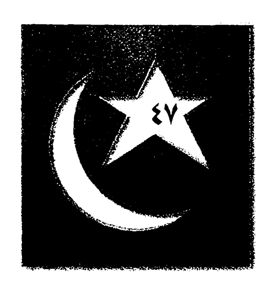
بلفور- وزير خارجية إنجلترا- صاحب تصريح بلفور الشهير سنة ١٩١٧م

وكان من رأى المهاجرين العرب أن المطالب العربية فى التحرر والاستقلال لا ينبغى أن تنظر فى عصبة الأمم التى خانت مبادئها حيث صادقت على تصريح بلفور ووافقت على الحماية البريطانية على مصر وعلى فرض الانتداب الإنجليزى والفرنسى على العديد من الأقطار العربية، كما لا ينبغى أن ترسل تلك المطالب إلى الحكومات الأجنبية صاحبة النفوذ فى البلاد العربية لأن تلك الحكومات ليس من مصلحتها أن تمنح البلاد المسيطرة عليها السيادة والاستقلال، وإنما كان الرأى أن يقف العرب موقفا موحدا يحمل الدول الأوروبية على الاستجابة لمطالبهم فى التحرر والاستقلال.



ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه فى الوقت الذى اتجهت فيه الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى إلى الترابط فيما بينها والتغلب على الحزازات الإقليمية والطائفية لمواجهة الاستعمار والصهيونية، إلا أن إهمال الأنظمة العربية لشئون جالياتها وعدم وجود موقف عربى موحد أدى إلى تقاعس الجاليات العربية عن مهامها ، ومن ثم اقتصر الأمر على عقد المؤتمرات الشكلية دون أن ترتبط أهدافها بنواح تنظيمية. ومع ذلك فإن الجانب الإيجابى فى الجمعيات والمنتديات العربية الإقليمية فى المهجر الأمريكى هو تحولها من الطابع الإقليمى إلى الطابع العربى. ويرجع السبب فى ذلك إلى تنوع الهجرات العربية التى قدمت إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى فترة ما بين الحربين العالميتين، بحيث لم تعد الهجرات العربية قاصرة _ كما كانت عليه من قبل _ على الهجرات القادمة من بلاد الشام وحدها، وإنما أصبحت تضم مهاجرين عربا ينتمون إلى التقسيمات السياسية التى ظهرت فى الوطن العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى يضاف إلى ذلك أن القضية الفلسطينية كانت عاملا فاعلا فى توحيد الأهداف العربية، ومن ثم بدأت الصبغة السورية أو اللبنانية على الجاليات العربية فى المهجر فى الاختفاء تدريجيا ليحل بدلا منها الطابع العربى الموحد.

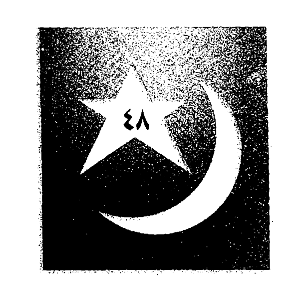
جدير بالذكر أن القضية الفلسطينية كانت محور الالتقاء العربى فى المهجر الأمريكى، حيث أسهم المهاجرون العرب فى توضيح جوانبها على المستويات الرسمية والشعبية، وذلك حين اختارت الحكومة الأمريكية بعض المثقفين العرب للإدلاء بشهاداتهم أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى فى عام ١٩٤٤، وكذلك أمام لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية فى فلسطين فى العام التالى، إلى جانب إسهام المهاجرين العرب فى توضيح القضية الفلسطينية لقطاعات مختلفة من الرأى العام الأمريكى عن طريق الدراسات التى وضعت أو المقالات الصحفية التى نشرت أو المحاضرات التى ألقيت. وبالإضافة إلى القضية الفلسطينية كانت هناك مشكلة أخرى ظلت _ ولا تزال _ تؤرق الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى وهى اتجاه الدعاية الصهيونية إلى تشويه صورة العرب واتهامهم بالتخلف والبداوة. ومن المفارقات المثيرة للانتباه أن اليهود أنفسهم قد تعرضوا إلى نفس المشكلة إذ استمرت الشخصية اليهودية مرتبطة فى ذهن الأمريكيين بوشايتهم ضد السيد المسيح، أو بصورة المرابى اليهودى الجشع الذى صوره الشاعر الإنجليزى وليام شكسبير فى روايته الشهيرة تاجر البندقية.



وبينما استطاع اليهــود تغيير الصورة اليهودية القديمة واســتبدلوا بها صورة أكثر قبولا بفضل الدعاية الناجـحة التى قاموا بها وتمكنهم من التأثير على الأمريكيــين فى التركيــز على الاضطهادات التــى تعرضوا لهــا على أيدى النازية. وقد استغلت الدعاية الصهيونية قيام إسرائيل باعتبار قيامها انتصارا للشخصية الإســرائيلية، كما استغل اليهود الانتــصارات التى حققوها فى عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧ فى إبراز صــورة الجندى اليهودى المنتــصر ونجاح دولة صــغيرة فى مواجــهة جيوش دول عربية عديدة، وترتب على النشاط الصهيونى أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مركز الثقل اليهودى فى العالم أجمع.

جدير بالذكر أن اليهود حرصوا على التجمع فى المدن الأمريكية الرئيسية وذلك على خلاف الجاليــات العربية التى بدت متناثرة فــى كثير من المدن والولايات الأمــريكية. كما نجح اليــهود فى تنظيم أنفسهم تنظيما دقيقا أعطاهم حجما أكبر من حجمهم، فى الوقت الذى ظهرت فيه الجاليات العربية مفككة وفى صــراعات دائمة فيما بينها. وبينمــا كانت التنظيمات العربية تتمــيز بالخلافات السياسية والطائفيــة والإقليمية استطاع اليهود تكوين تنظيمات قوية تعمل جمــيعها فى سبيل هدف واحد، وبفــضلها تمكن اليهــود من تكوين جماعــات ضغط قوية أصــبح لها تأثيــرها على وسائل الإعلام، وعلى صانعى القرار الأمريكى , ومن بين التنظيمات اليــهودية تجدر الإشارة إلى المجلس الصهيونى الأمريكى، والوكالة الدينية اليهودية، ومنظمة هداسا النسائية، ومنظمة أيباك وغيرها.

وبينما اعتــمد العرب فى البحث عن هويتــهم على استرجاع تاريخهــم بما فيه من بطولات وأمجاد تمت على حساب الــشعوب الأوروبية، اعتمد اليهود على تعــاطف المجتمع الأمريكى إزاء الأقليات بحكم أن ذلك المجتمع قد تشكل أساسا من أقليات عرقية، وكان ذلك مما استغلته الحركة الصهــيونيــة لتحــصل على تأييد الرأى العــام الأمريكى والســياســة الأمريكيــة لإنقاذ اليــهود من "اضطهاد" العرب لهم. ومن ناحية أخرى نجح اليهود فى اســتغلال نفسية الشعب الأمريكى الذى يرفض أمجاد الماضى، وبالتــالى صورت الدعاية الصهيونية الشــعوب العربية بأنها شعــوب متخلفة ليس لها من بضاعة سوى الماضى الذى زال وانقضى.

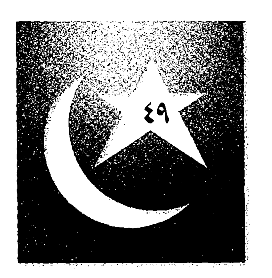




جاءت الهجـرات العربية الإسلامية إلى الولايات المتـحدة الأمريكية متأخـرة عن الهجرات العربية المسـيحية، فبـينما بدأت الهجرات المسيـحية الأولى خلال النصف الثـانى من القرن التاسع عشر لم تظهر الهجرات العربية الإسـلامية فى المجتمع الأمريكى بوضوح إلا منذ السنوات الأولى من القـرن الماضى. وقد بدأت إرهاصـات الهـجرات العـربية الإسـلامـية فى أعـقاب الانقـلاب الدستـورى الذى أطاح بالسلطان عبد الحـميد الثـانى على أيدى الاتحاديين فى عام ١٩٠٨، كـما ارتبطت تلك الهجرات بالفرار من التجنيد الإجـبارى الذى تقرر بموجب الدستور الاتحادى فى عام ١٩٠٩. ويمكن أن نضيف إلى ذلك السياسة التعسفـية التى طبقها الولاة الاتحاديون فى بلاد الشام ضد المسلمين والمسيحيين على حد سواء والتى بلغت ذروتهـا على عهد جمال باشا فى ولايته على الشام.

وقد لعبت العوامل السياسية والمذهبية دورا كـبيرا فى دفع الهجرات العربية الإسلامية من بلاد الشام بصـفة عامـة ومن جبل لبنان بصفـة خاصة حـيث هاجر شيـعة لبنان بأعداد أكـبر من اللبنانيين السنيين. وكان من أبرز العوامل التى دفعت اللبنانيين المسلمين إلى الهـجرة حاجة مصانع فورد فى ديترويت إلى مـزيد من العمال وذلك بمقتضى الإعـلان الذى نشر فى ٢ يناير ١٩١٤ فى الصحافة العربية فى كل من مصر وبلاد الشام والذى نص بأن العـمال سيتقاضون خمسة دولارات فى اليوم الواحد وذلك بصـرف النظر عن اللون أو الدين أو الموطن الأصلى. وعلى الرغم من أن أعدادا من المسلمين العرب قد هاجرت إلى الولايات المتحـدة الأمريكية قبل عام ١٩١٤ إلا أن نشر هذا الإعلان كـان عاملا فى دفع تيـار الهجرة العربـية الإسلاميـة إلى الولايات المتحدة الأمـريكية بصورة أكبر.

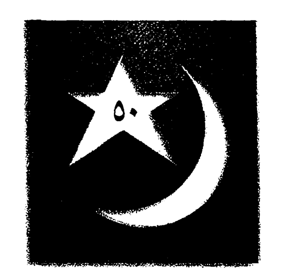
ويمكن القول أن هجرة العرب المسلمين لم تختلف فى دوافعـها الرئيسية عن دوافع الهجرة العربية المسيحية، ونعنى بتلك الدوافع الاضطهاد السياسى والأوضاع المذهبية والضائقة الاقتصادية. ويذهب كثير من الباحثين فى تعليل أسباب تأخر الهجرات العربية الإسلامية بأن الوعى الاقتصادى



والاجتماعى والسياسى كان أسبق ظهورا لدى المسيحيين العرب منه لدى المسلمين الذين عزفوا عن الهجرة إلى مجتمعات مسيحية غربية.

وفى دراسة ميدانية أجراها أحد الباحثين عن العرب المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية ذكر فيها أن إحدى السيدات المسلمات من أصل عربى تقطن فى مدينة ديترويت أخبرته أن والدها كان يعتزم مرافقة بعض أصدقائه المسيحيين فى هجرتهم من بلاد الشام إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٨٥ وأنه اشترى بالفعل نولون السفر ودخل الباخرة إلا أنه قبل وقت قليل من إقلاعها سأل قبطانها عفوا عما إذا كانت توجد مساجد فى العالم الأمريكى، وحين أجابه الربان بالنفى _ حيث لم تكن توجد فى الولايات المتحدة الأمريكية مساجد فى ذلك الوقت _ أسرع بمغادرة السفينة لأنه كان يخشى _ على حد قوله _ أن يذهب إلى بلاد الكفر. وعلى الرغم من أنه هاجر فى فترة لاحقة إلا أن المخاوف النفسية التى عبرت عنها تلك الرواية كان لها أثر كبير فى إعاقة الهجرات العربية الإسلامية، ومع ذلك فإن تلك العوائق لم تلبث أن انزاحت تدريجيا تحت ضغط العوامل الاقتصادية والسياسية.

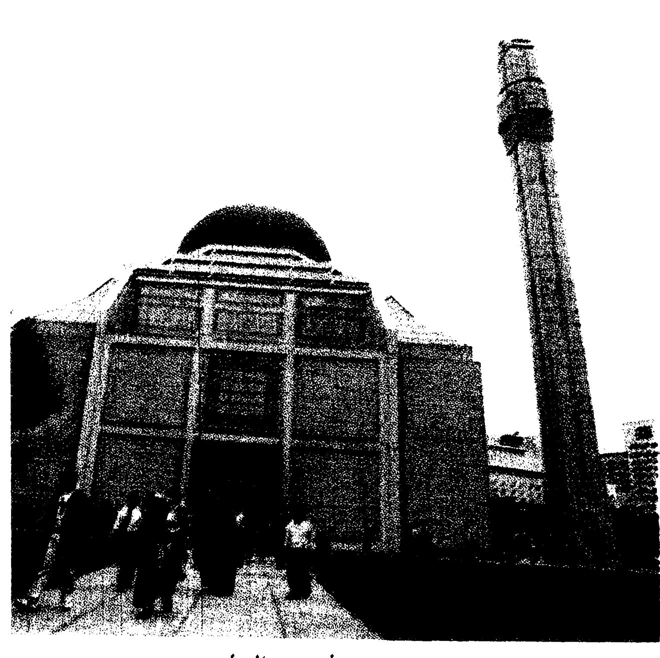
جدير بالذكر أن الهجرات العربية الإسلامية لم تقتصر على بلاد الشام وحدها، وإنما كان للتطورات السياسية فى العالم العربى لها أثرها فى دفع الهجرات العربية الإسلامية التى وفدت من العديد من الدول العربية، وقد وضحت الهجرات العربية الإسلامية بصفة خاصة عقب النكبة الفلسطينية فى عام ١٩٤٨ وعلى الرغم من أن تلك النكبة كان لها مردود سيئ على العالم العربى بصفة عامة وعلى فلسطين بصفة خاصة إلا أنه كان لها فى الوقت نفسه مردود إيجابى من حيث إنعاش أوضاع العرب المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وفدت أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين ومعظمهم من المسلمين وتبعهم كثير من المهاجرين من الأقطار العربية الأخرى نتيجة الأحداث والأزمات السياسية والاقتصادية التى مر بها العالم العربى فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية. حيث وفدت العديد من الهجرات العربية التى اصطبغت بطابع إسلامى، فهناك على سبيل المثال كثير من المصريين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية عقب قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نتيجة الإجراءات الاقتصادية التى اتخذتها الثورة فى بداية عهدها من تحديد الملكية الزراعية ووضع حد أقصى لرءوس الأموال المنقولة، كما ازدادت الهجرات الإسلامية تحت ضغط الأزمات السياسية الداخلية التى حدثت فى مصر خلال عقد الستينيات وكان يتخللها فى الوقت نفسه أعداد كبيرة من الأقباط. وحول ذلك الوقت أيضا تدفقت الهجرات السورية على أثر

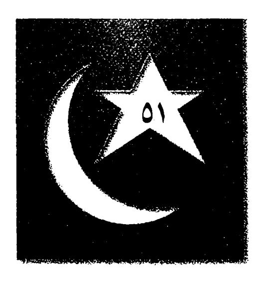


الانقلابات العسكرية المتوالية التـى حدثت فى تاريخ سوريا المعاصر بداية من انقلاب حسنى الزعيم وسامى الحناوى وأديب الشيشكلى وذلك خلال السنوات الممتدة من ١٩٤٩ _ ١٩٥٤. كذلك هاجـر كثير من العـراقيين المؤيدين للنظام الملكى فى العراق على أثر قيام ثورة تموز ١٩٥٨ وجاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى تصـاعدت فى أعقابهـا موجات الهجرة العربية التى اصطبغت بطابع إسلامى، وكان لتلك الهجرات إضافة إلى الهجرات الأخرى التى وفدت من لبنان خلال نشوب الحرب الأهلية ١٩٧٥-١٩٨٩ أثرها فى نمو الجاليات العـربية الإسلامية فى كثير من المدن والولايات الأمريكية.

وكان لتصـاعد الهجرات العربيـة الإسلامية أثرها فى إفـادة الجاليات العربية الإسـلامية فى المجتمع الأمريكى من حيث تعميق الهوية العربية الإسلامية والتخلص من عقدة النقص التى كانت سائدة لـديهم خلال عقـدى العشـرينيات والثـلاثينيات من القـرن الماضى إلى الدرجة التـى كانوا يعمدون فيها إلى استبدال أسمائهم الإسلامية بأسماء مسيحية حتى يتمكنوا من الحصول على عمل لهم وخاصـة أن الأمريكيين كانوا لا يعـرفون شيئـا عن الإسلام وينظرون إلى المسلمين باعتـبارهم مجمـوعات لا دينية غير أن ذلك الانطباع الذى سـاد بين الأمريكيين لم يلبث أن تلاشى مع بداية عقد الخمسينيات نتيجة ازدياد موجات الهجرة العربية الإسلامية.

وكـان من نتـيـجـة ازدياد الهجـرات العربيـة الإسلاميـة ظهور العديد من المؤسسات الدينية والثقافية التى كان من أهدافهـا المحافظة على التـعاليم الإسـلاميـة وتنقيـتهـا من الشـوائب التى علـقت بهـا بسـبب مخالطتها للمجتمع الأمريكى، فضلا عن المحـافظة على التقـاليد واللغـة العربيـة ونقلها إلى أبناء المهـاجرين، ومن ثم كان حرص المهاجرين العرب المسلمـين على الإكـثـار مـن إنشـاء المساجـد والجمـعيـات الإسلامـيـة. وهنـاك العـــديـد من الأســر

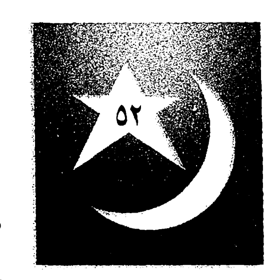

مسجد نيويورك بعد التطوير



والشخـصيات العربيـة الإسلامية التى كـان لها دور فى إقامة المؤسـسات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكيـة، وعلى سبيل المثال فإن مسجد نيويورك يعزى إنشاؤه إلى على محـيى الدين، وهو أحد المهاجرين الذين نزحوا من فلسطين منذ أوائل القرن الماضى، كـما ترجع فكرة إنشاء المركز الإسـلامى فى مدينة مـيتـشجـن إلى يوسف أبو مهـدى، وهو من أوائل المسلمين العرب الذين استقروا فى مدينة ميتشجن منذ عام ١٩١٠.

ولعل مدينة ديترويت كانت أسبق المدن الأمريكية فى إنشـاء مسجد خاص بها تم إقامته فى عام ١٩١٩ فى منطقة هاى لاند بارك رغم أنه لم يستمر طويلا حيث تحول إلى كنيسة، أما المسجد الآخر فقد تأسـس فى نورث داكوتا، وفى عام ١٩٣٢ أنشئ مسجد ثالث لا يزال قـائما فى مدينة متشجن بولاية أنديانا، وفى عـام ١٩٣٤ قامت الجالية اللبنانية بتأسيس مسـجد فى سيدر رابيدز، كما قـام أبناء الجالية أيضا بشـراء قطعة من الأرض بنوا عليهـا أول مقبرة إسلامـية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما يسترعى الانتـباه ذلك النشاط الكبير الذى تقـوم به الجالية العربية الإسلامـية فى مدينة ديربورن حيث ظهرت هناك كثير من المؤسسات العـربية الإسلامية، ففى عام ١٩٣٦ تأسست منارة الهدى وهى رابطة سنية صارت تعرف منذ عام ١٩٥٢ بالجمعية الأمريكية الإسلامية، ويعزى إنشاء تلك الرابطة الإسلامية إلى الشيخ خروب وهو داعـية إسلامى سورى، وقد قامت منارة الهدى فى عام ١٩٣٨ ببناء مسـجد بلغت تكاليفه مـا يقرب من ٧٥ ألف دولار جمعت من تبرعـات الجالية الإسلامـية. ويؤدى المسجد بالإضـافة إلى كونه مكانا للعـبادة بعض الخدمـات الاجتماعـية لأبناء الجالية ومن بينها حفلات الزواج أو مراسيم الوفاة فضلا عن تنظيم لقاءات أسبوعية لمناقشة الشئون الدينية، إلى جانب إنشاء مـدرسة لتعليم اللغة العربية وأركان الدين الإسـلامى لأبناء الجالية حيث يخصص لذلك يوم الأحد من كل أسـبوع. وقد تم افتتاح تلك المدرسـة بالفعل منذ عام ١٩٦٤، وفضلا عن ذلك فإن الرابطة الإسلامية تعنى بتصفية الخلافات أو المنازعات التى تنشب بين عائلات أو أفراد الجالية الإسـلامية السنية. وإلى جانب تلك الرابطة السنيـة ظهرت جمعية النهـضة العربية الهاشميـة وهى جمعية شيعـية بدأت بتأسيس النادى الهاشمى فى عام ١٩٣٦ واتخـذته مقرا لها، على أن عـدد أعضائهـا ظل فى تناقص مسـتمـر بسبب الخـلافات التى نشـبت بينهم وبين رئيس الجمعية. ويمد النادى الهاشمى أعضاء الجمعية بـالخدمات الدينية بالإضافة إلى الخدمات الاجتماعية



والثقافية المتعلقة بالزواج أو الوفاة أو تعليم اللغة العربية إلى جانب تقوية التماسك بين أفراد الجالية الشيعية. وقد واجهت جمعية النهضة العربية الهاشمية تحديا كبيرا نتيجة قيام الرابطة الإسلامية المركزية، وهى رابطة شيعية تأسست فى ديربورن فى عام ١٩٥٦، واستطاعت أن تستوعب عددا كبيرا من أعضاء تلك الجمعية.

ويرجع إنشاء الرابطة الإسلامية المركزية إلى الشيخ شيرى وهو عالم دينى من النجف فى العراق، وقد أخذ عدد أعضاء تلك الرابطة يتزايد تزايدا واضحا وخاصة أن معظم أعضاء الجالية الإسلامية فى مدينة ديربورن ينتمون إلى المذهب الشيعى. ومع ذلك فإن أهمية إنشاء تلك الرابطة ترجع إلى أنها استطاعت إيجاد تماسك بين المسلمين الشيعة والسنة على السواء. وعلى الرغم أن القانون الأساسى لإنشاء الرابطة يشترط أن تكون قيادة الرابطة وأعضائها من المذهب الشيعى إلا أن الرابطة تؤكد دائما على أن المسلمين إخوة مهما اختلفت مذاهبهم أو طوائفهم. وهناك الكثير من التنظيمات الاجتماعية التى يبرز من بينها المجلس العربى الأمريكى الذى يضم فى عضويته العرب المسلمين والمسيحيين وبعض الأمريكيين وإن كان معظم أعضائه من العرب المسلمين، وقد تأسس ذلك المجلس فى مدينة ديربورن فى عام ١٩٥٩. كما ظهرت أيضا الكثير من الجمعيات النسائية منها ما ينتمى إلى الجمعية الأمريكية الإسلامية أو إلى جمعية النهضة الهاشمية أو الرابطة الإسلامية المركزية، وتقوم تلك الجمعيات جميعها بتأدية الكثير من الخدمات الاجتماعية لأفراد الجالية الإسلامية فى مدينة ديترويت.

أما عن جمعية الشبان المسلمين فيرجع تأسيسها فى بروكلين بنيويورك إلى عام ١٩٢٢، كما ظهرت فروع لها فى بعض المدن الأمريكية الأخرى وهى تعمل على تشجيع عمليات التقارب بين الشباب المسلم وتشجيع الزواج من بين أفراد الجالية الإسلامية.

وفى عام ١٩٣٠ تأسست جمعية اللواء العربى الإسلامى فى مدينة كوينسى، وفى عام ١٩٥١ تم افتتاح المركز الإسلامى فى مدينة واشنجتن بهدف تقديم الخدمات الدينية والاجتماعية لأعضاء الجالية الإسلامية وأعضاء السلك الدبلوماسى من المسلمين المقيمين فى العاصمة الأمريكية وغيرها، ومن المعروف أن الجامع الأزهر قد أسهم مساهمة كبيرة فى إنشاء ذلك المركز الذى يعد الهيئة الإسلامية التى يعتد بها فى جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ويقوم على إدارة ذلك المركز مجلس يضم سفراء الدول الإسلامية فى العاصمة الأمريكية وقد أسهمت كثير من الدول العربية الإسلامية فى نفقات إنشائه وتطويره. ويعد بناء المركز تحفة معمارية عربية إسلامية وسط العاصمة الأمريكية حيث بلغت تكاليف إنشائه ثلاثة ملايين دولار. وعلى الرغم من أنه فرغ من

٥٣

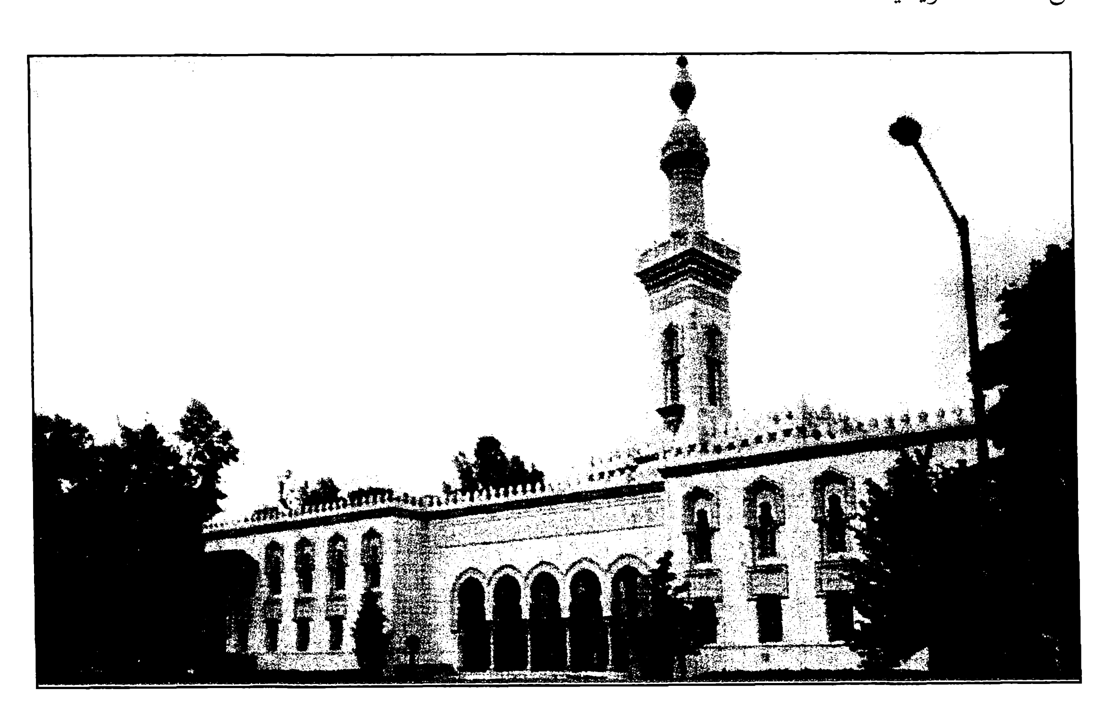
بنائه فى عام ١٩٥١ إلا أنه أعـيد افتـتاحه بعـد ذلك بست سنوات حيث حضر الرئيس الأمريكى دوايت أيزنهاور حـفل الافتتاح الرسمى فى يونيو ١٩٥٧.

جدير بالذكر أن المركز يؤدى العديد من الخدمـات الدينية والثقافية والاجتـماعية والإعـلامية كمـا يقوم بدور هام فى إبراز الصورة الصحيـحة للإسلام ويتم ذلك من خلال تنظيم الندوات والمحاضـرات الثقـافيـة عن التاريخ والحـضارة الإسلامية إلى جانب العناية بإنشاء فصول خاصة لتعليم اللغة العربية لأبناء الجاليات الإسلامية فضلا عما يقوم به من دعم للدراسات الإسلامية المتخـصصة كما أنه يصدر إلى جانب ذلك مجلة دورية تقدم الموضوعات والقضايا ذات الطابع الدينى والعلمى من خـلال منظور إسلامى.

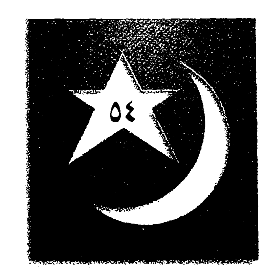


إيزنهاور

ويأتى المركز الإسلامى بواشنطن فى المقام الأول من بين مجمـوعة المراكز الإسلامية الـتى تم إنشاؤها فى العديد من المدن الأمريكية.



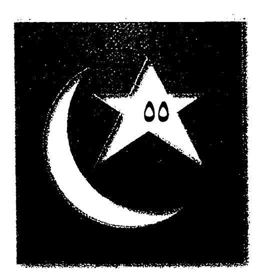
المركز الإسلامى بواشنطن



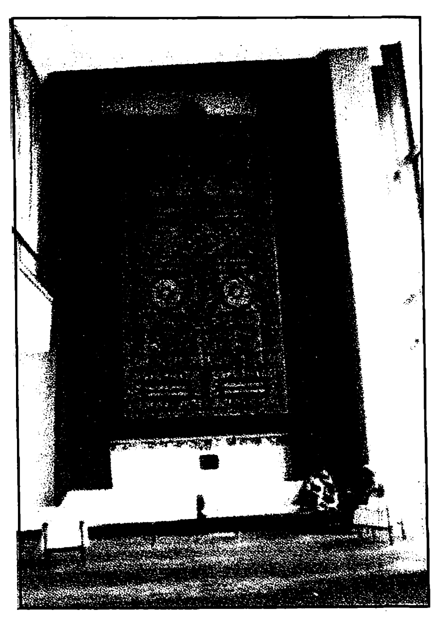
ولعل مما يلفت الانتباه أن المؤسسات الإسلامية أخذت تنمو نموا واضحا فى الولايات المتحدة الأمريكية لدرجة أن هذا النمو أثار اهتمام كثير من الباحثين الذين عن لهم مقارنة المؤسسات الإسلامية بالمؤسسات المسيحية وذهبوا فى دراساتهم أن المؤسسات الإسلامية أصبحت فى الوقت الحاضر أكثر نشاطا من المؤسسات المسيحية التى أنشأها المسيحيون العرب إذ إنه فى الوقت الذى توقفت فيه الكنائس العربية عن النمو حتى أصبحت لا تتجاوز الخمسين كنيسة بطوائفها الشرقية المتعددة ارتفع عدد المساجد ارتفاعا كبيرا حتى قدر البعض عدد المساجد والمؤسسات الإسلامية إلى ما يزيد عن أربعمائة مسجد ومؤسسة إسلامية، وفى الوقت الذى حلت فيه اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية فى الكنائس الشرقية بل وصل الأمر إلى تأمرك القسس أنفسهم فإن المسلمين بفضل مؤسساتهم الدينية والثقافية ظلوا محافظين على اللغة العربية.

وليس من شك فى أن التزايد المطرد فى المساجد والمؤسسات الإسلامية إنما يرجع إلى كثرة الهجرات العربية الإسلامية وإلى ازدياد عدد الطلبة العرب المسلمين الذين يدرسون فى الجامعات الأمريكية. وقد ظلت المؤسسات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية متناثرة إلى أن تأسست الرابطة الإسلامية التى حاولت تجميع تلك المؤسسات فى عام ١٩٥٢. وينسب تأسيس تلك الرابطة إلى عبد الله عجرم الذى ينتمى إلى إحدى الأسر العربية التى هاجرت من بلاد الشام فى أوائل القرن الماضى. وقد عمل عبد الله عجرم على توثيق الروابط وتنظيم الاتصالات بين المراكز والجمعيات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا زمنا ثم أصبحت الرابطة الإسلامية تضم فى عضويتها الجمعيات الإسلامية المختلفة ومن أبرزها جمعية اتحاد وادى النيل والاتحاد القومى السودانى وجمعية شمال أفريقيا والاتحاد العام للجمعيات المغربية وغيرها.

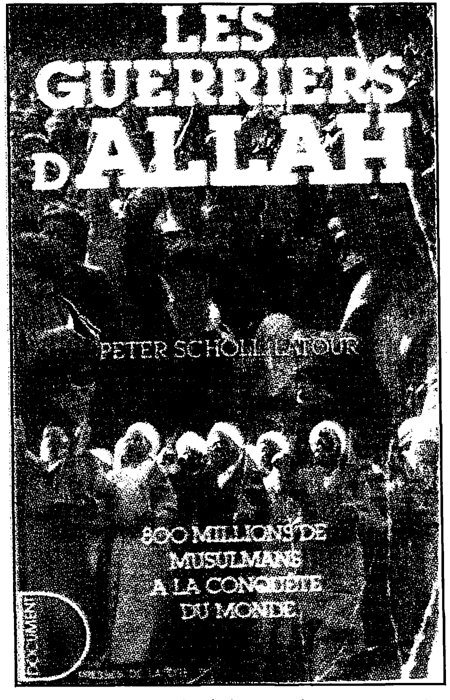
وينص النظام الأساسى للرابطة الإسلامية الاتحادية على تنظيم المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، والعمل على بث روح العقيدة الإسلامية والتمسك بأخلاقياتها إلى جانب توثيق الصلات والتعاون بين المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبين إخوانهم المسلمين فى شتى أقطار العالم العربى والإسلامى. ولعل مما يستلفت النظر أن معظم قادة الرابطة من العرب المسلمين على الرغم من أنهم لا يشكلون فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ذلك العدد الكبير الذى يشكله المسلمون الهنود والباكستانيون وغيرهم من الجاليات الإسلامية الأخرى. وإلى جانب الرابطة الإسلامية تجدر الإشارة إلى رابطة الطلاب المسلمين التى تعد من أكثر المؤسسات الطلابية نشاطا فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ترتب على ازدياد عدد الطلبة العرب المسلمين إلى تعريب قيادات تلك الرابطة التى تجد دعما من الدول العربية الخليجية ذات الاتجاهات الإسلامية.



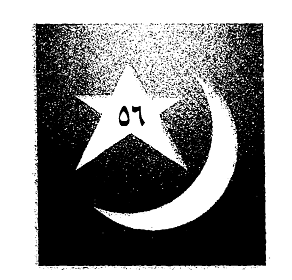
جـدير بالذكر أن نمو المؤسـسات الإسـلاميـة فى الولايات المتحـدة الأمريكية ارتبط إلى حد كبير بتـصاعد المد العربى الإسلامى عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ إلى جانب الدعم المادى الذى تقدمه المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج النفطية. كما ترتب على حرب أكتوبر وما أعقبها من أزمة الطاقة العالمية وارتفاع أسعار النفط وما لجأت إليه وسائل الإعلام الأمريكية من تشويه صورة العرب والمسلمين إلى انتعاش الحـركة الإسلامية فى المجتمع الأمريكى لمواجهة ما يعـانيه المسلمون الأمريكيون بصفـة عامة والعرب منهم بصفة خـاصة من التجاهل ومن النظرة المتدنية لهم فى المجتمع الأمريكى. ولعل مما تجـدر الإشارة إليه إلى أنه بالإضافة إلى تشويه صورة العرب والمسلمين فإن هناك ميراثا متراكما من عدم الثقة بالعرب والمسلمين توارثه الأمريكيون عن الأوروبيين منذ عـهد الحـروب الصليـبيـة، هذا إلى جـانب ما تقـوم به الدوائر والمنظمـات الصهيونيـة فى الولايات المتحدة الأمريكية من نشر الدعايات المغـرضة عن العرب والمسلمين. وقد اشتـدت تلك الحملات على أثر قـيام الثورة الإيـرانية الإسلامـية فى عام ١٩٧٩ ومـا تعرضت له المصالح الأمـريكية فى العديد من دول العالم من حـوادث إرهابيه اتهم المسلمون بتدبـيرها، وكان آخرها ما تعرضـت له المراكز الحيوية فى الولايات المتحدة الأمـريكية فى الحادى عشر من سبـتمبر ٢٠٠١من تفجـيرات أثارت مـوجات شديـدة من العداء والكراهية للعرب والمسلـمين لدى الرأى العام الأمريكي.



هدية المملكة العربية السعودية للأمم المتحدة بنيوريورك



غلاف كتاب (جند الله) المعادى للإسلام



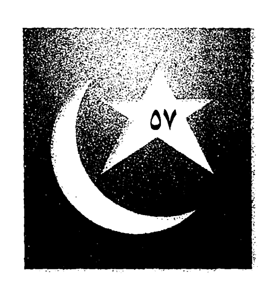


الفصل السابع
هجرة الكفاءات العربية

ترجع الأصول الأولى لهجرة الكفاءات العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حين تخلل الهجرات العربية الأولى بعض المثقفين من الأدباء والمفكرين العرب الذين كان لهم إسهامات فى الحركة الأدبية والثقافية فى المهجر الأمريكى كما عمل بعضهم فى كثير من المهن كالصحافة والتعليم والطب والمحاماة وغيرها.

ولم تلبث الهجرات العربية أن غلب عليها الطابع العلمى والمهنى حين وضعت الحكومة الأمريكية فى عام ١٩١٧ قيودا تحول دون هجرة الأميين وقصرت الهجرة على العناصر المتعلمة، يضاف إلى ذلك أن الطلبة العرب الذين كانوا يدرسون فى الجامعات الأمريكية فضلوا البقاء فى الولايات المتحدة وخاصة بعد أن قررت الإدارة الأمريكية استثناءهم من النسبة المقررة لهجرة الجنسيات القومية. وقد أدت التطورات التى حدثت فى قوانين الهجرة الأمريكية فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية إلى زيادة ملحوظة فى أعداد المهاجرين العرب من ذوى الكفاءات العلمية والمهنية. وقد أكد دين رسك وزير الخارجية الأمريكية فى معرض مناقشة مجلس الشيوخ الأمريكى لتشريع الهجرة الصادر فى عام ١٩٦٥ أن سياسة الهجرة فى الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت لا تعتمد على عدد المهاجرين بقدر ما أصبحت تعتمد على نوعياتهم. ولقد كان من الطبيعى أن تتزايد أعداد المهاجرين العرب من ذوى الكفاءات العلمية والمهنية عقب صدور هذا التشريع الذى كما هو واضح أعطى أفضلية خاصة لتلك الكفاءات كما كان من نتيجة انتشار التعليم الجامعى فى البلاد العربية وتزايد أعداد الخريجين أن تدفقت الهجرات العربية العلمية من أطباء ومهندسين وفنيين وعلميين وأكاديميين حتى أصبحت لا تخلو أية جامعة من الجامعات الأمريكية من أعضاء هيئة تدريس عرب أو من الطلاب العرب الذين يدرسون فيها.

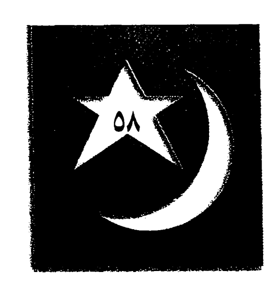
ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن مصر كانت المصدر الرئيسى لهجرة الكفاءات العلمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث شكل المصريون أكثر من ثلثى عدد المهاجرين العرب من دول عربية أخرى خاصة من سوريا ولبنان والعراق والأردن بالإضافة إلى الفلسطينيين الذين كان يسمح لهم بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بجوازات سفر أردنية أو إسرائيلية. ومع أن مصر



أسهمت إسهاما ملحوظا فى هجرة الكفاءات العلمية والمهنية إلا أن ما يسترعى الانتباه أن ظاهرة الهجرة فى مصر تعد من الظواهر الجديدة على المجتمع المصرى حيث إنها لم تكن تمثل نمطا ثقافيا أو اجتماعيا وذلك على عكس البلدان المجاورة لمصر، إذ كان المصرى بطبعه غير محب للمغامرة ومن ثم انعدم لديه حافز التفكير فى الهجرة. غير أنه بتطور الظروف الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى الزيادة السكانية أخذت الهجرة تأخذ شكلا إيجابيا وخاصة بعد أن وافقت الحكومة فى مايو ١٩٦١ على قانون نص على احتفاظ المهاجر المصرى بجنسيته مهما طالت مدة بقائه فى الخارج أو اكتسب جنسية جديدة غير جنسيته الأولى حيث يجوز له فى هذه الحالة الجمع بين جنسيتين. ومن الواضح أن ذلك الاهتمام الرسمى بالهجرة كان من بين النتائج التى ترتبت على الوحدة المصرية السورية وذلك لما لسوريا من تراث عريق فى الهجرة . ومع ذلك فقد ظل الاهتمام المصرى يتزايد بالهجرة حتى بعد انهيار الوحدة المصرية السورية حيث صدر فى مايو ١٩٦٥ قرار جمهورى بتشكيل لجنة الهجرة والعمل بالخارج تحددت اختصاصاتها بدراسة التيسيرات اللازمة لتشجيع الهجرة ووضع الأسس الكفيلة برعاية المهاجرين مع استمرار توثيق الروابط بينهم وبين الوطن. وإلى جانب تلك اللجنة أنشأت وزارة الخارجية المصرية إدارة لشئون الهجرة، كما اهتمت بعض النقابات المهنية بتقديم المساعدات للراغبين فى الهجرة وأنشأت جمعية الشبان المسلمين مكتبا لمساعدة المهاجرين من أعضائها.

وتدل الإحصائيات الخاصة بدائرة الهجرة والجنسية فى الولايات المتحدة الأمريكية على تزايد الهجرة المصرية، وخاصة منذ أواخر الستينيات وترتب على ذلك أن أصبحت الجالية المصرية من أسرع الجاليات نموا فى الولايات المتحدة الأمريكية.

جدير بالذكر أن الولاء الوطنى دفع بالمهاجرين المصريين إلى إقامة روابط مؤسسية مع مصر. ولعل أول رابطة مصرية ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية هى رابطة اتحاد وادى النيل التى تأسست فى نيويورك فى عقد الأربعينيات من القرن الماضى وكانت تجمع أوائل المصريين والسودانيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ترتب على كثرة عدد المهاجرين المصريين من ذوى الكفاءات العلمية منذ نهاية عقد الخمسينيات تأسيس رابطة علمية أطلق عليها اسم رابطة العلميين المصريين العاملين فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تأسست تلك الرابطة فى عام ١٩٦٣ وأخذت على عاتقها توثيق العلاقات بين المصريين فى الولايات المتحدة الأمريكية والوطن الأم فى المجالات العلمية والمهنية والثقافية. وقد التزم الأعضاء المؤسسون لتلك الرابطة



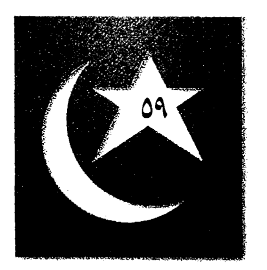
الذين كان يبلـغ عددهم آنذاك مائة وثلاثة وثلاثين عـضوا بالمسـاهمة فى تطوير مصر تطويرا علميا وتقنيا من خلال تقديم خبراتهم التى من شأنها تعزيـز الجهود التى تـبذل فى ميـادين التنميـة. وقد ضـمت الرابطة فى عـضويتـهـا العديد من الأسـاتذة والعلمـاء والمهنيين الذين يعـملون فى مختلف المجالات العلمية والمهنية.

وقد ظلت الرابطة تعقد اجتماعاتها الدورية فى القاهرة كل سنتين بدءا من عام ١٩٧٤ تحت رعاية رئيس الجمـهورية المصرية باسم مؤتمر مـصر عام ٢٠٠٠، وقد هيأت تـلك المؤتمرات ساحة مناسبة لتبادل الدراسات والرأى فى الـعديد من المجالات والمشكلات التنموية ومن بينها المشكلات المتعلقـة بالإسكان والتعليم والصحة وغـيرها. وإلى جانب اهتـمام رابطة العلميين المصريين بـعقد المؤتمرات الدورية قامت بـالإشراف على برنامج الأساتذة الزائرين والـذى بموجبه يقـضى عدد من الأساتذة المصريين الذين يعـملون فى الجامعات الأمريـكية إجازات تفرغهم العلمى فى الجـامعات المصرية وغيرها من المؤسـسات العلمية، كما تعمل رابطة العلميين على مـساعدة الطلاب المصريين الذين يفدون إلى الولايات المتحـدة وتوجيههم إلى الجامعات أو المؤسسات المناسبة لهم.

ومما تجدر الإشارة إليه إسهام رابطة العلميين مع المركز القـومى للبحوث فى إعـداد الورقة التى تقدمت بها مـصر إلى مؤتمر فيينـا الخاص بالتعليم فى عام ١٩٧٨، كما أسهمت الرابطة بالإضافة إلى ذلك مع مراكز البحوث العلمية فى مصر فى إجراء مسح جغرافى وفى طرح المشكلة السكانية بأبعادها المختلفـة، ومما يذكر أيضا إسـهامهـا فى إعادة بناء مستشفى القصر العـينى التابع لكلية الطب بجامعة القـاهرة. وإلى جانب مـشاركـة مصر فى هـجرة الكفاءات العلمية والمهنيـة شاركت كثير من الدول العربيـة فى تلك الهجـرة التى ارتفعت معـدلاتها نتيجة عدم استقرار الأوضـاع السياسية والاقتصادية فى كثير من تلك الدول.



الهلال والنجمة فى مبنى المحكمة الفيدرالية

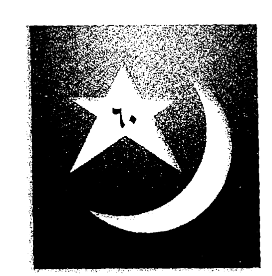


ومن الملاحظ أن كثيرا من الأنظمة العربية اكتفت بالترويج لما يقوم به الاستعمار الأمريكى أو الاستعمار الجديد من استنزاف العقول العربية دون أن تضع الحلول التى تستطيع بواسطتها أن تستفيد من عقول وخبرات أبنائها. ومما لاشك فيه أن هجرة الكفاءات العربية كان لها مردود سلبى على بلدان العالم العربى وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن هى الدولة الوحيدة التى جذبت تلك الكفاءات وإنما يمكن أن نضيف إليها كندا وأستراليا بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية . ومن ثم أصبحت تلك النوعية من الهجرة تشكل مسألة شائكة فى كثير من الدول العربية التى يغادرها أبناؤها، وهى مازالت فى مرحلة بناء اقتصادها نتيجة لما يجده هؤلاء من حوافز ومزايا فى الدول التى يهاجرون إليها.

وهناك الكثير من الجهود التى تبذلها بعض الدول العربية للمحافظة على الروابط الوطنية وتشجيع اتصالات المهاجرين بأوطانهم الأولى، وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا فى كلٍ من سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد أن أدركت هاتان الدولتان أهمية الدور الذى يقوم به أبناؤها فى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من المهاجر الأخرى، حتى أن اللبنانيين يعتبرون أنفسهم شطرين، شطرا مقيما وشطرا مغتربا، كما يطلق على وزير الخارجية فى لبنان وزير المغتربين إلى جانب كونه وزيرا للخارجية، وفضلا عن ذلك تتيح القوانين اللبنانية للمهاجر اللبنانى امتلاك الأراضى فى لبنان والاشتراك فى الانتخابات وتولى المناصب العامة فى الدولة إذا ما أتيحت له فرصة العودة. كذلك أنشأت سوريا دائرة بوزارة الخارجية باسم دائرة المغتربين للعناية بشئون المغتربين من أبنائها. وفى عقد السبعينيات نشط العراق فى ربط المهاجرين بوطنهم حيث وعد بتقديم الكثير من الامتيازات المادية والمعنوية لمن يقرر منهم العودة بصفة دائمة، ونشير بصدد ذلك إلى القرار الذى أصدره مجلس الثورة فى العراق عام ١٩٧٤ والخاص برعاية أصحاب الكفاءات العلمية، والذى نص على أن تتكفل الدولة بأجور السفر وبعض الإعفاءات الجمركية، إلى جانب تمليك العائدين قطعا من الأراضى وإعفائهم من عقوبة التخلف عن الخدمة العسكرية والاحتفاظ بما لديهم من عملات



الدكتور محمد مهدى وأكرم زادة أمام المحكمة الفيدرالية بعد النجاح فى الحصول على الاعتراف بالأعياد الإسلامية

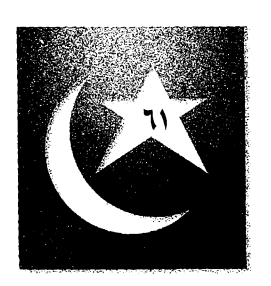


أجنبيــة، كمــا أباح لهم القرار حق مغـادرة الوطن مرة أخـرى بشرط أن يردوا الامتيازات التى تحصلوا عليهــا إذا ما حدث ذلك قبل مضى خمس سنوات من عودتهم.

أما فى مــصر فـهناك من يرى أن هجرة الكفــاءات العلميــة تعد عاملا هاما فى رفع مكانة مصر الثقافية والحضارية نتيجة لما يحققه أبناؤها فى الخارج من تفوق فى مجالات كثيرة. وفى سبـيل تحقيق الانتماء الوطنى تبذل اتحادات المصريين فى الخارج جهودها فى تنظيم اللقاءات والمؤتمرات التى تجـمع المصريين فى الداخل والخارج. كما ترتب على هجرة الكفاءات العلمية المصرية ظهور شخصيـات أصبح لها تأثير اقتصادى واجتماعى فى المجتـمع الأمريكى وقـد يتطور الأمر إلى ظهور لوبى مـصرى قد يأخـذ على عاتقـه الاتصال بالحكومة الأمريكية من خلال حوار مقنع لقضايا مصر وخصوصا فيما يتعلق بالنواحى الاقتصادية، كما يؤدى فى الوقت نفسه خدمات للوطن عن طريق الاتصـال بأعضاء الكونجرس لشرح وجهات النظر المصرية، وفى ساحة الوطن عن طريق تشجيع انتقـال رؤوس الأموال المتجمعة لدى المصريين فى الولايات المتحدة فى الاستثمارات الاقتصادية وشراء الأراضى فى الساحل الشمالى وشبه جزيرة سيناء وسواحل البحر الأحمر.

وقـد دفع ازدياد معـدلات هجرة الكفـاءات العلميـة بكثـير من الدول العـربية إلى إيفـاد مسئوليها فـى زيارات متعددة للالتقاء بأفراد جالياتها وذلك من خـلال التنظيمات والمؤسسات التى يقومـون بإنشائها. كـما تعمـد بعض الدول العربية إلى تعـيين ممثل خاص ضمن أعـضاء بعثـاتها الديبلوماسية لجذب الأمريكيين العرب من ذوى الكفاءة الـعلمية للعمل فى مواطنهم الأصلية، كما اتجهت كثير من الجامعات العربية وخـاصة فى دول الخليج والمملكة العربية السعودية إلى استكمال النقص فى هيئات التدريس بها عن طريق الإعـلان عن الوظائف بهدف جذب الأساتذة الأمريكيين العرب، بل إن كثـيرا من تلك الجامعات أصبحـت تضع هؤلاء فى الأولوية بهدف توثيق الارتباط بين الكفاءات العربية المهاجرة وبين أوطانهم .

كما أنشأت جـامعة الدول العربية مكاتب إعلامـية فى بعض المدن الأمريكية مهمتـها إقامة صلات مع الأمريكـيين العرب من ذوى الكفاءات العلميـة حيث تستعين بهم فى البـحث والكتابة وإلقاء المحاضرات من أجـل تعريف الرأى العام الأمريكى بالقضايا العـربية بصفة عامة، وبحـقيقة الصراع العربى الإسـرائيلى بصفة خاصـة. وإلى جانب الجهود التى تبـذلها جامعـة الدول العربية والأنظمة العربيـة يقوم الأمريكيون العرب أنفسـهم بالعمل على توثيق الروابط بينهم وبين أوطانهم الأولى عن طريق التنظيمات السياسية التى يؤسسونها كما سنعرض لذلك فى الفصل التالي.



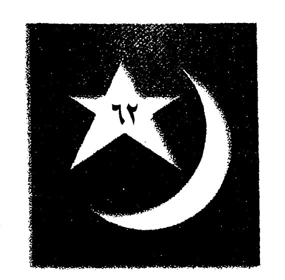
الفصل الثامن
التنظيمات العربية الأمريكية

ظلت المجموعة العربية الأمريكية حتى بداية السبعينيات من القرن الماضى تعد فى حكم المجموعات العرقية المهملة أو المختبئة فى المجتمع الأمريكى حتى قدر لها أن تظهر على الساحة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضى. وكان مما ساعد على ذلك الزيادة المطردة التى طرأت على عدد أفرادها نتيجة ارتفاع معدلات الهجرة العربية من البلدان العربية نتيجة التقلبات السياسية فى العالم العربى وخاصة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وفى خلال الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥-١٩٨٩. وقد قدر عدد أفراد المجموعة العربية الأمريكية فى الوقت الحاضر بما يصل إلى ثلاثة ملايين نسمة.



فيلم أمريكى يصور الحياة السياسية فى إسرائيل بعد سنة ١٩٦٧م تقوم (إنجريد برجمان بدور جولدا مائير)

وقد يكون حقيقة أن هناك مجموعات عرقية تقل من حيث العدد عن المجموعة العربية الأمريكية إلا أن تلك المجموعات على صغر عددها الذى قد لا يصل إلى مليون نسمة تتميز بقوة تماسكها إذا ما قورنت بالمجموعة العربية الأمريكية التى لا تزال تعانى قدرا كبيرا من عدم التماسك والتجانس بين أفرادها وهى أمور ناشئة عن الاختلافات الدينية والمذهبية، إضافة إلى تعدد الأقطار العربية التى وفد منها المهاجرون العرب ناهيك عن التباين فى الخلفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذى يمكن ملاحظته بسهولة بين أبناء المهاجرين القدامى الذين استوعبوا الثقافة الأمريكية وأصبح من الصعب تفرقتهم عن الأمريكيين وبين المهاجرين الجدد الذين رغم تجنسهم بالجنسية الأمريكية، إلا أنهم لا يزالون يعيشون بوجدانهم وأحاسيسهم تجاه أوطانهم التى نزحوا منها.

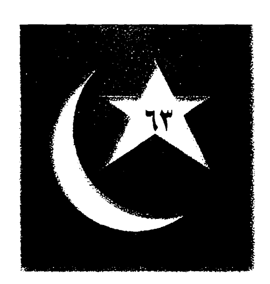


ومع التنافر الواضح فى بنية المجموعة العربية الأمريكية نتيجة العوامل التى أشرنا إليها، إلا أن هناك مجموعة من العوامل المضادة كان ولا يزال لها أثر فى تخفيف حدة هذا التنافر. ولعل من أبرز تلك العوامل الإدراك الواعى من العرب الأمريكيين أنفسهم بأهمية تماسكهم من أجل تثبيت كيانهم وسط مظاهر العداء العنصرى والدينى الذى أخذوا يتعرضون له مؤخرا من قبل الدوائر الصهيونية بما لها من سيطرة وتأثير على الصحافة ووسائل الإعلام الأمريكية. يضاف إلى ذلك ما ترتب على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط وتحيزها الواضح لإسرائيل من إثارة الولاء العرقى لدى أفراد المجموعة العربية الأمريكية ودفعهم إلى الترابط فيما بينهم.

غير أن محاولة المجموعة العربية التماسك فيما بينها لم تلبث أن تعرضت لبعض النكسات التى حدثت من فاعليتها، وعلى سبيل المثال ما ترتب على الأزمة اللبنانية من صراعات بين المجموعات الدينية والطائفية أدت إلى إحياء الشخصية المارونية التى كانت طابع الهجرات العربية الأولى، بل لقد وصل الأمر إلى إحياء الهوية الفينيقية وانقسام المجموعة العربية إلى العديد من الجاليات العربية.


الهلال والنجمة فى الساحة الكبرى لمطار كينيدى الدولى

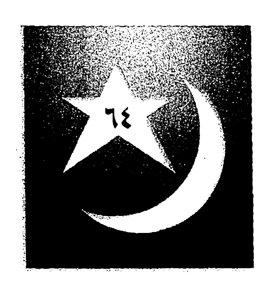
وعلى الرغم من أن تدعيم الشخصية العربية أصبح من الأمور الهامة التى يحرص عليها العرب الأمريكيون تأكيدا لفاعليتهم فى المجتمع الأمريكى وتصحيح صورتهم فى المجتمع الأمريكى فإن ذلك يرتبط بإبرازهم للجوانب الإيجابية فى تاريخهم وتراثهم الحضارى، وعلى المستوى السياسى فى اتخاذهم مواقف موحدة إزاء القضايا العربية التى يحرصون على إبرازها بهدف تحقيق أكبر قدر من التفهم الأمريكى بالنسبة لها. ويمكن القول أن المتغيرات السياسية التى حدثت فى الساحة العربية كان لها أثرها فى إيقاظ وعى الأمريكيين العرب ودفعت بهم إلى التماسك والترابط، وبالتالى أصبح التراث العربى القديم فى المهجر الأمريكى بما كان فيه من صراعات



طائفية وإقليمية ومذهبية معرضا للتلاشى لكى ينهى حقبة تاريخية وبداية حقبة جديدة تميزت بظهور أجيال جديدة أكثر وعيا بأوضاع العالم العربى من ناحية وبوضعيتها فى المجتمع الأمريكى من ناحية أخرى.

وعلى الرغم مما يراه البعض فى أن تلك الأجيال العربية الجديدة بحكم نشأتها فى الولايات المتحدة الأمريكية قد ضعفت لديها أحاسيس الاعتزاز بالثقافة العربية، يرى البعض الآخر أن طبيعة نشأة تلك الأجيال فى مناخ ليبرالى جعلها أقدر على اجتياز العقبات الدينية والطائفية والإقليمية التى كانت تواجه أسلافها من المهاجرين القدامى وبالتالى فقد أصبحت تلك الأجيال أكثر رغبة فى تأكيد شخصيتها كما أصبحت أكثر ارتباطا بأصولها الأولى وأكثر وعيا بتراثها الحضارى عما كان عليه الحال بالنسبة للأجيال السابقة التى كانت على الرغم من قربها من مشكلات بلادها وتمسكها بالاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها ولغتها، إلا أنها كانت أكثر اهتماما بتوفير موارد رزقها ومحاولة الاستقرار فى المجتمع الجديد الذى انتقلت إليه.

ولعل السؤال الذى يبرز أمامنا فى هذا المقام هو أنه إذا كان العرب الأمريكيون قد نمت لديهم مشاعر قومية إزاء قضايا العالم العربى فلماذا لا نكاد نسمع عن ضغط سياسى مؤثر يقومون به لمساندة تلك القضايا ؟ ولماذا لا يكون ذلك الضغط مساويا لما تمارسه المجموعات العرقية الأخرى تجاه قضايا أوطانها القديمة، وعلى الأخص جماعات الضغط الصهيونية ؟. وللإجابة على تلك التساؤلات يمكن القول أن الأوضاع السياسية فى العالم العربى أدت إلى إشاعة حالة من اليأس والقنوط لدى العرب الأمريكيين وصلت إلى قمتها نتيجة هزيمة يونيو ١٩٦٧ حيث انقسموا فى ردود أفعالهم إزاءها إلى قسمين : قسم وجد فيها هزيمة عسكرية لا يمكن تفسيرها أو تبريرها، ومن ثم وصلت ردود الفعل السلبية لذلك الفريق إلى درجة التنكر التام لأصوله العربية، وساعد على ذلك ما قامت به الصحف ووسائل الإعلام الأمريكية الخاضعة للضغوط الصهيونية من تشويه متعمد لصورة العرب بصفة عامة والعرب الأمريكيين بصفة خاصة. أما القسم الثانى من الأمريكيين العرب _ وهو الأغلب _ فقد رأى من خلال تلك الهزيمة الدور الأمريكى فى تأييد إسرائيل، ومن ثم كان حرص هذا الفريق على تكثيف جهوده من أجل توضيح الموقف لدى الرأى العام الأمريكى، وذلك بإيجاد تنظيمات عربية أمريكية اختلفت عما سبقها من تنظيمات كان يغلب على تكوينها الطابع القطرى أو الطائفى حيث ظهرت نوعية جديدة من التنظيمات العربية الأمريكية تستهدف تحقيق الترابط والتماسك وتتجاوز بقدر الإمكان عن الخلافات الإقليمية والطائفية، كما

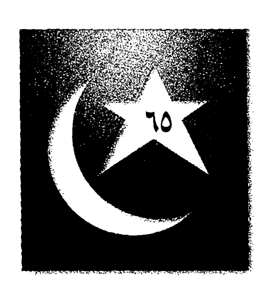


تعنى إلى جانب ذلك بالتصدى لما تقدمه الصحافة ووسائل الإعلام الأمريكية من صورة مشوهة للعرب، وتصويرها للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعا بين التخلف والتقدم، والنظر إلى إسرائيل باعتبارها عاملا حضاريا فى الشرق الأوسط. ولذلك كان من الطبيعى أن تتجه التنظيمات العربية الأمريكية إلى أن تنفى عن العرب صفات التخلف والإرهاب، وهى الصفات التى عمدت المنظمات الصهيونية إلى إلصاقها بالعرب بصفة عامة وذلك بوصفها حركات المقاومة الفلسطينية باعتبارها عمليات إرهابية دون تحليل لأهدافها ودوافعها، وفى المقابل تناولت عمليات العنف الإسرائيلية باعتبارها عمليات انتقامية فحسب.



صورة العربى فى السينما الأمريكية الصهيونية... بدوى سفاح أو لص

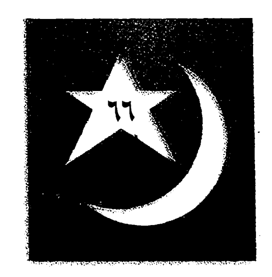
جدير بالذكر أن التنظيمات العربية الأمريكية التى ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد عام ١٩٦٧ قد تميزت بمحاولات مؤسسيها إبعادها عن الصراعات التى كانت عادة ما تقوم بين الأنظمة العربية، وفيما يبدو أن القيادات المسئولة عن إقامة تلك التنظيمات قد وعت التجارب السابقة التى تعرضت لها تلك التنظيمات والتى استهلكت طاقتها فى صراعات وخلافات أيديولوجية كانت انعكاسا للخلافات القائمة بين الأنظمة العربية فيما كانت توصف بالأنظمة التقدمية والأنظمة الرجعية.



ولعل من أهم التنظيمات العربية التى ظهرت بعد عام ١٩٦٧ واستطاعت أن تتغلب إلى حد كبير على الانقسامات العربية وتميزت بقدر كبير من التماسك هى اتحاد خريجى الجامعات الأمريكية العرب. ويعد هذا التنظيم أكبر تجمع للمثقفين العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ويمكن أن تتبين لنا صورة واضحة عن أهداف ذلك الاتحاد وظروف قيامه من البيان الذى أعلنه مؤسسوه والذى جاء فيه أنه تولدت لديهم فكرة إنشاء ذلك الاتحاد فى الوقت الذى كانت فيه الأمة العربية تعيش أحلك لحظات تاريخها، ولم يحدث من قبل أن عانى الأمريكيون المنحدرون من أصول عربية شعورا بالاغتراب كالذى عانوه فى صيف عام ١٩٦٧. وأن الأزمة التى عانوها لم تكن نتيجة انتصار عسكرى لإسرائيل أو هزيمة عسكرية للعرب إنما كانت نتيجة إدراك مباغت بأن انهيارا خطيرا قد وقع بالفعل فى النظرة السياسية والأيديولوجية والأخلاقية للأمة الأمريكية. فحين تخرج غالبية الشعب فى دولة كبيرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية للاحتفال بالإبادة شبه الكاملة لشعبنا فى الوطن العربى غير مبالية تماما بأبسط مبادئ العدالة واللياقة الإنسانية، وعندما يحدث شىء كهذا خاطئ ومذهل بصورة جذرية فلا يعود بوسع أولئك المعنيين حقا بأمر مصائر ورفاهية بلدانهم الأصلية وعلاقاتها بالولايات المتحدة أن يلزموا الصمت ويرقبوا بسلبية مأساة التدهور!.

وقد عقد الاتحاد أول مؤتمر له فى عام ١٩٦٨ بهدف التأثير على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط وتصحيح المعلومات الخاطئة عن العرب بصفة عامة والعرب الأمريكيين بصفة خاصة. وقد تعددت نشاطات الاتحاد لتشمل حقول نشر الكتب والدراسات وإصدار المجلات العلمية والنشرات الدورية التى تتناول أوضاع الجاليات العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية. كما يقوم فى الوقت نفسه بالدفاع عن العرب فى مواجهة الحملات المعادية التى يقوم بها مكتب التحقيقات الفيدرالى الذى يتجه فى بعض الأحيان إلى طرد الطلبة العرب الذين يدرسون فى الجامعات الأمريكية ممن لهم نشاط ملحوظ فى معارضة السياسة الأمريكية إزاء العالم العربى بصفة عامة أو القضية الفلسطينية بصفة خاصة، ولا يقتصر الأمر على تضييق الخناق على الطلبة العرب بل يصل الأمر إلى التصدى لذوى الأصول العربية من المواطنين الأمريكيين أنفسهم.

وقد يبدو الأمر بهذه الصورة القاتمة غريبا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التى كثيرا ما تؤكد حرصها على كفالة الحريات العامة والخاصة بيد أنها تبرر تصرفها هذا برغبتها فى مكافحة الإرهاب وتركز فى ذلك على الجاليات العربية والإسلامية المقيمة فى الولايات المتحدة الأمريكية أو



على كل ما يفد إليها من عناصر عربية أو إسلامية. وظهرت المواقف العدائية للعرب والمسلمين بصفة عامة منذ عام ١٩٧٢ على أثر الهجوم الذى تعرضت له القرية الأولمبية فى مدينة ميونيخ حين أصدر الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون أمرا تنفيذيا بتشكيل لجنة وزارية لدراسة الوسائل الكفيلة بمكافحة الإرهاب داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها. وكان من أبرز الوسائل التى اتخذتها اللجنة الإيعاز إلى وكالة المخابرات المركزية القيام بإجراءات أمنية تتناول كل شخص عربى يأتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كما صدرت التعليمات للسفارات الأمريكية فى الخارج بضرورة إجراء فحص وتدقيق بالنسبة لكل عربى يطلب سمة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وجاء تعريف الإدارة الأمريكية للعربى بمعيار عرقى فهو كل من ولد أو ولد أبواه فى البلدان العربية بما فى ذلك الأراضى الخاضعة للاحتلال الإسرائيلى بغض النظر عن جنسيته الحالية أو موطن إقامته الفعلى، وبالتالى فإن هذا التعريف أصبح ينطبق على العرب الأمريكيين الذين أخذوا يتعرضون لضغوط من قبل السلطات الرسمية. وكان من جراء ذلك أن تعرضت نوادى الجمعيات العربية فى كثير من المدن الأمريكية لاقتحام رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى وأغلق الكثير منها وعومل أعضاؤها بشدة، كما تم ترحيل العديد من الطلاب العرب وألقى القبض على الكثيرين منهم للتحقيق معهم.


بوش الابن

وبصدد الإجراءات التى تقوم بها السلطات الأمريكية تجدر الإشارة إلى أنه يتم عادة تبادل المعلومات بين وكالة المخابرات المركزية ووكالة المخابرات الإسرائيلية المعروفة بالموساد ومكتب التحقيقات الفيدرالى. وليس من شك فى أنه قد ترتب على الحملات المكثفة ضد العرب انطباع صورة مشوهة عنهم فى ذهن الأمريكيين وقد ازدادت هذه الصورة تشوها مع ازدياد نزعة العداء والكراهية التى اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية لكل ما هو عربى أو مسلم بعد قيام الثورة الإيرانية الإسلامية فى عام ١٩٧٩ وما أعقبها من أزمة الرهائن الأمريكية فى طهران وبلغت موجة الكراهية ضد العرب والمسلمين قمتها على إثر أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ومع ذلك فقد حرصت الإدارة الأمريكية على التأكيد بأن هذه الموجة من العداء والكراهية لا تعبر عن السياسة الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية. ومن ثم كان حرص الرئيس الأمريكى جورج بوش على زيارة المركز الإسلامى بواشنطن والالتقاء ببعض الشخصيات العربية والإسلامية مؤكدا أن الحملة التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية على

أفغانستان لا تستهدف الإسلام أو المسلمين وإنما تركز على محاربة الإرهاب.

وإلى جانب تنظيم اتحاد خريجى الجامعات الأمريكية العرب توجد بعض التنظيمات العربية الأخرى التى تحاول التحرك سياسيا على الساحة الأمريكية، إلا أن تحركها لا يزال محدودا أو بعبارة أكثر وضوحا لا يمكن مقارنتها بالتنظيمات اليهودية الأكثر نشاطا فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل نجاح اليهود يرتبط إلى حد كبير بقدرتهم على التآلف الاجتماعى والاقتصادى فى المجتمع الأمريكى وسيطرتهم على وسائل الإعلام مما أعطاهم دورا نشطا فى التأثير على السياسة الأمريكية وذلك على عكس التنظيمات العربية الأمريكية التى كثيرا ما تسير بعكس الاتجاه السائد فى السياسة الأمريكية. وقد دفع النجاح الذى حققته التنظيمات اليهودية العرب الأمريكيين إلى محاولة الاستفادة من تجربة جماعات الضغط اليهودية بتكوين جماعات ضغط يمكن أن يكون لها فاعلية فى التأثير على السياسة الأمريكية إزاء قضايا العالم العربى، وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى الرابطة القومية للأمريكيين العرب التى أنشئت على غرار لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية التى تعرف اختصارا بالإيباك AIPAC التى تعد من أقوى المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تقوم بضغط واضح على السياسة الخارجية الأمريكية لصالح إسرائيل. وتجدر الإشارة أيضا إلى اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز العنصرى ضد العرب، وقد أنشئت هى الأخرى على غرار الرابطة الأمريكية اليهودية.

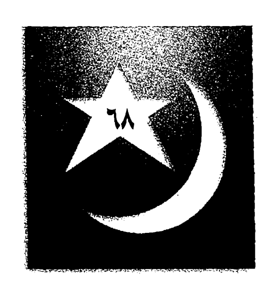


بيل كلينتون



الشيخ محمد يونس رئيس المجلس الإسلامى الأمريكى اختارته FBI لإلقاء محاضرة عن الإسلام بعد أحداث سبتمبر

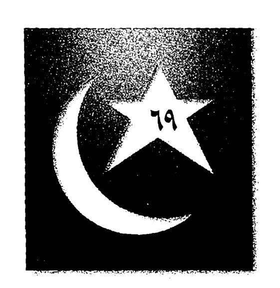
وتقوم اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز بالعمل على حماية حقوق



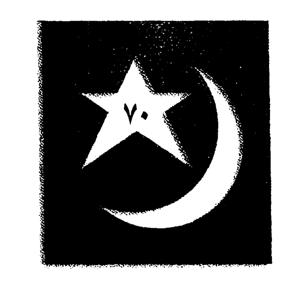
العرب الأمريكيين ومطالبة السلطات الأمريكية بالتحقيق فى حوادث العنف التى يتعرض لها العرب الأمريكيون وتنظيماتهم إلى جانب التحقيق فى الاتهامات التى عادة ما يوجهها مكتب التحقيق الفيدرالى إلى العديد من الشخصيات العربية الأمريكية وخاصة تلك الشخصيات التى يعرف عنها قيامها بنشاط سياسى مؤيد للقضايا العربية بصفة عامة وللقضية الفلسطينية بصفة خاصة.

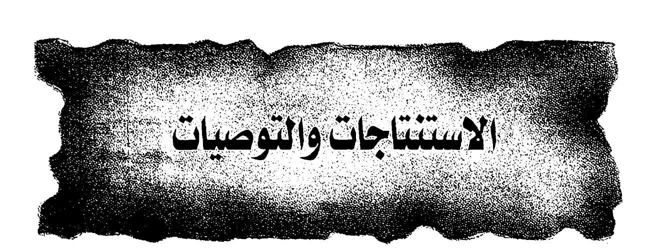
خلاصة القول أنه أصبح للأمريكيين العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية العديد من التنظيمات التى يتحركون بواسطتها فى جانب أو أكثر من الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عما تسعى إليه تلك التنظيمات إلى تكثيف وتفعيل دور الأمريكيين العرب فى المجتمع الأمريكى وتشجيع المشاركة العربية فى الحياة السياسية والمدنية من أجل وجود فاعل ومؤثر داخل المجتمع الأمريكى. وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى المؤسسة القومية لأصحاب الأعمال العرب والمجلس الفلسطينى الأمريكى والمعهد الأمريكى الذى تأسس فى عام ١٩٨٤ بجهود جيمس زغبى، وتمكن أن يجعل للأمريكيين العرب دورا فى النظام السياسى الأمريكى وذلك بموجب اعتراف الرئيس الأمريكى بيل كلينتون فى مؤتمر القيادات القومية العربية الأمريكية بأن العرب أصبحوا شريكا معترفا به فى النسيج السياسى للمجتمع الأمريكى وفيما يبدو أن وصول العرب الأمريكيين إلى تلك المكانة كان هدفا للضغوط الصهيونية التى استغلت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ لتشويه صورة العرب والمسلمين وحفز الإدارة الأمريكية على إصدار العديد من الإجراءات الاستثنائية الموجهة ضد العرب بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة.

جدير بالذكر أنه على الرغم من الزيادة العددية للجاليات العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن تأثيرها فى المجتمع الأمريكى لا يزال ضعيفا ويرجع ذلك إلى إحجام العرب الأمريكيين عن المشاركة فى الحياة السياسية الأمريكية وذلك على الرغم من تمتعهم بذلك الحق طبقا للدستور الأمريكى، غير أن أكثرهم يتقاعسون حتى عن تسجيل أسمائهم فى قوائم الانتخابات على الرغم من مخالفة ذلك للقوانين الأمريكية، ولم تتعد نسبة التصويت فى الانتخابات الأمريكية من قبل الأمريكيين العرب عن ٢٠ ٪ مقارنة بنسبة تصويت اليهود التى تصل إلى ٨٥٪، يضاف إلى ذلك ضعف التنظيمات العربية الأمريكية إذا ما قورنت بالتنظيمات اليهودية الأمريكية بسبب التفكك الواضح بين أفراد الجالية العربية التى تتكون فى حقيقة الأمر من العديد من الجاليات وليست من جالية واحدة متماسكة فى تكوينها وأهدافها كالجالية اليهودية.



وعلى الرغم من كـثرة التنظيـمات العـربية الأمـريكية إلا أنهـا لم تستطع أن تخلق اتجاهات مؤثرة فى الرأى العام الأمريكى يمكن أن تتساوى مع التنظيمـات اليهودية الأمـريكية. ويرجع السـبب فى ذلك إلى ضعف تمويل تلك التنظيمات من ناحية فضـلا عن الخلافات التى تحدث فى كثير من الأحيان بين قياداتها، وربما يكون السبب فى ضعف تأثيرها إلى حداثة نشأتها وطبيعـة تكوينها من أفراد لهم انتماءاتهم الإقليميـة أو المذهبية مما يؤدى بالضرورة إلى خلل فى تماسكها، وبالتالى فـإن تلك التنظيمات لا تزال فى حاجة إلى دعم مـادى ومعنوى وإلى إيجاد رابطة فيـما بينهـا حتى يمكن أن تحقق أكـبر قدر مـن النتائج الإيجابيـة لصالح المجـموعة العـربية الأمريكية بصفة خاصة ولصالح القضايا العربية بصفة عامة.

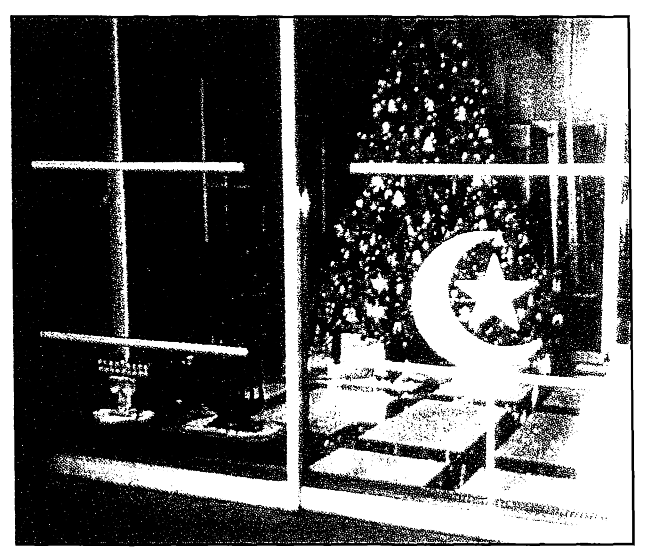




الاستنتاجات والتوصيات

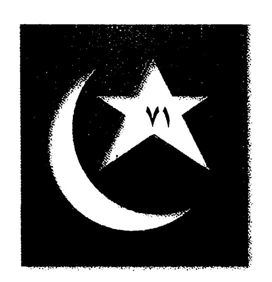
تعد المجموعة العربية الأمريكية من المجموعات العرقية الحديثة التكوين فى المجتمع الأمريكى، ويرجع السبب فى ذلك إلى تأخر موجات الهجرة العربية التى لم تصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلا منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى. وباستعراض تلك الموجات من الهجرة العربية يمكن التمييز بين مراحلها من حيث تداعياتها والتطورات التى طرأت عليها.

ولعل أهم ما يلاحظ بالنسبة للموجة الأولى من الهجرة العربية أنها قدمت فى معظمها من بلاد الشام واتسمت بطابع الأمية كما أن معظم أفرادها كانوا من الطبقات الفقيرة من الفلاحين كما تميزت بكونها هجرة مسيحية فى المقام الأول. أما الموجة الثانية من الهجرة العربية فقد تميزت بغلبة عناصر المهاجرين ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة من طبقات المجتمع كما تخللها بعض المهاجرين من خريجى المدارس التبشيرية فى بلاد الشام والجامعة الأمريكية فى بيروت. أما الهجرات المتأخرة ونعنى بها الهجرات التى تدفقت على الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وحتى وقتنا الحاضر فقد كانت نتيجة للهزات السياسية والعسكرية والاقتصادية التى تعرضت لها العديد من الأقطار العربية.



الهلال والنجمة الذهبية مع شجرة عيد الميلاد وبجوارها الشمعدان اليهودى على واجهة المحلات الأمريكية فى رأس السنة

وكان أهم ما يميز تلك الهجرات الأخيرة اشتمالها على كثير من العناصر من ذوى التحصيل العلمى



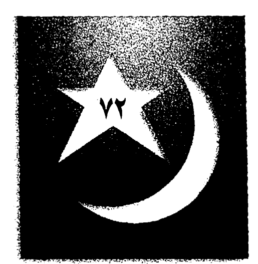
والمهنى وأولئك الذين لهم تجارب فى العمل السـياسى، وفضلا عن ذلك فقد وفـدت تلك الهجرات من معظم بلدان العالم العـربى وتميزت بكثرة المهاجرين المسلمين وذلك على خلاف ما كان عليه الحال بالنسبة للهجرات السابقة التى كانت تتسم بغالبيتها المسيحية التى وفدت من بلاد الشام بصفة عامة ومن جبل لبنان بصفة خاصة.

وقد تكون لتلـك الملاحظة أهميتـها من حيث مـا ترتب على تدفق الموجات الأخـيرة من الهجرات العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية من إحلال الهوية العربية بدلا من الهوية الإقليمية التى كانت تتـصف بها الهجـرات العربية الأولى ومـا ترتب عليها من نشـوء جاليات عـربية ذات نزعات طائفـية أو مذهبية أو إقليـمية. وقد سـبق أن أشرنا إلى أن التطرف فى النزعات الإقليـمية وصل إلى الحد الذى ظهرت فـيه تجمعات عـربية كانت تنتمى إلى المدينة أو حـتى إلى القرية التى وفد منها المهاجرون الأول. غير أن ذلك الطابع أخذ فى الاختفاء تدريجيا ليحل محله طابع عربى وذلك بعد أن أخذت المجـموعة العربيـة الأمريكية تكتسب شخـصيتها وكـيانها بتوافـد الهجرات المتأخرة التى كان لها أثر كبير فى طمس الهوية الإقليمية.

وإذا كان عـدد أفراد المجمـوعة العـربية الأمريكـية قد وصل فى الوقت الحـاضر طبـقا لما أجمعت عليه كثـير من المصادر إلى ثلاثة ملايين نسمة، وهو عدد ليس ضئـيلا بالقياس إلى بعض المجموعات العرقـية الأخرى التى لا تصل فى مجموعها إلى مـا لا يزيد عن مليون نسمة، إلا أنه من ناحية أخرى قـد يتعذر مقارنة المجموعة العـربية الأمريكية بالمجموعة اليـهودية الأمريكية التى



الصلاة داخل مسجد أمريكى

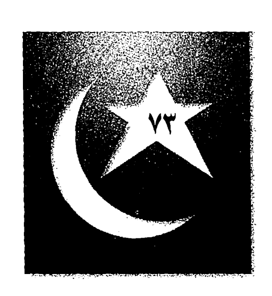


يصل عددهـا فى الوقت الحاضر إلى مـا يزيد عن سـتـة ملايين نسـمة أو بعض المجـموعات العـرقيـة الأخرى الأقـدم اتصالا بالولايات المتـحدة الأمريكـية. ومع ذلك فإن الأمـر لا يرتبط فى تقـديرنا بالعدد بقـدر ما يرتبط بدرجة التأثير السياسى أو الاقتصادى.

وعلى هذا المعيـار يمكن القول أن المجمـوعة العربية الأمـريكية لم تبرز على الساحة الأمريكية إلا منذ بداية عقد السبعينيات من القرن الماضى، أما فى خلال المراحل الأولى من الهجـرة العربية فقـد تعرضت للتجـاهل والإهمال من قبل المجـتمع الأمريكى نتيـجة انكماشها وتقوقعها داخل أحياء خاصـة بها وعدم قدرة أفرادها على الاندماج فى الحياة الأمريكية. ولعل انشغال هؤلاء بطلب الرزق ومـا عانوه من قسوة الحياة فى المجتمـع الجديد الذى انتقلوا إليه كان عاملا من العوامل التى أثرت على وضعهم وبالتالى كانت المجموعة العربية الأمريكية فى بداية تكوينها أقرب إلى الهدوء النسبى ولم تشكل قوة محسـوسة فى المجتمع الأمريكى وخاصة بعد أن انقسـمت على نفسـها وفقـدت عنصر التـماسك بين أفـرادها نتيجـة النعرات المذهبـية والطائفـية والإقليمية التى كانت تتسم بها. وقد يكون حقـيقة أن بعض أفراد تلك المجموعة قد استطاعوا أن يحققـوا لأنفسهم نجاحا فى عـدد كبير من مجـالات الحياة الأمريكية، إلا أن ذلك لم يكن نتـيجة انتمائهم إلى جالية عـربية لها برامج أو أهداف محددة، وإنما كان نجاحهم كأفـراد فى مجتمع يتيح لأفراده أن يحققوا ما يستطيعون بجهودهم الذاتية.

على أنه بتدفق موجات الهـجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكيـة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذت المجموعة العربية الأمريكيـة تكتسب لنفسها كيانا خاصا، غير أن ذلك الكيان ما كان ليقبل بسهولة فى مجتمع تتنافس فيه المجـموعات العرقية ومن ثم وجدت المجموعة العربية الأمريكية تحديات عنيفة من قبل الجالية اليـهودية التى تمكنت من أن تحقق لنفسها نفوذا فى المجتمع الأمريكى وبالتالى كان لابد أن يـنشب صراع بين الجاليات العربية والجاليـة اليهودية وزاد من حدة هذا الصراع أن الطرفين يـشتبكان فـيما بينهـما على ساحـة صراع أوسع خارج الولايات المتـحدة الأمريكية ونعنى بذلك ساحة الصراع العربى الإسرائيلى.

ويمكننا تحديد ثـلاثة أهداف تتجه إليـها المجمـوعة العربيـة الأمريكية وهى تحـويل الوجود العربى فى المجـتمع الأمريكى إلى نفوذ له تـأثيره السياسى، والتـصدى لتشويه صـورة العرب فى وسائل الإعلام الأمريكية، وتحقيق توازن فى السيـاسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. وقد تستطيع تلك الأهداف أن تحرز شيئا من النجاح خاصة فى تلك المرحلة التـاريخية التى تتميز بكثرة الأنظمة العربيـة التى تتسم بطابع الاعتدال فى سـياستهـا من حيث علاقتـها بالولايات المتحدة الأمـريكية

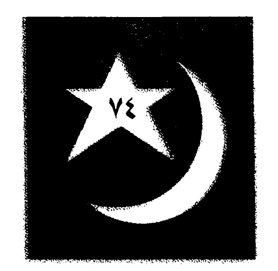


وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، هذا بالإضافة إلى التماسك الذى يمكن ملاحظته فى كيان المجموعة العربية الأمريكية بحيث أصبح فى الإمكان الحديث عن مجموعة عربية أمريكية لها أهدافها وشخصيتها بدلا من الحديث عن جاليات إقليمية وطائفية متعددة كما كان عليه الحال فى الماضى.

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى تبذلها كثير من الأنظمة العربية لربط أبنائها المهاجرين بأصولهم الوطنية الأولى وتوثيق العلاقات بينهم، إلا أن الخطأ الذى تقع فيه بعض تلك الأنظمة هو تحميل أبنائها المهاجرين أكثر مما يحتملون، وبعبارة أكثر صراحة ووضوحا يمكن التأكيد على أن أية محاولة للتعامل مع المهاجرين باعتبارهم أداة للأنظمة السياسية فى العالم العربى سوف تصاب بالفشل الذريع وذلك للسبب البسيط فى أنهم أصبحوا أمريكيين نتيجة ارتباط مصالحهم بالمجتمع الأمريكى وبحكم حصولهم على الجنسية الأمريكية، ومن ثم ينبغى التعامل معهم من هذا المنطلق الذى لا يتعارض مع أصولهم العربية وانتماءاتهم الجديدة.

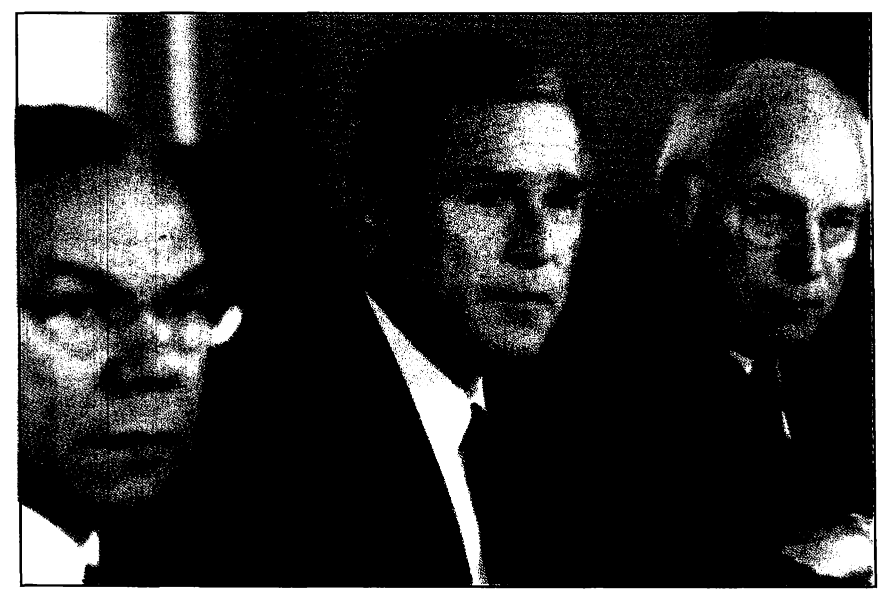
ولعل السؤال الذى يفرض نفسه فى خاتمة تلك الدراسة هو لماذا لم تصل المجموعة العربية الأمريكية إلى جماعة ضغط سياسى على غرار المجموعة اليهودية ؟ وما هى العوامل التى ساعدت الجالية اليهودية على تحسين صورتها لدى الرأى العام الأمريكى على حين لا تزال الصورة العربية تعانى قدرا كبيرا من التشويه ؟.

وللإجابة على تلك التساؤلات يمكن القول أن نجاح اليهود فى التأثير على الرأى العام الأمريكى اعتمد فى الدرجة الأولى على دراستهم العلمية وتحليلهم لواقع المجتمع الأمريكى، وعلى العكس من ذلك افتقدت المجموعة العربية الأمريكية لتلك الرؤية العلمية، كما انشغلت فى صراعات داخلية ومحاولة تعريف الأمريكيين بتراثها دون أن تركز جهودها على الاندماج فى المجتمع الأمريكى أو تفهم طبيعة الحياة الأمريكية. وقد يكون حقيقة أن الهجرات العربية المتأخرة حملت معها تطورا فى الوعى وبأهمية التأثير على الرأى العام الأمريكي، إلا أن ما أضعف ذلك التأثير وقلل من أهميته تناقض الأنظمة السياسية فى الوطن العربى وانعكاسها على وضع الجاليات العربية، وذلك على نقيض اليهود الأمريكيين الذين يتحركون من خلال سياسة واحدة لدولة واحدة. وبينما يطلق على الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية تعبير الجالية الواحدة فإنه لا يمكن إطلاق ذلك التعبير بطبيعة الحال على المجموعة العربية الأمريكية التى تتكون فى حقيقة الأمر من العديد من الجاليات تنتمى كل واحدة منها إلى الدولة العربية التى قدمت منها، وبالتالى



تختلف الجاليات العربية فى مستوياتها الثقافية والاقتصادية والأيديولوجية ناهيك عن رواسب الخلافات المذهبية والطائفية والإقليمية. ومهما قيل عن محاولات التماسك بين الجاليات العربية إلا أن الصورة القديمة لا تزال قائمة حين نقل المهاجرون إلى المهجر أمراضهم السياسية والاجتماعية. وقد تكون الصورة أكثر قتامة بالنسبة للبنانيين الذين ينقسمون إلى عشرات من الطوائف وكذلك بالنسبة للفصائل الفلسطينية كما ينقسم المسيحيون الشرقيون بدورهم إلى مذاهب متعددة. وعلى الرغم من الاتجاه الذى ظهر منذ عقد السبعينيات من القرن الماضى بتأسيس منظمات عربية أمريكية تحاول تحقيق قدر من التماسك بين أفراد المجموعة العربية الأمريكية إلا أن تلك التنظيمات لا يمكن مقارنتها بالتنظيمات اليهودية التى تتبع أسلوبا واحدا وتجد دعما من دولة واحدة على حين نجد التنظيمات العربية تعمل كل واحدة منها بمفردها والأسوأ من ذلك أن بعض تلك التنظيمات قد أنشئت أساسا لخدمة الانقسامات السائدة بين الأنظمة العربية ذاتها.

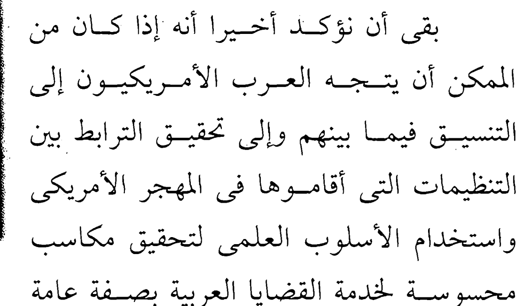
وجدير بالذكر أن العرب الأمريكيين والمسلمين منهم بصفة خاصة فقدوا كثيرا من فاعليتهم خلال السنوات الأخيرة وتعرضوا لموجات من العداء والكراهية على المستويات الشعبية والرسمية بسبب ما تعرضت له المصالح الأمريكية فى بعض البلدان العربية وغيرها أو فى الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها من حوادث عنف وإرهاب أحسن اليهود استغلالها لتشويه صورة العرب والمسلمين فى ذهن الأمريكيين.



صقور البيت الأبيض ديك تشينى - بوش- باول

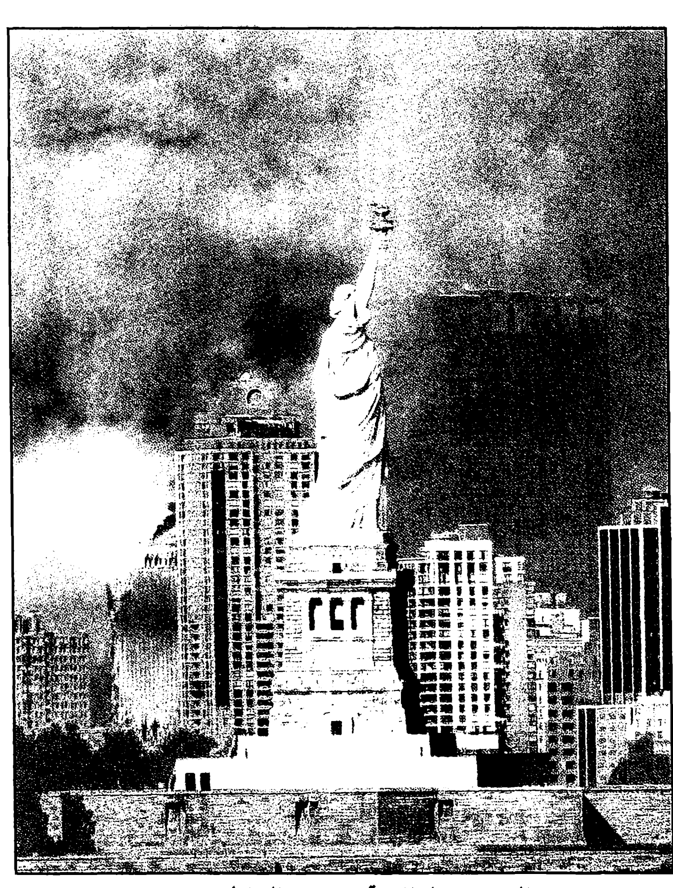


عمرو موسى
أمين عام جامعة الدول العربية

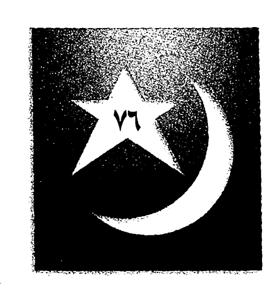


بقى أن نؤكد أخيرا أنه إذا كان من الممكن أن يتجه العرب الأمريكيون إلى التنسيق فيما بينهم وإلى تحقيق الترابط بين التنظيمات التى أقاموها فى المهجر الأمريكى واستخدام الأسلوب العلمى لتحقيق مكاسب محسوسة لخدمة القضايا العربية بصفة عامة ولتحسين صورة العرب فى المجتمع الأمريكى بصفة خاصة، إلا أن تلك الجهود لن تحقق نتائج إيجابية ما دامت الأوضاع السياسية فى العالم العربى لا تساعد على تحقيق تلك النتائج، وطالما لم يحدث تغيير فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى ونعنى بذلك استمرار تحيز الإدارة الأمريكية لإسرائيل على حساب القضايا العربية بصفة عامة والقضية الفلسطينية بصفة خاصة.

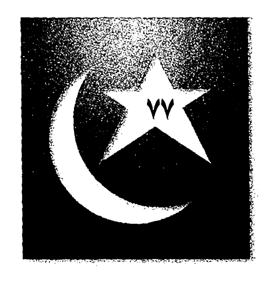
وعلى الرغم من القصور الذى تعانيه الجاليات العربية فى المهجر الأمريكى، إلا أن تلك الجاليات تعد بلا شك ثروة بشرية لا ينبغى إهدارها أو تجاهلها أو إهمالها وخاصة أن عددا كبيرا من أفرادها أصبح يحتل فى الوقت الحاضر مناصب قيادية أو سياسية أو علمية. وقد أدركت بعض الأنظمة العربية قيمة عرب المهجر وأنشأت لهم هيئات بل وزارات ومجالس عليا لرعايتهم. وقد يحتاج الأمر إلى إنشاء اتحاد لعرب المهجر قد يكون تحت مظلة الجامعة العربية لتنسيق وتبادل الخبرات وتفعيل



السحب القاتمة تحاصر تمثال الحرية - سبتمبر سنة ٢٠٠١م



الاتصالات. ومن المأمول إذا ما أحسنت الأنظمة العربية الاتصال بأبنائها فى المهجر الأمريكى أن تتحقق إمكانية تفعيل الجهود الرامية إلى تعديل صورة العرب التى تعمل الجهات الصهيونية على تشويهها أمام الرأى العام الأمريكى، وأن تصبح الجاليات العربية أداة للدفاع عن القضايا العربية والعمل على إقامة لوبى عربى يستطيع مواجهة اللوبى الصهيونى ووضع برامج عمل محددة للتواصل مع الحضارة الغربية وليس الصدام معها، وخاصة أن من بين أفراد الجاليات العربية من أصبح يشغل مواقع سياسية واقتصادية هامة فى المجتمع الأمريكى.



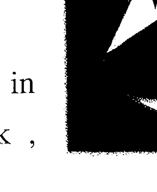


المصادر العربية

- جميل بطرس، المهاجر السورى، مطبعة الهدى، نيويورك د.ت.
- جون كنيدى ، أمة من المهاجرين، مترجم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٥
- خورى باسيليوس خرباوى، تاريخ الولايات المتحـدة والمهاجرة السورية- تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأمريكية، نيويورك١٩١٣
- سلوم مكرزل، تاريخ التجارة السورية فى المهاجر الأمريكية، نيويورك ١٩٢٠-١٩٢١
- صلاح الدين شريف، هجرة العقول وظاهرة تسرب الخبرات، القاهرة ١٩٧٥
- عبد الـكريم الأشتر، النثر المهـجرى " كتاب الرابطة القلـمية " _ الجزء الأول المضمون وصورة التعبير - معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦١
- فيليب حتى، السوريون فى الولايات المتحدة الأمريكية، مطبعة المقتطف، مصر ١٩٢٢
- نادية سالم، صورة العرب والإسرائيليين فى الولايات المتحدة الأمريكية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨

المصادر الأجنبية

- Abraham, Sameer Y .Nabeel (eds), The Arab World And Arab Americans: Understanding a Neglected Minority, Detroit, Michigan , 1981.
- Arabs in the New World Studies on Arab American Communities _ Wayne State University- Center for Urban Studies Detroit, Michigan, 1983.
- Aswad, Barbra (editor), Arab Speaking Communities in American Cities, Center for Immigration Studies, New York and Association of Arab American University Graduates, New York, 1984.
- ElKholy, Abdo A., The Arab Moslems in the United States : Religion and Assimilation, New Haven Conn College & University Press, 1966.

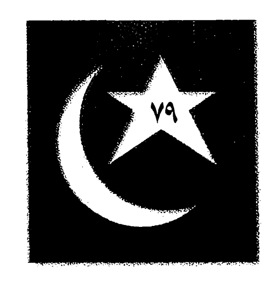


- Katibah, Ibrahim Habib, and Farhat Ziadeh, Arabic Speaking Americans, The Institute of Arab-American Affairs, New York, 1946.
- Mehdi, Beverlee Turner (Ed .Compiler), The Arabs in America 1492-1977, A Chronology & Fact Book , New York, 1978.
- Rizk, Salom , A Syrian Yankee, Printed in the U.S.A by Salom Rizk, 1943.

الدوريات

- البيان: جريدة- نيويورك
- السمير: جريدة- نيويورك
- الهدى: جريدة- نيويورك
- المشرق: مجلة- بيروت
- المقتطف: مجلة- القاهرة

مقدمة .


٧٩


المحتويات



This book dwells upon the role played by the Zionist pressure groups on the United States political resolutions towards the Middle East problems in general and the Arab - Israeli conflict in particular.

The Jewish success in the U.S.A was mainly based on their unity and solidarity, contrary to the Arab Americans who failed to influence the American administration to follow a balanced policy towards the Arab - Israeli conflict or the Arab causes in general.

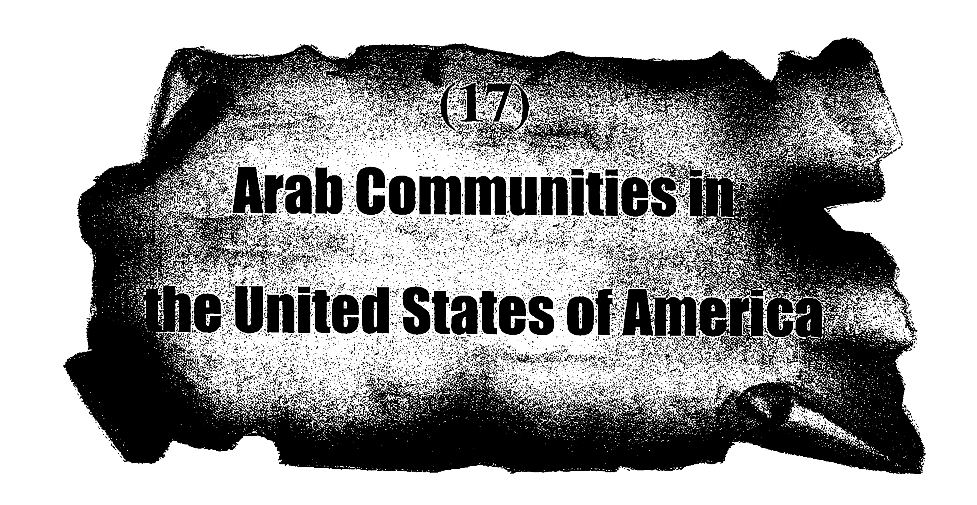
The author diagnosed this phenomenon by asserting the fact that the Arab communities in U.S did not represent a unified political system. On the contrary, they were dispersed into multi political and ideological channels.

Moreover, they were vulnerable to a wave of hatred and enmity imposed by the Zionist Media that has fiercely blemished the image of the Arabs and Muslims and accused them of backwardness and terrorism, particularly after the events of 11th September 2001.

In this book the author discusses the foundation and the developments of the Arab Communities in U.S., as well as their attempts to reach some kind of unity in order to correct the image of the Arabs and Muslims in general, and the Arab Americans in particular.

The author believes that Arab Americans could support the Arab causes if they succeed in forming an Arab lobby capable of confronting the Jewish one, especially that many Arab individuals had succeeded in occupying important posts in the American society.

Dr. Gamal Zakaria Kassem



Dr. Gamal Zakaria Kassem





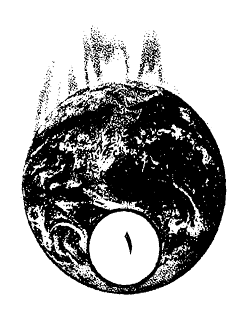
تأليف

أ. د. محمد صابر عرب

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر







لقد تعـرض العالم العربى، منذ بدايـات القرن التاسع عـشر لسلسلة متواصلة من الكوارث بسبب الأطماع الأوروبية، التى اسـتهدفت احتلال بلاد العرب فى إطار من التسويات التى لم تستند إلى أية مبررات شرعية أو قانونية.

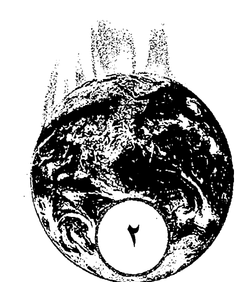
وفى الوقت الذى كـان فـيه العـالم الأوروبى يمضى نحـو مزيـد من التنميـة الاقـتصـادية والاجتماعية كانت البلاد العربية تئن أمام الضربات الاستعمارية التى أحكمت سيطرتها على معظم بلاد العرب، بينما كانت الدولة العثمانية قد أوشكت على أن تلفظ أنفاسها الأخيرة إن لم تكن قد لفظت أنفاسها فعلا.

ومع بداية القرن العشـرين كانت الأطماع الأوروبية قد تحددت بشكل قـاطع وسويت معظم المشكلات القائمة بين بريطانيا وفرنسا فيما عرف بالوفاق الودى ١٩٠٤ وعلى الرغم من المشكلات المتلاحقة بين بعض الدول الأوروبية إلا أن الموقف الأوروبى مـن الأقطار العربية قد شكل ما يمكن تسميـته بالسياسات المبـدئية التى اختلفت فى التفـاصيل إلا أنها اتفقت مبـدئيا على مناطق توزيع النفوذ.

ومع بدايات خريف عـام ١٩١٤ شهد العالم أحداثا مـروعة أثرت تأثيرا عظيمـا ليس فقط على التاريخ العربى وإنما امتدت آثارها، حيث شمل العالم برمته.

ولما كانت الأقطار العـربية ما تزال وقتـئذٍ تابعة للدولة العثـمانية، فقد صـار من المتوقع أن تكون لهذه التـوترات الدولية آثارها العـميقـة ليس على الدولة العثـمانية فـقط وإنما على الأقطار العربية برمتها.

لقد أدركت بريطانيا أن مـصالحها فى الأقطار العـربية مهددة بالخطر فى حالة دخـول تركيا الحرب بجانب دول الوسط وخـصوصا إذا ما أعلن السلطان العـثمانى الجهاد، حـيث يمكن التأثير ليس على العرب فقط وإنما على كل المسلمين رغـم أنه لم يكن من السهل التكهن بأثر هذه الحرب الدينية، كما أن تركيا ذاتها كانت متحالفة مع دولة مسيحية هى ألمانيا.



لقد شعرت بريطانيا حينما تلبد الموقف الدولى بأهمية العرب ووقع الاختيار على الشريف حسين لأسباب كثيرة، ولذا بدأت المحادثات معه منذ عام ١٩١٢ وهى محادثات دارت حول مسألة الشرافة فقط، حيث لم تكن قد ظهرت بعد قضية الدولة العربية المستقلة وموضوع الخلافة العربية.

لقد تضاعفت طموحات الشريف حسين الذى أدرك أهمية تلهف إنجلترا لهذا التحالف، حيث اعتقد أن منصب الشرافة لم يعد يتناسب والثمن الذى تطلبه إنجلترا، لذا راح يتطلع إلى الأقطار العربية الكبرى والتى سوف يكون هو نفسه خليفة عليها.

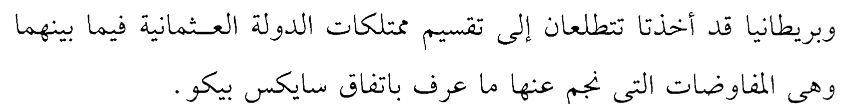
لقد راح الشريف يتلمس أقدامه فى شبه الجزيرة العربية أولا متطلعا إلى مساندة زعمائها ثم امتد ببصره صوب الشام على اعتبار أن الحركة العربية هناك فى عنفوانها وجرت محادثات فى دمشق تولاها فيصل بن الحسين مع الجمعيات العربية تمخضت عما عرف ببروتوكول دمشق، الذى كان بمثابة أجندة تصلح كأساس للمفاوضات مع بريطانيا، حيث نص صراحة على استقلال البلاد العربية وإلغاء كافة الامتيازات الأجنبية.

لقد اعتقد الشريف حسين أن الوقوف بجانب إنجلترا يعد فرصة يجب اقتناصها وهكذا قرر الرجل الدخول فى مفاوضات مع سير هنرى مكماهون.

لقد تبادل الرجلان مجموعة من المراسلات تمخضت عن نتائج غير محددة، وغير ملزمة لبريطانية، وغير متكافئة، كما أنها لا تعد بأى حال شكلا من أشكال الاتفاق ولا يمكن أن تكون حجة على بريطانيا وهى مجرد وعد لا يرقى إلى درجة الاتفاق.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أقدم الشريف حسين على إعلان الثورة على الترك واختار المدينة المنورة لكى يبدأ منها عملياته العسكرية (٥يونيو ١٩١٦) وبصرف النظر عن النتائج التى تمخضت عنها الثورة فيما يتعلق بالجانب العسكرى، إلا أن المهم أن بريطانيا قد أحكمت سيطرتها على أكثر الأقطار أهمية فى بلاد العرب بينما راحت تتنكر للوعود التى اعتقد الشريف أنها قطعتها على نفسها وهو ما تنكرت له الإدارة البريطانية.

ولم يكد السير هنرى مكماهون ينجز ما توصل إليه مع الشريف بشأن الثورة العربية، إلا وكانت هناك مباحثات من جانب آخر تتم فى الخفاء بين بريطانيا وحليفتيها (فرنسا وروسيا)، حيث أخذت كل دولة تحدد أهدافها فى المنطقة، ولما كانت روسيا قد حظيت بمطالبها فإن كلا من فرنسا


وبريطانيا قد أخذتا تتطلعان إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينهما وهى المفاوضات التى نجم عنها ما عرف باتفاق سايكس بيكو.



واللافت للنظر أن الشريف قد ألقى بكل ثقله بجانب بريطانيا على الرغم مما نشرته صحيفة القبلة (١١ يوليو١٩١٨)، الناطقة باسمه، حيث نشرت الكثير من الحقائق حول هذا الاتفاق نقلا عن صحيفة المستقبل، التى تصدر فى باريس. لقد قبل الشريف هذه المرة أيضا المبررات الواهية التى قدمتها له الإدارة البريطانية.

وبينما كانت اتفاقية سايكس بيكو ما تزال موضع جدل وغضب شديدين فى الأوساط العربية، إذا بوعد بلفور، الذى أعدته وأخرجته الحكومة البريطانية (٢نوفمبر ١٩١٧) قد أصبح حقيقة مؤكدة، حيث أدركت بريطانيا، منذ فترة مبكرة أهمية فلسطين بحكم مجاورتها لقناة السويس وأن إنشاء منطقة حاجزة فى فلسطين تعد مسألة أساسية.

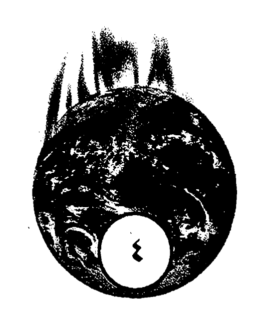
لقد كان لغفلة الشريف حسين وعدم تقديره لعواقب الأمور وعدم تفهمه للمعنى القانونى والسياسى لوعد بلفور مما أوقع العرب فى ألاعيب السياسة البريطانية، لدرجة أن الرجل أبدى تفهما ملحوظا لوجهة النظر البريطانية بل وأبدى استعداداً لكى يهيئ لليهود ملجأ بسبب ما أسماه بالاضطهاد العالمى.

وهكذا لم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى فى عام ١٩١٨، حتى كان الحكم التركى قد انحسر عن الشرق العربى وبدا وكأن العرب قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مشروع الدولة العربية، ولكن هذه الآمال ما لبثت أن تبددت أمام الأطماع والمؤامرات الأوروبية (البريطانية والفرنسية) ولم يكتفيا بتحقيق أغراضهما وإنما ساهما بشكل واضح فى إقامة كيان غريب عن الأمة العربية من خلال وطن قومى لليهود، كان وما يزال بمثابة العامل الأساسى فى تدهور المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

لعل ما حدث فى الحرب العالمية الأولى يعد مأساة إنسانية بكل المقاييس، حينما عاش الحكام العرب فى وهم كبير ولم يلتفتوا للمؤامرات والدسائس التى أهدرت الحقوق العربية.

ويمكن القول بأن هذه الدراسة تقدم هذه التجربة إلى القارئ العربى ليس من قبيل التسلية وإنما من قبيل الدرس الأول، الذى كان من الواجب الاستفادة منه إلا أن التجربة ما تزال تتكرر مع اختلاف الوسائل وهو ما يضاعف من حجم المأساة.

أ.د. محمد صابر عرب





العالم العربى عند مطلع الحرب العالمية الأولى:

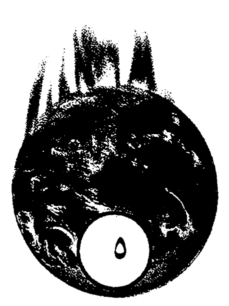
مع بدايات خريف عام ١٩١٤ شهد العالم كله أحداثا مروعة أثرت تأثيرا عظيما ليس فقط على التاريخ العربى وإنما امتد آثارها فشمل العالم برمته.

لقد شهدت أوروبا خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ظهور قوى جديدة راحت تبحث لها عن موضع قدم وسط القوى الاستعمارية التقليدية ولم يكن أمام هذه القوى الجديدة الطامحة إلا الدخول فى حلبة المنافسة ومحاولة الاقتراب من الدولة العثمانية.

لقد أخذت حركة التوغل الألمانى تمتد نحو الأناضول فأرض الرافدين، حتى الخليج العربى وراحت آفاق السياسة الألمانية تتجه صوب إيران والهند فيما أطلق عليه "سياسة الزحف نحو الشرق" حينما راحت الحكومة الألمانية تفكر فى المزيد من الزحف والاستحواذ نحو مناطق كانت



اشتعال الحرب العالمية الأولى

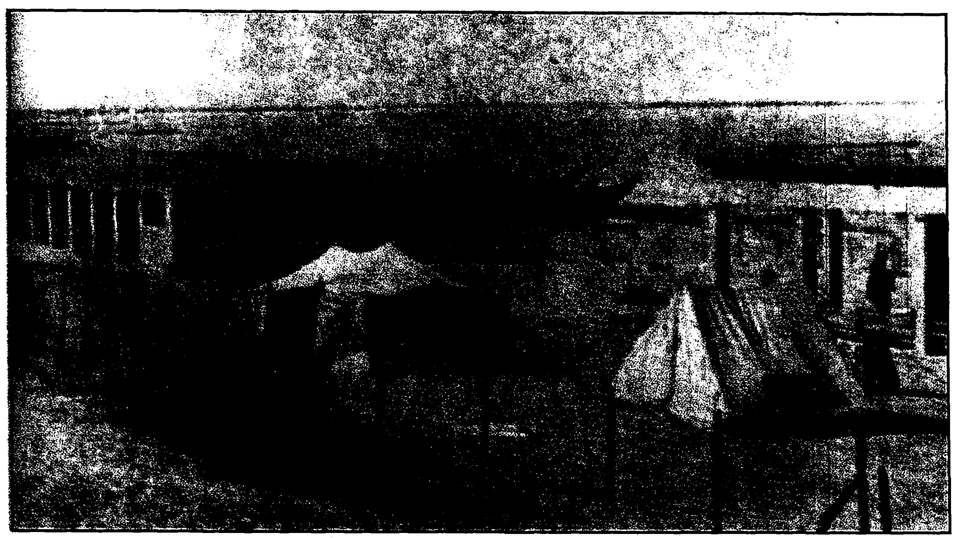


تعتبرها بريطانيا مجالا حيويا لها. وعلى الرغم من أن النفوذ الألمانى قد لقى تشجيعا فى مراحله المبكرة من جانب بريطانيا لأسباب تتعلق بالمخططات الروسية فى مناطق الشرق العربى إلا أن مطلع القرن العشرين قد شهد مرحلة من أزمة الثقة بين القوى الاستعمارية القديمة والقوى الطامحة الجديدة لدرجة أن الدولتين بريطانيا وألمانيا قد أصبحتا على وشك المواجهة المسلحة.

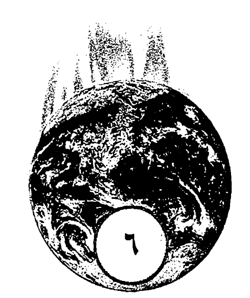
وهكذا راحت بريطانيا تعد العدة لمواجهة الخطر الداهم على مصالحها فى المنطقة من خلال إجراءات استثنائية لدرجة أنها ألغت مهام الوزراء فى بلد مهم كمصر بينما راحت الدولة العثمانية تعمل على الاستفادة من التوتر الدولى القائم بمحاولة استرجاع نفوذها على الولايات العربية المهمة كمصر والعراق، وانبعثت فى العاصمة إستانبول آمال جديدة نحو جمع ما بقى للدولة من الولايات والشعوب وخاصة الولايات العربية فى حكم مركزى تابع تبعية مباشرة للعاصمة إستانبول.

لقد ظن الترك أن صداقتهم لألمانيا كفيلة بتحقيق هذا الحلم وأن وقوفهم بجانبها فى الحرب من شأنه أن يؤثر تأثيرا عظيما، حيث يمكنها من إغلاق المضايق فى وجه الحلفاء وفى استطاعتها قطع الطريق البحرى بين قناة السويس وعدن كما أن فى يدها سلاحا خطيرا وهو إعلان حرب دينية مقدسة ضد دول الوفاق.

لقد نشطت الدبلوماسية الألمانية فى العاصمة التركية ضمانا لوفاء الأتراك وتولى الضباط الألمان كثيرا من المناصب القيادية فى الجيش العثمانى وراح الألمان يقدمون كافة الإغراءات للفرس



البعثة الصحية الأمريكية فى الكويت سنة ١٩١٤



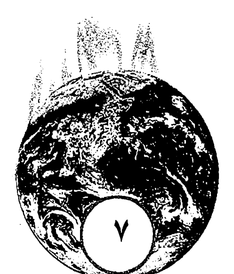
مستغلين حالة الغضب بسبب تقسيم بلدهم إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وروسيا، كما نشط الألمان فى أفغانستان وشط العرب والبصرة وهى مناطق شديدة الحساسية لبريطانيا.

ويلاحظ أن العالم العربى عند مطلع الحرب الأولى كان يحظى بأهمية خاصة فى سياسات الغرب فإلى جانب الحقوق المستمدة من الامتيازات الأجنبية والقروض التى مولت كثيرا من المشروعات العثمانية وامتيازات إنشاء الطرق والسكك الحديدية وإدارات البنوك إضافة إلى نشاط البعثات التبشيرية بأنشطتها الدينية والتعليمية والصحية.

لقد أدركت ألمانيا، منذ فترة مبكرة من القرن العشرين أهمية تواجدها فى الممتلكات العثمانية وأبدت نشاطا واسعا فى مد السكك الحديدية حيث حصلوا فى عام ١٨٩٩ على امتياز مبدئى من السلطان العثمانى بإنشاء سكة حديد بغداد التى كان من المتوقع أن تربط برلين وفيينا ببغداد والخليج العربى عبر الآستانة بهدف الاستفادة من المواد الخام وأهمها القطن وبترول شمال العراق، بينما نشطت الدبلوماسية الألمانية وخصوصا فى المناطق الشرقية من العالم العربى. وعلى الرغم من أن بريطانيا وألمانيا وتركيا قد توصلوا إلى عقد عدة اتفاقيات فى عامى ١٩١٣، ١٩١٤ تتناول مشكلات المواصلات والحدود إلا أن نشوب الحرب قد حال دون تنفيذ هذه الاتفاقيات ثم أصبح مستقبل المنطقة العربية برمتها مرهونا بنتيجة الصراع المسلح .

منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٧ وبريطانيا تنهج سياسة مغايرة نحو الدولة العثمانية، حيث تخلت عن سياستها التقليدية القائمة على فكرة الحفاظ على ممتلكات الرجل المريض إلا أنها تجنبت الدخول فى مشروعات دولية تستهدف تصفية الدولة العثمانية خوفا من الأطماع الروسية بشكل خاص، ووفقا للسياسة البريطانية الجديدة أقدمت على احتلال مصر ١٨٨٢ وأقدمت على فرض حمايتها على الخليج العربى وكان من مظاهر السياسة الجديدة تشجيع بعض الشخصيات العربية الهاربة من سوريا أو العراق بسبب اضطهاد الاتحاديين فى تركيا للإقامة فى القاهرة التى أصبحت مركز نشاط لكل الساخطين على الحكم التركى وفى مقدمتهم عزيز المصرى الذى نجحت الدبلوماسية البريطانية فى العفو عنه حيث كان قد صدر حكم الأتراك عليه بالإعدام.

لقد تبين للعرب أن المساواة التى كان الزعماء الترك الجدد يرددونها لا تعبر عن نوايا حقيقية وراح الأتراك يشككون فى ولاء العرب للسلطنة العثمانية مدعين أن العرب يسعون نحو إقامة خلافة عربية وبالغوا فى الضغط على العرب، حيث فرضوا اللغة التركية على مختلف عناصر الدولة بما فيهم العرب ولم يسمحوا بإقامة مدارس عربية وأقدم الأتراك على شىء لم يقدم عليه



السلاطين العثمانيين من قبل وهم فى أوج قوتهم ألا وهو ترجمة القرآن إلى اللغة التركية مما اعتبره العرب بمثابة سياسة عدائية جديدة ضد الإسلام والعروبة.

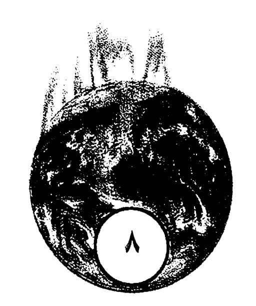
ولعل مما ضاعف من استياء العرب من الاتحاديين موقف هؤلاء من مسألة فلسطين والأطماع الصهيونية فيها، وهو موقف يتسم بالسلبية والتراخى إذا ما قورن بموقف السلطان عبد الحميد، وخصوصا وأن اليهود فى فلسطين قد انتهزوا فرصة الحكم النيابى وطالبوا بتمثيل بعضهم فى البرلمان العثمانى، كما أنه عقب حركة الاتحاديين فى عام ١٩٠٨ أصبح للمنظمة الصهيونية العالمية ممثل لها فى العاصمة الآستانة، أخذ يتعاون مع الحاخامات اليهود واليهود الخمسة الذين أصبحوا أعضاء فى البرلمان العثمانى.

لقد أتاحت سياسة التساهل التى عامل بها الاتحاديون اليهود فرصة الاستيلاء على أراض فى فلسطين مما ضاعف من استياء النواب العرب فى البرلمان العثمانى.

لعل تأييد الاتحاديين لليهود كان يرجع إلى رغبتهم فى الحصول على أموال يهودية لتمويل حرب البلقان لذا فقد ألغيت مهلة الثلاثة أشهر المحددة لإقامة الحجاج اليهود فى فلسطين بدعوى أنها لم تحقق الغرض منها كما سمح بافتتاح جمعية صهيونية فى الآستانة.

وعلى الرغم من أن كثيرا من الشباب العربى قد ساهم فى جمعية الاتحاد والترقى، بل وساهموا فى ثورة تركيا ١٩٠٨ إلا أن رجال الاتحاد والترقى ما إن تولوا مقاليد الأمور حتى تجاهلوا كل مطالب العرب واتبعوا سياسة البطش، لذا فقد بدأ العرب يتجمعون من خلال جمعيات ومنظمات سرية وعلنية راحت تعمل جميعها على مقاومة الأتراك.

لقد شهدت الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى موجة من النشاط العربى ضد العثمانيين حيث تكون "المنتدى الأدبى" فى القسطنطينية عام ١٩٠٩ ثم أعقبه "الجمعية القحطانية" أو "جمعية العهد" كما عرفت فيما بعد وقد أسسها الضابط المصرى، المعروف عزيز على المصرى وكانت تهدف إلى جعل الدولة العثمانية دولة عثمانية عربية على نمط إمبراطورية النمسا والمجر فيكون لكل من العرب والترك كيانهم الخاص بهم وبرلمانهم ولغتهم، يجمع بينهما تاج مشترك ليس عربيا خالصا ولا عثمانيا خالصا وإنما عربى عثمانى ولم تلبث هذه الجمعية أن انكشف أمرها ونكل بأعضائها فى السجون العثمانية.



لقد أخذت جمعيات عربية أخرى تحذو حذو جمعية العهد، حيث تألفت فى باريس جمعية سرية أخرى، كونها سبعة من الطلاب العرب المسلمين ثم انتقل مركزها إلى بيروت ثم إلى دمشق إلا أن ثمة أمرين يلفتان النظر :

أولهما: أن معظم الزعماء العرب كانوا متمسكين بالبقاء ضمن الإمبراطورية العثمانية، وانحصرت مطالبهم فى الإصلاح واللامركزية أو الاستقلال الذاتى.

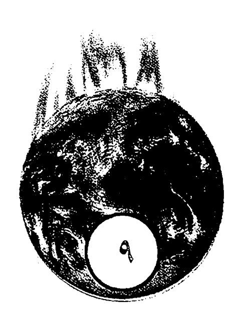
ثانيهما: أن بعض العناصر العربية المسيحية وخاصة فى لبنان كانت تكره السيادة التركية ليس بدافع القومية بقدر ما كانت بدافع العقيدة الدينية. ولذلك كانت تتطلع نحو التحرر من حكم الترك لا بقصد تأليف دولة مستقلة فى الشام، لأنهم فى هذه الحالة سينضمون لحكم الأكثرية المسلمة وإنما كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية وبمساعدة دولة أوروبية هى فرنسا، حيث تطرد الترك من الشام وتحكم بدلا منهم وقد كتب بعض هؤلاء الأعضاء المسيحيين فى المجلس العمومى إلى قنصل فرنسا العام فى بيروت عام ١٩١٣ مذكرة طالبوا فيها بحماية فرنسا على بلاد الشام، وقد وقعت هذه المذكرة فى يد الأتراك عقب نشوب الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى صدور الحكم من جانب المجلس العسكرى على من وقع عليها بالإعدام عام ١٩١٦ ولم ينفذ الحكم إلا على واحد فقط من الموقعين على هذه المذكرة أما الباقون فقد كانوا فى مصر أو فى أمريكا أو باريس.

وعلى الرغم من أن هذا كان يعد انحرافا للحركة العربية إلا أن هذا لم يكن شعور كل مسيحيى الشام حيث كانت بقية الطوائف المسيحية(من غير الموارنة) شأنهم شأن المسلمين يعارضون بشدة إقامة النفوذ الفرنسى فى الشام.

لقد كانت الأوضاع العربية قبيل الحرب العالمية الأولى تتسم بقدر من التناقض، بينما انقسمت أوروبا إلى معسكرين أولهما معسكر الوفاق، الذى تكون بشكل أساسى من بريطانيا وفرنسا وروسيا. وثانيهما. معسكر التحالف (دول الوسط) وكانت القوة الأساسية فيه هى ألمانيا والنمسا وقد انضمت إليه الدولة العثمانية.

ولما كانت الأقطار العربية تابعة للدولة العثمانية فقد صار من المتوقع أن تكون لهذه الحرب آثارها العميقة على مصير الأقطار العربية.

لقد ظهر التنافس الدبلوماسى بين الحلفاء ودول الوسط بهدف كسب تركيا، وقد بدا منذ البداية العديد من المؤشرات التى تؤكد تفوق دول الوسط وأنها ستكسب تركيا إلى جانبها بينما راحت إنجلترا وفرنسا تبذلان جهدا كبيرا فى هذا السبيل إلا أن الأتراك راحوا يتطلعون إلى استعادة



بلاد القرم والمناطق التى فقدتها تركـيا فى القوقاز، بل ويتطلعون إلى حوض نهر الفـولجا وكانت مـشاعر الود التى سـبق وأظهرها الشعب التـركى نحو إنجلتـرا فى عامى ١٩٠٨-١٩٠٩ قـد اندثرت وحل محلهـا شعـور بالمرارة وخيبـة الأمل بسبب وقوف إنجلتـرا وفرنسا ضد تركـيا وعدم تعاطفـهما مع آمالها.

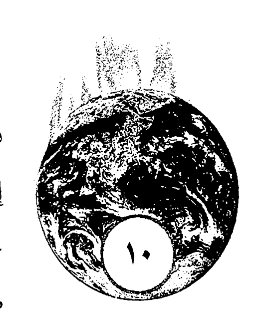
وهكذا رأت بريطانيا أن مصالحها فى الأقطار العربية مهددة بالخطر فى حالة دخول تركيا الحرب بجانب دول الوسط وخصوصا فى منقطتين هامتين أولاهما منطقة قناة السويـس وثانيتهما منطقة الخليج العربى الغنيـة بالنفط وكلتاهما يؤدى إلى أهم مستعمرات بريطانيا فى الهند، وكانت آبار النفط تستغلها شركة البترول الأنجلو فارسية وتمد بريطانيا باحتياجاتهـا من البترول الذى ينقل من حقول فارس إلى مصافى عـبدان الواقعة على شط العرب بينما كانت عبـدان تقع على الضفة اليمنى على شط العرب، وكانت الدولة العثـمانية تمتلك الفاو على الضفـة اليسرى على شط العـرب وبذلك كانت تسـتطيع أن تدمر مصـافى النفط وتحول دون تصديره إلى بريطانيا مما يشكل تهديدا خطير للمصالح البريطانية.

إضافة إلى أهميـة البحر الأحمر بسواحله الطويلة، التى يمكن أن يستـخدم من جانب ألمانيا والدولة العثمانية ضد المصالح البريطانية، إضافة إلى أهمية اليمن والتى كان بها حامية تركية يمكن أن تهدد القواعد البريطـانية فى عدن، كما كان هناك خطر من جانب القوات العـثمانية فى العراق والخليج العربى كما كان فى استطاعة القوات العثمانية المدعمة بضباط ألمان والمتمركزة فى الشام من أن تهاجم مصر وقناة السويس.

ولعل من أشد الأخطار التى كانت تهدد دول الوفـاق خطر إعلان الجهاد من جانب الدولة العثمانيـة حيث يمكن استخدام الحرب الدينية بالعمـل على إثارة العرب والمسلمين ضد دول الوفاق وخاصـة أن الدولة العثمانيـة تسيطر على الأماكن المقـدسة الإسلاميـة فى الحجاز كمـا أن ملايين المسلمين كانوا تحت حكم كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وبينما أدركت بريطانيا حقيقة المخاطر التى من الممكن أن تلحق بها من جراء انضمام الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، حيث تجاوزت القضيـة مجرد الاستعدادات العسكرية، فقد أصدر شيخ الإسلام فى الدولة العثمانيـة بيانا إلى جميع مسلمى العالم فى الأرض يستثيـرهم مؤكدا أن الجهاد صار فرض عين على كل المسلمين، ضد المستعمرين، الذين وصفهم البيان بالكفار .

لقد أجمعت التقارير الأمريكية على أن العـرب والمسلمين من رعايا الدولة العثمانية يرحبون بالحرب أمـلا فى القضاء على الخطر الروسى والبـريطانى، بالاستعـانة بألمانيا التى أقامت خطتـها



اعتمادا علـى إثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين وأن إمبراطور ألمـانيا اقترح حربا دينية لتـحطيم النفوذ البريطاني والفرنسى فى البلاد العـربية وأن تركيا فى حد ذاتها ليـست بذات قيمة: فإن جـيشها ضعـيف ولا يعول عليه فى إنجاز شىء له قـيمة ولكن العـمل العظيم هو الشعب المسلم فـإذا نجحنا فى حـشده ضـد الإنجليز والروس فـإننا نستطيـع أن نرغم هاتين الدولتين على طلب الصلح.

لقد شعـرت بريطانيا بالخطر الذى يمكن أن يحدثه إعـلان الجهاد من جانب الـسلطان العثـمانى وخصـوصا على العـرب رغم أنه لم يكن من السـهل التكهن بأثر هذه الحرب الدينية، كما أن تركيا ذاتها كانت متحالفة مع دولة مسيحية هى ألمانيا.

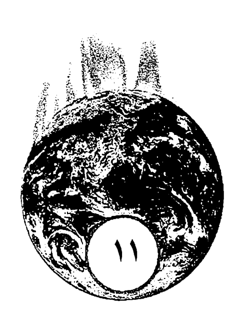
وعلى ضـوء هذه الأهداف التى رسمـتهـا تركـيا وحليـفتـها من دخـول الحرب تحـددت إستراتيجية تركيا فى عبارتين "الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية".

سياسة بريطانيا تجاه الأقطار العربية.

لقد سلكت بريطانيا عدة سبل لمواجهة المخاطر الناجمة عن وقوف تركيا بجانب ألمانيا؛ ففى مصر وعلى الرغم من تعهد إنجلترا لتركيـا فى أغسطس ١٩١٤ بعدم إحداث تغيير فى نظام مصر السياسى إذا التـزمت تركيا الحياد. إلا أن بريطانـيا راحت وقبل أن تدخل تركيا الحـرب تعد العدة لإعلان الحماية البـريطانية وإنهاء السيادة العثـمانية، بل راحت الخارجية البـريطانية تفكر جديا فى ضم مصر إليها نهائيا وحددت التاسع عشر من نوفمبر ١٩١٤ موعدا لإعلان الانضمام وأبلغته إلى القائم بالأعمال البريطانى فى مصر (١٣ نوفمبر ١٩١٤).

لقد تراجعت بريطانيا عن ضم مصر والاكتـفاء بالحماية بسبب رفض حلفائها الذين رأوا أن ضم مصر يعتبر كسبا لبريطانيا على حـساب أصدقائها والحرب لم تنته بعد، إضافة إلى الخوف من هياج الشعوب الإسلامية الواقعة تحت سيطرتها.

لعل تطور الأحداث منذ نهـاية أكتوبر ١٩١٤ كان يعـد سببا كافـيا لإعلان بريطانيا رسـميا الحماية على مصر (١٨ ديسمبر ١٩١٤) فقد تجمع نحو ألفين من البدو والمسلمين استعدادا لاجتياح الحدود المصـرية، فى الوقت الذى قامت فيه مـدمرة تركيـة بمهاجمة مـيناء أوديسا وأغرقت مركـبا روسيا فى ٥ نوفـمبر ١٩١٤. وهكذا أصبحت إنجلتـرا فى حالة حرب فعلية مع تركـيا وفى اليوم التالى لإعلان الحماية على مصر (١٩ ديسمبر ١٩١٤) أعلنت بريطانيا عزل الخديوى عباس حلمى وتولية الأمير حسين كامل عرش مصر، التى كان عليها أن تواجه أحداث الحرب وهى متجردة من



كل سلطة أو مؤسسة حقيقية يخشى بأسها فهذا خديوها المناوئ قد عزل وحل بدلا منه - سلطان- لا يشعر إلا بقوة الحراب البريطانية وتحول مجلس النظار المصرى إلى مجرد هيئة استشارية تعمل بمشورة السلطات البريطانية وتم ترحيل الجيش المصرى إلى السودان خشية إحداث قلاقل ثم أعلنت الأحكام العرفية وما أعقبها من وقف معظم الصحف المصرية واعتقل معظم زعماء الحركة الوطنية أو طردوا خارج البلاد وإمعانا فى محاصرة النشاطات الوطنية فقد حظر منع الاجتماعات العامة لأكثر من خمسة أشخاص دون إذن من السلطات البريطانية.

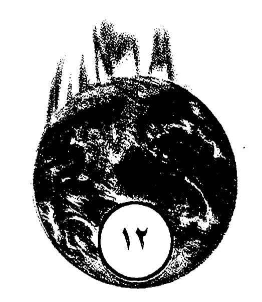
وهكذا خيل للإنجليز أن مصر قد غدت جسدا بلا روح وهو اعتقاد لم يكن حقيقيا، حيث إن الهدوء الذى أغرى الإنجليز على سياستهم لم يكن إلا ظاهريا، فقد كان يخفى تحته قدرا هائلا من السخط حيث ارتدى الطلاب شارات الحداد يوم الاحتفال بتنصيب السلطان حسين كامل وامتنع الأهالى عن رفع العلم المصرى الجديد كما ظهر بين الشباب الكثير من النشرات التى تحث على الثورة.

كان المصريون يميلون إلى جانب ألمانيا طمعا فى التخلص من الاحتلال الإنجليزى جريا وراء مأثورتهم القائلة " دفع الكافر بالكافر" بل رأوا فى قدوم الألمان على أسوأ تقدير استبدال شر غير معروف بآخر معروف.

وهكذا أصبحت مصر محمية بريطانية تحميها جيوش بريطانية راحت تعد العدة لمواجهة الزحف العثمانى، الذى كان يتوقعه البريطانيون على مصر وخصوصا قناة السويس، التى اعتبرتها بريطانيا مسئوليتها الأساسية، كل ذلك فى ظل حالة من الوجوم سيطرت على كل المصريين.

وفى نفس الوقت كانت بريطانيا قد أعدت حملة عسكرية قدمت من الهند لغزو العراق من الجنوب وأخذت هذه الحملة تتقدم شمالا حيث استولت على المدن الرئيسية حتى شمال العراق ودخلت الموصل على الرغم من أن شيوخ القبائل فى العراق قد وعدوا السلطات التركية باستعدادهم للدفاع عن البلاد وأن لديهم كثيرا من الرجال ولكن ينقصهم السلاح والعتاد، إلا أنهم طالبوا ببعض الضمانات مقابل اشتراكهم فى هذه الحرب.

لقد أدركت بريطانيا أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه العرب فى الصراع الدائر وخصوصا أن عرب المشرق قد أبدوا قدرا كبيرا من السخط ضد الأتراك قبل الحرب، لذا فإن التأثير عليهم يبدو أمرا سهلا كما أن إحداث ثورة عربية ضد الترك سوف ترغمهم على الاحتفاظ بجانب كبير من



قواتهم فى البلاد العربيـة مما يخفف الضغط على جبهات القتـال الرئيسية، كما أن خروج شـبه الجزيرة العربية على النفوذ العثـمانى من شأنه أن يقطع الصلة بين القوات العثمانية الرئيسية المتـمركزة فى الشام والفرق العثمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية كاليمن وعسير وبذلك لا تستطيع هذه الأخيرة أن تصبح ذات خطر على المراكز البريطانية فى جنوب الجزيرة العربية "عدن" .

لقد كانت بريطانيا تعلق آمالا كبيرة على شبه الجزيرة العربية رغم أن بلاد الشام كانـت هى المؤهلة للثورة ضد العثـمانيين، حيث الحركـة العربية كانت أقوى من غيرها فى بلدان الشرق العربى ولأن إخـضاع الحركة العـربية فى الشام سوف يكون لحساب فرنسا وإذا ما أمكـن تحريرها من التـرك فإن بريطانيا لن تسـتفيـد منها، كل ذلك أدى إلى انصراف بريطانيا عن التفكير فى الشام كمركـز للنشاط العربى ضد العثـمانيين وتفضـيل الجزيرة العـربية ولذلك أقـدمت بريطـانيـا على إبرام عدة مـعاهدات مع عدد من الزعـماء العرب فى شبه الجـزيرة العربية، كان فى مقـدمتـهم الإدريسى فى عسـير، الذى كان فى استطاعته إقامة العقبات فى وجـه المواصـلات التـركـيـة بين الحـجاز واليـمن وتهـديد التـرك من الخلف فى حالة هجـومهم من اليمن على عدن، لذا فـإن المقيم السـياسى البريطانى فى عدن قـام بإبرام معاهدة فى أبريـل ١٩١٥ لتـقـوية أواصـر التحـالف بين الطرفين، وتعـهـد الإدريسى بمهـاجمـة الترك ومحـاولة إخراجهم من اليمن.

خروج الجيش الألمانى للحرب العالمية الأولى



وإذا كان الإدريسى قد انضم إلى بريطانيا علانية فقد كان موقف الإمام يحيى مختلفا على الرغم أن مركزه الدينى كان يمنعه من الانضمام للقوى غير الإسلامية ضد العثمانيين المسلمين، كما أن صلحه مع العثمانيين ١٩١١ كان قيدا عليه بعكس الإدريسى الذى لم يلزم نفسه بموقف رسمى نحو العثمانيين وكانت له سابق تجربة حينما تحالف مع الإيطاليين لذا فإن الإمام يحيى لم يناصب البريطانيين العداء الصريح واتسم موقفه بالحياد فى الصراع الدائر.

لقد راحت الدبلوماسية البريطانية تستقطب الحكام العرب وفى مقدمتهم عبد العزيز آل سعود - فى نجد حيث أوفدت إليه من الهند الكابتن شكسبير وتمخضت المفاوضات بينهما عن عقد معاهدة فى عام ١٩١٥ نص فيها على اعتراف بريطانيا باستقلاله فى نجد والأحساء والقطيف وملحقاتها فى مقابل تعهده بعدم إبرام أى اتفاق مع أية دولة أجنبية وعدم تنازله عن أى جزء من أراضيه لدولة أجنبية أو أحد رعاياها كما تعهد بفتح الطريق الذى يمر ببلاده والمؤدى إلى الأماكن المقدسة فى الحجاز وأن يحمى الحجيج فى مرورهم من وإلى الأماكن المقدسة كما تعهد بعدم التدخل فى شئون الكويت والبحرين وقطر ومشيخات ساحل عمان تلك المناطق التى كانت تحت حماية بريطانية وترتبط معها بمعاهدات.

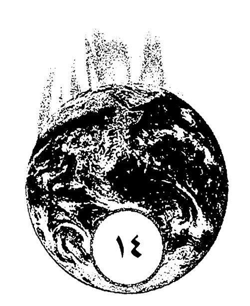


الملك عبد العزيز آل سعود

فى الوقت الذى وجه فيه المقيم السياسى البريطانى مذكرة إلى الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت يعده فيها باعتراف بريطانيا بانقطاع صلات الكويت تماما بالدولة العثمانية فى مقابل تعاون أمير الكويت مع الأمير عبد العزيز آل سعود وغيره من الزعماء فى تقديم العون للقوات البريطانية المتجهة إلى البصرة وجنوب العراق فقد حرصت بريطانيا على



الشيخ مبارك الكبير أمير الكويت

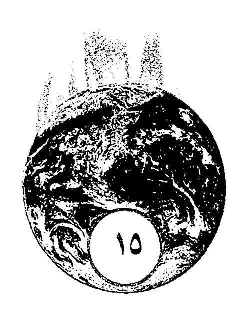


تدعيم مركزها بين أمراء الخليج بالتفاهم مع سلطان مسقط وأمير الكويت ومشايخ البحرين ومنطقة الساحل المهادن، كما أن ابن سعود الذى امتد نفوذه نحو الساحل(الحسا) كان تواقا لدعم بريطانيا لسياسته، كما أن شيخ المحمرة كان يتطلع إلى حماية بريطانيا دعما لمركزه، وما دام العثمانيون موالين لبريطانيا ولا يعارضون نشاطها حفاظا على قوتها فى المنطقة، فقد كانت بريطانيا راضية مادامت المنطقة فى مأمن من أن تصل إليها أيدى منافسيها وخاصة روسيا وألمانيا اللتين كانتا تشكلان خطرا حقيقيا للسياسة البريطانية، منذ أن راحت تتجه بسياستها نحو الشرق وكان مشروع خط سكة حديد بغداد يثير قلق الحكومة البريطانية التى كانت تخشى وصول النفوذ الألمانى إلى المحيط الهندى عبر العراق والخليج العربى ولذلك سارعت الحكومة البريطانية إلى إبرام اتفاقيتها الشهيرة مع شيخ الكويت، حيث كانت تعتبر النفوذ الألمانى أشد خطرا من النفوذ الروسى.

وبالرغم من دعوة رؤوس الأموال البريطانية إلى المساهمة فى مشروع سكة حديد بغداد فقد رفض المشروع باعتباره نفوذا ألمانيا يخدم ويخطط للمصالح الألمانية وهو ما كانت تعتبره بريطانيا خطرا حقيقيا على مصالحها فى المنطقة.

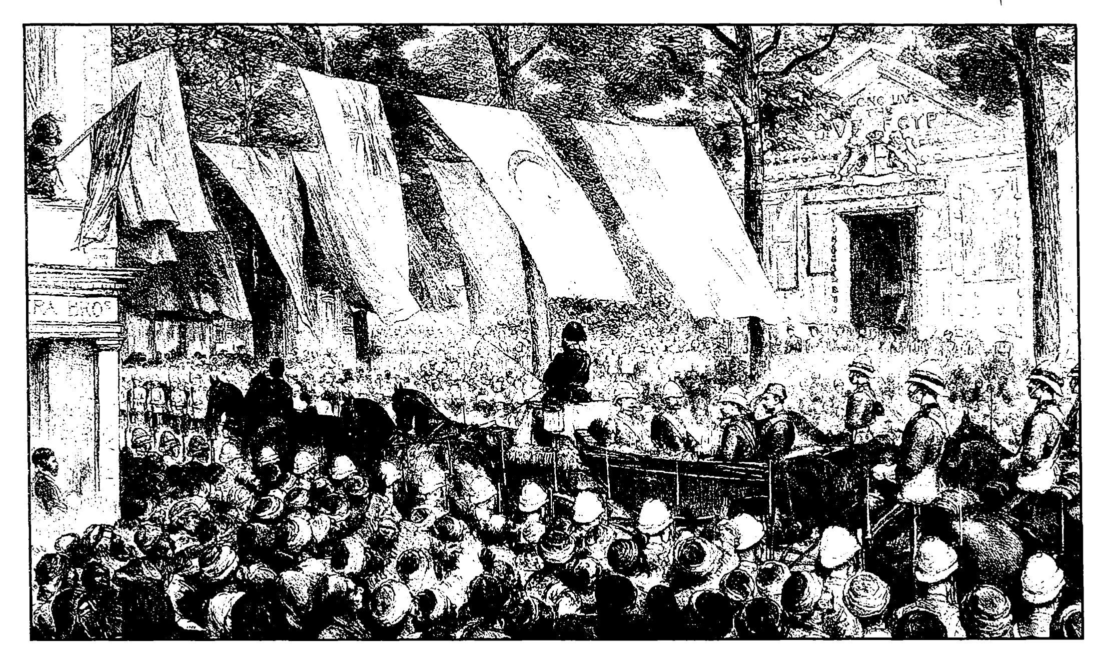
لقد كان مشروع خط سكة حديد بغداد واحدا من الأسباب التى عجلت بقيام الحرب العالمية الأولى نظرا للأهمية السياسية التى كانت تتطلع إليها ألمانيا من وراء قيام المشروع إضافة إلى الأهمية العظيمة التى كان يشغلها العراق بسبب مجاورته لحقول النفط فى فارس وخاصةً عبدان حيث كانت توجد أعظم مصافى النفط البريطانية وبدخول تركيا الحرب بجانب دول الوسط ازداد الخطر التركى الألمانى على النفط الفارسى.

لقد أعلن "أسكويث" Asquith رئيس وزراء بريطانيا فى مجلس العموم فى الثانى من نوفمبر ١٩١٤ أن الهدف من إرسال قوة إلى العراق "هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا فى الخليج وحماية حقول النفط والمحافظة على هيبة بريطانيا فى الشرق.



الفصل الثانى
بريطانيا والشريف حسين

منذ نهاية القرن التاسع عشر وعلى وجه التحديد عام ١٨٧٨ "مؤتمر برلين" أخذت بريطانيا تتخلى عن سياستها التقليدية وهى المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية إلا أنها تحاشت الدخول فى مشروعات دولية خوفا من الأطماع الروسية، التى كانت تستهدف السيطرة على مناطق مهمة من الدولة العثمانية وكان من مظاهر السياسة البريطانية الجديدة، أن أقدمت بمفردها على احتلال مصر ١٨٨٢ وتشجيعها لبعض الشخصيات العربية الهاربة من سوريا أو العراق بسبب اضطهاد الاتحاديين للإقامة فى القاهرة، التى أصبحت مركزا نشطا لكل هؤلاء ويعد عزيز المصرى واحدا منهم، حيث تدخل كشتنر "المعتمد البريطانى" تحت إلحاح جمعية اللامركزية فى القاهرة وبتنسيق مع السفير البريطانى فى الآستانة للعفو عن عزيز المصرى الذى صدر حكم الأتراك عليه بالإعدام.



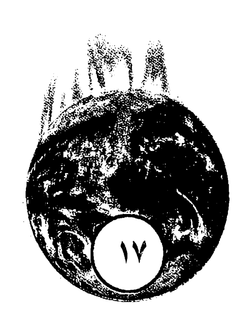
دخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢م

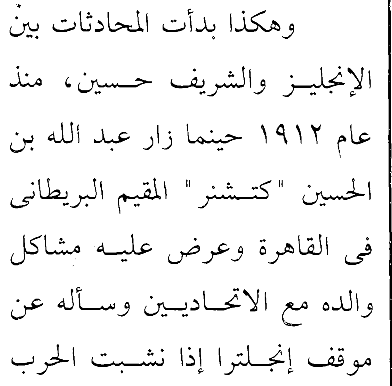


لقد شعـرت بريطانيا حينما تلبد الموقف الدولى بأهمـية العرب ووقع الاختيار على الشريف حـسين، الذى كان له مشكلة فى علاقاته مع الدولة العثمانية حيث أبقى العثمانيـون على الشرافة بعد دخولهم الحجاز فى القرن السادس عشر، وظلت الشـرافة تتمتع بمركز شبه استـقلالى طوال تاريخها، ويعنى هذا الاستقلال أن منصب الشرافة كان وراثيا فى يد الهاشميين إلا أن سياسة الاتحاديين بعـد وصولهم إلى الحكم فى عام ١٩٠٨ كانت تقوم على سيـاسة اللامركـزية ، وربط الولايات العثـمانية شـبه المستـقلة ربطا دقيـقا بعاصـمة الدولة فى إستانبـول، ومن الطبيعى أن يؤدى هذا إلى تحطيم نظام الشـرافة فى مكة، مما ضاعف من تدهور العلاقة بين الشريف حسين وحكومة الاتحاديين.

لقد لجـأ الاتحاديون إلى تعيين وهيب باشـا واليا على الحجاز علـى أن يجمع بين السلطتين المدنية والدينية ويعجل بالقـضاء على الشرافة، ومن مشروعاتهم أيضا مـد خط سكة حديد الحجاز الذى يوصل بين الشام والمدينة ومنها إلى مكة ليسهل ربط الحجاز كله بالشام، كان من الطبيعى أن يشعر الشريف بالقلق من جراء سياسة جماعة الاتحاد والترقى حماية لمركزه الدينى.

مبنى محطة سكة حديد الحجاز بالشام





وهكذا بدأت المحادثات بين الإنجليز والشريف حسين، منذ عام ١٩١٢ حينما زار عبد الله بن الحسين "كتشنر" المقيم البريطانى فى القاهرة وعرض عليه مشاكل والده مع الاتحاديين وسأله عن موقف إنجلترا إذا نشبت الحرب بين الشريف حسين والاتحاديين. وعلى الرغم من أن كتشنر لم يكن مخولا للإجابة على مثل هذا السؤال إلا أنه من الثابت أن بريطانيا لم تقدم وعدا من أى نوع، حيث كان يحدوها الأمل فى صداقة تركيا.

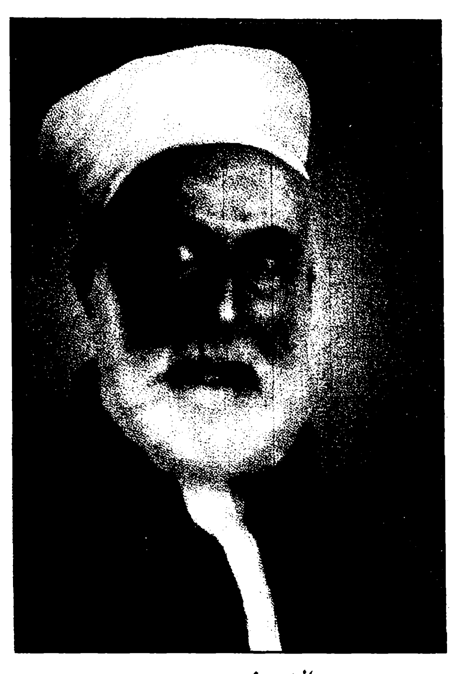


بلاطة خزفية تصور الكعبة- صنعت بالأستانة - الدولة العثمانية ١١هـ/١٧م

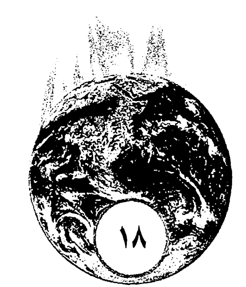
والجدير بالملاحظة على ضوء ما جرى من اتصالات مبكرة بين إنجلترا والشريف حسين أن المفاوضات قد انحصرت فى مسألة الشرافة فقط ولم تكن قد ظهرت قضية الدولة العربية المستقلة وموضوع الخلافة العربية، إضافة إلى أن اهتمام إنجلترا بالشرافة فى مكة وقتئذ كان قاصرا على تنظيم حج المسلمين القادمين من بلاد تابعة للإمبراطورية البريطانية التى كانت تعمل جاهدة على حل المشكلات بالطرق الدبلوماسية حفاظا على علاقاتها التقليدية بالدولة العثمانية.

ولعل من المناسب أن نطرح سؤالا: لماذا عادت إنجلترا، تعاود من جانبها الاتصال بالشريف حسين؟

لقد تنبهت إنجلترا ، منذ عام ١٩١٢ إلى أهمية اللعب بالمسألة العربية فى حالة قيام حرب بين إنجلترا و تركيا ولذلك حينما قامت الحرب العالمية الأولى وعين كتشنر وزيرا للحربية(أغسطس ١٩١٤) أبرق إلى ستورز (السكرتير الشرقى فى دار المعتمد البريطانى) ليعاود الاتصال بالشريف حسين ومن ثم بدأت سلسلة



الشريف حسين



الاتصـالات بين الطرفين وهى الاتصـالات التى انتـهت بثـورة العرب عـام ١٩١٦.

لعل من السهل مـعرفة دوافع كتـشنر لهذا الاتصال، حـيث تستطيع الثورة العـربية فى حـالة قيـامهـا أن تحول دون استـفادة تركـيا من قـواتها العسكرية فى المنطقـة بعيدا عن جـبهات القتـال الرئيسية، لاسـيما الجبـهة الروسية إضافة إلى عزل القوات العـثمانية فى الشام والحيلولة دون الاتصال بجيوشهـا العسكرية فى اليمن وعسيـر والأهم من كل ذلك أن ألمانيا كانت تأمل فى استخدام تحالفها مع الدولة العثمانية لإيجاد جسر يوصل بين المستعمرات الألمانية فى شرق أفريقيا وبين ألمانيا عن طريق الـيمن - والثورة ضد العثمانيين فى وسط شبه الجـزيرة العربية تفسد على الألمان كل هذه المخططات.

لقـد أدركت إنجلترا أن المسلمين فى الـهند يدينون من الناحيـة الروحـية والدينيـة للسلطان العثمانى، فـيدعون له فى خطب الجمعة أما إذا أقـيمت خلافة عربية فإنهـا تستطيع أن تحول أنظار المسلمين بعيدا عن الخلافة العثمانية فى الآستانة إلى مكة بما لها فى نفوس المسلمين من معانى دينية وروحية.

لقد تضاعـفت طموحات الشريف حـسين، الذى أدرك أهمية تلهف إنجلترا لهـذا التحالف الإنجليزى العربى لذا فـإن منصب الشرافة لم يعد يتناسب والثمن الذى تتطلع إليـه إنجلترا لذا فقد راح يتطلع إلى الدولة العربية الكبرى التى راح يحلم بأن يكون خليفة عليها.

لقد راحت الخارجـية البريطانية تتلقى العـديد من التقارير التى عكفت على دراسـتها بعناية شـديدة، حيث اسـتقـر الرأى على الاسـتـفادة من الـعرب واسـتخـدامهم لإنزال الهـزيمة بالدولة العثـمانية، ولـم يكن اختيـار الشريف حسين لكـونه شريفا على مكة فـقط وإنما راحت السيـاسة الإنجليزية تختار من بين أكثر المجموعات العربية فى الدولة العثمانية صلاحية لقيادة العرب وأقدرها على تنفيـذ المخططات الإنجليزية، لذا فـقد أجرت السلطات البـريطانية اتصـالا بواحد من طلائع العناصر الوطنيـة وهو عزيز المصرى، الذى كـان يعيش فى القاهرة وعلى الرغم من أن العـفو عنه جاء بعـد تدخل السلطات الإنجليزية فى الآستـانة إلا أن ميوله كانت واضـحة نحو العثـمانيين بل وحذر أعـضاء جمعـية العهـد من الانسياق وراء الإنجليـز ضد الدولة العثـمانية ونصح رفـاقه من الدسائس الأوروبية وأكد أهمية الوقوف إلى جانب تركيا.

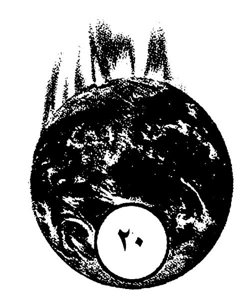
وعندما بدأ الـبريطانيون يجـسون نبض عـزيز المصرى عن طريق رونالد سـتورز STORRS وكلايتون CLAYTON من رجال الإدارة البريطانية فى القاهرة فى أواخر عام ١٩١٤ أصر المصرى



ورفاقه على ضرورة تعهد إنجلترا رسميـا باستقلال العرب واتحادهم والتأكيد على أن إنجلترا ليس لها مطمع فى أى قطر عربى كمـا اشترطوا عدم اشتراك قوات فرنسية على الجبهة السورية وقوات بريطانيا على الجبهة العراقية مقابل أن يتعـهد عزيـز المصرى بإثارة عرب العـراق، والشام ضد الـترك فى نفس الوقت الذى أخـذت فيه القـوات البريطانـية القادمـة من الهند فى احـتلال العراق بينمـا أعلنت الحماية البريطـانية على مصر مما فـضح نوايا إنجلترا فى الوقت الذى راح فيه غالبية الزعماء السوريين يواصلون اتصالاتهم بالإنجليز بحجة أنهم يبحثون عن حل وسط يرضى بريطانيـا ويحافظ على الحقوق الـعربية وكان هؤلاء ممن اسـتضافـتهم السلطات البريطانية فى مصر عند لجوئهم إليهـا هربا من الترك وكان عداؤهم للترك يحجب عن أنظارهم ما ينطوى عليه الاتفـاق مع بريطانيا من أخطار وكـانوا كثيرا مـا يتهمـون عزيز المصرى بالمبـالغة فى التشاؤم وسوء الظن بالإنجليز.

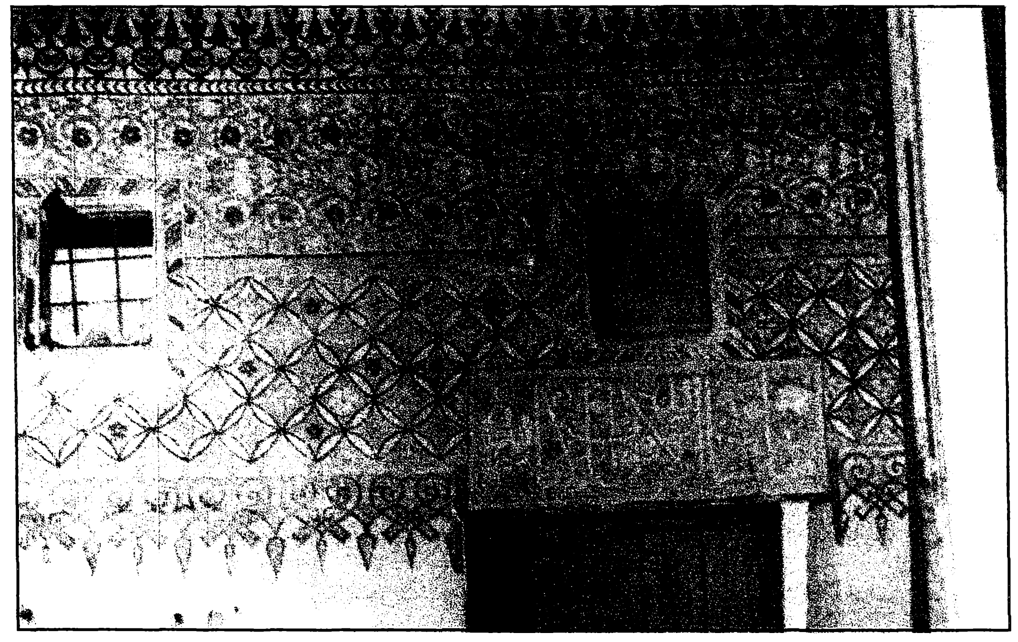
لقد كان الوطنيون الســوريون أنسب العناصر وأقواها وعيا من الناحية السـياسية إلا أنه كان من الصعب الوصـول إليهم بحكم وجودهم تحت السيـطرة التامة للسلطات التركـية ولم يكن من المناسب استخـدام السوريين المقيمين فى القـاهرة والذين انقطعت صلاتهم بقواعـدهم، إضافة إلى عدم ميل بريطانيا وفقا لسيـاستها التقليدية إلى التعامل مع القيادات الشعبـية والقومية فسوف يكون من الصعب السيطرة عليهم وكـبح حماس مشاعرهم القومية وكـان أغلب هؤلاء الزعماء القوميين من ضبـاط الجيش العثـمانى وتزعـموا مقـاومة استـبداد الترك وكـانت هذه المجموعـة من أقوى الاتجاهات فى حركة القومية العربية.

لقد أدركت إنجلترا أهمية العنصر الدينى فى مواجهة الهالة الدينية الكبيرة التى تحيط بالخلافة والتى ظهر خطرها كسلاح للجهاد فى الحـرب ضد دول الوفاق، كما أن أثر الجانب الدينى يضعف من أثر الجانب القـومى ثم إن ظهور قيادة دينية إسـلامية فى مكة إلى جانب بريـطانيا فى الحرب يساعدها على تسهيل مهمتها فى الهند بتجنيد الموارد البشرية فيها لخدمة المجهود الحربى البريطانى، وخاصة أن مسلمى الهند قـد تأثروا بالدعوة إلى الجهاد، التى أعلنها الخليفة العثـمانى ضد بريطانيا وحلفائهـا باعتبار هذه الحـرب حربا دينية مقـدسة، لكل هذه العوامل رأت بريطانيـا فى الشريف حسين الرجل المناسب، فى وقت شعرت فيه أن مصالحها مهددة ليس فى بلاد العرب فقط وإنما فى الهند وفارس أيضا.



وحينما وقع اختيار بريطانيا علـى الشريف حسين شعرت بأن محاذير كثـيرة تحيط بشـخص الرجل وأسرته؛ فـالدوائر البريطانية فـى القاهرة التى تولت الاتصال به قـد أكدت افـتقاده إلى الشـعبيـة الكبيـرة وبيته من أكـثر البـيوتات العـربية تحـررا وعلى الرغم من ذلك فهـو يحظى بتقـدير الدوائر الإسلامية خـارج الجزيرة العربية إلا أن نفس الدوائر قد نصـحت بالتعامل مع غيره من الزعمـاء العرب وخصوصا من أصحاب القيـادات القومية التى لم يكن الشريف حـسين يحظى بعطفها، بل العـكس فقد عارضـوه بسبب موقفه من خط سكة حديد الحجاز - المدينة-مكة- ثم وقوفه بجانب الترك أثناء إخماد الثورات كما حدث فى عـسير لدرجـة أن الخديوى عباس حلمى الـثانى قد صرح للأمـير عبـد الله بأن العرب غاضـبون لـهذا التـصرف من جـانب الأشراف وفى الوقت نفـسه فـإن ابن سعـود رفض مطالب الاتحاديين بمساعـدتهم ضد الإدريسى بحجة أنـه عربى فلا يحارب العرب حـتى ولو كان من أجل السلطان .

وفى رجب من عام ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م خرج الحسين بجيشه ضد عبد العزيز بن سعود مستعينا بابن الرشـيد مما اضطر ابن سعود إلى القبول بشروط تركيـا التى كانت تطالب بأن يعترف بسيادتها على نجد وأن يدفع عبد العـزيز مبلغا من المال سنويا، وعلى الرغم من ذلك فقد كان من



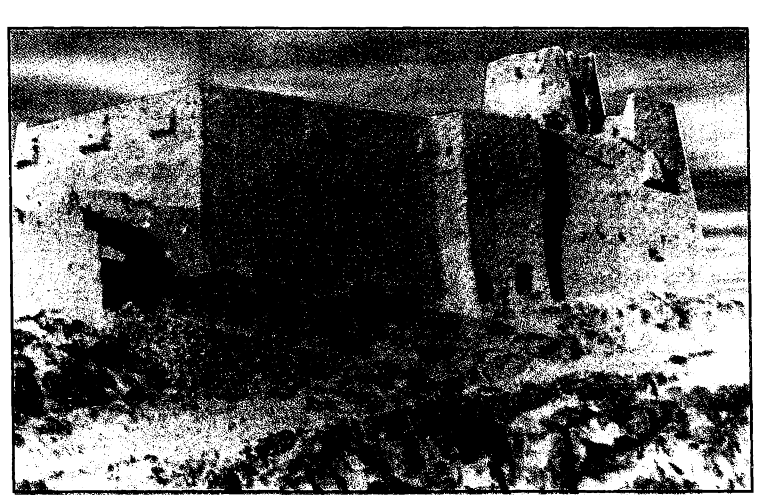
قصر ابن الرشيد- حائل بالمملكة العربية السعودية

رأى ابن سعود أن تكون الولايات العربية مستقلة استقلالا إداريا تحت سيطرة الترك.

الشريف حسين يفاوض الزعماء العرب

لقد اتفقت الدوائر البريطانية على أن ما يمكن التوصل إليه من محادثات مع الشريف لن يتحقق إلا بموافقة الحكام العرب، لذا فقد نصحت الرجل بأن يولى وجهه شطر الزعماء العرب على اعتبار أن القضية لم تعد تتعلق بمصير الحجاز فقط بل بمستقبل كل البلاد العربية، التى ستتألف منها الدولة العربية فى المستقبل، فى الوقت الذى راح فيه الشريف يتلهف إلى معرفة حدود الدولة المقترحة وشكل الدولة فى المستقبل القريب.

لقد أخذ الرجل يتلمس طريقه فى شبه الجزيرة العربية بالتعرف على موقف زعمائها وبعث بمندوبيه إلى الإدريسى فى عسير والإمام يحيى فى اليمن وابن سعود فى نجد وابن الرشيد فى حائل فى محاولة لمعرفة موقفهم من العرض البريطانى ووجد عدم استجابة من الإمام يحيى وابن الرشيد، حيث قررا الوقوف بجانب الترك أما الإدريسى وابن سعود فقد تفهما الموقف نظرا لعلاقتهما ببريطانيا، وبشكل عام فلم تكن موافقتهما المبدئية بمثابة تفويض للشريف حسين كى يتزعم العرب أو يتحدث باسمهم أو ينصب خليفة عليهم إذ لم يقبل أى حاكم عربى زعامة الشريف، الذى لا يمثل أكثر إقليمه وبصفته سادنا على الأماكن المقدسة وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان من وجهة نظر البريطانيين هو المؤهل الوحيد لهذه المهمة.



قلعة عارف- حائل- ترجع لفترة الحكم العثمانى ق١٩

لعل من أهم الاتصالات تلك التى جرت فى الشام والعراق، حيث التيار الغالب هو الثورة ضد العثمانيين والتفاهم مع الدول الأوروبية إلا أن ثمة تيارا آخر إسلامى النزعة استهدف التفاهم



مع العثمانيين وتأليف جبهة إسلامية ضد الدول الأوروبية إلا أن سياسة جمال باشا وزير البحرية العثمانية وقائد الجيش الخامس فى سورية قد مارس قمعا ضد الحركة العربية واستخدم القسوة المفرطة مما ضاعف من أنصار التيار المطالب بالثورة ضد الترك.

لقد كان القوميون العرب فى بلاد الشام يفكرون فى قيام الثورة العربية فى سورية إلا أن إعدام جمال باشا لعدد غير قليل من هؤلاء القوميين إلى جانب تركز الجيوش العثمانية فى بلاد الشام قلل من احتمالات قيام هذه الثورة السورية، فلما اتصل حسين بالقوميين العرب فى سورية ارتضوا أن تنطلق الثورة العربية من الحجاز على أن يتولوا هم مساندتها بكل إمكاناتهم.

وجرت محادثات فى دمشق تولاها فيصل بن الحسين، حيث اتصل بجمعيتى العربية الفتاة والعهد وعرض عليهما نتائج محادثات والده مع الإنجليز وشرح الخلاف بين وجهة نظر عبد الله وفيصل- حيث كان الأخير يرى الوقوف بجانب تركيا فى محنتها مما سيجعل الأتراك يقدرون هذا الموقف ولا يترددون فى منح العرب الاستقلال عقب الحرب وقد بنى فيصل وجهة نظره على اعتبارات كثيرة، منها أن إنجلترا تطمع فى احتلال جنوب العراق وأن فرنسا تطمع فى سورية، بينما لم تقدم إنجلترا ما يبدد خوف العرب من ضياع استقلالهم.

أما عبد الله الذى كان يخالف أخاه فيصل فى الرأى، فقد كان يحبذ الثورة، بمساعدة إنجلترا التى اعتقد أنها ستفى بوعدها للعرب.

وعموما فقد اتفقت كلمة الجميع على قبول العرض الإنجليزى وكانت سياسة العنف التى مارسها قائد الجيش العثمانى جمال باشا وشنقه للوطنيين كل ذلك دفع الجميع للتحالف مع الإنجليز وقطع عليهم تردد البعض فى فكرة مساندة العثمانيين.

وهكذا انعقد رأى القوميين العرب على زعامة الشريف حسين وسلم زعماء جمعيتي العهد والعربية الفتاة فيصل الخريطة التى تحدد جغرافية البلاد العربية فى أسيا حتى تكون بمثابة المطالب التى يتفاوض على أساسها مع لإنجليز وقد عرف هذا المخطط باسم" بروتوكول دمشق" الذى نص على ما يأتى:

أولا: أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التى تبدأ شمالا بخط مرسين / أطنة إلى خط عرض ٣٧ درجة شمالا ومنه على طول خط برجيك/ أورفا/ ماردين وجزيرة ابن عمر وأماديا وحتى الحدود الإيرانية، وفى الشرق تتمثل فى الحدود مع إيران، حتى



الخليج، وفى الجنوب المحيط الهندى باستثناء عدن، ومن الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط، حتى مرسين" الشام والعراق والجزيرة العربية ماعدا عدن"

ثانيا: إلغاء الامتيازات الأجنبية، التى يتمتع بها الأجانب فى ظل الامتيازات المعمول بها فى الدولة العثمانية.

ثالثا: عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا والدولة العربية المقترحة.

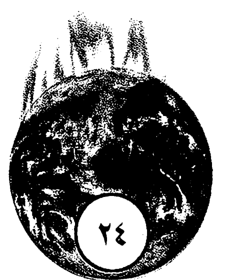
رابعا: منح بريطانيا الأفضلية فى كافة الشئون الاقتصادية.

لقد كان بروتوكول دمشق بمثابة أجندة تصلح كأساس للمفاوضات مع بريطانيا، حيث نص صراحة على استقلال البلاد العربية بعيدا عن أى احتلال أجنبى وإلغاء الامتيازات الأجنبية وإذا كان الزعماء العرب قد فوضوا الشريف حسين لكى يتفاوض باسمهم فإن هذا التفويض ليس مطلقا وإنما هو مقيد وفقا للمبادئ التى تناولها البروتوكول وإذ ما تجاوز الشريف حسين هذه الأسس فإن العرب فى حل من التفويض الذى قطعوه على أنفسهم.

لقد أعطى الزعماء العرب الممثلين للجمعيات الوطنية فى الشام تفويضا مشروطا للأمير فيصل رغم انه تجاوز كثيرا حدود التفويض فيما يتعلق بفكرة الدولة العربية وفق ما ورد فى البروتوكول لأن المفاوضات دارت بين فيصل مندوبا عن الحجاز والزعماء الممثلين للجمعيات الوطنية فى الشام والعراق ولم يشترك فيها ممثلون عن مناطق أخرى كاليمن وعسير ونجد وما كان ينتظر أن يقبل هؤلاء التنازل عن استقلال أقاليمهم والاندماج فى دولة عربية واحدة.

وبالرغم من أن قبول الزعماء العرب لفكرة تولى شريف مكة قيادة الثورة إلا أنهم لم يتفقوا على خضوعهم فيما بعد لنفوذه الدينى والدنيوى.

لقد شعرت بريطانيا بأهمية المحادثات مع العرب الكارهين للحكم العثمانى وأدركت أن الدعوة إلى الجهاد، التى نادى بها السلطان العثمانى يمكن احتواؤها وتبديد أهميتها إذا ما تمكنت الإدارة البريطانية من اللعب بقضية الخلافة العربية، لذا فقد راحت الدبلوماسية البريطانية فى المنطقة تدرس الموقف وتقدم سيناريوهات تبديد كل الآثار الناجمة عن الدعوة إلى الجهاد المقدس ولهذا عهدت الحكومة البريطانية إلى سير هنرى مكماهون Mcmahon وقد تولى منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر، منذ يناير ١٩١٥ بإصدار تصريح (يونيو ١٩١٥) وفيه وعدت بريطانيا عند إبرام الصلح بالاعتراف باستقلال شبه الجزيرة العربية وتمتعها بالسيادة الكاملة على الأماكن المقدسة، كما عبر التصريح عن استعداد بريطانيا للترحيب بإعلان خلافة عربية وقد أذيع التصريح



بعد أن طبـعت منه نسخ على شكل منشورات، وزعت فى مصـر والسودان وهربت منه نسخ إلى الشام، كـما قامت الطائرات البريطانية بإسـقاط أعداد منه على مختلف مدن الحجاز.


سعد زغلول

لقـد كـانت فكرة الثـورة فى مـجملهـا يكتنفـها قـدر كـبيـر من المخاطرة فالأتراك قد دحروا بريطانيا فى غاليبولـى عام ١٩١٥ وكبدوهم خسائر فـادحة وأغاروا على مصـر فى فبراير ١٩١٥ ورغم فـشل هذا الهجـوم فقـد ظل الخطر يتهـدد مصـر مما دفع بريطانيا إلى الاحـتفاظ بقوات كـبيرة فيهـا كان من الممكن استخدامها فى الحجاز أو الشام وفى جنوب الجزيرة العربية كانت القـوات التركيـة فى اليمن تهاجم عـدن واستطاعت احتلال لحج وتقدمت حتى أصبحت على مقربة من عدن.

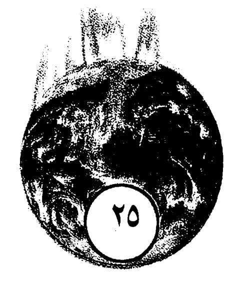
وفى العراق تكبـدت بريطانيا خـسائر كـبيرة وأرغم التـرك الجنرال (تاونسند) TOwnshend فى إبريل ١٩١٦ على التسليم فى الكوت لدرجة أن القوات البريطانية اكتفت بالدفاع فقط.

لقد كـان الشريف حسين على مـعرفة بالموقف الصـعب الذى تقفه بريطانيـا، لذا كان يرى الثورة بمثابة مغـامرة لدرجة أنه كلف نورى السعيد بالذهاب إلى القاهرة حـيث التقى بسعد زغلول وعبر له عن مخاوف الشريف إلا أن سعدا أقنعـه بأن البلاد العربية ليس لديها ما تخاف عليه ولن تكون الثورة مغامرة خاسرة وأن العاملين من أجل استـقلال العرب والحصول على استقلالهم، قد يصبحون فى عداد الشهداء.

لقد اعتقد الشريف حسين أن الحرب القائمة فرصة يجب انتهازها فإذا انتهت بانتصار الألمان والترك فإن البلاد العربيـة ستعود إلى وضعها القديم دون أن تخسـر شيئا سوى أرواح الذين ثاروا لتحـقيق أمانى البـلاد أما إذا انتصـر الحلفاء فإن ثمـة أمل فى الحصول على مكاسب وعـدت بها بريطانيا.

وهكذا قرر الشريف الدخول فى مفاوضات مع سيرهنرى مكماهون.

القضية العربية بين الشريف حسين ومكماهون



وفى الرابع عشر من يوليو ١٩١٥ كتب الشريف حسين رسالته الأولى إلى السير هنرى مكماهون نقلها من مكة سرا مبعوث خاص هو عارف بن عريفان وإمعانا فى الحيطة لم تكن تحمل توقيعا وقد تضمنت الرسالة مقترحات محددة، بمثابة شروط العرب للانضمام لبريطانيا وقد تضمنت الرسالة مقدمة تحمل إصرار العرب على نيل الاستقلال وإيمان الشريف بأهمية المصالح البريطانية العربية المشتركة ثم حددت الرسالة مطالب العرب على النحو التالى:

أولا: أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من مرسين/ أطنة وحتى خط ٣٧ درجة شمالا إلى الحدود الفارسية (الحدود الفاصلة بين الأمتين العربية والتركية) هذا فى الشمال، أما فى الشرق فتمتد من الحدود الفارسية، حتى خليج البصرة. وفى الجنوب إلى المحيط الهندى باستثناء عدن وفى الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط، حتى سيناء غربا.

على أن توافق بريطانيا على إعلان الخلافة العربية على كل بلاد المسلمين.

ثانيا: تعترف حكومة الشريف العربية أن بريطانيا لها الأولوية فى كل المشروعات الاقتصادية العربية إذا كانت الشروط متساوية.

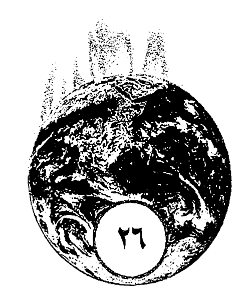
ثالثا: تتعاون الحكومتان البريطانية والعربية فى مواجهة كل اعتداء على أى من الطرفين.

رابعا: إذا قام أحد الطرفين بالهجوم على بلد ما فإن الطرف الآخر يلتزم الحياد إلا إذا رغب الفريق المهاجم فى اشتراك الطرف الآخر معه، فمن الممكن الاتفاق على شروط هذه المساعدة.

خامسا: توافق بريطانيا على إلغاء الامتيازات الأجنبية فى البلاد العربية وتتعهد بمساعدة حكومة الشريف فى الدعوة إلى عقد مؤتمر دولى لإقرار هذا الإلغاء.

سادسا: حددت مدة الاتفاق فيما يختص بالبندين ٣، ٤ بخمس عشرة سنة وإذا شاء أحد الطرفين تمديدها فعليه أن يبلغ الطرف الآخر قبل انقضاء مدة الاتفاق بعام وفى نهاية الرسالة طلب الشريف حسين من الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبا أو إيجابا خلال مدة أقصاها ثلاثون يوما من وصول هذه المقترحات وإذا انقضت هذه المدة دون أن يتلقى إجابة من الحكومة البريطانية فهو فى حل من أى التزام.

ومن الملاحظ أن المقترحات التى تضمنتها رسالة الشريف حسين الأولى إلى سيرهنرى مكماهون هى نفس الشروط التى وردت فى بروتوكول دمشق مع إضافة البند الخاص بالخلافة والبند الخاص بالتعاون بين العرب وبريطانيا.



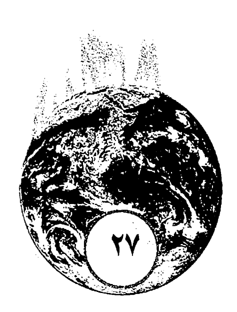
وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٥ رد سير هنرى مكماهون بكتاب إلى الشريف حسين بعث به من القاهرة بدأه بمقدمة تضمنت كل معانى التكريم للشريف مثل " قبلة العاملين ومحط آمال المؤمنين" ثم شكره على مشاعره نحو بريطانيا مؤكدا أن مصالحها هى مصالح العرب مكررا رغبة بريطانيا فى استقلال البلاد العربية وأن يكون الخليفة عربيا عريق العروبة . .

أما بخصوص قضية الحدود فقد أشار مكماهون إلى أن بحث هذه المسألة سابق لأوانه والبحث فيها يعد مضيعة للوقت، وخصوصا أن الحرب لا تزال دائرة الرحى، ولأن الأتراك لا يزالون يحتلون أغلب الجهات العربية وأضاف مكماهون ما نما إلى علمه من أن فريقا من العرب قد أضاع هذه الفرصة الثمينة ولا يرغب فى مساعدة بريطانيا، بل ويقدم يد المساعدة إلى الترك والألمان واختتم خطابه بالتعبير عن استعداده لإرسال الحبوب والصدقات المقرر إرسالها من مصر لكى تكون تحت تصرف الشريف فى أقرب فرصة.

يلاحظ أن مكماهون قد تعمد فى رسالته السابقة التلميح ببعض الوعود والأمنيات الطيبة إلا أنه حاول التملص من أية التزامات حينما امتنع عن إبداء رأيه فى قضية الحدود التى اقترحها الشريف للدولة العربية.

وعلى كل حال فقد استاء الشريف حسين من رسالة مكماهون، التى بعث بها فى الثلاثين من أغسطس وسرعان ما رد برسالة أخرى فى ٩ سبتمبر ١٩١٥ كانت أكثر تحديدا وفيها عبر عن دهشته إزاء تجاهل الإجابة عن مسألة أساسية وهى الحدود المقترحة للدولة العربية باعتبارها قضية لها الأولوية، وأضاف الشريف أن الحدود ليست مطلب رجل فرد يمكن إرضاؤه ومفاوضته بعد الحرب، بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته مرتبطة بهذه الحدود وأن هذه المسألة يجب بحثها قبل أى شىء آخر وأن إلحاحنا فى هذا الموضوع إنما هو من أجل المصالح المشتركة لأن الوقوف على المسائل المبدئية يحول مستقبلا دون الاصطدام ببريطانيا. . وأن كل الشعب بما فيه أولئك الذين يقال أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظرون بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات وخصوصا مسألة الحدود التى يعولون عليها كثيرا.

لعل تردد بريطانيا فى الإجابة صراحة عن مسألة الحدود كان بسبب عدم معرفة مكماهون ومستشاريه بنتائج المحادثات، التى كان يجريها فيصل فى دمشق وافتقادهم إلى معلومات واضحة عن الجماعات العربية فى الشام وكان لديهم اعتقاد بأن الشريف يتحدث عن نفسه ويضخم من تأثيره على العرب، ويبدو أن الإدارة البريطانية لم تكن واثقة فى توصل الشريف إلى اتفاق مع القوميين.



لقد عكف سير مكماهون ومساعدوه على دراسة مطالب الشريف فى الوقت الذى وصلتهم بعض المعلومات عن النشاط القومى فى الشام، المعادى للترك وعن محادثات فيصل وبروتوكول دمشق فى الوقت الذى وصل فيه إلى القاهرة محمد شريف الفاروقى (عراقى) وهو ضابط فى الجيش التركى وقع أسيرا فى أيدى القوات البريطانية وأعلن عن هويته القومية واستعداده لتقديم معلومات وافية تفيد بريطانيا وقدم الفاروقى معلومات وافية عن الجمعيات العربية فى الشام وخصوصا جمعيتى العهد والفتاة ووثق فيه البريطانيون وقدم كثيرا من المعلومات التى جعلت مكماهون أكثر معرفة بالموقف.

ويبدو أن الخارجية البريطانية أجرت اتصالا بالخارجية الفرنسية من خلال مسيو بول كامبون Paul Cambon سفير فرنسا فى لندن نظرا لأن قضية الحدود العربية المقترحة فى حاجة إلى استطلاع رأى فرنسا نظرا لارتباطها بمصالح خاصة فى الشام.

وفى الرابع والعشرين من أكتوبر ١٩١٥ كتب مكماهون إلى الحسين برسالته التى تعد من أهم الرسائل المتبادلة بين الحسين ومكماهون، حيث تضمنت الوعود التى قطعتها بريطانيا على نفسها وهى التى استند إليها العرب فى مطالبهم باعتبارها وعدا صريحا.

لقد راح مكماهون يردد ما سبق من تأكيدات، قدمتها بريطانيا فيما يتعلق باستعدادها لاستقلال العرب وبقدر من الصراحة أكد على أن الساحل السورى غربى (دمشق -حمص -حماه - حلب) لا يمكن اعتباره مناطق عربية خالصة وعليه فإنها تستثنى من الحدود المقترحة، وبدون الإضرار بالمعاهدات المعقودة بين بريطانيا وبعض الرؤساء العرب الآخرين تعلن بريطانيا قبولها للحدود المقترحة حينما تكون بريطانيا مطلقة التصرف.

وبدون أن تمس مصالح فرنسا فإن مكماهون مفوض من قبل حكومته بتقدم المواثيق الآتية:

أولا: إن بريطانيا مستعدة وفقا لتلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب ضمن الحدود التى اقترحها شريف مكة.

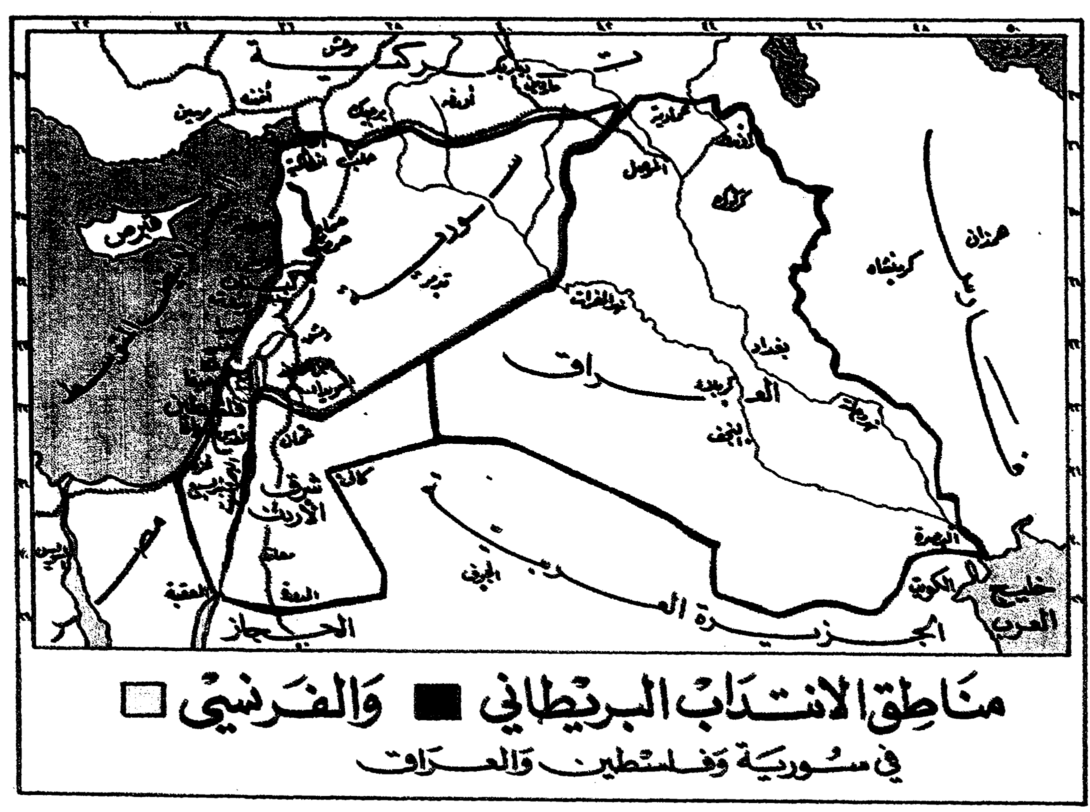
ثانيا: تتعهد بريطانيا بحماية الأماكن المقدسة من أى اعتداء خارجى.

ثالثا: تتعهد بريطانيا بأن تمد العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة لتلك الأقاليم المختلفة.

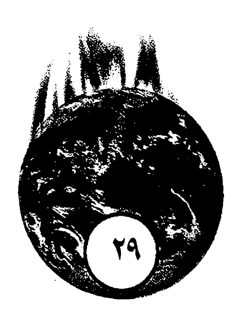
رابعا: يعترف العرب بأن مصالح بريطانيا فى ولايتى بغداد والبصرة تقضى باتخاذ تدابير إدارية خاصة لحماية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبى والتأكيد على راحة واطمئنان السكان.



ومما يستلفت النظر على رد مكماهون تلك التحفظات التى أشارت بصراحة إلى مرسين وأطنة والساحل السورى غرب دمشق حمص - حماه- وحلب بدعوى أنها غير عربية، دون أن يقدم تبريرا منطقيا لعدم عروبتها، إضافة إلى المناطق ذات الأطماع الفرنسية، ولعل مكماهون كان يقصد بها داخلية الشام ، كما شمل تحفظ مكماهون على بغداد والبصرة لأهميتهما لبريطانيا تحديدا، إذا أضفنا إلى كل ذلك الكويت وقطر ونجد وعسير باعتبار أن حكامهم مرتبطون مع بريطانيا بمعاهدات فإن المنطقة الباقية سوف تقتصر على الحجاز التى لا يمكن أن تلبى مطالب العرب فى الدولة العربية الكبرى ولا يمكن أن تكون ثمنا لثورة العرب على الترك وانقطاع صلتهم بالخلافة الإسلامية، وقد رد الشريف على مقترحات مكماهون فى الخامس من نوفمبر ١٩١٥ برسالة أبدى فيها موافقته صراحة على استبعاد مرسين وأطنة من الدولة العربية المقترحة إلا أنه رفض التنازل عن الساحل السورى الواقع غرب دمشق - حمص- حماه- حلب لأنها أقاليم عربية محضة لا فرق بين العربى المسيحى والمسلم فهما أبناء جد واحد "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" .



خريطة اتفاق حسين مكماهون



وتسهيلا للتوصل إلى اتفاق وثقة فى بريطانيا فقد أعرب الشريف عن موافقته على ترك الأراضى التى تحتلهـا القوات البريطانية فى جنوب العراق (بغداد والبصرة) تحت الإدارة البريطانية لقاء مبلغ من المال، يتفق عليه، على أن تكون فترة الاحتلال قصيرة، دون أن تحدد مدتها.

ونظرا لاتفاق بريـطانيا مع بعض حكام الخليج فـإن الشريف لا يمانع فى عدم ضم هذه المناطـق إلا أنه عبر عن مـخاوفه من إعـلان الثورة وشق عصـا الطاعة على خليـفة المسلمين دون أن يحصل الـعرب على حقـوقهم كاملة.

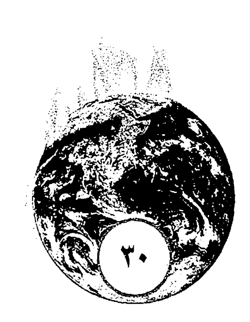
وفى الثالث عـشر من ديسـمبر ١٩١٥ بعث مـكماهون برد على خطاب الشـريف حسين، حيث عبر عن ارتياحه لموافقة الشريف على استثناء أطنة ومرسين إلا أنه عبر عن تحفظه فيما يتعلق بالمناطق الساحلية من الشام، لا على أساس أنها مناطق غير عربية، كما ذكر من قبل ولكن بحكم ارتباطها بمصالح فـرنسا ووعد مكماهون بأن القضية فى حاجـة إلى مزيد من الدراسة وأخذ يلوح للشريف عن استعداد بريطانيا لتقـديم كل المساعدات إلى المملكة الجديدة وأكد على أن بريطانيا لا تنوى إبرام أى صلح إلا إذا كان من بين شروطه استقلال الشعـوب العربية وخلاصها من يد الترك والألمان.

وفيمـا يتعلق بالعراق فقـد ذكر مكماهون أن مصـالح بريطانيا تقضى بقيـام إدارة ودية ثابتة ومستقـرة وأن استمرار المصالح المشتـركة تتطلب إرجاء بعض التفاصيل، التى لا تسـمح بها الحالة الحاضرة وأعلن عن مشاركته لمخاوف الشريف فيما يتعلق بإعلان الثورة.

والملاحظ أن مكماهون قـد كشف صراحـة عن مطامع فرنسا فى سـاحل الشام وكان أكـثر صراحة فيـما يتعلق بالأطماع البريطانيـة فى العراق، التى أبدى الشريف مرونة بشأنها نظـير مبالغ مالية يتفق عليها مستقبلا، وإن لم يحدد مدة تبعيتها لبريطانيا.

لقد عـاد الشريف حسين وكتب إلى مكمـاهون فى الأول من يناير ١٩١٦ يبلغه باستـعداده للتنازل عن المنطقة غـرب دمشق -حمص - حلب- على أن يكون من حق العرب أن يـطالبوا بها عند انتهـاء الحرب يدفـعه فى ذلك الرغـبة فى تجنب ما قـد يكون شأنه إلحـاق الضرر بالتـحالف البريطانى الفرنسى.

لقد كان الاتفاق فى مجمله غير متكافئ وهو ما أكدته سلسلة التنازلات التى قدمها الشريف وخصوصـا بشأن ساحل الشام الذى لم يكن يملك حق التنازل عنـه، لذا فقد اختار الرجل مـوقفا وسطا، حيث فضل تأجيل المشكلة بحجة عدم الإساءة للعلاقات البريطانية الفرنسية.



ويبدو أن الرجل كان واثقا فى العدالة البريطانية ومعاضدتها لاستقلال العرب فلا بأس من تعليق بعض المشكلات إلى ما بعد الحرب وساعتها فلن تتخلى عنه بريطانيا من أجل فرنسا. وعلى الرغم من أنه لم يعد لإثارة الموضوع فى مراسلاته مع مكماهون إلا أنه كما يعترف (لويدجورج) لم يتنازل عن مطالبه، بل ظل متمسكا بها وعبر عن ذلك فى خطابه إلى ابنه الشريف على (٢٦ مايو ١٩١٦).

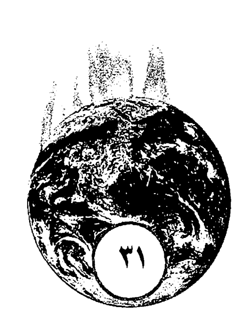
وهكذا جازف الشريف حسين، حينما قرر إعلان الثورة على دولة الخلافة وأدخل نفسه والمنطقة العربية فى أتون حرب، قبل أن يحصل على ضمانات مؤكدة وليس مجرد أوهام وخاصة أن بروتوكول دمشق كان حجة عليه يستطيع أن يضغط به على بريطانيا.

فى الثلاثين من يناير ١٩١٦ كتب سير مكماهون إلى الشريف حسين، مشيدا بموقفه ورغبته الصادقة فى تجنب كل ما من شأنه إحراج بريطانيا فى علاقاتها مع فرنسا، تلك العلاقة التى ستقوى بعد الحرب بعد أن بذلت الدولتان الدماء معا فى سبيل الدفاع عن الحريات، وقد كانت هذه الإشارة كافية لكى يصرف الشريف النظر عن مطالبه بساحل الشام وقد كانت هذه الإشارة مقصودة من جانب مكماهون لكى يفهم الشريف أنه فى حالة تمسك فرنسا بمطالبها فى الشام فإن بريطانيا لا تستطيع أن تقدم أى ضمانات بعودة هذه المناطق إلى الدولة العربية.

وهكذا تضمنت رسائل الشريف حسين كل مطالبه التى بدت واضحة لدى سير مكماهون وعلى الرغم من أن المحادثات بينهما قد وصلت إلى نهايتها إلا أن الشريف حسين قد بعث برسالة أخيرة فى العاشر من فبراير ١٩١٦ ورد عليه مكماهون فى العاشر من مارس ١٩١٦ إلا أن هذين الخطابين قد تناولا الاستعدادات للثورة، وموافقة الحكومة البريطانية على جميع مطالب الشريف العسكرية والمالية .

لقد بدأت طموحات الشريف ومطالبه مقصورة على الحجاز، الذى أراد أن يستقل به بعيدا عن العثمانيين إلا أن طموحاته مالبثت أن اتسعت لتشمل الشام والعراق ولا بأس من أن يساوم على نجد والكويت وغيرهما، حينما تمخضت زيارة ابنه فيصل إلى الشام عن استعداد أهل الشام للثورة على الترك ومساندة الثورة حتى نهايتها.

لقد شعر الرجل أن الحجاز لا يعد ثمنا مناسبا للثورة التى أرادها عربية شاملة فى وقت تمكنت فيه الدبلوماسية البريطانية من أن تلعب بعقل الرجل وتحرك طموحاته التى تجاوزت كثيرا إمكاناته الحقيقية، فبينما راح يساوم على الشام متطلعا إلى أن يكون جزءا من مملكته إلا أن بريطانيا



كانت تعلم جيدا أنه سوف يصطدم بمعارضة السوريين أنفسهم أما العراق فإنه لم يستطع الاستمرار فى المطالبة به وخصوصا بعد أن تأكد من أن بريطانيا لن تسمح بخروجه من دائرة نفوذها المباشر إلا أنه سوف يظل يساوم عليه وهكذا انحصرت مطالب الشريف فى شبه الجزيرة العربية، بل والحجاز فقط.

لقد كانت أهداف بريطانيا واضحة ومحددة:

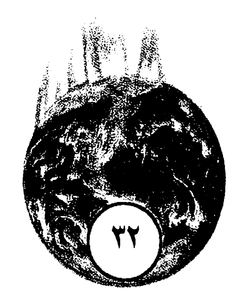
أولها: مواجهة أثر الحرب الدينية، التى رفع شعارها الخليفة العثمانى(محمد رشاد) وتهدئة العرب والمسلمين وكسب ولاء عرب الشام والعراق وضمان تأييد القبائل العربية والتى من الممكن أن تمثل عائقا خطيرا فى طريق المواصلات البريطانية.

ثانيها: إقامة دولة بديلة عن الإمبراطورية العثمانية، تقوم على أنقاضها المتداعية على أن تكون تحت السيطرة البريطانية، حيث تحقق كثيرا من الأهداف والتى فى مقدمتها حماية طريق المواصلات بين بريطانيا والهند.

ولعل من الملاحظ الإشارة إلى أن ما توصل إليه الشريف لم يكن يعبر عن مطالب العرب وخصوصا زعماءهم ومفكريهم فى الشام ومصر والعراق، حيث اتضحت الأطماع البريطانية سواء من حيث الغموض الذى اكتنف المفاوضات أو من حيث مستقبل الدولة العربية، التى سوف تكون تحت مشيئة بريطانيا وهو ما أدركه المفكرون العرب لدرجة أن شخصا كرشيد رضا حينما سئل عن رأيه فى الاتفاق قال: "انه لا يرضى إلا أعداء العرب".

وعلى الرغم مما أثير حول هذه المراسلات إلا أنها لم تكن إلا مجرد مضيعة للوقت من جانب مكماهون لا تعبر صراحة عن اتجاه محدد فى السياسة البريطانية ولم تقطع بريطانيا بموجبها وعدا حقيقيا على نفسها وبقيت سرية إلى أن أثير الموضوع برمته فى التاسع عشر من سبتمبر ١٩١٩ حينما أثاره فيصل فى اجتماعه مع ممثلى بريطانيا باعتباره بمثابة معاهدة وقعت بين والده وبين سير هنرى مكماهون، إلا أن المسئولين البريطانيين أنكروا وجود هذه المعاهدة وأكدوا أن كل ما حدث هو أن الشريف حسين بعث بمقترحات إلى سير مكماهون الذى وعده بدراستها إلا أن الحكومة البريطانية وجدت أنه لا مبرر للرد عليها.

لعل القراءة الموضوعية لمراسلات الشريف حسين مكماهون لا تعبر بأى حال عن أى شكل من أشكال الاتفاق ولا يمكن أن تكون حجة على بريطانيا وهى مجرد وعد لا يرقى إلى درجة الاتفاق. وإذا كان الشريف قد استغرق فى أحلامه متصورا أن مجرد مراسلاته مع المعتمد البريطانى



فى مصر يمكن أن تصلح كـوثيقة اتفاق فإن ذلك يعبر عن درجـة كبيرة من خلل فى مستوى التفكير لرجل اختارته بريطانيا ملكا على كل العرب.

وإذا كانت كل هذه المراسلات قـدمت فى سرية كاملة ولم تعلن عن محتـواها إلا بعد انتهاء الحرب إلا أن الخـارجية البريطانيـة تنكرت لها تماما واعتبرتها مجرد مراسلات لا يمكن أن تلتزم بشىء تجاهها.

واللافت للنظر أن الشـريف حـسين ظل صامـتا حـتى يناير ١٩٢٠ حينمـا صرح بأن لديه معـاهدة تقضى باسـتقلال البـلاد العربية جـميعـها وسينشرهـا عند الضرورة، وحينما ثار الرأى العـام العربى مطالبا بمعرفـة مضمون هذه الاتفـاقية، اختار الأمير فيصل صحيفة "المفيد" الدمشقية وأذن لها بنشر أفكار عامة تحت عنوان" صورة ما تقرر مع بريطانيا" ، حيث تضـمنت تعهدا بريطانيا بتشكيل حكومة عربـية ونص على حدودها من بحر فارس وبحـر القلزم والحدود المصرية والبـحر المتوسط وولاية حلب والموصل إلى نهـر الفرات من التقـائه بدجلة إلى مصـبهمـا فى بحر فـارس ماعدا عـدن. . على أن تكون البصـرة تحت سيطرة بريطانيا حتى يتم للحكومة الجديدة شكلها الإدارى على أن تدفع بريطانيا مبلغا من المال مقابل هذا الإشغال.

ومضت أوهام الحسين فى تقديم ما اعتقد أنه التزام بريطاني تجاه الدولة العربية.

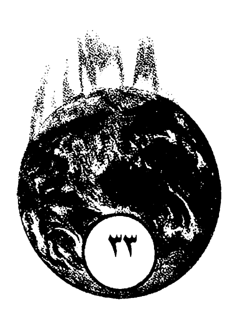
وعند زيارة فيصل إلى لندن سبتمبر ١٩١٩ تدارس الموقف مع الإنجليز، حيث أخبروه بأن ما اطلعـوا عليه لا يمكن أن يكون اتـفاقـا وإنما هى أفكار بعث بهـا الشريف وبمطابقـتهـا بما ورد فى مراسلات مكماهون تبدو متعارضة تماما.

لقد اتخذ الشريف من صـمت الإدارة البريطانية دليلا على موافقتـها ولا شك أن سوء النية قد توفر لدى الإدارة البـريطانية، التى تعمدت تعليق القضـية برمتها إلى مـا بعد الحرب ثم راحت تتهرب من أى التزام.

لقد خابت كل آمال الحـسين لدرجة أنه طلب من بريطانيا تحديد البلد الذى يقضى فـيه بقية حياته بعيدا عن أعين أهله وشعبه.

مقدمات الثورة العربية:

لقد راح الشريف حسـين يتلمس طريقه بقدر من الحذر والحيرة، وخـصوصا بعد أن نما إلى علمه هزيمة البريطانيين فى جنوب العراق، ولعله قد أدرك أنه لم يحصل من البريطانيين على وعود



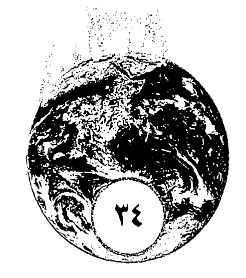
قاطعة لذلك نراه يبعث إلى أنور باشا(مارس ١٩١٦) ببرقية يعبر فيها عن اعتقاده بأن انتصار الدولة العثمانية يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها وخصوصا العرب، الذين هم فى أشد الحاجة إلى مداواة جروحهم الناتجة عن اتهام بعضهم بتهم سياسية، لذلك طالب بإعلان العفو التام عن المتهمين السياسيين ومنح الشام نظاما مركزيا وجعل إمارة مكة وراثية فى أولاده ولوح من طرف خفى إلى أن دعم العرب للدولة العثمانية معلق على هذه المطالب، التى ترضى كل العرب وأنهى رسالته بقوله: "وإذا لم تقبل هذه المطالب فأرجو ألا تنتظروا منى شيئا سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب الدولة النصر والتوفيق" .

بينما كان الشريف حسين يعمل على إقناع الترك بمطالبه، التى لم تجد اهتماما من الإدارة العثمانية كانت الاتصالات قائمة على قدم وساق مع الإدارة البريطانية، التى بعثت إلى الشريف من خلال مكماهون برسالة فى العاشر من مارس ١٩١٦ تتعلق بالدعم المادى والاستعدادات العسكرية واستعداد بريطانيا للاستجابة لجميع مطالب الشريف حسين وراح مكماهون يلح على بدء الثورة، ولعله قد شعر بتردد الشريف لذا فقد لفت نظره إلى أهمية استيلاء الروس على أرضروم والهزائم التى ألحقوها بالترك فى القوقاز مما سيعجل بتحقيق الأهداف المشتركة.

ومزيدا من التمويه أبدى استعدادا لمطالب جمال باشا بإعداد كتائب من المتطوعين الحجازيين للاشتراك فى الحملة على مصر للمرة الثانية بعد أن فشلت حملتهم الأولى ١٩١٥ و قد وافق جمال باشا على إمداد الحملة بعشرين ألف بندقية وبعشرين ألف ليرة ذهبية وتقرر تعيين الأمير على قائدا على المتطوعين الحجازيين.

وفى محاولة لتبديد مخاوف الترك بعث الشريف بابنه الأمير فيصل إلى دمشق ومعه خمسون فارسا ادعى أنهم طلائع القوة التى طلب من الشريف تجنيدها من الحجاز بينما كانت أهداف فيصل الحقيقية الاتصال بالزعماء العرب ودراسة الموقف معهم استعدادا للثورة على العثمانيين.

وبوصول فيصل إلى دمشق تبين له أن كثيرا من الأمور قد تغيرت فالفرق العربية فى الشام، التى كان يعول عليها قد نقلت وبها معظم من وثق فيهم من جماعة العهد وحل محلها فرق تركية كما نفى كثير من القيادات العربية إلى أماكن بعيدة مثل الأناضول، إضافة إلى المحاكمات العرفية التى أعدم بمقتضاها واحدا وعشرين من القيادات العربية(مايو ١٩١٦).



لقد تجمعت عدة عوامل قطعت على الشريف تردده فى إعلان الثورة:

أولا: لقد أراد الشريف أن ينتهز فرصة الغضب والسخط اللذين اجتاحا الشام نتيجة بطش جمال باشا بالوطنيين وهو ما يضمن وقوف السوريين مع الثورة بلا تردد.

ثانيا: لقد انكشفت الخطة التى أعدت من جانب الترك لعزله من الإمارة، حيث عهدت الحكومة العثمانية إلى وهيب باشا قائد قواتها فى شبه الجزيرة العربية لتنفيذها إلا أن أمرها قد انكشف حينما تم العثور على محفظة وهيب باشا بعد أن سقطت منه ووقعت فى يد أحد أعوان الحسين وبها خطاب يتضمن تفاصيل المؤامرة.

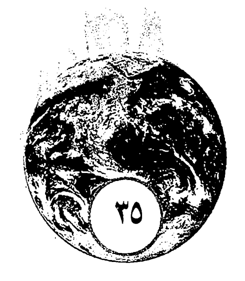
ثالثا: لقد راح الإنجليز يغدقون على الشريف بالوعود والأموال والأسلحة فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البريطاني يضرب حصاره البحرى على سواحل الحجاز مما ضاعف من المجاعة والسخط العام حتى بين المترددين فى الثورة على الترك.

وفى أواخر إبريل ١٩١٦ تسلم الشريف حسين خطابا من القاهرة اطمأن منه على الأسلحة التى طلبها والتى تم شحنها من بور سودان. ويبدو أن الرجل قد تصور أنه أصبح مسئولا عن كل المسلمين باعتباره خليفتهم المرتقب، لذا فقد راح يشتكى إلى مكماهون من الفضائح التى ارتكبها الروس ضد الأكراد وتخوفه من العنف الذى يسىء إلى الإنجليز قبل غيرهم وقد بدد مكماهون من تخوفه ووعده بدراسة الموقف مع الإدارة البريطانية فى لندن.

ونظرا لأهمية الوقت فقد تلقى الشريف تعليمات من الإدارة البريطانية فى القاهرة تطالبه باستدعاء فيصل من سورية، حيث يكتفى بجهوده فى الحجاز، فى الوقت الذى تخلى فيه الترك عن خطتهم لغزو مصر.

لقد تزامن إعدام المجموعة الثانية من الزعماء العرب مع ظهور عامل آخر أدى إلى سرعة تحرك الشريف، حيث أبلغه جمال باشا(الأسبوع الأول من إبريل ١٩١٦) أن قوة تركية تزيد على ثلاثة آلاف رجل على وشك الوصول إلى اليمن عبر الحجاز، بقيادة خيرى بك وحددت مهمتها فى مساندة القوات الألمانية، التى كان يقودها القائد الألمانى ستوتزنجن مما يمثل خطرا على الشريف حسين لأن ذلك من شأنه تقليل فرصة نجاح الثورة.

كان عامل الوقت مسألة أساسية ولذلك أخذ يحث الجانب البريطانى على إنزال قوات على ساحل الشام لقطع خطوط مواصلات الترك مع الأناضول إلا أن الإدارة البريطانية تحفظت على



فكرة إنزال قوات فى الشام باعتبارها مسئولية فرنسا، إضافة إلى صعوبة الاستغناء عن قوات يمكن تخصيصها لهذه العملية.

لقد حرص الشريف حسين على عودة ابنه فيصل من الشام لكى ينضم إلى أخيه الأمير على فى المدينة المنورة، وصدرت إليهما التعليمات من والدهما، بالتنسيق مع زعماء القبائل، لإشعال الثورة فى الخامس من يونيو ١٩١٦.

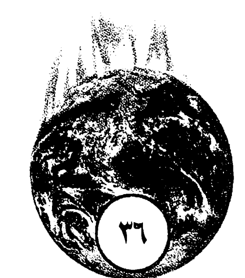
وفى الوقت الذى كانت فيه الاتصالات جارية مع الطرف البريطانى، بهدف الاستعداد للثورة أخذ الشريف يعد للأمر عدته كإجراء تمهيدى حيث كتب ثلاث رسائل إلى كل من جمال باشا وفخرى باشا والثالثة إلى الصدر الأعظم ومضمون هذه الرسائل الاعتذار عن الاشتراك فى الحملة على مصر قبل أن تجاب المطالب التى سبق وطالب بها والخاصة بالعفو عن المعتقلين السياسيين ومنح الشام نظاما لا مركزيا وجعل إمارة مكة وراثية فى أولاده.. ومادامت مطالبه لم تتحقق، فإنه مضطر إلى قطع العلاقات مع الحكومة العثمانية، حتى يعاد النظر فى مطالبه.

وتشير المصادر البريطانية إلى أن الأتراك قد اكتشفوا موقف الشريف وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه، لذا كان لزاما عليه أن يعجل بثورته وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف حيث من المحتمل قدوم فرقتين من الجيش التركى فى القوقاز للقضاء على الشريف مما يبدد الأمل فى إضعاف تركيا وفى إقامة خلافة عربية مما يمهد السبيل لثورة إسلامية حقيقية ضد المصالح البريطانية.

لقد ضاعف الإدريسى(حاكم عسير) من مخاوف بريطانيا، حيث زودها بمعلومات تقلل من أهمية الشريف وكراهية الناس له ولأسرته وأخذ يذكر البريطانيين بتاريخ الرجل وتناقض مواقفه، التى قد تضر ببريطانيا ومصالحها فى الحرب.

هكذا تقرر قيام الثورة فى كل من المدينة بقيادة فيصل وعلى وفى مكة بقيادة الشريف حسين وفى الطائف بقيادة عبد الله وفى جدة بقيادة محسن أمير قبيلة حرب.

لقد كان موقف الشريف حرجا إذ أعلن تمرده على الخلافة الإسلامية، دون أن يبدى أسبابا مقنعة للعالم الإسلامى رغم ما أبداه من مبررات من بينها تجاوزات جماعة الاتحاد والترقى وعدد ما ارتكبه الترك من فظائع ضد العرب لكن جميعها لم تكن مبررات مقبولة أو مقنعة ناهيك عن أنها لم تكله جديدة.



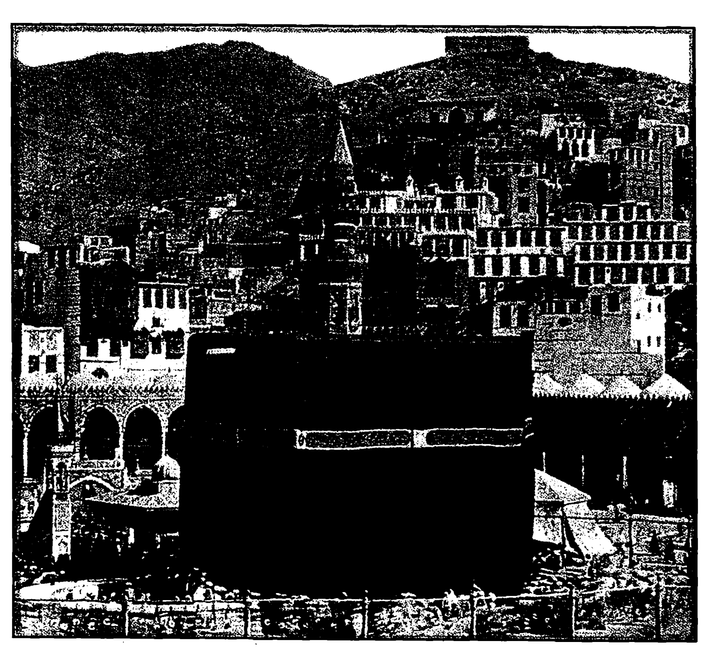


الفصل الثالث
الشريف حسين يعلن الثورة

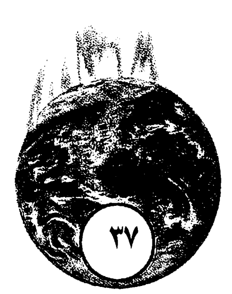
لقد أراد الشريف أن يبدأ شرارة الثورة من المدينة المنورة، بقيادة الأميرين على وفيصل، حيث توجها فجر الخامس من يونيو ١٩١٦ إلى معسكر يضم نحو ألف وخمسمائة من الجنود وأعلنا استقلال العرب عن الترك، واعتبر هذا الإعلان بمثابة البداية الحقيقية للثورة العربية.

أما فى مكة فقد بدأت الثورة يوم ٩يونيو ، حيث هوجمت الحاميات والمواقع التركية، التى استسلم بعضها بينما صمدت مواقع أخرى "جياد" بسبب تحصيناتها القوية أما فى جدة فقد تحصن الترك فى خنادقهم، تحميهم مدافعهم ورشاشاتهم، وعددهم تجاوز الألفين بقليل فى مواجهة أربعة آلاف من العرب بينما وقف الأسطول البريطانى قبالة جدة على أهبة الاستعداد على ألا يقوم بقصف مدفعى نحو الأراضى المقدسة إلا بأوامر صريحة من الشريف حسين أو أحد أبنائه.

لقد استعصت استحكامات الترك فى جدة مما اضطر الشريف إلى أن يطلب تدخل الأسطول البريطانى الذى راح يضرب قواعد الترك. إلا أن الجيش العربى لم يستطع أن يحسم الموقف بشكل سريع وأخذ الشريف يشكو من نقص الأغذية والمال وهدد البعض بالانسحاب مما اضطر الإدارة البريطانية فى القاهرة إلى إمداد الشريف بخمسين ألف جنيه وبعض المدافع بينما صدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان بمهمة قيادة العمليات العسكرية فى الحجاز وقد واجهته بعض الصعوبات والمشاكل، من



الكعبة المشرفة- بمكة المكرمة فى العهد العثمانى ١٨٦٩



بينها إمداد الثـورة بما تحتاج إليه من رجال وسلاح ومـؤن وأموال إضافة إلى التوفيق بين مهمته الحقيقـية - تحرير الأماكن المقدسة من الترك وضمان الحج للمسلمين- وبين الآمـال العريضة الـتى كانت تجيش فى صـدر الشريف فى إقامة دولة عربية يتولى عرشها.

ومع منتصف يونيـو ١٩١٦ كانت مكة قد سـقطت تحت يد الشريف ماعدا حاميتين صغيرتين خارجـها وسقطت الطائف أما جدة فقد استسلمت حاميتهـا التركية يوم ١٦ يونيو وفى المدينة حوصرت الحاميـة التركية بعد أن حطم العرب مائة وخمسين كيلو مترا من خط السكة الحديد.

لقد شعرت الإدارة البـريطانية فى الهند بقدر كبير من القلق عـبر عنه نائب الملك من خلال تقرير بعث به إلـى حكومته تضـمن استيـاء المسلمين فى الهند من حصـار جدة وغلق طريق الحج وعندما نما إلى علم المسلمين هناك قصف الأسطول البريطانى للقواعد التركية فى جدة عم السخط والاستيـاء الشديدين لدرجة أن تعليـمات صدرت إلى نائب الملك فى الهند بالعـمل على الحيلولة دون وصول أخبار المعارك حتى لا تحدث قلاقل تضر بمصالح بريطانيا.

لقد تباينت وجهات النظر بين المعتمد البريطانى فى القاهرة -سير مكماهون . . وبين ونجت فى مسائل من أهمـها حرص الأخير على أن تقـتصر الاتصالات مع الشـريف على شخص واحد توكل إليه كل المهام السياسية والعسكرية والماليـة وكان يرى بحكم إشرافه على العمليات العسكرية بنفسه أن يقوم بهذه المهـمة إلا أن الإدارة البريطانية فضلت عدم التغييـر فى الإجراءات المعمول بها حتى لا تحدث قـلاقل فى وقت لا تسمح الظروف بمثل هذا التغـيير، مما قد يضـر بموقف الشريف والحكومة البريطانية معا.

لقد كان من رأى «ونجت» إشـراك القوات البريطانية فى العمليات العـسكرية فى الحجاز إلا أن المسـئولين البـريطانيين فى القـاهرة، بناءً على نصـيحـة نائب الملك فى الهند لم يفـضلوا هذا الاقتـراح، حيث من المتوقـع أن يستغل الأتراك هذا الموقف ضـد الشريف الذى سـوف يتهم بأنه يستخـدم جنودا من النصارى فى الأماكن المقدمـة، لذا صار من الضرورى الاقتـصار على الجيش المصرى وخصوصا فى المراحل الأولى من الثورة أعقب ذلك انضمام بعض الجنود المسلمين وبعض الضباط البريطانيين سواء من القاهرة أو من القـاعدة العسكرية فى بورسودان حيث تولى الكولونيل ولسن قيـادة بعض العمليات العسكـرية فى جدة ومعه الضـابط المصرى «السيد على» إضـافة إلى «كلايتون» وعدد من الجنود السودانيين.

لقد شعر سير ونجت بكثير من المهام الملقاة على عاتقة دون أن يكون لديه مسئوليات محددة لذا فقد كتب إلى سير مكمـاهون طالبا إجابات محددة فيما يتعلق ببعض القـضايا التى اعتقد أنها فى حاجة إلى إجابات شافية ولخص تساؤلاته فيما يأتى:

١- هل استشيرت وزارة الخارجية والحربية فيما يتعلق باحتياجاتى الضرورية لعدد من الموظفين بحكم واجباتى ومسئولياتى الضخمة؟

٢- هل الإدارة البريطانية على علم بمطالب الشريف من أسلحة ومعدات وأطعمة وأموال؟

٣- لقد أكدت مرارا أننى لا أستطيع تقديم أى مساعدات أخرى من السودان أكثر مما قدمه الجنود المسلمون للعمل فى الجزيرة العربية ولكنى على اقتناع بأن الجيش البريطانى يمكن أن تكون فائدته أعظم فى بلاد العرب؟

لقد كان «ونجت» من أكثر القيادات البريطانية تقديرا لخطورة الموقف فى الحجاز وحينما شعر أن مكماهون لم يجبه بإجابات شافية على تساؤلاته لذا فقد عاود الكتابة مرة ثانية مؤكدا على أهمية إمداد الشريف باحتياجاته فى مقدمتها تعيين ضابط بريطانى ليكون ممثلا لبريطانيا فى جدة لكى يقوم بالتنسيق مع الشريف وعلى بريطانيا أن تعلم أن مطالب الشريف معقولة ولا بأس أن ندفع له مائة وخمسا وعشرين ألف جنيه شهريا.

مراحل الثورة العربية:

إذا كان الشريف حسين قد حقق قدرا كبيرا من الانتصارات فى بداية الثورة، شملت الكثير من الجهات العسكرية إلا أن الترك وبمساندة ألمانيا أخذوا يعيدون تنظيم جيوشهم لدرجة أنهم حشدوا مع منتصف يونيو ١٩١٦ ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين ألفا بينما لم تكن تتعدى قوات الشريف خمسة عشر ألفا فقط وهو ما جعل الإدارة العسكرية البريطانية تشعر بقدر كبير من القلق.

ولعل من المناسب تقسيم النشاط الحربى للثورة إلى ثلاث مراحل، الأولى منذ قيام الثورة فى الخامس من يونيو ١٩١٦ وحتى سقوط " الوجه" فى الخامس والعشرين من يناير ١٩١٧ والثانية من سقوط «الوجه» حتى سقوط " العقبة" فى السادس من يوليو ١٩١٧ والثالثة تنتهى بطرد الترك نهائيا من الشام.

المرحلة الأولى للثورة:

تميزت هذه المرحلة بانتصارات سريعة وخاطفة حققها الشريف على كل الجبهات ففى مكة لم تصمد القوات التركية أكثر من أربعة أيام وعلى الرغم من المقاومة فى بعض المراكز إلا أنها سقطت واحدة تلو الأخرى حتى مكة التى استسلمت حاميتها فى ٩ يوليو ١٩١٦.



وفى جدة قاوم الأتراك وتحصنوا خلف خنادقهم إلا أن السفن البريطانية واصلت إطلاق مدافعها من البحر الأحمر مما اضطر الترك إلى الاستسلام فى منتصف يونيو، لذا فقد أخذ الترك يروجون فى دعايتهم بأن المدافع البريطانية تقذف الأماكن المقدسة فى الحجاز مما أثار غضب المسلمين.

ثم سقطت الطائف، التى حاصرها الأمير عبد الله إلى أن استسلمت حاميتها فى الثانى والعشرين من سبتمبر ١٩١٦ ثم أعقبها استسلام رابغ وينبع وتم أسر نحو ستة آلاف، والاستيلاء على العديد من الأسلحة والذخيرة.

لم يتبق من الحجاز إلا المدينة المنورة، التى حاصرها الأمير على بن الحسين ثم انضم إليه شقيقه الأمير فيصل حيث استسلمت بعد عناء شديد فى يناير ١٩١٧.

وعلى الرغم من هذه الانتصارات التى أثارت إعجاب بريطانيا إلا أن الترك أخذوا يعيدون ترتيب جيوشهم لذا فإن الشريف قد ألح فى إمداده بثلاث أورط مصرية أو سودانية فى ينبع تحت إشراف ضباط بريطانيين إلا أن الإدارة البريطانية كانت ترى أن وجود إنجليز ضمن جيش الشريف قد يضعف من موقفه أمام القبائل العربية والرأى العام الإسلامى.

لقد كان من جراء مماطلة السلطات البريطانية فى إمداد الشريف بما يحتاج إليه أن أشيع أن البريطانيين غير راضين عن سياسة الشريف وقد بلغ من ضيق الشريف أن قرر إيفاد نجله الأمير عبد الله لكى يبحث مع مكماهون فى القاهرة مسائل كثيرة معلقة، لعل فى مقدمتها ما سبق وطالب به الشريف بشأن إمداده بفرقة من الجيش المصرى إلا أن مكماهون كرر ما سبق من أن نقل قوات من مصر إلى الحجاز تقتضى الرجوع إلى الخارجية البريطانية فى لندن.

ولما لم يكن ثمة أمل فى دعم جيش الشريف بكتيبة من الجيش المصرى فقد رأى «ونجت» تنفيذ هذه العملية اعتمادا على قوات الشريف وبدعم من بعض القوات المصرية والهندية وبعض السودانيين إضافة إلى البعثة الفرنسية بقيادة الكولونيل بريمون والتى تضم ضباطا مسلمين، لكى تكون قاعدة للإغارة على مواصلات الترك حتى يمكن التقليل من فاعلية خط سكة حديد الحجاز الذى يقدم العون للقوات التركية فى المدينة.

لقد قوبل رأى ونجت باعتراض من جانب لورانس الذى رأى أن القبائل العربية قادرة على تحقيق النصر إذا هى أمدت بالمدافع أما إذا علمت بنزول الأجانب فإنها سوف تنفض عن الشريف




لورانس العرب

وأشـــار لورانس إلى أن بريمون يسعى وراء أهداف خاصـة تتعلق بالمـصالح الفرنسية وهو ما يضاعف من رفض فـكرة «ونجت» وعلى ضوء ذلك فقد تم إمداد الشـريف بالأسلحة والأموال والضباط لكى تدعم موقف فيصل فى رابغ وتعيين لورانس مستشارا حربيا له.

لقد شعر الشريف بقدر من المرارة، حيث لم يمده الإنجليز بالأسلحة الكافية ولم يـستجيبوا إلى مطالبه فى إمداده ببعض القوات لكى يدعم موقـفه، لذا فقـد شعر بضـعف موقفـه بعد أن وعـدته بريطانيـا بأن قوة مكـونة من سـتة آلاف جندى وعدد كبيـر من الطائرات سوف تكون تحت تصرفه. وفى العاشـر من يوليو ١٩١٦، وبينما الحرب دائرة بين الشريف والقوات التـركية فى الحجاز، إذا بالإدريسى حاكم عسـير يبعث بقوة من رجاله، احـتلت "قنفذة"، على شاطئ البـحر الأحمـر بين جدة وجيـزان فى الوقت الذى كانت إحدى البوارج البريطانية تشهد الموقف عن قرب مما جـعل الشريف يعتقد بأن العملية تمت بالتنسيق مع بريطانيا وكان يعتقد أن القنفذة من بين ممتلكات الحجاز، لقد تضاعف استياء الرجل حينما علم بأن محادثات جارية بين البريطانيين من جـانب وبين الإدريسى وابن سعود من جانب آخر من وراء ظهره.

لقد أراد الشريف أن يبرر موقفة أمام المسلمين، ولذا فقد أذاع منشورا فى الخامس والعشرين من يونيو ١٩١٦ وجهه إلى العالم الإسلامى ذكر الأسباب التى دفعته إلى الثورة وبعث بنسخة من هذا المنشور إلـى ممثله فى القاهرة -الفاروقـى-إلا أن المعتمـد البريطانى اعتـرض على ما ورد فـيه وخصوصـا ما جاء فيه من أن التـرك ضربوا الكعبة بمدافعـهم، واعتقد مكمـاهون أن هذه العبارة سوف تثير مسلمى الهند الذين سيعتبرون أن ذلك بسبب ثورة الشريف، التى تساندها بريطانيا.

وإذا كان الشـريف قد حرص علـى أن يبرز ثورته ضد خليـفة المسلمين وأن يخلق شـعورا معاديا ضد الأتراك يبرر خـروجه على الخلافة فإن بريطانيا من جانبهـا كانت حريصة على أن تبدو

وكأنها تساند الشريف الذى تتوفر فيه مقومات الخلافة الجديدة، لذا فإنها كانت تشعر بحساسية موقفها الذى يحمل كثيرا من التناقض مهما حاولت تجميل سياستها.

وفى الوقت الذى كانت فيه العمليات العسكرية قائمة على أشدها، إذا بالشريف حسين يجتمع بزعماء القبائل(٣٠ أكتوبر ١٩١٦)، الذين نادوا به ملكا على العرب، وعلى ضوء ذلك شكلت أول وزارة عربية برئاسة الأمير على وعين فيها الشيخ عبد الله سراج (مفتى الأحناف) قاضيا للقضاة والأمير عبد الله الحسين وكيلا للخارجية وعزيز على المصرى رئيسا لأركان الجند.

لقد انفرد الشريف حسين باتخاذ هذا الإجراء بعيدا عن الإدارة البريطانية، التى لم يستشرها فى هذا الموضوع الخطير وكان ثمة اعتقاد بأن الشريف وأبناءه لا يحظون بإجماع غالبية القبائل العربية فى الحجاز ناهيك عن الشام التى لم يقبل زعماؤها بالشريف ملكا أو خليفة وإن كانوا قد طالبوا بالاشتراك فى الثورة إلا أن ذلك لا يعنى تنصيب الشريف ملكا عليهم، لكل هذه الاعتبارات رفض الحلفاء الاعتراف بالمملكة الجديدة رغم ما بذله ممثل الشريف فى القاهرة - الفاروقى - من محاولات مستميتة وأخذ ممثلو الحلفاء يماطلون بحجة التباحث والدراسة ومعرفة صدى مثل هذا الموضوع على العالم الإسلامى.

لقد أخذت الحكومتان البريطانية والفرنسية تتباحثان، إلى أن استقر الرأى على الاعتراف بالحسين ملكا على الحجاز، وفى الثالث من يناير ١٩١٧ تسلم خطابا من الحكومة الفرنسية يحمل اعترافها به ملكا على الحجاز فقط بينما تسلم خطابا آخر من الإدارة البريطانية يتضمن الاعتراف به ملكا على الحجاز كما فعلت فرنسا.

وعندما بعث مندوب الشريف فى القاهرة-الفاروقى- إلى الحسين طالبا منه الرأى والمشورة فيما يتعلق بموقف بريطانيا من اختياره ملكا وحدود الدولة العربية الجديدة إلا أن الشريف أجابه بعدم إثارة الموضوع نظرا للظروف التى يمر بها الحجاز والتى تقضى بضرورة التفرغ وإرجاء كل المشاكل إلى وقت آخر.

لعل الشريف كان يهدف إلى إبقاء الوضع مجمدا إلى ما بعد الحرب إلا أنه فوجئ كغيره من العرب بأن الصحف فى مصر قد نشرت الخبر على النحو التالى: " اعترفت الحكومة البريطانية وحكومة جمهورية فرنسا رسميا بشريف مكة ملكا على الحجاز" .



لقد كانت قضية اللقب موضع عناية الإدارتين البريطانية والفرنسية، حيث اقترح الفرنسيون اختيار لقب "ملك الحرمين" إلا أن السير ريجنالد ونجت تخوف من أن هذا اللقب قد يسيء إلى الشعور الإسلامى واقترح بدلا منه" ملك العرب فى الحجاز" بينما اقترح السير مكماهون لقب" ملك الحجاز" وعارضت حكومة الهند بشدة على لقب "حامى الحرمين" بحجة أنه يسيء إلى المسلمين الهنود واقترح المستر بينج العضو المسلم فى المجلس الهندى لقب" ملك العرب فى الحجاز وملحقاته" وعندما استشير السير برسى كوكس اقترح لقبا يجمع بين السلطتين المدنية والدينية وهو" سلطان الحجاز وحامى الأراضى المقدسة" .

لقد برر السير هيرتزل - وكيل وزارة الهند- أهمية الاستقرار على لقب"ملك الحجاز" بحكم أن الشريف قد اتخذ لنفسه هذا اللقب فعلا وأصبح أمرا واقعيا وفى رأيه أن لقب"ملك الحجاز" أنسب الألقاب لبساطته ولتقبله من العرب والمسلمين معا.

لقد شغلت قضية دعم الشريف بجنود يدعم بهم قواته العسكرية مساحة كبيرة فى المفاوضات بينه و بين الإدارة البريطانية واستقر الرأى على الاستعانة بضباط وجنود عرب من الذين أسرهم البريطانيون فى ميادين القتال فى فلسطين والعراق وغاليبولى وعلى الحدود المصرية مع ليبيا أثناء هجمات السنوسيين على أن تتولى بريطانيا إعدادهم عسكريا.

الشريف حسين ملك الحجاز فى عمّان ١٩٢٣



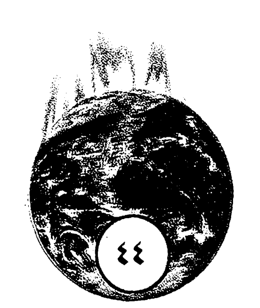
وعلى الرغم من أن السلطات البريطانية كانت ترتاب فى ولاء بعضهم للشريف إلا أنها قد اختارت عددا منهم، حيث غادروا السويس (أول أغسطس ١٩١٦) وكانوا سبعة من الضباط من بينهم نورى السعيد وبعض الجنود يرافقهم الدكتور أمين المعلوف (لبنانى) ووقع الاختيار على عزيز المصرى، الذى تعاون مع نورى السعيد حيث استطاعا وضع خطة لصد هجمات الترك فى رابغ من خلال تكوين فوجين من المشاة وفوج رشاش وبطارية مدافع .

لم تطل إقامة عزيز المصرى فى الحجاز، حيث عاد إلى مصر بعد ثلاثة أشهر، حيث اختلف مع البريطانيين بسبب إلحاحه على الشريف لكى يطلب من البريطانيين أن يمدوه بالمدافع التى غنموها من الأتراك فى جبهة فلسطين. ولما لم يستجب البريطانيون لمطالبه أشاع بين جنوده أن البريطانيين يودون القضاء على العرب والترك معا بتركهم يفنى بعضهم بعضا.

يبدو أن هذا الرأى قد وصل إلى البريطانيين والشريف، حيث غضبا من هذا الرأى، لذا فقد بعث الشريف حسين إلى الأمير على لكى يوعز إلى عزيز المصرى بطلب إجازة، فأدرك الرجل ما يتم فى الخفاء فطلب أن يسمح له بالعودة إلى مصر على أن يحل بدلا منه نورى السعيد فى رئاسة أركان حرب الجيش.

وإذا كان الشريف لم يتمسك بعزيز المصرى فهناك أسباب كثيرة تدفعه إلى التخلص منه على الرغم من كفاءته العالية التى شهد له بها القادة الإنجليز فقد كان هناك تخوف من ميوله نحو الاتحاديين إضافة إلى حرصه على أن يمارس مهام رئاسة أركان حرب الجيش دون تدخل من الشريف وأبنائه وتكررت شكايات الأمير على من انفراد عزيز المصرى بالأمور بعيدا عنه وهو ما ضاعف من تخوف الشريف وشكه فى ميول عزيز المصرى ويذكر-الفاروقى- سببا جوهريا جعل عزيز المصرى لا ينال ثقة الملك الذى تعود على الطاعة العمياء وإصراره على ما يعتقد أنه صواب ونظرا لصرامة وشدة انضباط عزيز المصرى فقد أشاع بعض الضباط أنه على علاقة بالترك تمهيدا للانضمام إليهم إذا هم اعترفوا باستقلال البلاد العربية، فلما سمع الملك هذا الكلام طلب من ابنه الأمير على سرعة تنحيته عن قيادة الجيش إضافة إلى عدم ثقة الإنجليز فى ميوله وشكهم فى تصرفاته.

لم يكن عزيز المصرى من الضباط الذين يقبلون التدخل فى عملهم، وكانت له آراؤه التى يرددها كثيرا وكان بعضها لا يرضى الشريف لذا كان من المتوقع أن يحدث الخلاف الذى عجل



بإقالة الرجل من منصبه ولعله كان سعيدا بهذا القرار، حيث كان قد قبل هذا المنصب على مضض وكان يعتبره مهمة ثقيلة، وقد أجمع كثير من الباحثين على أن الرجل كان لا يثق فى بريطانيا وكان أميل إلى التعامل مع الترك.

لقد كان ختام العمليات الحربية فى مرحلتها الأولى دخول العرب بقيادة فيصل ميناء الوجه(٢٥ يناير ١٩١٧) وتبددت أمال الترك فى استعادة مكة وصار الوجه قاعدة مهمة لعمليات عسكرية أوسع وأكثر أهمية، وكان سقوطها بمثابة آخر فرصة للترك لدرجة أن الشريف على حيدر الذى عينه الترك على شرافة مكة عقب الثورة قد طلب السماح له بمغادرة الحجاز بعد أن فقد الأمل فى إمكانية القضاء على الثورة و صدرت إليه الأوامر بالتوجه ناحية المدينة (أول أغسطس ١٩١٦) حيث تجمع نحو خمسة عشر ألفا من رجال القبائل حوله إلا أنه كان فى حاجة إلى السلاح وقد أجرى اتصالات مع كل من الإدريسى وابن سعود اللذين عبرا عن رغبتهما فى هزيمة الشريف إلا أن موقفهما كان مقيدا بحكم علاقتهما ببريطانيا.

وإذا كانت المرحلة الأولى من الثورة، التى انتهت بسقوط الوجه فى أيدى القوات العربية لم تحسم المعركة إلا أنها كانت بمثابة تحول هام فى العمليات العسكرية، حيث استطاعت القوات العربية أن تأسر ما يزيد على ستة آلاف من المقاتلين الترك كما قطعت خطوط المواصلات بين الشام واليمن، التى كان بها ثلاث فرق تركية، ولا شك أن ثورة الشريف حسين قد استطاعت أن تسد الطريق إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى فى وجه القوات التركية وإذا أضفنا إليها موقف ابن سعود فى نجد فإن محورا قد تشكل، يمتد من البحر الأحمر وحتى الخليج العربى، أصبح بمثابة خط دفاع يصعب اختراقه من جانب القوات التركية والألمانية مما خفف الضغط على القوات البريطانية.

المرحلة الثانية للثورة:

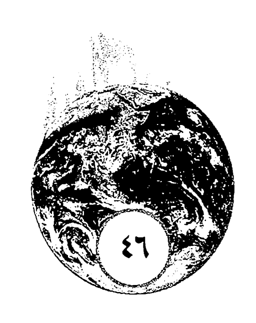
تبدأ المرحلة الثانية من سيطرة القوات العربية على الوجه(٢٥ يناير ١٩١٧) وتنتهى بسقوط العقبة(يوليو ١٩١٧) حيث تميزت هذه المرحلة بتدفق الأسلحة والمعدات البريطانية على القوات العربية وبمساندة بعض الضباط الإنجليز الأكفاء من أمثال لورانس وجويس وتركزت العمليات على خط سكة حديد الحجاز ، الذى تحطمت أجزاء كثيرة منه،كما هوجمت المحطات وتم أسر حاميتها مما جعل إعادة العمل بالخط مسألة يكتنفها الكثير من المخاطر.

لقد كـانت محاصرة القـوات التركية فـى المدينة بمثابة الخطوة الأولى لتسهيل مهـمة الأمير فيصل فى التقدم نحو الشمـال كما أتاح الفرصة لكى تنفرد القوات العربية بالهجوم على القوافل التركية التى حاولت الوصول إلى اليمن لرفع الحصـار عن الحاميات التـركية هناك، وأشاع الأميـر فيصل بين القبائل الحجـازية والسورية ، حيث التقى بزعمائهـم فى الوجه، أن الفرصة قد أتيحت للعرب وعليهم اقتناصهـا لإقامة الدولة العربية ، بمساندة بريطانيا وراح يحـدثهم عن المجازر التى أقـامهـا الترك فـى الشام وطالبـهم بتناسى خلافاتهم ووعـدوه بالتعاون والمساندة بكل ما يملـكون وحينما اطمأن فيـصل إلى دعم القبائل راح يتطلع بكل همـة إلى الشام الذى بعث إليـه وفدا برئاسة ابـن عمه الشـريف ناصر ، الذى رافـقه لورانس بهدف وضع الترتيبات اللازمة والتنسيق مع القبائل استعدادا لمواصلة الثورة.

لقد استطاع لورانس أن يلتقى برضا باشا الركابى وهو قائد عربى فى الجيش التركى، حيث التقى به سرا فى إحدى ضواحى دمشق وسلمه رسالة من الأمير كما تمكن لورانس أثناء عودته من الالتقاء بزعماء الدروز ومن بينهم حسين الأطرش ونورى شعلان.

مبنى محطة سكة حديد الحجاز بالشام - المحطة الأولى





لقد اعتـمد فيصل على شخصـية عربية لعبت دورا مهـما وهو عودة أبوتايه، الذى رافق لورانس إلى الشام وجمع نحو خمسمائة رجل من قبيلته وبلغوا منطقـة الجفر ومـضوا نحو جنوب معـان حيث هزموا كـتيبة تركـية فى "أبى اللسن" ثم استمـروا فى سيرهم نحو العقبـة وفى طريقهم انضمت إليهم قبـائل كثيرة، حـيث التقوا بخمس من الحامـيات التركيـة واستطاعوا الانتصـار عليهم ودخلوا العقـبة (٦يوليو ١٩١٧) بعـد أن أسروا كثـيرا من الترك واستولوا على أسلحتهم، التى استخدموها فى معاركهم.

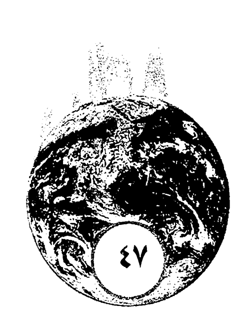
هكذا كان سقوط العقـبة نقطة تحول هامة فى سير العمليات العـسكرية، حيث انتقل مسرح العمليـات إلى الشام، باعتبـاره مركز تجمع الـقوات التركيـة، بمساندة القوات الألمانية وأصـبحت القوات العربية فى العقبة تمثل الجناح الأيمن للحملة المصرية التى قادها الجنرال اللنبى.

لقد شعـرت الإدارة البريطانية بقدر كـبير من الحرية بسـبب انتقال العمليـات العسكرية إلى الشام بعيـدا عن الأراضى المقدسة، التى كانت تشـعر بحساسيـة شديدة تجاهها، لذا فـقد تحملت قوات الشريف ضـغوطا شديدة حينمـا لم يتح للقوات البريطانيـة المشاركة الكاملة مكتفـية بأعداد صغيرة من الضبـاط فى الوقت الذى تحملت فيه القوات العربية العبء الأكبـر أما فى الشام فالأمر كان مختلفا تماما حيث تضاعف عدد الضباط الإنجليز والفرنسيين.

لقد تجمع حـول الأمير فيصـل فى العقبة ثلاثة آلاف من الجنود والضـباط السوريين، الذين تخلوا عن القوات التركية إلى جانب أعداد غفيرة من البـدو وبينما كان فيصل مشغولا باستعداداته العـسكرية والسـياسـية كـان مـعـاونوه من القـيـادات العسكرية والقبليـة يخوضون حـربا ضارية مـع نهاية عـام ١٩١٧، حـيث تمكـنوا من تدمير أجزاء كـبيرة من الخط الحـديدى ونسـف الجسـور وإقـامـة الاسـتحكامـات مما أربك القـوات التـركـيـة والألمانية.



الحروب العربية التى أشرف عليها لورانس بالجزيرة العربية



وإذا كان وقوع العقبة تحت سيطرة القوات العربية بقيادة الأمير فيصل يعد نقطة تحول من الناحية العسكرية فإن ذلك كان نقطة تحول من جانب آخر، حيث أخذت القبائل العربية تتدفق على الأمير فيصل الذى نجح بشكل ملحوظ فى إثارة مشاعرهم العربية ربط بين انتصار الحلفاء ونجاح أهدافهم المشتركة التى استهدفت تحرير كل بلاد العرب من نير الاحتلال الأجنبى وأخذ يؤكد على صدق وعود الإنجليز وإخلاصهم للقضايا العربية، وبينما كانت هذه الدعايات على أشدها أخذت الطائرات البريطانية تسقط على خطوط الترك صورا من خطاب الشريف ومعه نداء من القيادات البريطانية يطالب الضباط والجنود العرب فى الجيش التركى بسرعة التخلى عن مواقعهم والانضمام إلى القوات البريطانية والعربية.

ويلاحظ أن الدعايات التى بذلها الإنجليز باسم الشريف حسين لم تشمل لبنان لأسباب تتعلق بالمصالح الفرنسية بينما نشطت الدعايات للتأثير على أهالى جنوب سورية وفلسطين وهو دليل على أن هذه المنطقة كانت ضمن الدولة التى وعدت بريطانيا بتأييد استقلال العرب فيها وليس كما ادعى البريطانيون من أن فلسطين لم تكن ضمن حدود الدولة العربية المقترحة.

لقد أقام فيصل سياسته فى الشام على كسب القبائل العربية أولا وإرجاء الثورة إلى أن يتأكد من نواياهم مما يؤثر إيجابا على موقف الضباط والجنود العرب فى الجيش التركى ولذا فإن هذه السياسة قد حققت أهدافها حيث تراجعت قبائل منطقة بئر سبع عن الانخراط فى الجيش التركى وانضموا إلى صفوف القوات البريطانية المتجهة نحو غزة مما أدى إلى إخلاء العريش من القوات التركية وطوال تقدم قوات اللنبى نحو القدس فى خريف ١٩١٧ أخذت أعداد كبيرة من القوات العربية فى الجيش التركى تنضم إلى قوات اللنبى.

لقد أحدثت الدعايات العربية البريطانية أثرا هائلا لدرجة أنها تسببت فى إحداث قدر كبير من الارتباك وسط القوات التركية الألمانية، أعقبها سلسلة من الإجراءات العسكرية الصارمة ضد كل من يضبط متلبسا بحيازة أى منشور من المنشورات التى تلقى على القوات التركية وشددت العقوبات على كل من يتخلى عن موقعه من الضباط أو الجنود العرب وكإجراء مضاد من أثر التعسف الذى كان يمارسه جمال باشا فى الشام أقنعه الألمان بأهمية إصدار نداء (١٤ نوفمبر ١٩١٧) وعد فيه الضباط والجنود الهاربين بالعفو التام على كل من يقدم من تلقاء نفسه بالعودة إلى حاميته العسكرية.

لقد كان موقف القبائل العربية سببا كافيا لكى تصبح القوات البريطانية المتقدمة نحو القدس بمثابة نزهة عسكرية وسط شعوب موالية لها، بينما كان الترك يحاربون وسط محيط من العداوات



وعلى الرغم من هذا الدعم الهـائل الذى سهل مهـمة بريطانيا وفـرنسا فى سيطرتهـا على الشام إلا أن السـياسة البـريطانية كـانت تضمـر للعرب كل مشاعر السوء وتتفق مع حليفتها فى اقتسام الشرق العربى من خلال عمليات تضليل لا مثيل لها فى التاريخ الحديث.

واللافت للنظر أنه على الرغم من أن العرب قد تبـينوا خداع الحلفاء لهم خاصـة بعد أن تسربت اتفاقـية سايكس بيكو "نوفـمبر ١٩١٧" إلا أن الشريف اسـتمـر متـمسكا بموقـفه المحالف للإنجلـيز رغم علمه بـأمر تلك الاتفاقية من الرسائل التى وجهها جمال باشـا إلى كل من الأمير فيصل وجعفر العسكرى وهو من الزعامات الـعربية العراقيـة وقد رأى أن يتخلى العرب عن الحـلفاء لأنهم يضمرون أغـراضا سرية تتنافى واستقلال العرب إلا أن الجيش كان يخشى من انتـقام الأتراك إذا ما تراجع عن موقفه فضلا عن تطلعات أبناء الحسين إلى الزعامة العربية إلى جانب خداع الإنجليز له وتماديهم فى تضليله.

المرحلة الثالثة من الثورة:

لقد واصلت القوات العربية عملياتها العـسكرية فى الشام، تساندها قوات إنجليزية وفرنسية وفى ١١ ديسمبر ١٩١٧ دخل اللنبى القدس يرافقه مندوب فرنسى وآخر إيطالى يرافقهما الكولونيل لورانس الذى حضر لـيقدم إلى اللنبى تقريرا عن تقدم العمليـات الحربية بقيادة فيصـل قبل سقوط القدس بعدة أيام، ومع نهاية عـام ١٩١٧ قد أصبحت بريطانيا تسيطر على القـدس،التى استقبلت ألفين من المتطوعين العـرب فيما لا يزيـد على أسبوع، وقرر الـلنبى أن العلم المسموح برفـعه هو العلم البريطانى، كما حرص على التكتم بنشر تصريح بلفور ضمانا لمساعدة العرب.

لقد أعلنت الخارجية الفرنسية على لسان وزير خارجيتها ستفن بيشون Pichon (٢٧ديسمبر ١٩١٧) أن سقوط القدس يعـد من الأحداث التاريخية التى لا تنسى وأنه لا يعد انتـصارا لبريطانيا أو فرنسا فقط بل هو انتـصار للعالم المتحضر، ولن يقـام نظام إنجليزى أو فرنسى بديلا عن النظام التركى وإنما سيقام نظام دولى يعتمد على العدل والحرية (إن فرنسا التى لا ينازعها أحد فى حقوقها التقليدية فى الشام هى المؤهلة أكثر من أى دولة أخرى).

لقد بذل الألمان جـهدا كبيرا مـستخدمين الأمـوال والدعايات فى محاولـة مستميـتة لكسب زعماء القبائل العربية إلا أن كل هذه المحاولات لم تؤثر على مجرى الأحداث، حيث التقى اللنبى مع الأمير فيصل على طول ساحل الشام، بعد أن انضمت إليهما أعداد غفيرة من العرب.

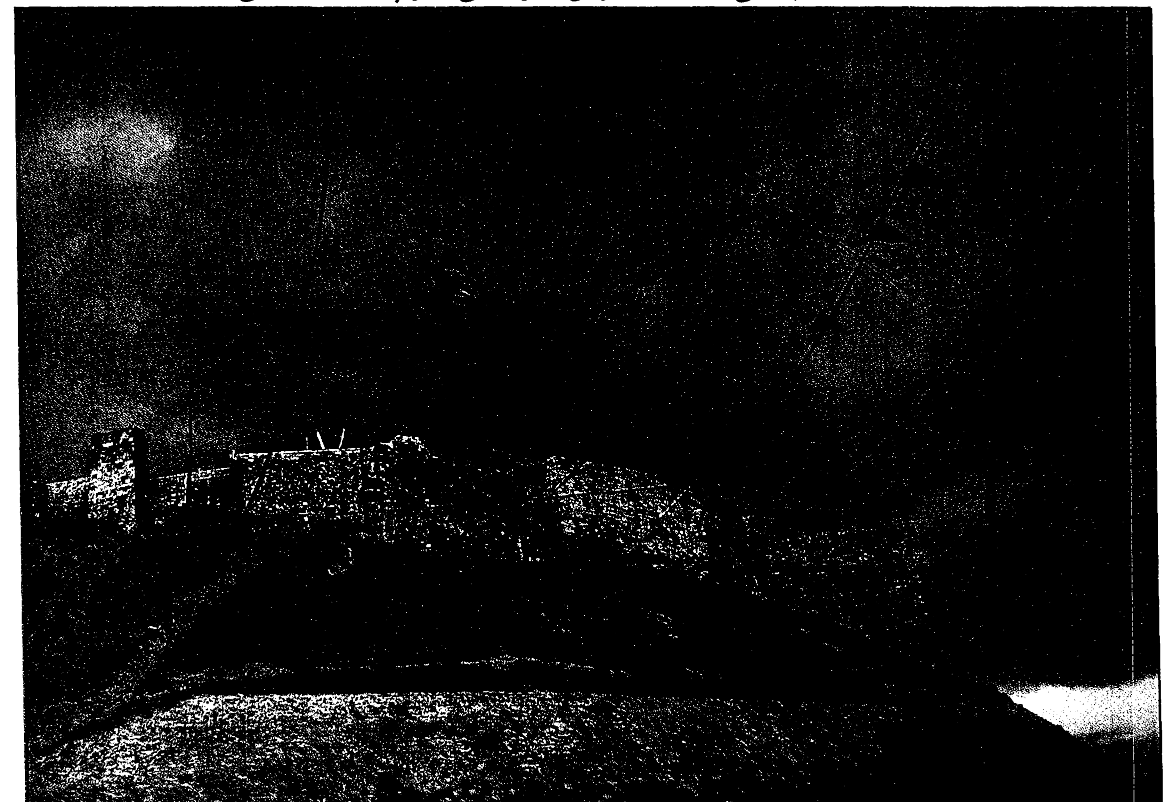


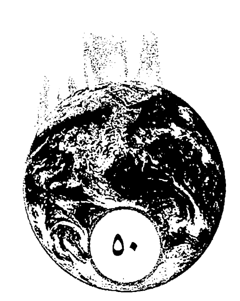
لقد تمكنت القوات العربية العاملة فى شرقى الأردن من احتجاز الجيش الرابع، الذى اتخذ من عمَّان مركزا لقيادته، إلى جانب الفرقة الثانية المتمركزة فى معان ويبلغ مجموع هذه القوات نحو أربعة عشر ألف مقاتل فى الوقت الذى حاصر فيه العرب المدينة المنورة بينما كانت القوات البريطانية فى غرب الأردن تكثف من هجماتها على الجيش التركى السابع بقيادة مصطفى باشا والثامن بقيادة جواد باشا.

لقد قدم العرب خدمة جليلة لبريطانيا، حيث تمكن فيصل من حماية الجناح الأيمن للجيش البريطانى فى فلسطين وكذا حماية خطوط المواصلات البريطانية بالقرب من الخليل وبئر سبع هذا بالإضافة إلى العمليات العسكرية التى أربكت القوات التركية وأنزلت بها هزائم ساحقة سواء فى الحجاز أو الشام وكذا انصراف القبائل العربية عن تقديم أية مساعدة للأتراك مما سهل مهمة قوات اللنبى وعجل باندحار الجيش التركى.

لقد تعاون اللنبى وفيصل حينما وضعا خطة لاكتساح الجيوش التركية بكاملها فى الشام تعتمد على السرعة والمباغتة لقطع كل طرق الاتصال بين دمشق وفلسطين.


قلعة حلب التى احتلتها الجيوش العربية فى الحرب العالمية الأولى





ولما كانت "درعا" تمثل عقبة فى طريق اللنبى فقد عهد إلى فيصل بمهمة تحطيم الخط الحديدى بالقرب منها تمهيدا لهجوم كاسح يحول دون الاتصال بين "درعا" "وعمان" وحينما بدأ الهجوم البريطانى فى جبهة فلسطين أخذت المواقع التركية تسقط واحدة تلو الأخرى فى الوقت الذى قامت فيه القوات العربية بمحاصرة درعا وأطبقت على الجيش التركى فى عمان.

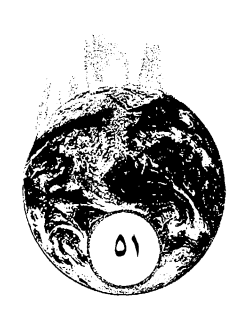
وهكذا تمكنت القوات العربية من احتلال معان (٢٣ سبتمبر ١٩١٨) فى الوقت الذى عبرت فيه القوات البريطانية الأردن واحتلت عمان وأخذ الجيش التركى يتراجع سيرا على الأقدام بعد أن تحطم الخط الحديدى إلى "درعا" التى كانت القوات العربية تحكم سيطرتها عليها وهكذا مضت القوات البريطانية فى طريقها صوب الشمال بينما القوات العربية تحمى جناحها الأيمن فى تعقب الجيش الرابع التركى، وفى الوقت نفسه كانت القبائل العربية تكيل ضرباتها وهجوماتها المباغتة على القوات التركية المتقهقرة بطريقة عشوائية.

وهكذا أصبح الطريق مفتوحا نحو دمشق التى دخلتها قوات الخيالة البريطانية (الأول من أكتوبر ١٩١٨) يتبعها مجموعة من رؤساء القبائل العربية على رأسهم الشريف ناصر ونورى الشعلان، وبعد يومين أتى اللنبى الذى شاهد عن بعد علم ملك الحجاز يرفرف على بلدية دمشق إيذانا بنهاية الحكم التركى عن هذه المدينة العربية.

واللافت للنظر حرص الإدارة البريطانية على أن يكون العرب فى مقدمة القوى التى تدخل دمشق لمعرفتهم بقوة العاطفة التى تجيش فى نفوس سكانها من جراء هذه اللحظة التاريخية.

لقد شعر الفرنسيون بقدر من المرارة، حيث ترك للعرب مهمة إدارة مدينتهم، كما لو أن بريطانيا قد تراجعت عن تقديرها للمصالح الفرنسية مما ضاعف من نمو المشاعر العربية الجياشة، وبدا الأمر وكأن الثورة العربية قد انتصرت وتوجت انتصارها بالاستيلاء على الشام.

وعقب دخول فيصل دمشق فى الثالث من أكتوبر ومعه ١٢٠٠ من أتباعه على ظهور خيولهم وسط ابتهاج الأهالى كان اللنبى قد تلقى أخبارا من المعتمد البريطانى فى القاهرة ومن قنصل فرنسا فى مصر ومن مسيو بيكو وجميعهم يطالبون العمل على وقف المشاعر العربية الجارفة وأن يسد الطريق أمام فيصل وأحلامه وعليه أن يتذكر اتفاقية سايكس/ بيكو، لذا فقد بعث فى طلب فيصل حيث استقبله فى فندق فكتوريا بحضور لورانس وأخبره بأن الحرب لم تنته بعد وأن جميع الأراضى التى احتلها إنما تعتبر من أراضى العدو، لذا فإن بريطانيا مسئولة عن إدارتها وأنه تلقى تعليمات من حكومته بالسماح للفرنسيين بالسيطرة على المنطقة غربى دمشق وحلب (بيروت



ولبنان) ثم أخذ اللنبى يشــرح لفيصل أن المنطقة التى تضــم دمشق وحمص وحماة وحلب (المنطقة أ) سوف تكون تحت حـماية فرنسا، التى تعهدت بأن تقيم فيها دولة عربية مستـقلة وأنه على استعداد للاعتراف بإدارة عربية تحت إمرة فيصل كممثل لوالده الملك حسين وذلك فى الأراضى الواقعة شرق نهر الأردن من العقبة إلى معان ودمشق

وعندما احتج فـيصل على أى سيطرة لفرنسا عــلى الشام أصر اللنبى على أهميــة إطاعة أوامره وتنفيــذها بصفته القــائد العام وعلى فيصــل قبول الأمر الواقع لحين عقد مؤتمر الصلح.

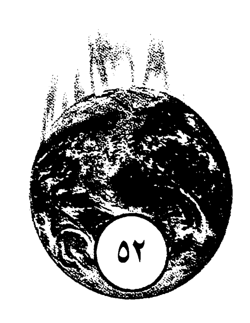
لقد راحت الإدارة العسكرية البريطانية تلح على اللنبــى لكى يحتل بقية الشام وقد تم ذلك قبل نهاية أكتوبر نتـيجة لحركتين حربيتين سارت الأولى على طول الساحل عـبر صور وصيدا إلى بيروت وطرابلس وسلكت الثانية الطريق الداخلى عبر حمص وحماة وحلب ولم يكن للعرب دور فى الأولى وإنما كان لهم نصيب وافر فى الثانية.

كان التقدم على الساحل بمثابة نزهة عسكرية حيث تقدمت القوات من حيفا وعكا ومن عكا شمالا نحو صور ثم صيدا وانتهت باحتلال بيروت ثم طرابلس بلا مقاومة، أما الهجوم من دمشق إلى حلب فقــد واجه صعــوبات بالغة بســبب إرهاق القوات وصعــوبة تدبير المؤن وانتــشار المرض واحتشاد قوات كبيرة من الترك المنسحبين على الطريق إلا أن تعاون العرب والبريطانيين سهل مهمة احتلال المدينة (٢٦ أكتوبر).

وفى التاسع والعشرين من أكتوبر احتلت قوات الشريف ناصر محطة المسلمية ملتقى السكك الحديدية التى تتفرع إلى الآســتانة وسوريا والعراق التى كانت بمثابة آخر مركـز تحتله قوات الحلفاء شمالا لأن تركيا وقعت فى اليوم التالى هدنة مدروس Mudros .

وإذا كان الشريف قد قــدم خدمة جليلة إلى بريطانيا وحلفائها لأنه قد أضــاع على تركيا ما كان من المتوقع أن ينجم عن إعلان الجهاد المقدس أو لأن القوات العــربية قد حاربت ببسالة ورغبة قوية فى النصر، على الرغم من كل ذلك فقد عمل البعض على التقليل من قيمة ما أسداه العرب فى ميدان الحــجاز والشام فهذا ســير ونجت الذى يرى أن ثورة العرب لم تكن لها أهمــية عسكرية تذكر وأنها كــانت ثورة سياســية احتضنتهــا بريطانيا لمواجهة المركــز الدينى للأتراك والذى كان من الممكن أن يؤثر على ولاء مائة مليون مسلم من رعايا بريطانيا.

وهذا الفرنــسى بيرون Biron يرى أن ثورة العــرب لم يكن لها أثر يذكــر على العملــيات الحربية فى الشام. ورغم هذه الآراء التى حركتها دوافع سياسية خالصة والتى استهدفت التقليل من



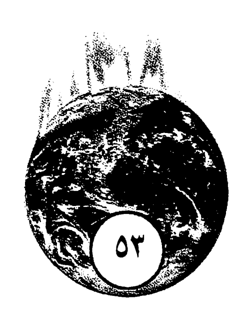
أهمية الثورة وعملياتها التى حددت مصير الحرب رغبة فى إضاعة الفرصة على العرب لحصاد ثمار ثورتهم إلا أن هناك من لم يستطع إنكار الحقيقة فهذا ويفل Wavell يؤكد أن الثورة قد قدمت خدمة هائلة إلى بريطانيا لأنها شغلت جانبا كبيرا من التعزيزات التركية وحولتها إلى الحجاز، كما حمت ميمنة القوات البريطانية أثناء تقدمها فى فلسطين إضافة إلى أنها قد وضعت حدا للدعاية الألمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية وأضاعت الفرصة نحو إقامة قاعدة للغواصات الألمانية فى البحر الأحمر.

وفى أحد التقارير التى رفعها اللنبى إلى قيادته (أكتوبر ١٩١٨) أكد أن الجيش العربى قد أسدى خدمة عظيمة حينما نجح فى قطع مواصلات الأتراك قبل القتال، كما عاوننا كثيرا أثناء الزحف جنوب دمشق وأنزل بالعدو خسائر فادحة.

وعموما فقد قدم العرب خدمة كبيرة وأبلوا بلاءً هائلا، حيث أخرجوا الترك من الحجاز، وبذلك ضمنت بريطانيا تأمين سواحل البحر الأحمر كما نجح العرب فى احتلال العقبة، معان، درعا ثم تقدموا صوب دمشق مما شجع الضباط والجنود العرب على التخلى عن مراكزهم فى الجيش التركى كما أن القبائل العربية فى الشام أمنت ظهر القوات البريطانية والفرنسية مما جعل الترك يشعرون بأنهم يقاتلون فى محيط من العداوات بعكس البريطانيين والفرنسيين.



البحرية الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى





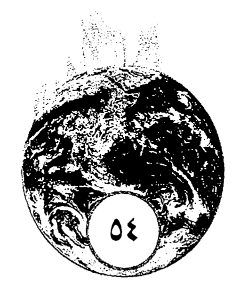
لقد حرصت بريطانيا، منذ فترة مبكرة من القرن التاسع عشر على أن تدعم نفوذها على العراق، ولقد فطنت الحكومة التركية إلى ذلك إلا أن الحرب العالمية الأولى كانت فرصة سانحة للإنجليز، وأشارت العديد من التقارير سواء من العسكريين أو السياسيين البريطانيين إلى أهمية القيام بعمل عسكرى على رأس الخليج وإنزال قوات عسكرية فى شط العرب حماية لمؤسسات النفط.

وفى منتصف أكتوبر ١٩١٤ قدم البريجادير دالمين Dalmain على رأس قوة عسكرية من بومباى بعد أن صدرت إليه التعليمات بحماية أنابيب نفط الأهواز ومصافيه فى عبدان والتأكيد على مساندة بريطانيا للزعماء العرب الساخطين على الدولة العثمانية واتخذت هذه القوات من البحرين قاعدة لها.

وبدخول تركيا الحرب توالت الإمدادات من الهند حيث تمكنت القوات العسكرية البريطانية من احتلال البصرة(٢٣ نوفمبر ١٩١٤) وحرصا من الإدارة العسكرية الجديدة على كسب ود الأهالى فقد أذاع سير برسى كوكس percy cox كبير الضباط البريطانيين بيانا باللغة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية لا تحمل أية ضغينة ضد الأهالى وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والعدالة فى ظل الإدارة البريطانية طالما وقفوا على الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا.

واللافت للنظر أن القوات البريطانية لم تحاول أن تطلب من أهالى العراق الوقوف إلى جانبها كما لم تقدم وعدا محددا للسكان قد يغضب حلفاءها قبل تقرير مصير الشرق العربى إضافة إلى أن حكومة بومباى كانت ترى عدم استخدام العرب ضد السلطان العثمانى حتى لا يثير ذلك سخط العناصر الإسلامية فى الهند ضد البريطانيين.

لقد كانت بريطانيا تعلم أن الحركة القومية فى العراق قوية وأنها على علاقة بالحركة فى سوريا لذا فقد تخوفت السلطات البريطانية من تشجيع المد القومى خوفا من نمو المشاعر الوطنية التى تضر بمصالح بريطانيا التى لم تكن قد اتفقت بعد مع الشريف حسين.



لقد حشدت قوات بريطانية كبيرة قاتلت بعنف إلى أن تمكنت من احتلال الناصرية(٢٥ يوليو ١٩١٥) ثم أعقبها احتلال البصرة وحماية النفط.

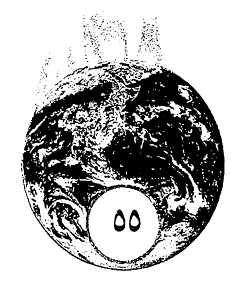
وعلى الرغم من أن المسئولين العسكريين كانوا يرون الاكتفاء بهذا النصر مؤقتا إلا أن السياسيين كان من رأيهم التقدم لاحتلال بغداد وأسندت قيادة الحملة إلى القائد البريطانى تاوتسند وتقدمت القوات صوب المدائن ودارت معركة شرسة لقى فيها البريطانيون هزيمة مريرة (٢٢ نوفمبر ١٩١٥) وتقهقرت القوات إلى الكوت حيث حاصرها الترك بقيادة الضابط الألمانى الشهير جولتز Goltz الذى شدد الحصار على البريطانيين حتى اضطرهم إلى التسليم ووقع فى الأسر ما يزيد على اثنى عشر ألفا من القوات البريطانية.

لقد كان لهذه الهزيمة أثر سيئ على البريطانيين، الذى دفعوا إلى قيادة العمليات العسكرية بمجموعة من القواد صغار السن لذلك تولى قيادة جبهة العراق الجنرال مود Maude الذى تمكن من استعادة كوت العمارة فى (٢٤فبراير ١٩١٧) وفى الحادى عشر من مارس سقطت بغداد فى يده وأذاع بيانا باللغتين العربية والإنجليزية دعا العراقيين إلى المساهمة فى إدارة شئونهم المدنية.

لقد جاء بيان القائد البريطانى "مود" خاليا من أى التزام تجاه العراقيين فهو لم يشر إلى استقلال العراق ولم يعدهم بشىء فى المستقبل فى الوقت الذى تسلم فيه من حكومته خطابا يوضح ما توصلت إليه الحكومتان البريطانية والفرنسية فيما عرف باتفاق سايكس بيكو وطالبته حكومته بإقامة حكم بريطانى فى ولاية البصرة ونظاما عربيا تحت حماية بريطانية فى ولاية بغداد ونظاما عربيا آخر تحت حماية فرنسا فى ولاية الموصل.

وعلى الرغم من أن اتفاق سايكس/ بيكو لم يكن قد أذيعت تفاصيله بعد إلا أن العراقيين لم يرحبوا بالقوات البريطانية ولم يفلح البريطانيون فى استغلال هذه الانتصارات للتأثير على مشاعر العراقيين والحركة العربية كما حدث فى الشام الذى اختلفت فيه الأوضاع كثيرا، حيث كانت القوات العربية تقاتل جنبا إلى جنب مع القوات البريطانية وكان الأمير فيصل قد تمكن من التمهيد لهذه العمليات من خلال حوار لم ينقطع مع القوميين الذين اعتقدوا أن بريطانيا تقاتل حفاظا على حقوقهم، التى لا تتعارض مع أهداف الحلفاء وهو ما لم يحدث فى العراق.

لقد كان تركيز الترك على الجبهة الفلسطينية مشجعا للجنرال مود على متابعة انتصاراته فى العراق رغم ما تكبده من خسائر فى سبيل احتلال" الرمادى" إلا أنه توفى فى ١٨ نوفمبر ١٩١٧



متأثرا بالكوليرا وخلفه الجنرال مارشال Marshall الذى واصل انتصاراته فى الفرات الأوسط وتقدم شمالا فاحتل كركوك (٧ مايو ١٩١٨).

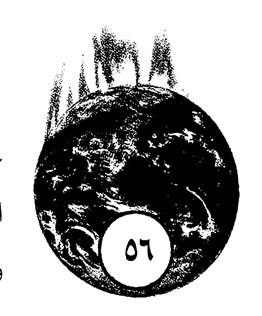
ومع بداية أكتوبر ١٩١٨ أخذت العديد من الدلائل لتؤكد انتصار الحلفاء على معظم الجبهات العسكرية، حيث تلقى مارشال أنباء من حكومته بخروج بلغاريا من الحرب وأن دمشق قد سقطت فى أيدى الحلفاء مما يرجح طلب الأتراك عقد هدنة مما يوجب التقدم صعودا مع نهر دجلة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه القوات البريطانية، كما طلب من مارشال سرعة إرسال قوات إلى حلب لمساندة اللنبى، لذا فقد سارع مارشال بتنفيذ التعليمات التى تلقاها، فتقدم صوب الموصل وقبل أن يصل إلى مشارفها علم بعقد هدنة مدروس (٣٠ أكتوبر ١٩١٨) ووقف القتال فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ومع ذلك فقد تقدمت القوات البريطانية واحتلت الموصل بعد أسبوع من عقد الهدنة.

أما فى اليمن فقد ظل الحكم العثمانى قائما حتى نهاية الحرب وبعقد هدنة مدروس مع الترك ذهب سعيد باشا قائد القوات التركية فى لحج إلى عدن، حيث استسلم هو وجنوده وتبع ذلك تجمع القوات التركية من أنحاء اليمن فى الحديدة حيث تسلمهم البريطانيون كأسرى حرب وتم نقلهم إلى مالطة ثم الأناضول.

وفى الكويت فقد أصدرت بريطانيا فى الثالث من نوفمبر ١٩١٤ تبليغا إلى الشيخ مبارك أمير الكويت باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية وظلت قطر تحكمها معاهدة (٣ نوفمبر ١٩١٦) والتى تعهد فيها الشيخ عبد الله بن جاسم آل الثانى بألا تكون له علاقات مع وكلاء أية دولة أخرى دون موافقة الحكومة البريطانية.

أما عن بريطانيا وابن سعود فقد أبرما معاهدة(٢٦ ديسمبر ١٩١٥) اعترفت بريطانيا باستقلال ابن سعود فى الأقاليم التى تتكون منها إمارته (نجد والحسا والقطيف وملحقاتها) مقابل تعهده بعدم إبرام أى اتفاق مع أية دولة أجنبية وألا يتنازل عن شىء من أراضيه لدولة أجنبية أو أحد رعاياها كما تعهد بفتح الطرق التى تمر ببلاده والمؤدية إلى الأماكن المقدسة وأن يحمى الحجيج فى مرورهم من وإلى الأماكن المقدسة كما تعهد بعدم الاعتداء أو التدخل فى شئون الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان تلك المناطق التى كانت تحت حماية بريطانيا.

لقد قدرت بريطانيا موقف ابن سعود على الرغم من أنه لم يعلن الحرب على الأتراك إلا أنه كان يحارب آل رشيد الموالين لهم كما أنه رفض الاستجابة لدعوة الجهاد والتى نادى بها السلطان العثمانى كما امتنع عن مهاجمة الشريف حسين طوال فترة الثورة.

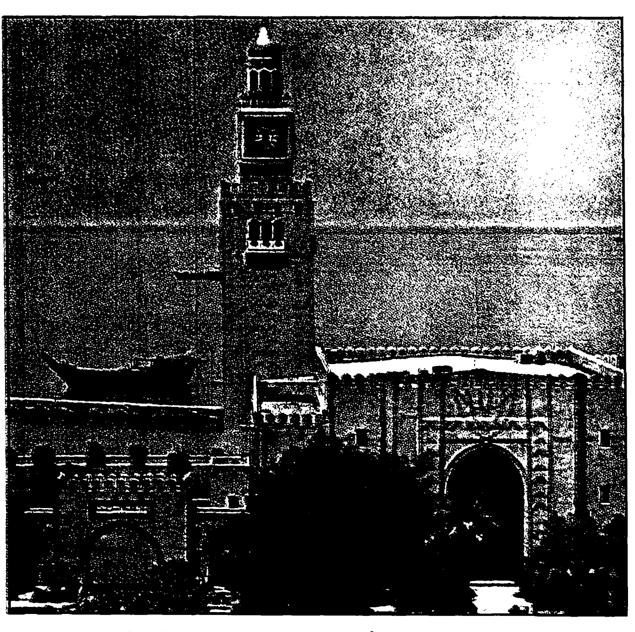


اتفاقية سايكس/ بيكو وخداع العرب

لم يكد السير هنرى مكماهون ينجز ما توصل إليه مع الشريف حسين بشأن الثورة العربية إلا وكانت هناك مباحثات من جانب آخر تتم فى الخفاء بين بريطانيا وحليفتيها فرنسا وروسيا بشأن مصير الممتلكات العثمانية ومن بينها بلاد الشرق العربى الآسيوى.

ولعل من المناسب الإشارة إلى الظروف التاريخية التى نجمت عنها اتفاقية سايكس/ بيكو، حيث كانت روسيا تشعر بقدر كبير من القلق إذا ما قررت الدولة العثمانية دخول الحرب بجانبى دولتى الوسط، لذلك أعلنت أنها فى حالة النصر سوف تحترم استقلال الدولة العثمانية لإغراء الأخيرة على التمسك بسياسة الحياد وإثنائها عن دخول الحرب وحينما قررت الدولة العثمانية دخول الحرب أعلن الروس أن هدفهم من الحرب هو بسط سيطرتهم على الآستانة والمضايق.

ومنذ يناير ١٩١٥ أخذ الترك يشددون الضغط على الروس فى جبهة القوقاز، لذا فقد استنجد الروس بحلفائهم بفتح جبهة ثانية تشغل القوات التركية ومن هنا ظهرت فكرة اقتحام الحلفاء للدردنيل وإرسال حملة غاليبولى، وخلال الفترة ما بين محاولة اقتحام الدردنيل ونزول قوات الحلفاء فى غاليبولى (٢٥ إبريل ١٩١٥) نجح الروس فى أن ينتزعوا من حلفائهم اعترافا صريحا بحقهم فى الآستانة والمضايق.


قصر السيف الذى أمر ببنائه الشيخ مبارك الكبير

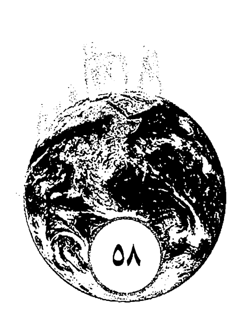
لم تكن بريطانيا راضية تماما عن المطالب الروسية إلا أنها قد اضطرت إلى الموافقة بسبب الاضطرابات التى كانت تمر بها روسيا والتى تزعمها بعض الموالين لألمانيا وشعر البريطانيون بخطر انتزاع روسيا من صفوف الوفاق، بينما أخذت الحكومة الروسية تلح من أجل عقد اتفاق بخصوص الآستانة والمضايق، أما فرنسا فمقابل اعترافها بمطالب روسيا أخذت تطالب بضم الشام حتى جبال طوروس،



وتحت إلحاح روسيا بالاعتراف بحقها فى الآستانة والمضايق لم يكن باستطاعة بريطانيا وفرنسا قبول هذه المطالب بدون امتيازات موازية لهما تضمن تحديد مصير بريطانيا وفرنسا فى الأملاك العثمانية.

لقد كانت لبريطانيا أطماع واسعة فى العالم العربى لذا فقد أخذت فى دراسة المطالب الفرنسية ولم تتسرع فى الاستجابة بعقد اتفاق مع فرنسا لأنها لم تكن قد انتهت بعد من محادثتها مع الشريف حسين؛ تلك المحادثات التى لم تكن تعلم بها الإدارة الفرنسية مما أثار استياء عميقا لدى الفرنسيين لأن وجود دولة عربية كبيرة على أنقاض الإمبراطورية العثمانية سوف يهدد مصالح فرنسا فى شرق البحر المتوسط وسوف يثير الاضطرابات فى شمال أفريقيا تعاطفا مع الدولة العثمانية.

تقسيم سورية والعراق
حسب اتفاقية (سايكس بيكو) سنة ١٩١٦



وتحت ضغط الحكومة الفرنسية أخذت بريطانيا تحدد أهدافها فى المنطقة وقرر إسكويث رئيس وزراء بريطانيا تكوين لجنة من خبراء وزارة الخارجية لتحديد مطالب بريطانيا فى أملاك الدولة العثمانية وقد انتهت اللجنة من دراستها وقدمت تقريرها إلى الخارجية البريطانية (٣٠ يونيو ١٩١٥) حيث أوصت اللجنة بمعارضة طلب فرنسا إدخال فلسطين ضمن منطقة النفوذ الفرنسى فى الشام ورأت اللجنة أن فلسطين يجب أن يتقرر مصيرها وفق مفاوضات تشترك فيها أطراف عديدة.

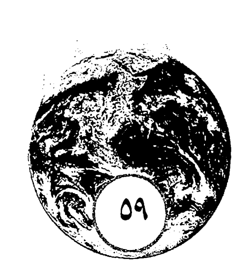
وعلى الرغم من أن بريطانيا حاولت إثناء حليفتها عن الدخول فى مفاوضات أثناء الحرب وإرجاء ذلك إلى ما بعد تحقيق النصر إلا أن فرنسا أصرت على الدخول فى مفاوضات لكى يحدد كل طرف مصالحه بعناية أسوة بما تم مع روسيا، التى حصلت على القسطنطينية وكل أراضى الدولة العثمانية فى أوروبا حتى خط أينور كما حصلت فى آسيا الصغرى على امتداد الساحل من نهر سقاريا إلى نقطة عند خليج أزمير ثم الجزر الواقعة فى بحر مرمرة وكذلك جزيرتى تنيدوس وأميروس فى بحر إيجة ويعرف هذا الاتفاق باتفاق القسطنطينية (٨-١٥ مارس).

ولما كانت روسيا قد حصلت على حصتها فقد بدأت فرنسا وبريطانيا فى تقسيم بقية ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينهما وهى المفاوضات التى نجم عنها ما عرف باتفاقية سايكس/ بيكو.

لقد بدأت المفاوضات فى لندن (نوفمبر ١٩١٥) وكان يمثل فرنسا جورج بيكو Picot أما بريطانيا فقد مثلها فى البداية سير أرثر نيكولسون Nicholson الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ثم سير مارك سايكس Sykes وتمخضت المفاوضات عن الاتفاقية التى عرفت باسم اتفاقية سايكس/ بيكو.

لقد رسم المندوبان البريطانى والفرنسى مشروعا يحدد المناطق التى ترغب بريطانيا وفرنسا فى الحصول عليها من أملاك الدولة العثمانية وبعد أن توصلا إلى مسودة مشروع أوشكت ملامحه أن تكتمل، صدرت إليهما الأوامر بالتوجه إلى بطرسبرج (ليننجراد) ليبحثا مقترحاتهما مع الحكومة الروسية واجتمع ممثلو الدول الثلاث (١٥ مارس ١٩١٦) حيث توصلوا إلى تفاهم ثلاثى حدد بمقتضاه المناطق التى ترغب كل دولة من تلك الدول الثلاث فى أن تعترف لها بها زميلتاها كمنطقة لنفوذها وانتهت المفاوضات بإعداد مشروع يمثل نص الاتفاق على النحو التالى:

أولا: تبدى بريطانيا وفرنسا استعدادهما للاعتراف بدولة عربية مستقلة أو اتحاد بين الدول العربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين:



أ- داخلية الشام ب- داخلية العراق، المبينتين بالخريطة المرفقة بالاتفاقية، ويكون لفرنسا فى المنطقة (أ) ولبريطانيا فى المنطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية والانفراد بتقديم المستشار ين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو اتحاد الحكومات العربية.

ثانيا: يسمح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (ساحل الشام)ولبريطانيا فى المنطقة الحمراء (العراق الأدنى جنوبى بغداد) بإنشاء ما تريان إنشاءه من إدارة مباشرة بعد الاتفاق مع الحكومة العربية أو اتحاد الحكومات العربية.

ثالثا: تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يحدد شكلها بعد استشارة روسيا وبقية الحلفاء وممثلى شريف مكة.

رابعا: تحصل بريطانيا على مينائى حيفا وعكا.

لقد تحددت منطقة النفوذ الفرنسى (التى لونت باللون الأزرق) والتى ضمت الساحل السورى من رأس الناقورة جنوبا حتى الإسكندرونة شمالا وكانت كل هذه المنطقة الساحلية للنفوذ الفرنسى (حكما مباشرا) هذا إلى جانب المنطقة "أ" داخل الشام والتى تضم الموصل ودمشق وحمص وحماة وحلب وتكون تحت النفوذ الفرنسى غير المباشر أما منطقة النفوذ البريطانى (ولونت باللون الأحمر على الخريطة) فكانت باستثناء إقليم الموصل الذى دخل فى منطقة النفوذ الفرنسى "أ" تضم أراضى ما بين النهرين بما فى ذلك مدينة بغداد وتخضع للسيطرة البريطانية المباشرة وتمتد حتى الخليج هذا إلى جانب منطقة على ساحل فلسطين (حيفا وعكا).

لعل ما حدث من تواطؤ بريطانى فرنسى يعد وثيقة مروعة تمثل الجشع فى أبشع صوره فالخريطة التى اتفق عليها تكشف عن أخطاء تاريخية وجغرافية، فلقد مزقت الاتفاقية منطقة الشرق العربى الآسيوى بما يضع العقبات المصطنعة فى طريق الوحدة العربية فالنظرة الأولى لإقليمى العراق وسوريا تجدها مستطيلا، أضلاعه الثلاثة الشمالى والشرقى والجنوبى محاطة باليابس بينما يقع ضلعه الرابع الغربى على البحر المتوسط والسكان جميعا يتكلمون العربية وقد اختلفت مظاهر حضارتهم؛ فالذين يسكنون شواطئ البحر المتوسط وحوض دجلة والفرات متقدمون ثقافيا وسياسيا بعكس الذين يقطنون المناطق الداخلية وجميعهم من البدو، وعلى الرغم من الفروق الاجتماعية والدينية فإن السكان متجانسون فى الخصائص العامة تربط بينهم اللغة والثقافة وجميعهم متأثرون بالوعى القومى.

ولعل من الملاحظ أن المنطقة التى اتفق على إخضاعها للسيطرة الأجنبية المباشرة كانت أكثر رخاء وتقدما من المناطق الداخلية، التى تقرر أن تقام فيها الدولة العربية، التى تتمتع بقسط من الحكم الذاتى وكأنما أرادت الدولتان - بريطانيا وفرنسا - أن تضمنا عدم وجود أى خطر على مصالحهما فى الشرق فى المستقبل حتى ولو قدر للأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتى أن تنال استقلالها الكامل.

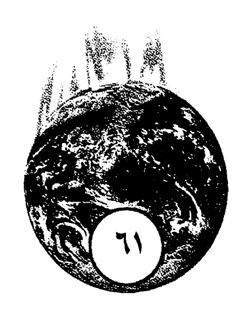
وأخطر من ذلك كله ما تمثله الاتفاقية من نقض للعهود، حيث تمت المفاوضات ثم عقدت الاتفاقية فى غيبة الشريف حسين على الرغم مما تتضمنه الاتفاقية من تناقض صريح للشروط التى أبرمها السير هنرى مكماهون مع شريف مكة، لذا فقد ظلت الاتفاقية سرا لأنها تتعارض مع المبادئ التى كان يروج لها الحلفاء بدعوى إقامة العدل والحرية وحق تقرير المصير وهى مبادئ روج لها عقب الحرب العالمية الأولى.

لقد ذكر بلفور أن اتفاقية سايكس/ بيكو تعد متعارضة مع جميع المبادئ والأفكار التى جاءت بها عصبة الأمم والتى تنص على أنه "إذا أمددنا مجموعة من الأهالى المتفقين فى اللغة والدين بشىء من المعونة وكثير من النصح فإنهم سوف ينتظمون كدولة ديمقراطية على الأسس الحديثة".

لقد قامت هذه الاتفاقية التى تناقض كل القيم الدولية على أساس تصفية الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها بين الدول الأطراف فى هذه المعاهدة وهو تقسيم روعى فيه مبدأ توازن القوى فى حوض البحر المتوسط عموما والجزء الشرقى منه على وجه الخصوص وذلك عندما خشيت الدول أن يفضى استيلاء روسيا على المضايق والقسطنطينية إلى تحطيم هذا التوازن ليس فى البحر المتوسط فقط وإنما فى أوروبا كذلك.

لقد وجدت بريطانيا وفرنسا أن من الممكن دفع هذا الأذى إذا نالت كلاهما قسما من أملاك الدولة العثمانية يوازى فى قيمته السياسية والإستراتيجية المزايا التى سوف تفيدها روسيا من ضم القسطنطينية والمضايق إليها. ولقد بدا واضحا كيف أن ظروف الحرب كانت الدافع الذى حرك هذه الدول للسير فى سياسة التقسيم وجعل البريطانيين يتخلون عن سياستهم التقليدية القديمة إزاء الدولة وهى المحافظة على كيانها ويرضون باختفاء الإمبراطورية العثمانية من الوجود تماما.

لم يكن هناك ما يدعو إلى نقمة العرب فقد كان غايتهم أن يقضوا على الإمبراطورية العثمانية وأن يتحرروا من سلطانها واستهدفت مراسلات (الحسين - مكماهون) إعلان الثورة على



الدولة العثمانية ولم يكن العرب القوميون فى حماسهم يقلون عن بريطانيا رغبة فى القضاء على الدولة العثمانية.

لقد اشترط العرب أن يتقاضوا ثمن ثورتهم بإنشاء دولة عربية وخلافة عربية منفصلة عن الخلافة العثمانية، ثم ما لبث العرب أن اكتشفوا أنهم وقعوا فى خدعة كبيرة عندما أذيع نص اتفاق سايكس/ بيكو، حيث نشره الروس فى نوفمبر ١٩١٧، وعلق عليه تروتسكى قوميسير الشئون الخارجية السوفيتية قائلا: "إن كل الاتفاقيات السرية قد صارت الآن تحت يدى وأن بنود هذه الوثائق أسوأ مما توقعنا وسوف نلقى بها فى سلة المهملات".

وعلى الرغم من أن الشريف حسين قد وقف على حقيقة الموقف واكتشف أنه دفع ثمنا باهظا دون مقابل وأن كل ما اتفق عليه مع مكماهون لم يكن إلا من قبيل الخداع وعلى الرغم من كل ذلك فإن رد فعله قد اتسم بالضعف والخضوع والاستسلام وترك مصائر البلاد بين أيدى بريطانيا وحليفتها.

لعل الترك قد تصوروا أن بالإمكان إعادة العرب إلى الحظيرة العثمانية بعد أن انكشفت نوايا الإنجليز، ومن أجل ذلك بعث جمال باشا برسالتين (٢٦ نوفمبر ١٩١٧) إحداهما إلى الأمير فيصل والثانية إلى جعفر باشا العسكرى حيث قدم جمال باشا عرضا (نيابة عن العثمانيين) يقضى بعقد صلح عربى تركى وعندما علم الشريف بأمر العرض التركى طلب من ابنه أن يرد على جمال باشا ردا جافا حتى لا يعاود المحاولة مرة ثانية ثم أحال الخطابين إلى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة طالبا منه توضيح الموقف البريطانى بشأن ما أذاعه الروس حول اتفاق سايكس/بيكو وأحس السير رينالد ونجت بحرج محير، فأحال المسألة إلى وزارة الخارجية التى عكفت على دراسة الموقف وكلفت المستر بلفور (سكرتير وزارة الخارجية) بإعداد رسالة إلى الملك حسين اتسمت بالخداع والالتفاف حول الحقائق والمغالطة، حيث لم تعترف بصحة ما أذاعه الروس ولم تنكره بل قدم بلفور بيانات مضللة عن الاتفاقية مشيرا إلى أن ما قدمه جمال باشا يعد مثالا للدسائس والمؤامرات التركية، التى تستهدف إفساد العلاقة بين بريطانيا والعرب.

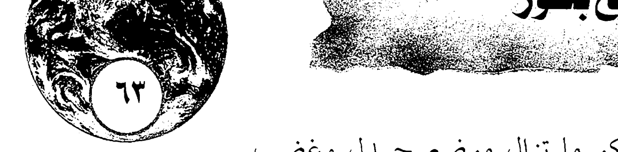
لقد أقنع الشريف نفسه بهذه المبررات الواهية واستمر مستسلما للوعود البريطانية، حتى حينما نشرت صحيفة القبلة (١١ يوليو ١٩١٨) حديث جمال باشا، الذى كشف فيه النقاب عن اتفاقية سايكس/بيكو وقد نشرت القبلة هذا الحديث نقلا عن صحيفة المستقبل التى تصدر فى باريس عندئذ احتج الملك حسين وطلب مرة أخرى تفسيرا من الحكومة البريطانية، التى كلفت



ونجت بالكتابة إلى الشريف (٨ يونيو ١٩١٨)حيث أخذ يؤكد بأن ما أذاعه البلشفيك لا يمثل اتفاقية مبرمة ولكنها عبارة عن محاضر محادثات وتبادل وجهات نظر بين بريطانيا وفرنسا وروسيا جرت فى بدايات الحرب بقصد تجنب الصعوبات فيما يتعلق بالحرب ضد تركيا وأن جمال باشا بدافع الجهل والحقد قد قلب الحقائق وتجاهل مبادئ أساسية فى السياسة البريطانية تستهدف حماية مصالح العرب والدفاع عن حقوقهم ضد بطش الترك وأنهى رسالته بالتأكيد على نوايا بريطانيا العظمى ورغبتها فى الدفاع عن حقوق العرب.

لقد قبل الشريف حسين هذه المرة أيضا المبررات الواهية التى قدمها ونجت ولم يشك إطلاقا فى نوايا صديقته (بريطانيا العظمى).

أما عن موقف الشعب العربى فقد كان أكثر ذكاء وأقدر على تمييز الحقائق وخصوصا بعد أن صدر وعد بلفور (٢ نوفمبر ١٩١٧) والخاص بإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين وانتهز الترك الفرصة وراحوا يكثفون من دعاياتهم لإثارة العرب مستعينين بالخديوى عباس حلمى الثانى خديوى مصر السابق الذى عزله الإنجليز، حيث استدعى من سويسرا كى يتولى الدعاية ضد بريطانيا، كما استدعى إلى الآستانة كثير من المصريين والعرب الذين كانوا يعيشون فى أوروبا وقد أثار ذلك الزعماء السوريين فى القاهرة الذين أعلنوا أن عرب الشام والعراق قد فقدوا ثقتهم فى الحلفاء وليسوا على استعداد للتعاون معهم ما لم يصدر بيان قاطع حول مستقبل الشام والعراق وإلا فإن الحلفاء وملك الحجاز سيخسرون عرب هذه البلاد.





الفصل الخامس
تصريح بلفور

وبينما كـانت اتفاقية سـايكس/ بيكو ما تزال موضع جـدل وغضب شديدين فى كـافة الأوسـاط العربية إلا أنهـا لم تكن الطعنة الوحـيدة التى أصابت الأمة العربية، بل كانت هناك طعنة أخرى وجهت إلى قلب هذه الأمة ما تزال الدماء تسيل من جرائها إلى اليوم وتتـمثل هذه الطعنة فى وعد بلفور الذى أعدته وأخرجتـه الحكومة البريطانية فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧.

لقد أدركت بريطانيا منذ فترة مبكرة أهمية فلسطين بحكم مجاورتها لقناة السويس وأن وقـوعها تحت سيطرة دولة أخرى، حتى ولو كـانت حليفـتهـا فرنسـا سوف يكون تهديـدا خطيرا ودائما لخطوط المواصلات البريطانية، وقد نوه إلى ذلك "هربت صمويل" بحكم أن علاقـة بريطانيا الطيبة بفرنسا قـد لا تستمر طويلا وأن الوجود الفرنسى فى الشام من شأنه أن يهدد مصر و قناة السـويس ومصالح بـريطانيا فى البـحر المتوسـط، لذا فإن إنشاء منطقة حـاجزة فى فلسطين تفصل الشام (الفـرنسية) عن (مصر البريطانية)، تعد مسألة أساسية.

بلفور

لعل من الصـعب أن ننحى جانبـا دور الصهـيونـيين وأثرهم على صناعة القـرار فى وزارة الخارجـية البـريطانيـة، التى وصلت إلى قناعة بأن فـلسطين هى بمثابة حـجر الزاوية فى المصـالح البريطانية لأهميتها الإستراتيجية.

وسواء كان للصـهيونية العـالمية دور فى توجيه السـياسة البريطانيـة أو لأن بريطانيا أدركت ارتباط مصـالحها بالمصالح الصهيـونية فقد فطنت الصهيـونية إلى أهمية ارتباطهـا ببريطانيا فى هذه الفترة التاريخية ولذلك كتب الزعيم الصـهيونى وايزمان (١٠ أكتوبر ١٩١٤) وقبل أن تدخل تركيا الحرب قـائلا: "إن خططى تقوم على أسـاس أن الحلفاء سـوف يكسبـون الحرب.. ولا شك أن فلسطين سوف تكون من نصيب بـريطانيا، باعتبارها امتـدادا طبيعيا لمصر ولابد من وجـود حاجز



يفصل قناة السويس عن البحر الأسود وفى حالة توقع خطر من هذا الجانب فإن هذا الحاجز سيكون بمثابة بلجيكا الآسيوية وخاصة إذا شملها التقدم على أيدى اليهود وإذا ما أتيحت لنا الفرصة فإننا نستطيع أن ننقل مليون يهودى إلى فلسطين خلال الخمسين أو الستين عاما القادمة وبذلك يتوفر لبريطانيا حاجز ويتوفر لنا وطن.

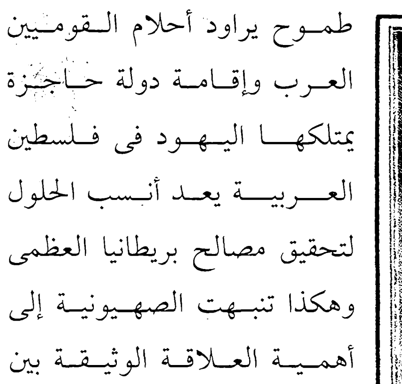
لقد أخذت الصحف البريطانية ذات الصلة بالحركة الصهيونية (المانشستر جارديان) تروج لفكرة أن إقامة مليون يهودى أو أكثر تعد وسيلة هامة لحماية قناة السويس وهى نفس الأفكار التى طرحها وايزمان وعمل على الترويج لها.

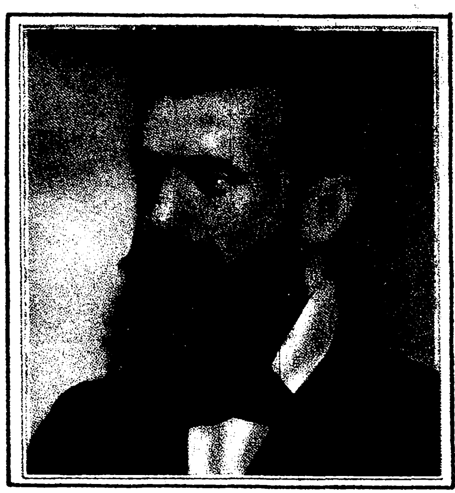
وفى بدايات عام ١٩١٥ كانت الخارجية البريطانية قد ازدادت قناعة بأفكار وايزمان فيما يتعلق بفكرة الدولة اليهودية الحاجزة بين الشام الفرنسية ومصر البريطانية، لذا نجحت السياسة البريطانية فى تقرير تدويل فلسطين فى اتفاقية سايكس/ بيكو ولعل العديد من العوامل كانت وراء الموقف البريطانى وفى مقدمتها محاولة التأثير على العناصر الصهيونية القوية فى ألمانيا والنمسا وهى العناصر التى كانت تفاوض دول الوسط لكى تصدر "وعدا" تركيا مشابها لوعد بلفور يكون سببا كافيا لتعاطف يهود العالم مع الحلفاء وخصوصا فى روسيا حيث كان اليهود ضالعين فى قلب النظام القيصرى وكانت بريطانيا تستهدف كسب تعاطفهم لكى تبقى روسيا فى صف الحلفاء.



قبة الصخرة - القدس

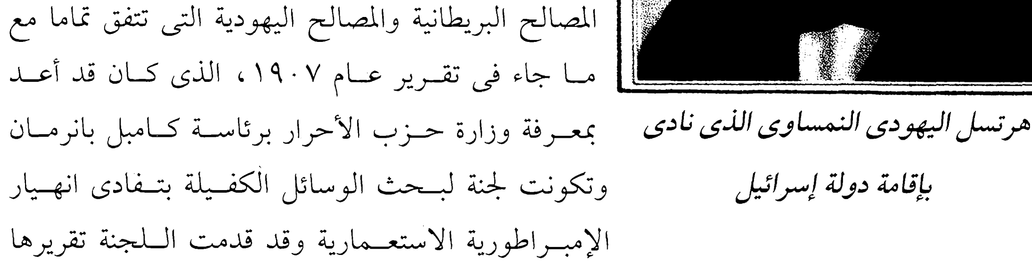
ولعل السياسة البريطانية قد أدركت أهمية مصالحها الإستراتيجية فى المنطقة، تلك المصالح التى تتعارض مع إقامة دولة عربية كبرى وخصوصا إذا ما كانت مصر جزءا من هذه الدولة التى يتعارض قيامها مع المصالح البريطانية فى المنطقة، ومن المؤكد أن خبرة الدبلوماسية البريطانية فى المنطقة العربية قد أكسبتها معرفة كاملة بمعنى التقاء - بغداد - دمشق - القاهرة فى مشروع عربى





هرتسل اليهودى النمساوى الذى نادى بإقامة دولة إسرائيل

طموح يراود أحلام القوميين العرب وإقامة دولة حاجزة يمتلكها اليهود فى فلسطين العربية يعد أنسب الحلول لتحقيق مصالح بريطانيا العظمى وهكذا تنبهت الصهيونية إلى أهمية العلاقة الوثيقة بين المصالح البريطانية والمصالح اليهودية التى تتفق تماما مع ما جاء فى تقرير عام ١٩٠٧، الذى كان قد أعد بمعرفة وزارة حزب الأحرار برئاسة كامبل بانرمان وتكونت لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بتفادى انهيار الإمبراطورية الاستعمارية وقد قدمت اللجنة تقريرها



الذى ظل منسيا حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حينما نشره صحفى بريطانى صهيونى فى معرض الدفاع عن فكرة قيام دولة صهيونية فى فلسطين كضرورة سياسية حفاظا على مصالح بريطانيا فى الشرق. وقد أشار التقرير إلى الخطر الذى يهدد الاستعمار فى الشرق والذى يتمثل فى السواحل الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط وخصوصا فى الجسر البرى الضيق الذى يصل آسيا بأفريقيا وتمر فيه قناة السويس وجاء فى التقرير أن ضربة قاصمة سوف تحل بالإمبراطورية الاستعمارية إذا ما تحرر الشعب العربى ولا سبيل لتفادى ذلك إلا بالعمل على تجزئة المنطقة ومحاربة فكرة اتحاد سكانها وأوصى التقرير بضرورة فصل الجزء الأفريقى من المنطقة عن جزئها الآسيوى بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى بحيث تشكل فى المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة حليفة للاستعمار.

اللافت للنظر أن بريطانيا قد أدركت منذ هذه الفترة المبكرة خطورة الوحدة العربية على مصالحها كما أدركت أيضا خطورة الامتداد الهائل للمسلمين، الذين تترابط بلادهم جغرافيا؛ لذا فقد حرصت على أن تدق إسفينا آخر فى قلب العالم الإسلامى فى العراق فقد كتب أرنولد ولسن (نائب المندوب السامى البريطانى فى العراق) إلى وزير الهند فى ١٠ ديسمبر ١٩١٨ قائلا: "لقد استطعنا باحتلال العراق أن ندق إسفينا فى العالم الإسلامى وبذلك منعنا تجمع المسلمين ضدنا ويجب أن تكون سياستنا بعد الحرب قائمة على الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسيا فى أى من بلاد العالم العربى أو العالم الإسلامى".

وعلى الرغم من أن فكرة الدولة العربية كما جرت فى محادثات الشريف حسين/ مكماهون كانت مجرد خديعة ووسيلة غير أخلاقية تعرف بريطانيا مسبقا أنها لن تتحقق إلا أن السياسة البريطانية قد حرصت على فصل العراق ومصر عن هذه الدولة التى كانت تراود الشريف حسين كما كانت تراود القوميين العرب.

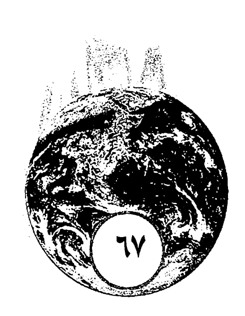
إذا كان البعض قد حصر دوافع بريطانيا من وراء تصريح بلفور فى عامل أو اثنين إلا أنه من المناسب إرجاع موقف السياسة البريطانية إلى عوامل كثيرة بعضها يتعلق بظروف الحرب وما واكبها من تناقضات فى السياسة الدولية ثم ظروف التحول فى روسيا وما نجم عنه من تداعيات كثيرة فى سياستها الخارجية إضافة إلى الضغط على اليهود الألمان الذين كانوا يمثلون عامل ضغط هائل على السياسة الألمانية كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتشكل رؤية إستراتيجية اعتبرتها الخارجية البريطانية بمثابة عوامل متجانسة من الصعب الفصل بينها تشكل فى مجملها مصالح بريطانيا العظمى فى الشرق العربى.

حالة من الغليان فى الأوساط العربية

لقد خلق وعد بلفور حالة من الفزع فى العالم العربى فاق كثيرا حالة الإحباط التى نجمت عن اتفاقية سايكس/ بيكو التى استطاعت الدبلوماسية البريطانية أن تخفف من وطئتها من خلال التصريحات الكثيرة التى أدلى بها مسئولون بريطانيون فى محاولة مستميتة للدفاع عن السياسة البريطانية، التى تحاول روسيا وتركيا أن تخلق جوا من التوتر وسوء الفهم بين بريطانيا والعرب، وقد انطلت هذه الدعايات والأكاذيب على بعض العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين.

أما وعد بلفور بصيغته القاطعة وبمسئولية بريطانيا عنه فقد كان من الصعب إقناع العرب بأية مبررات تجعل منه مشروعا مقبولا.

لقد طلب الملك حسين من بريطانيا تعريفا لمعنى كلمة "الوعد" وبعثت إليه الخارجية البريطانية القائد هوجارث (من المكتب البريطانى فى القاهرة) فوصل جدة فى الثانى من يناير ١٩١٨ وقد حاول تهدئة الملك وتبديد مخاوفه وأبلغه صراحة بأن (الاستيطان اليهودى فى فلسطين لن يكون مسموحا به إلا بقدر ما يتفق مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسة) وهو ما يعد تزييفا متعمدا لنص تصريح بلفور الذى لا يضمن للعرب سوى الحقوق المدنية والدينية ولو أن تصريح بلفور يضمن الحرية السياسية والاقتصادية للعرب وفق تأكيدات هوجارث للملك حسين لما كان هناك معنى لوعد بلفور من أساسه.

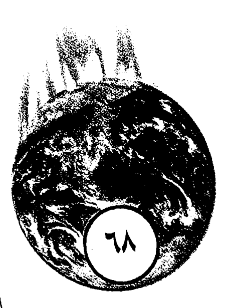


لعل غفلة الملك حسين وعدم تقديره لعواقب الأمور وعدم تفهمه للمعنى القانونى والسياسى لمفهوم وعد بلفور قد أوقعه وأوقع العرب جميعا فى ألاعيب السياسة البريطانية لدرجة أن الرجل قد أبدى تفهما ملحوظا لمبررات المندوب البريطانى هوجارث، بل وأبدى استعدادا لكى يهيئ لليهود ملجأ من الاضطهاد وقطع على نفسه وعدا بأن يبذل كل جهد فى سبيل تحقيق تلك الغاية وقد طمأن هوجارث بأنه قد تفهم وجهة النظر البريطانية ثم مضى الرجل فى خداع نفسه حيث بعث إلى أتباعه فى مصر والشام يخبرهم بأنه قد تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن توطين اليهود فى فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب، الذى كان يعنى من وجهة نظره أن يكون حاكما بصرف النظر عن المنطقة التى سوف يكون حاكما عليها وطالب أتباعه بان يستمروا فى إبداء إخلاصهم لبريطانيا العظمى كما كان يحلو له أن يسميها وأوعز إلى أبنائه ومريديه إلى أن يشيعوا بين الناس بأن الكتب المقدسة والتقاليد العربية توصى بواجبات الضيافة والتسامح وعلينا أن نرحب باليهود إخوانا. . وهكذا نجحت السياسة البريطانية فى تبديد المضمون السياسى لوعد بلفور.

لقد كان الزعماء السوريون المقيمون فى القاهرة على وعى كامل بمعنى التصريح فى شقيه السياسى والقانونى؛ لذا فقد كتبوا برقية احتجاج إلى بلفور يلفتون نظره إلى أن فلسطين جزء حيوى من الشام وهى بمثابة القلب من الجسم ولا يمكن فصلها سياسيا أو اجتماعيا وبمجرد أن تسلم بلفور هذه البرقية طلب من سير مارك سايكس أن يكتب ردا يمثل على حد قول بلفور (وجهة النظر البريطانية) وقد أشار مارك سايكس فى رده إلى الهدف الذى ترمى إليه بريطانيا وهو وضع الحركة العربية فى مكانها المناسب بالنسبة للسياسة العالمية، ثم أشار بشكل صريح إلى أن عدم التوفيق بين الحركة العربية وبين وجهات نظر مختلف الحكومات يجعلها (الحركة العربية) تحرم من العون السياسى الضرورى استمرارا لبقائها بعد الحرب ثم أكد صراحة : "وأنا على يقين بأن تكاتف الصهيونية والقومية العربية سيجعل تحرير العرب أمرا مؤكدا. . . وأن اليهود مستعدون للتعاون مع العرب فى تحرير الشام والأجزاء الباقية تحت الحكم التركى" .

وهكذا اختلطت الأوراق وسط وعود كاذبة وادعاءات متناقضة فى محاولة للتوفيق بين قضايا يستحيل التوفيق بينها.

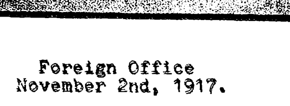
وإذا كان الزعماء السوريون فى القاهرة قد عبروا عن تفهم كامل لمعنى التصريح ودوافعه إلا أنهم، بمجرد أن تسلموا رد مارك سايكس وما أعقبه من تأكيدات كلايتون Clayton (رئيس المخابرات البريطانية) ووايزمان (رئيس البعثة الصهيونية التى ذهبت إلى فلسطين) وجميع هذه التأكيدات تقر بأن الصهيونيين لا يرغبون فى إقامة حكومة يهودية ووقع السوريون فى مصيدة



الخديعة فلم يكن الهدف إقامة دولة يهودية وقتئذ وإنما التمهيد لذلك من خلال فتح باب الهجرة اليهودية وخلق مناخ سياسى واقتصادى يتيح لليهود حرية التملك والإقامة من خلال عمليات هجرة منظمة يعقبها حتما إقامة حكومة صهيونية وهو ما غاب عن ذهن السوريين فى القاهرة.

وعلى الرغم من محاولات السياسة البريطانية متضامنة مع الصهيونية العالمية فى محاولة مستميتة لتبديد مخاوف العرب من تصريح بلفور حتى


حاييم وايزمان


Foreign Office
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothchild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of his Majesty's Government the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by the Cabinet.

His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country.

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

(Facsimile reproduction of)
(the Balfour Declaration)

● وثيقة ●

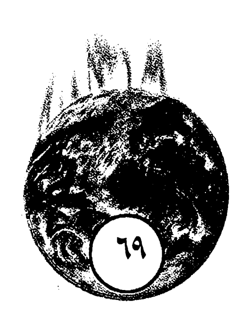
الصيحة الاولى

نداء الى العالم عامة وابناء العرب خاصة

«مفتي فلسطين»

منشور وزع فى دمشق فى عام ١٩١٨

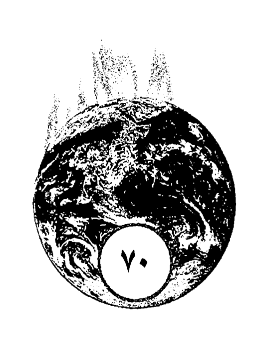
حاييم وايزمان - ووثائق هامة



يتوفر المناخ السياسى المناسب للمشروع، إلا أن وجهة النظر الأمريكية القريبة من الأحداث قد عـبرت عن دهشتهـا من التناقض فى السياسة البـريطانية: اتفاق مع العـرب يتضمن وعـدا بالاستقـلال داخل حدود مـعينة مع بعض التحفظات الغامضة، اتفاق مع فرنسا لاقتـسام الشرق العربى فيما بينهما مما يعد تعارضا واضحا مع العرب ثم وعدا للصهاينة يتعارض مع هذا وذاك.

ولما كانت أهداف كل هذه القوى المتعارضـة تماما فقد كان من أهداف بريطانيا أن ترتبط بكل هذه القوى جميعا لأسباب تتعلق بمصالحها وخصوصا حماية الهند وقناة السويس وهكذا حاولت بريطانيا اللعب على كل الأطراف ومحاولة إرضائها ولا مانع من أن تعد الجميع بما يريد على أمل أن تتمكن فى المستقبل من التوفيق بطريقة ما بين كل هذه المطالب المتـعارضة أو إقنـاع كل طرف على الأقل بجزء مما وعـد به وقبل الهـدنة ببضـعة أيام (٧ نوفمبر ١٩١٨) صدر تصريح بريطانى فرنسى مشترك تضمن تعهدات تتعلق بمستقبل الأقطار العربية وهو واحد من الـتصريحـات التى لم يكف الحلفاء عن الـتصريح بهـا حينمـا تتأزم الأمـور حيث تضمن: " التحرير التام،و النهائى للشعـوب التى طال اضطهاد الترك لها وإقامة حكومات وإدارات قومـية تستـمد سلطتـها من الاختـيار الحر والإرادة المسـتقلة للأهالى" ثم يمضى التـصريح : "إن الدولتين متـفقتـان على قيام مثـل تلك الحكومة وفى المساعـدة على قيامـها و الاعتراف بهـا حال قيامهـا. . . وتؤكد الدولتان سلامة دوافعهـما وأنهما لا يرغبان فى شىء سـوى القيام بدور المرشد المنزه عن الهوى بهدف حسن سير الحكومة والإدارات التى يختارها الأهالى إلخ".

لقد كان هذا التـصريح نتيجـة الموقف المتأزم بسبب حادث رفع العلم فى بيـروت حيث قام شكرى باشا الأيوبى قبل عدة أيام من دخول البريطانيين والفرنسيين المدينة برفع العلم العربى معلنا السيادة العربية عليها فامتـعض الفرنسيون من هذا العمل وطالبوا من اللنبى إنزال العلم فأنزل بأمر منه مما أحدث هياجا عنيفا فى دمشق ولم تهدأ الاضطرابات وخصوصا وقد علم الناس بأن بيروت والموانى الأخرى على السـاحل السورى ستوضع تحت الحمـاية الفرنسية فى الوقت الذى كـان فيه وعد بلفور ونشاط الصهيونيـة فى فلسطين يتناقله الناس مما أوجد حالة من الغضب الشامل فى كل العواصم العربية واجتاحت البلاد موجة من الشك والقلق فى السـياسة البريطانية والفرنسية واحتج فيصل على إنزال العالم العـربى وأعلن عدم مقدرته على كبح مشـاعر الثائرين وبدا الموقف وكأنه ينذر بثورة عـارمة قد تضر بمصـالح الحلفاء لذا سارعت الدولـتان إلى إصدار التصـريح الإنجليزى الفرنسى مما هدأ من نفوس الثائرين.



وهكذا لم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى فى عام ١٩١٨ حتى كان الحكم التركى قد انحسر عن الشرق العربى وبدا وكأن العرب قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمهم ولكن هذه الآمال ما لبثت أن تبددت، بل انهارت أمام الأطماع الاستعمارية لكل من بريطانيا وفرنسا اللتين لم يكتفيا بتحقيق أغراضهما وإنما ساهما بشكل واضح فى إقامة كيان غريب عن الأمة العربية من خلال وطن قومى لليهود، كان وما يزال بمثابة العامل الأساسى فى تدهور المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا حتى الآن.

العرب ومؤتمر الصلح

لقد تصور العرب أن الهدف الذى قاموا من أجله قد تحقق بعد أن تحرر العرب من سوريا إلى سيناء وتحرر العراق حتى الموصل ولم يبق فى الجزيرة العربية إلا بضع حاميات تركية كان مصيرها الاستسلام.

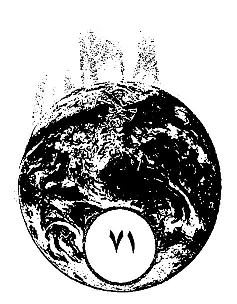
وفى الوقت الذى شعر فيه العرب أنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ثمار كفاحهم وثورتهم إلا أن مشاكل كثيرة راحت تطل برأسها؛ فها هى بريطانيا تتملص من كل وعودها وتحيل القضية برمتها إلى مؤتمر الصلح وسط تناقضات سياسية رهيبة، حيث تبين أن ثمة بونا شاسعا بين ما يطالب به العرب وبين ما تمخض عن الاتفاقات البريطانية الفرنسية والبريطانية والصهيونية وظهرت الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة ولسون الذى راح ينادى بمبادئ تخالف اتفاق سايكس / بيكو لتسوية مسألة الشرق ودعا إلى خلق منظمة دولية تمنع الحرب فى المستقبل. وأمام إلحاح اللنبى بضرورة احترام التأكيدات التى أعطيت للعرب وحث حكومته على دعوة الأمير فيصل بن الحسين لحضور مؤتمر الصلح إلا أن الخارجية البريطانية فضلت أن يبلغ فيصل حكومات الحلفاء برغبته فى إرسال ممثل عنه إلى المؤتمر ووافق الحلفاء على توجيه الدعوة لفيصل نيابة عن والده وبدأ رحلته إلى أوروبا بزيارة فرنسا وقد زود الشريف حسين ابنه ببعض النصائح، لعل من أهمها العمل بنصائح الساسة البريطانيين "وتنفيذ كل ما يكلفونك به من قول أو عمل".

وبوصول فيصل إلى باريس (يناير ١٩١٩) ووجه بثلاث مشكلات رئيسية:

أولها: مصالح بريطانيا فى العراق وفلسطين

ثانيها: مصالح فرنسا فى سوريا

ثالثها: المصالح الصهيونية ووعد بلفور



وهكذا وجد فيصل أن كل الوعود التى سبق وقدمها البريطانيون لوالده قد تبددت ولم يعد لزيارته أهمية سياسية وخصوصا بعد أن أطلعه الإنجليز على اتفاقية سايكس/ بيكو لأول مرة ومن المحتمل أنه رأى خريطة لتلك الاتفاقية التى أعادت العرب إلى الصحراء.

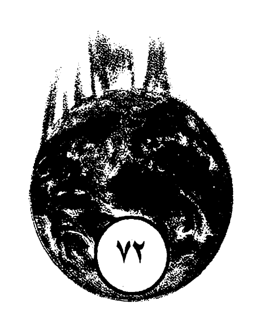
لقد افتتح مؤتمر الصلح فى الثامن عشر من يناير ١٩١٩ ورغم المبادئ التى أعلنها ولسون حول تطبيق العدالة والمساواة بين الأمم وحق تقرير المصير إلا أن جميع التسويات قد تمت خلف الأبواب الموصدة واتخذت القرارات من قبل ممثلى الدول الكبرى (الولايات المتحدة ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا) قبل أن تعرض على ممثلى الدول الأخرى المشاركة وسمح لرؤساء هذه الوفود بالتكلم أمام المؤتمر وعرض قضاياهم لكن دون أن يكون لهم حق إبداء رأى أو اعتراض على خطة.

كان فيصل يرافقه لورانس قد قدما مذكرة إلى المؤتمر تناولت الحركة القومية العربية وتضحياتها الكبيرة فى صف الحلفاء ورغبتها فى توحيد العرب فى أمة واحدة، كما أشارت المذكرة إلى رغبة أهالى الشام فى الحرية وأن مقدرتهم السياسية تؤهلهم لكى يديروا شئونهم الداخلية بأنفسهم مع الاعتراف بأهمية المعونة الفنية من جانب بريطانيا.

وتناولت المذكرة أيضا أهمية قيام حكومة عربية فى العراق على أن تأخذ بيد البدو حتى يصيروا مثل إخوانهم أهل المدن فى المستوى الثقافى من خلال دعم النظام الحكومى فى العراق بالخبراء والمعونة الفنية من جانب دولة كبرى أجنبية.



الأمير فيصل بن الحسين

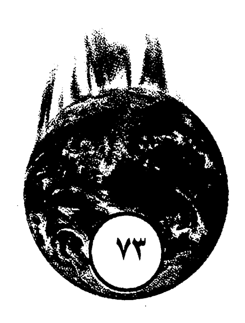


أما فلسطين فقد ذكر الأمـير فيصل فى مذكراته أن الأغلبية الساحقة من سكانها من العـرب وأن اليهود مرتبطون معـهم وليس هناك تعارض بين العنصرين ومع ذلك فإن العرب لا يستطيعون المخـاطرة بتولى مسئولية حفظ التوازن فى حالة الصدام بين الأجناس والطـوائف الدينية ولذلك فإن العرب يفضـلون وصاية عليـا مادامت إدارة مـحلية نيـابية ستـعمل على الـنهوض بأحـوال البلاد وطالب فـيصل بعـدم إبداء أهميـة بالخلافـات الظاهرية وأن العرب يأملون فى أن تعـتبرهم الدول أمة واحـدة يعتزون بلغتـهم ويطالبون بألا تتخـذ خطوات تتعـارض مع وحدة هذه المناطق تحت حكومـة واحدة ذات سيـادة وأن العقـبة الكبرى التى يجب التـغلب عليها هى الجهل الذى يعـد الحكـم التركى مسئولا مـسئولية مـباشرة عنه.

وفى ٢٩ يناير ١٩١٩ قدم فيصل مذكرة ثانية أكد فيها على أهمية الاستقلال والوحدة وأرفق بالمذكرة نصا من خطاب الرئيس الأمريكى ويلسون الذى ألقاه فى يوليو ١٩١٨ والذى أكد فيه على أن تسوية أى قضية لابد وأن تستند إلى أساس القبول الحر من قبل الشعوب المعنية مباشرة وأضاف فيصل فى مذكرته أنه جاء طالبا الاعتراف بالشعوب التى تتكلم العربية والتى تمتد فى أسيا من خط الإسكندرونة/ ديار بكر إلى المحيط الهندى جنوبا باعتبارها شعوبا مستقلة ذات سيادة بضمان عصبة الأمم باستثناء الحجاز فهو دولة مستقلة فعلا ، ومحمية عدن البريطانية.

وحينما جاء دور فيصل ليلقى خطابه أمام المؤتمر (٦ فبراير) قدم عرضا منطقيا سديدا مؤكدا أن الشعوب الناطقة بالعربية فى آسيا لها الحق فى الاستـقلال والوحدة لأسباب حضارية وجغرافية واقتصادية تعد عاملا هاما فى التلاحم والنسيج الاجـتماعى والثقافى ثم أشار إلى التضحيات التى قدمهـا العرب فى الحرب وعبر عن استنكـاره لاتفاقية سايكس/ بيكو وطالب بتطبـيق العهود التى قطعتـها بريطانيـا على نفسهـا باستقـلال العرب والاعتـراف للشام بالاسـتقلال على أن يسـتعين بمستشارين أجانـب عند الحاجة على أن يكون التمثيل الخارجى لكل من الشام والحـجاز قائما على التنسيق المشترك.

لقد ترك خطاب فيصل أثرا مرضيا فى نفوس سامعـيه وخصوصا أثناء المناقشة حينما طالب باقتراح محدد نحو اتخاذ خطوات عملية للتحقق من رغبة الشعوب المعنية حتى يمكن الوصول إلى تسوية عـادلة معتمـدا فى حججـه على ما سبق وطالب به الرئيس الأمـريكى ويلسون وطلب من المؤتمر إرسال لجنة تحقيق يعينها مؤتمر الصلح لتزور سوريا وفلسطين لكى تستطلع رغبات السكان.



ومهمـا كانت عدالة القضـية التى عرضها فـيصل ومهمـا كانت قوة المبـررات التاريخـية التى قـدمهـا إلا أن المسيطرين على المؤتمر قـد خططوا مستقبل الشرق العربى حتى من قبل أن يحضر فيصل إلى المؤتمر .

وعلى الرغم من أن الرئيس الأمريكى قد أيد فكرة إيفاد لجنة لدراسة رغبات الشعوب على الطبيعة إلا أن مناورات بريطانيا وفرنسا قد حالت دون نجاح هذا الاقتـراح باستثناء الشعـبة الأمريكية منهـا وهى التى عرفت بلجنة كينج/ كرين King Crane وعلى هذا فقد عـول فيصل على هذه اللجنة إلا أن أحلامه قد تبددت فى خضم المصالح الأوروبية المتعارضة.

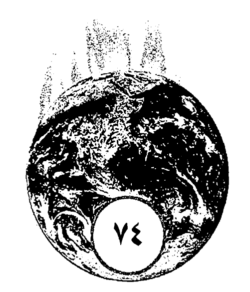
ويقال بأن فيصل حينما علم بأن اقتراحه قـد ذهب هباء شرب الشمبانيا لأول مرة فى حياته عبا كأنه يشرب الماء ثم استقل سيارته متـجاوزا بها مقر الوفدين الأمريكى والبريطانى وأخذ يقذف مبنى فندق الكريون وفندق الماجستيك بالوسائد والزجاجات الفارغة قائلا: "إنه لا يستطيع أن يعبر عن مشاعره إلا بتلك الطريقة ما دام لا يملك القنابل" .

وهى رواية إن صحت فإنما تدل على الصـدمة الشديدة التى شعر بها فيـصل حينما تأكد أن كل تضحيات العرب وأمنياتهم قد ذهبت هباءً .

ونظرا لحالة الشك والريبة التى كـانت تشعر بها فرنسا من حلـيفتها بريطانيا فـقد ظهر أمام المؤتمر وفد سوريا مؤيدا لمخططات فرنسا وهو وفد (الجمعية السورية المركزية) برئاسة شكرى غانم، وكانت لها صحيفة تصدر فى باريس تسمى "المسـتقبل" وكانت تحظى بدعم ملحوظ من الخارجية الفرنسية، وقد تبنت الدفاع عن اتفاق سايكس/ بيكو وقـد زعم رئيس الجمعية أنه مفوض من قبل جمـيع السوريين وأنكر على فـيصل ادعاءاته فى حكم الشـام واقتـرح قيام دولة سـورية بحدودها الطبيعية تحت الانتداب الفرنسى لأن إلحاقها بالجزيرة العربية يعد خطأ سياسيا كبيرا.

لقد رفعت المنظمة الصهيونية مذكرة إلى مؤتمر الصلح (٣ فبراير ١٩١٩) وأشرف على وضع تفاصيلها لجنة بـرئاسة هربرت صموئيل وطالبت بحق الشعب اليهـودى فى إقامة وطن قومى فى فلسطين على أن يعـهد إلى بريطانـيا بالانتـداب من قبل عـصبـة الأمم لوضع فلسطين فى ظروف سياسية واقتصادية تكفل تحقيق فكرة إنشـاء الوطن القومى وتعمل على تشجيع الهجرة والاستيطان وألحق بالمذكرة الحدود التى تقترحها المنظمات الصهيونية فى أوروبا.

لقد قدمت المذكرة إلـى مؤتمر الصلح وعرض سوكولوف حق اليهـود فى إقامة وطن قومى وفقا لوعد بلفور مطالبا بانتداب بريطانيا بما يحقق هذا الوعد.

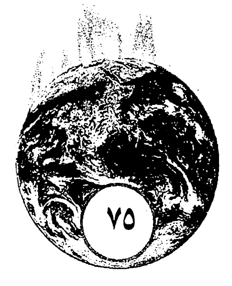


وهكذا شغلت القضية العربية حيزا كبيرا من اهتمام القائمين على مؤتمر الصلح وتمسك لويد جورج بنصوص مراسلات الحسين مكماهون التى اعتقد أن لها أهمية المعاهدة وشرح للمؤتمر الالتزامات البريطانية تجاه الحسين بما فى ذلك اعتبار (دمشق/ حلب/ حمص/ حماه) ضمن الحدود التى وعدت بريطانيا باستقلال العرب فيها ورغم الآمال الغامضة التى عقدها فيصل على دعم الولايات المتحدة فيما يتعلق بحق تقرير المصير إلا أن قضيته قد فشلت وسويت القضية بين بريطانيا وفرنسا على حساب الوعود التى قطعتها بريطانيا على نفسها، وأدرك فيصل أنه قد فشل نهائيا فى تنفيذ سياسة والده فى الاعتراف بمطالبه كما فشل فى الحصول على الحد الأدنى من الاستقلال فى سوريا الداخلية، وكان عليه أن يواجه الواقع بأوضاعه السيئة. ويبدو أنه على الرغم مما توصل إليه من شعور بالمرارة إلا أنه كان يعلق بعض الآمال على اقتراح ويلسون بشأن إرسال لجنة لاستطلاع رأى الأهالى نظرا لمعرفته بالخلاف بين الإنجليز والفرنسيين، ويبدو أن بريطانيا كانت تود أن تحل المشكلة مع الفرنسيين حتى تزيح عن كاهلها عبء المسئولية التى سبق والتزمت بها لكل من العرب والفرنسيين، لذا فقد التقى كليمنصو بالأمير فيصل بناء على اقتراح بريطانى فى مقر وزارة الحربية الفرنسية(١٦ أبريل ١٩١٩)وفى هذا اللقاء طلب كليمنصو أن تحل قوات فرنسية محل القوات البريطانية فى دمشق وحلب ورفض فيصل هذا الاقتراح بحجة أن الشام ليس فى حاجة إلى قوات أجنبية وهنا لوح كليمنصو بغزو سوريا لأن فرنسا لا تقبل باختفاء الوجود الفرنسى فى الشام؛ لأن ذلك يعد مهانة وطنية لها وحاول كليمنصو إغراء فيصل بقبول الفكرة على أساس أن فرنسا لن ترسل إلى الشام سوى قوة صغيرة وأن الحكومة الفرنسية توافق على رفع العلم الفرنسى بجوار العلم العربى.

لقد كان فيصل يعول على التناقضات الفرنسية البريطانية وخصوصا أن اللجنة التى اقترحها ويلسون ستتعرف على رأى أهالى الشام المعادى لفرنسا، لذا فقد طلب فيصل من بعض زعماء الشام أن يتقدموا بطلب إلى اللجنة الدولية مطالبين بانتداب بريطانيا عليهم إلا أن واحدا كمحمد كرد رفض هذا الاقتراح قائلا : " كيف نطلب الانتداب البريطانى وقومنا فى مصر تحصدهم رشاشات البريطانيين " .

وحتى لا يسبب فيصل مزيدا من الحرج لبريطانيا فيما يتعلق بعلاقتها بفرنسا فقد كتب اللنبى إلى فيصل بأن بريطانيا لا ترغب فى تولى طلب الانتداب على الشام وعلى الرغم من ذلك فقد اعتقد فيصل بأن إجماع السوريين على طلب الانتداب البريطانى سوف يثنى بريطانيا عن عزوفها ولذلك أكد بلفور فى رسالة بعث بها إلى اللنبى طالبا منه تصحيح فكرة فيصل وإبلاغه صراحة بأننا لن نقبل الانتداب على الشام حتى ولو أوصت اللجنة بذلك.

لجنة التحقيق ـ كينج ـ كرين



لقد كانت فكرة الرئيس الأمريكى ويلسون عادلة ومن الصعب رفضها بشكل مطلق، ولكن ظهر واضحا أن فرنسا لا ترغب فى إيفاد لجنة إلى الشام لأن نتيجة الاستفتاء كانت معلومة سلفا، لذا راح كليمنصو يعمل على خلق مشكلات من شأنها عرقلة عمل اللجنة فبين صعوبة استخلاص الحقائق من أهل المشرق وأن ثمة حقوقا تاريخية لفرنسا يجب أن تراعى وأخيرا فيجب ألا يقتصر الاستفتاء على أهل الشام بل يجب أن يمتد إلى بقية المناطق والأقاليم التركية الأخرى مثل العراق وفلسطين وهى إشارة واضحة للضغط على بريطانيا لكى تقف بجانب فرنسا لمعارضة فكرة إرسال اللجنة.

وبرغم أن الحكومة البريطانية قد سبق أن وافقت على إرسال اللجنة، بل وعينت أسماء أعضائها إلا أنها راحت تتراجع عن موقفها معلنة موافقتها على وجهة النظر الفرنسية ثم أعلن بلفور صراحة أن إرسال لجنة استفتاء قد يعقد الموقف ويعطل مشروع التسوية السلمية مما قد ينجم عنه عواقب وخيمة.



ويلسون

لقد لعبت الصهيونية دورا خطيرا فى إفشال فكرة إرسال اللجنة خشية التعرف على رغبات أهالى فلسطين ولم تقتصر جهود الصهيونية على بريطانيا فقط بل مارست ضغطا على الرئيس ويلسون معبرين عن مخاوفهم من أن يؤدى إيفاد اللجنة إلى إطالة أمد تسوية مشكلة الشرق الأدنى مما قد يحول دون إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

ونظرا للخلافات التى ظهرت بين بريطانيا وفرنسا حول بعض المسائل الفنية المتعلقة بعمل اللجنة فقد أعلنت إيطاليا أنها لن ترسل مندوبيها ما لم ترسل كل من بريطانيا وفرنسا مندوبيها.

أما الرئيس الأمريكى ويلسون الذى تبنى فكرة التحقيق كوسيلة عادلة لتسوية مشكلة الشرق الأدنى وإزاء امتناع فرنسا وبريطانيا وإيطاليا عن إيفاد مندوبيهم فقد اقتصرت اللجنة على الجانب الأمريكى الذى تكون من دكتور هنرى تشرشل كنج king Henry عميد كلية أوبرلين Oberlin ومستر تشارلز كرين Chcrane من رجال الصناعة فى شيكاغو، يساعدهما عدد من المستشارين.

لقد بذل الأمير فيصل جهدا كبيرا ومارس نفوذه فى تعبئة الشعور القومى، حتى تواجه اللجنة إجماعا من السوريين على رفض الانتداب الفرنسى وساد الاعتقاد بأن اللجنة ستواصل مهامها فى العراق أيضا.

وفى العاشر من يونيو ١٩١٩ وصلت إلى يافا تحت اسم "الهيئة الأمريكية من اللجنة الدولية حول الانتداب فى تركيا".

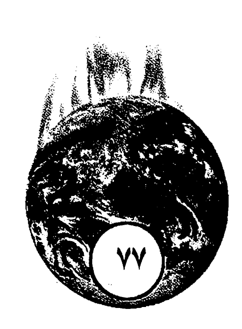
لقد أمضت اللجنة ستة أسابيع فى زيارة فلسطين وسوريا وقابلت عددا كبيرا من الوفود وتلقت، ١٨٠٠ عريضة ثم ذهبت اللجنة إلى الأستانة ومنها إلى باريس فى الأول من سبتمبر ١٩١٩ لتقدم تقريرها ولكنها وجدت أن كل شىء قد تغير فحملت تقريرها إلى واشنطن، حيث سلمته إلى وزارة الخارجية الأمريكية لكى يحفظ فى سجلاتها حتى عام ١٩٢٤ حين أذيع على الملأ.

إن تقرير كنج - كرين - يعد وثيقة بالغة الأهمية لأنه المصدر الوحيد الذى يعتمد عليه الباحثون لمعرفة المشاعر العربية السائدة عقب الحرب العالمية الثانية.

لقد تضمن التقرير قسمين أساسيين يختص أولهما بسورية وفلسطين وثانيها بالعراق، وقد أوصت اللجنة باستقلال سورية على ألا تكون الإدارة الأجنبية فيها بمثابة استعمار وإنما انتداب تحت إشراف عصبة الأمم بحيث تضع الدولة المنتدبة نصب أعينها رفاهية الشعب السورى وتقدمه وتدريبه على حكم نفسه، كما أوصى التقرير بأهمية استقلال سورية ووجوب المحافظة على وحدتها استنادا إلى رغبة أغلبية الشعب وإلى مبادئ عصبة الأمم، كما أوصت اللجنة بأهمية عدم التغاضى عن رغبات بعض الأقاليم مثل لبنان حيث أوصت بمنحه درجة كبيرة من الحكم الذاتى وفقا لبرنامج دمشق الذى نص على الحكم اللامركزى الواسع على أساس أنه من المتوقع أن تكون حالة لبنان داخل نطاق الدولة السورية أفضل مما لو كان مستقلا مع وضع ضمانات تهدئ من مخاوف مسيحى لبنان مع التأكيد على الحرية الدينية وضمان حقوق الأقليات وأكد التقرير أهمية الوحدة السورية اللبنانية.

كما أوصت اللجنة بأن تتولى الانتداب على كل أقاليم الشام دولة واحدة على أن يتولى الأمير فيصل حكم الدولة السورية المتحدة حكما دستوريا ديمقراطيا.

وخصصت اللجنة مساحة كبيرة لفلسطين والمطامع الصهيونية، فأشارت بوجوب إدخال تعديل أساسى على البرنامج الصهيونى المتطرف، الذى يتطلع إلى انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها مما يعد انتهاكا بالغا لحقوق السكان والمبادئ التى نادى بها الحلفاء ونادى بها الرئيس ويلسون واقتنعت اللجنة بعد أن استمعت إلى شهادات الضباط الإنجليز إلى أن البرنامج الصهيونى لا يمكن تحقيقه إلا بقوة السلاح، لذا فمن الضرورى اختصاره وتحديد الهجرة اليهودية وأن تستبعد نهائيا فكرة جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود.



كما أشارت اللجنة إلى أن فلسطين مقدسة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ولن يقبل أصحاب الديانات الأخرى (المسلمون والمسيحيون) وضع تلك الأماكن المقدسة تحت إشراف اليهود وخروجا من هذه الإشكالية فقد أوصت اللجنة بضم فلسطين إلى الشام مع وضع الأماكن المقدسة تحت إدارة دولية تمثل كل الديانات تحت إشراف الدولة المنتدبة وعصبة الأمم ويكون اليهود ممثلين فى هذه الإدارة.

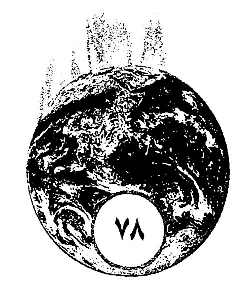
وفى مجال البحث فيمن يتولى الانتداب على الشام فقد أوصت اللجنة بأن يكون الانتداب من نصيب الولايات المتحدة استنادا إلى رغبات معظم السكان بحكم أنه ليس لها مطامع استعمارية وأنها سرعان ما تنسحب من سورية عقب استكمال إدارتها مثلما حدث فى كوبا والفليبين وفى حالة رفض الولايات المتحدة القيام بهذه المهمة فقد اقترحت اللجنة أن تتولى بريطانيا الانتداب استنادا إلى رغبة السكان نظرا لخبرتها فى بلاد مماثلة ولديها الكثير من المؤهلات المطلوب توفيرها فى الدولة المنتدبة.

ويحلل التقرير الشعور المعادى لفرنسا ويعزوه إلى فكرة قديمة بأن الفرنسيين معادون للدين وأنهم محابون للكاثوليك مما يشجع على الانقسامات الدينية وأن ما عانته فرنسا فى أثناء الحرب يجعل السوريين لا يثقون فى إمكانات فرنسا.

وإذا كانت فرنسا متمسكة بادعاءاتها فى الشام بشكل يهدد التحالف الأوروبى فترى اللجنة إمكانية توليها الانتداب على لبنان منفصلا عن بقية الشام.

أما القسم الثانى من التقرير فقد خصصته اللجنة الأمريكية للعراق، حيث أوصت بأن تكون الإدارة الأجنبية فى العراق لها صفة الانتداب، تحت إشراف عصبة الأمم وليس كاستعمار ولمدة محددة رائدها رفاهية الشعب مع المحافظة على وحدة العراق وأن تتولى الانتداب دولة واحدة.

وبوصول اللجنة إلى باريس كان ويلسون قد عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث شعر بعدم أهمية الاهتمام بالسياسة العالمية تاركا للحكومتين البريطانية والفرنسية التوصل إلى تفاهم يحل المشكلة.





لقد كان التقرير هدفا لانتقادات حادة من بريطانيا وفرنسا والصهيونية العالمية فقد اعتبرته فرنسا غير عادل ومتحيز وشككت فى الطريقة التى استند إليها التقرير باعتباره مسرحية هزلية على حد تعبير أحد الساسة الفرنسيين، حيث لم تستقبل اللجنة إلا الوفود التى اختارها الأمير فيصل وتحت إشراف الإنجليز بينما رفضت مقابلة الوفود المساندة لفرنسا.

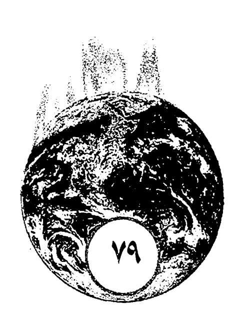
أما الصهيونية فقد اتهمت اللجنة بالخضوع لتأثير البعثات التنصيرية البروتستانتية كما اتهمت اللجنة بالتحيز للعرب ومعاداة الصهيونية.

ونظرا لأن فرنسا وبريطانيا لم يعولا على التقرير، لذا فقد توصلا إلى اتفاق (١٣ سبتمبر ١٩١٩) ينظم احتلال الشام فيما بينهما.

لقد كان غياب ويلسون سببا فى ترك الميدان خاليا لبريطانيا وفرنسا والصهيونية وجميعهم تواقون لتنفيذ الاتفاقيات التى عقدت أثناء الحرب وكان على بريطانيا أن تختار بين وعودها للعرب ووعودها لفرنسا والصهيونية، ورأت السياسة البريطانية أن وعودها لفرنسا والصهيونية يحقق فوائد أكثر للمصالح البريطانية وهى رؤية متخبطة أضرت بالمصالح البريطانية على المدى الطويل وخلفت من ورائها مشكلة ما تزال المنطقة تدفع بسببها ثمنا باهظا، وبمضى الزمن تعقدت لدرجة أنه بات من الصعب حلها حلا مرضيا.

المؤامرة الاستعمارية على الشام والعراق

كانت العلاقات البريطانية الفرنسية قد توترت بشكل ملحوظ عقب انتهاء مهمة لجنة كينج ـ كرين وشنت الصحف الفرنسية حملة ضد بريطانيا بحجة أنها تناصر فيصل على حساب المصالح الفرنسية مما دفع الحكومة البريطانية إلى اتخاذ قرار الجلاء عن الشام (١٣ سبتمبر ١٩١٩) على أن تبدأ القوات بتنفيذ هذا القرار فى الأول من نوفمبر ١٩١٩، على أن تسلم هذه القوات حاميات دمشق ـ وحمص ـ وحماه ـ وحلب إلى الأمير فيصل بينما تسلم حاميات المنطقة الواقعة غربى خط سايكس ـ بيكو إلى القوات الفرنسية وفق الاتفاق المبرم بين بريطانيا وفرنسا.



لقد سعت وزارة الخارجية البريطانية إلى التقريب بين المصالح الفرنسية و العربية وتمسكت فرنسا بنصوص اتفاق سايكس - بيكو ولعب بلفور دورا هاما فى توجيه السياسة البريطانية وكان يبدى تعاطفا ملحوظا للمصالح الفرنسية وكان لويد جورج يعول كثيرا على آرائه وخصوصا عنايته الملحوظة بمطالب الصهيونية.

وبمجرد إعلان فرنسا لقبولها للاقتراح البريطانى أرسلت تعزيزات عسكرية إلى الشام وقليقية تحت قيادة الجنرال جورو Gouraud.

لقد كان هذا الإجراء من جانب بريطانيا بمثابة خيانة كبيرة للعرب واعترافا عمليا بالسيطرة السياسية والعسكرية الفرنسية على الشام مقابل بقاء القوات البريطانية فى كل من العراق وفلسطين.

وبوصول فيصل إلى لندن فى ١٨ سبتمبر ١٩١٩ اكتشف أن كل ما سبق ووعدت به بريطانيا والده قد ذهب هباءً ومارست عليه الحكومة البريطانية ضغطا هائلا لقبول ما توصل إليه البريطانيون والفرنسيون وعليه أن يتوصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية وكتب لويد جورج إلى كليمنصو طالبا الترحيب بفيصل فقد لعب دورا مخلصا مع الحلفاء حتى النهاية، وهكذا تخلت عن بريطانيا عن فيصل للفرنسيين بدون أى دعم سياسى ولم يعد أمامه إلا أن يذهب إلى باريس فوصلها فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٩ ليجد فى استقباله مقالا منشورا ، فى نفس يوم وصوله فى صحيفة Echo de paris تصفه بأنه رجل من القش أقامته بريطانيا التى إذا أرادت أن تصنع منه ملكا وعليها أن تقيم له مملكة فى بغداد.

وهكذا وجد فيصل نفسه مستندا إلى حائط من الوهم وعليه أن يفاوض الفرنسيين مجردا من كل أسلحته وتمخضت مفاوضاته معهم عن اتفاق لم يوافق على جميع بنوده، حيث وضعت بلاد الشام برمتها تحت الحماية الفرنسية.

لقد شعر فيصل أن ما تمليه عليه فرنسا لا يمثل الحد الأدنى للمطالب العربية وحاول جاهدا توسط الحكومتين البريطانية والأمريكية ووجه نداء إلى مؤتمر السلم يحتج فيه باسم الإنسانية وعندما لم يجد مساندة فعلية رد بمشروع معدل نص فيه على تحديد عدد الخبراء الفرنسيين بما لا يتجاوز ٥٠٪ من الخبراء الأجانب وأن يكون تعيين الخبراء بمعرفة الحكومة السورية كما نص على أن البرلمان السورى هو السلطة الوحيدة التى لها حق سن القوانين وفرض الضرائب وإقرار الميزانية على أن يكون فى الشام ممثلون سياسيون وقناصل يمثلون البلاد التى لها مصالح وعلاقات هامة مع

سورية وتكون صلة هؤلاء بوزارة الخارجية السورية مقابل اعتراف فيصل باستقلال لبنان وفقا للحدود المعترف بها وقتئذ ونص فى الاتفاق على سريان العمل به لمدة عشر سنوات.

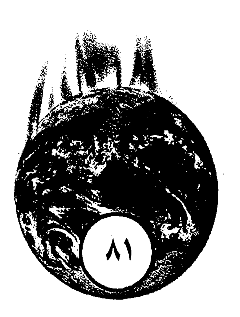
لم يلبث فيصل أن توصل إلى مشروع اتفاق مع الحكومة الفرنسية يكاد يطابق المشروع الفرنسى أكثر مما يطابق المشروع الذى اقترحه وخوفا من ردود الفعل التى قد تحدث من جرائه طلب من الفرنسيين إرجاء التوقيع عليه إلى أن يعود إلى الشام محاولا إقناع الشعب السورى.

وبعودة فيصل إلى الشام (١٤ يناير ١٩٢٠) التقى فى بيروت مع الكولونيل واترزتيلور Waters taylor واعترف له بأن الاتفاق أمر سيئ وأن بريطانيا لم تترك له خيارا وأنه فاوض الفرنسيين وهو مغلول اليدين والرجلين. ويبدو أن فيصل كان يميل شخصيا إلى الاتفاقية بصورتها النهائية بالرغم من معرفته بأنه يتنازل عن شىء ليس من حقه إلا أنه كان أمام أمرين لا ثالث لهما. إما أن يتوصل إلى تفاهم أو يعلن رفضه بما يترتب على ذلك من نتائج وخصوصا على ضوء معرفته بالموقف البريطانى المتخاذل والموقف الأمريكى المتراجع.

ومما ضاعف من حرج موقف فيصل ما أذيع فى دمشق نقلا عن الصحف الفرنسية من أنه قد تم التوصل إلى اتفاق بين فيصل والحكومة الفرنسية يتضمن انتدابا فرنسيا على كل الشام مقابل تكوين دولة عربية تضم (دمشق، وحمص، حماه، حلب) يترأسها الأمير، يعاونه مستشارون ومفتشون فرنسيون وقد وقع الخبر على أهل الشام كالصاعقة.

وفى الوقت الذى لم يكن فيه فيصل قد وقع على اتفاق فعلى مع الفرنسيين بعد أن طلب منهم إرجاء التوقيع حتى يتمكن من تهدئة الأوضاع فى الشام إلا أنه ووجه بهذه العاصفة من الرفض الشعبى ولعله وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه وخصوصا بعد أن عقدت لجنة حزب "العربية القناة" وضباط العهد اجتماعا قرروا فيه رفض اتفاقية فيصل/ كليمنصو وأكد المجتمعون أنهم على استعداد لخوض حرب ضد بريطانيا وفرنسا معا.

وبينما حاولت بريطانيا تحذير الأمير فيصل من الانقياد للمشاعر الوطنية، التى سوف تضر بالمصالح السورية إلا أنه فى السادس من مارس ١٩٢٠ ترأس المؤتمر السورى العام ووجه نداء إلى المجتمعين يطالبهم بتقرير مصير البلاد وفق رغبات الأهالى وعلى ضوء المبادئ التى نادى بها الرئيس الأمريكى ويلسون. وفى السابع من مارس ١٩٢٠ قرر المؤتمر إعلان استقلال بلاد الشام بحدودها الطبيعية استقلالا تاما والمناداة بفيصل بن الحسين ملكا دستوريا عليها، ورفض كل

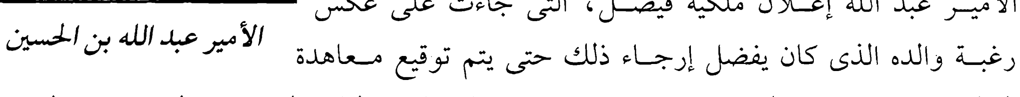


الادعاءات الصهيونية فى فلسطين بجعلها وطنا قوميا لهم، على أن تدار أقاليم الدولة الجديدة على طريقة اللامركزية الإدارية، على أن تراعى رغبات اللبنانيين فى طريقة إدارة لبنان ضمن حدوده المعروفة شريطة أن يكون بمعزل عن أى مؤثرات أجنبية.

وفى نفس الوقت شهدت دمشق مؤتمرا آخر من العراقيين المقيمين فى الشام، حيث نادوا باستقلال العراق على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى واقتصادى، على أن يتولى الأمير عبد الله بن الحسين عرش العراق وأقر المجتمعون انتهاء الاحتلال البريطانى للعراق.



الأمير عبد الله بن الحسين



لقد أثار إعلان قيام المملكتين السورية والعراقية مشاعر متفاوتة فقد اعتبره البعض بمثابة تسرع لا مبرر له، حيث إن فلسطين والعراق تحت الاحتلال البريطانى والمناطق الساحلية تحت الاحتلال الفرنسى لذا فإن قرارات المؤتمر لا قيمة لها، بينما انتقد البعض بشدة إعلان استقلال سورية وحدها والتخلى عن فكرة الدولة العربية الكبرى التى كانت الهدف الرئيسى للثورة وانتقد الأمير عبد الله إعلان ملكية فيصل، التى جاءت على عكس رغبة والده الذى كان يفضل إرجاء ذلك حتى يتم توقيع معاهدة السلم مع تركيا وتتخلى شرعيا وقانونيا عن ادعاءاتها فى البلاد العربية بل لقد اعتبر البعض أن إعلان استقلال سورية والعراق يعد من أكبر أخطاء العرب لأن هذا الإجراء قد قضى على الآمال العربية وتسبب بشكل مباشر فى الانتداب على البلدين.

لقد أبرق اللنبى إلى حكومته (٧ مارس ١٩٢٠) يخبرها بقرارات المؤتمر السورى كما بعث فيصل إلى كيرزون برسالة يبرر فيها الإجراءات التى أتخذها المؤتمر واجتمع الوفدان البريطانى والفرنسى المشاركان فى مؤتمر الصلح فى باريس وأبرقا إلى فيصل يحذرانه من مغبة هذه الإجراءات التى تضع الشعب السورى فى موقف خطير مما يضر بالقضية السورية فى الوقت الذى بعثت فيه الخارجية البريطانية برسالة إلى فيصل تذكره بأن مستقبل المنطقة العربية لا يمكن أن تقره إلا دول الحلفاء مجتمعة وأن الحكومتين البريطانية والفرنسية تعتبران هذه الإجراءات باطلة وأن العراقيين الذين اجتمعوا فى دمشق وقرروا مستقبل العراق لا قيمة لقراراتهم، حيث إن ذلك كله من مسئولية مؤتمر الصلح.

وهكذا كان إعلان استقلال المملكتين السورية والعراقية سببا كافيا لمزيد من التفاهم البريطانى الفرنسى، حيث رفضت الحكومتان الاعتراف بشرعية قرارات المؤتمر السورى.

لقد شعرت بريطانيا وفرنسا بأنهما فى حاجة إلى اتخاذ إجراء عملى لمواجهة ما توصل إليه السوريون والعراقيون، لذا فقد دعى مجلس الحلفاء الأعلى للاجتماع فى لندن (٢٢ فبراير ١٩٢٠) بدون الولايات المتحدة الأمريكية واستؤنفت الاجتماعات فى سان ريمو (١٩-٢٦ أبريل ١٩٢٠) حيث وضعت معاهدة سيفر Sevres ونص فى المادة ٩٤ منها على أن "الأطراف المتعاقدة متفقة على أن الشام والعراق ـ طبقا للفقرة الرابعة من المادة ٢٢ (القسم الأول من ميثاق عصبة الأمم) سوف يعترف بهما مؤقتا كدول مستقلة على أن تقوم دولة منتدبة بتقديم المشورة والمعونة إلى أن يحين الوقت الذى تتمكن فيه كل منهما من الوقوف بمفردها.

أما فيما يخص فلسطين فقد تقرر أن يعهد بها إلى دولة منتدبة يحدد واجباتها بموجب تصريح بلفور الصادر فى نوفمبر ١٩١٧ ".

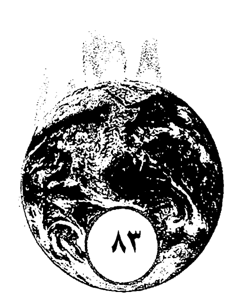
ثم حدد المؤتمر فى الخامس والعشرين من إبريل الدولة المنتدبة، حيث تتولى بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين والأردن وفرنسا على الشام (سوريا ولبنان).

وفى التاسع والعشرين من أبريل ١٩٢٠ أعلن لويد جورج أمام مجلس العموم: "كان علينا أن نحمى المضايق ، هذه هى مهمتنا وكذلك فلسطين والعراق" .

ويلاحظ أن ما تم التوصل إليه فى سان ـ ريمو يتعارض مع ما نصت علية الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم والتى نصب فيها صراحة على "أن رغبات الأهالى لها الاعتبار الرئيسى فى اختيار الدولة المنتدبة" ، وعلى الرغم من أن تقرير لجنة كنج ـ كرين قد تضمن استطلاع رأى الأهالى الذين رفضوا بالإجماع أن تكون فرنسا هى الدولة المنتدبة على سورية كما أكدت اللجنة وحدة سوريا ولبنان وأوصت اللجنة بضم فلسطين إلى الشام مع وضع الأماكن المقدسة تحت إدارة دولية وإذا كانت ثمة ضرورة من اختيار دولة منتدبة على الشام فقد رأت اللجنة أن يكون الانتداب من نصيب الولايات المتحدة بناء على رغبة الأهالى.

وهكذا أطاح مؤتمر سان ـ ريمو بما سبق وأجمعت عليه عصبة الأمم مما يعد تنفيذا حرفيا لاتفاقية سايكس ـ بيكو.

وعلى الرغم مما أحدثه اتفاق سان ـ ريمو من شعور بالاستياء والغضب، ليس فى سوريا فقط وإنما فى العراق وفلسطين حيث خرجت الجماهير الغاضبة احتجاجا على الانتداب وأصبح فيصل وسط الأزمة فى موقف شديد الصعوبة.



وفى الوقت الذى كان فيه الموقف يقضى بضرورة تكاتف الشريف وأبنائه وضرورة تجاوبهم مع المشاعر العربية إلا أن الشريف وابنه عبد الله كان لهما موقف آخر حيث ذهب عبد الله مكلفا من قبل والده لمقابلة اللنبى فى القاهرة وقد بسط الأمير القضية برمتها أمامه اللنبى وطلب بشكل محدد تنحية الأمير فيصل عن مهمته كمتحدث باسم العرب وقيامه (عبد الله) نيابة عن والده بهذه المهمة بناء على رغبة الشريف حسين، وكان رد اللنبى قاطعا، بناء على تفويض حكومته التى ترى أنه ليس من حقها الاعتراف بحق الملك فى القيام بهذا التفويض عن سورية والعراق حيث لم يفوض من قبل السوريين أو العراقيين وأن القضية برمتها لم تعد من اختصاص بريطانيا بل أصبحت فى يد المجلس الأعلى للحلفاء.

لقد كانت بريطانيا تشعر بأن فيصل على الرغم من تأثير القوميين العرب عليه إلا أنه الشخص المناسب للتفاهم معهم بحكم علاقته بالسوريين وبعدد كبير من الزعماء العراقيين، لذا فقد اقترحت الإدارة البريطانية حضوره إلى باريس على أن تتولى فرنسا دعوته على اعتبار أنها الدولة المنتدبة على الشام إلا أن الإدارة الفرنسية فضلت قيام بريطانيا بهذه المهمة .

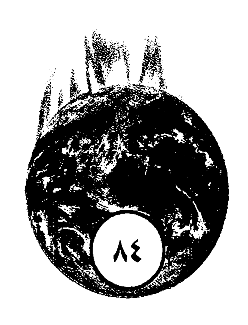
لقد أخذ فيصل يبدى العديد من المبررات التى تحول دون سفره فى هذا التوقيت على اعتبار أن هجوما فرنسيا متوقعا على الشام فى أية لحظة.

وعموما فإن عودة فيصل إلى أوروبا أصبحت عديمة الجدوى بعد أن تخلت عنه بريطانيا التى اعترفت بكل المطالب الفرنسية فى الشام.

لقد أبلغ فيصل من قبل الجنرال جورو (قائد القوات الفرنسية) بعدة شروط:

* قبول الانتداب الفرنسى دون قيد أو شرط.
* إلغاء التجنيد الإجبارى وتسريح المجندين.
* وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسى.
* معاقبة المجرمين الذين تمادوا فى معاداة فرنسا.

لقد أشيع بين السوريين هذه الشروط التى كانت بمثابة إنذار وعم البلاد حالة من الغضب والهياج، ولم يملك فيصل إلا أن يبلغ قناصل الدول الأجنبية، طالبا عدالة الحلفاء وعصبة الأمم وعبر عن قلقه الشديد من جراء الحشد العسكرى الفرنسى على طول الحدود السورية.



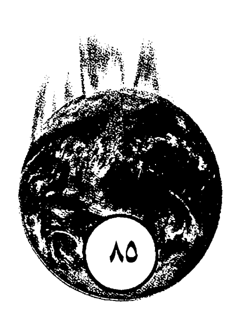
وبدراسة الموقف من جانب فيصل وحكومته تم الاقتناع بقبول شروط جورو ، التى أبلغ بها رسميا (٢٠ يوليو ١٩٢٠) وفى اليوم التالى (٢١يوليو) تقدمت القوات الفرنسية فى اتجاه دمشق واستدعى الأمير فيصل ساطع الحصرى للقيام بمهمة التفاهم مع القائد الفرنسى (جورو) الذى أخرج من مكتبه بيانا كان معدا من قبل وقرأه على الحصرى متضمنا ثمانية نقاط طلب منه أن يبلغها إلى فيصل وكانت بمثابة إنذار آخر، حيث يطالب بالموافقة على الانتداب فورا وبقبول بعثة فرنسية للإشراف على تنفيذ كافة الالتزامات السورية إضافة إلى مطالب أخرى،جميعها تتعلق بتسهيل مهمة الانتداب وتمكين القوات الفرنسية من إدارة مهمتها دون أية عقبات.

لقد وافق جورو على مد المهلة المحددة للإنذار، حتى منتصف ليلة ٢٣ يوليو فى الوقت الذى اجتمعت فيه الحكومة السورية برئاسة فيصل وسط دهشة الجميع وأصدر مجلس الوزراء برقيات استغاثة إلى جميع الدول، التى لم تحرك ساكنا واستقر الأمر على قبول الإنذار، مع تحفظ بسيط بعثت به الحكومة إلى جورو (مساء ٢٣ يوليو): "نحن مستعدون لتنفيذ شروط إنذار ١٤ يوليو بحذافيره إلا أن قبول الشروط الأخيرة يعرضنا لا محالة إلى حرب أهلية" .



الشهيد يوسف العظمة

لقد رفضت السلطة العسكرية الفرنسية مجرد التعليق على تحفظ الحكومة السورية، حيث صدرت الأوامر إلى الجيش الفرنسى بالتقدم نحو دمشق فجر ٢٤ يوليو بحجة أن مجموعة من القوات النظامية العربية قد هاجمت قوة فرنسية فى "تلكلخ" وقبل ظهر اليوم نفسه كانت قد انهارت مقاومة الجيش العربى وتقدمت القوات الفرنسية صوب دمشق وعلى الرغم من المقاومة الباسلة التى أبدتها القوات العربية فى معركة ميسلون والتى استشهد فيها يوسف العظمة إلا أن المدفعية الثقيلة والطائرات الفرنسية حسمت المعركة بشكل سريع.



وهكذا كان سقـوط دمشق بمثابة النهاية لدولة الملك فـيصل، وأصدر القـائد الفرنسى (غـويبة) بيـانا ندد فيـه بفيـصل، حيث حـمله مسئولـية الاضطرابات الداميـة التى وقعت بحيث أصبح من المسـتحيل استـمراره فى حكم البلاد وتسلم فـيصل خطابا من الحكومة الفـرنسية تطلب منه مـغادرة البلاد مع أسرته وحاشيته فلم يجد مفرا من الإذعان، فانتقل إلى درعا ومنها إلى الحجاز.

على الرغم من هذه النهاية المأساوية إلا أن فيصل كان ما يزال مقتنعا بأن بريطانيا سوف تتـدخل للضغط على الفرنسيين وعندما طلب مـن السلطات البريطانية الإذن له بالسفر إلى لندن أستـجيب إلى طلبه إلا أنه أبلغ رسميا بأن الإدارة البريطانية ليـست على استعداد للتحدث معـه فيما يتعلق بالأوضاع الفرنسيـة فى الشام أما فيما يتعلق بالعـراق الذى تأثر كثيرا بما حدث فى سورية حيث وقـعت بعض الحوادث ضد الوجود البريطانى فى الأقضـية الجبلية من لواء الموصل إلا أن الثورة الحقيـقية بدأت منذ ١٩٢٠ عندما قام الضباط العراقـيون الذين كانوا يعملون فى جيش فيصل فى الشام بالإعداد للاستيـلاء على دير الزور وضمها إلى الدولة العربية فى الشام وكان يقود هذه العـمليات رمضان شلاش وفى أوائل يونيـو ١٩٢٠ قاد جميل المدفعى قـوة عربية تقدمت جنوب الموصل وأقامت كمينا قتل فيه عدد من الضباط البريطانيين إلا أنه لم يتمكن من دخـول الموصل بسـبب دعم القـوات البريطانـية، وفى الوقت نفسـه كان سـقوط دمشق واحتلال الفرنسيين لسـورية سببا كافيا أفقد الحركة العربية فى العراق ما كانت تتلقاه من دعم.



الملك جورج وزوجته يوم تنصيبه سنة ١٩١١

لقد كانت النهاية المأساوية لفيصل فى الشـام من أهم العـوامل التى أثارت غـضب القـومـيين العرب فـى العراق حـيث قـرروا استمرار الثورة من خلال بث الدعاية الوطنية وقامت المظاهرات واسـتقال الموظفون العرب من العمل فى الإدارة البريطانية وكانت مدينتا



النجف وكربلاء فى مقدمه المراكز التى أشعلت نيران الثورة حيث قتل أهل النجف الحاكم البريطانى وحوصرت الحامية البريطانية فى الرميثة وتكبد البريطانيون خسائر فادحة وقام أهالى بغداد فى أغسطس ١٩٢٠ بإشعال النيران فى مستودعات الوقود والذخيرة مما شل حركة النقليات البريطانية فى أنحاء العراق.

لقد رأت الحكومة البريطانية أن أفضل وسيلة لحكم العراق كما اقترح برسى كوكس هو إقامة حكومة وطنية وفاء لوعود بريطانيا للعرب والتزاما منها تجاه عصبة الأمم وخصوصا أن بريطانيا تكبدت خسائر باهظة فى العراق ولما كان فيصل فى لندن عقب طرده من سورية فقد اتجهت إليه الأنظار باعتباره أفضل من يتولى حكم العراق لأنة الوحيد بين زعماء العرب الذى يقف على المشكلات العملية فى إدارة حكومة متمدينة ووفقا لرأى الحاكم المدنى فى العراق: " إذا ما قدمنا لفيصل إمارة العراق فإننا لا نكون قد استرجعنا مكانتنا فى نظر العرب فقط ولكننا نكون قد نجحنا فى القضاء على التهمة التى وجهت إلينا بخيانة فيصل" .

لقد أدركت بريطانيا أن اختيار فيصل سوف يحقق الهدوء فى العراق ويقلل من النفقات العسكرية والمادية وفى النهاية يحقق كل المصالح البريطانية من خلال حاكم عربى يدين بعرشه إلى بريطانيا.

لقد أجمعت دوائر الخارجية البريطانية على أن اختيار فيصل على حكم العراق يفيد المصالح البريطانية من جميع الوجوه، لذا فقد دعته الحكومة البريطانية إلى زيارة لندن فوصلها فى الثامن من ديسمبر ١٩٢٠ وقابل الملك جورج الخامس كما التقى مع كيرزون وزير الخارجية الذى كلف كورنواليس بمحادثته فى الأمر إلا أن فيصل أبدى اعتذاره حفاظا على مشاعر أخيه عبد الله الذى كان يتطلع إلى هذا المنصب وقد سبق ورشحه الزعماء العراقيون فى الشام لذلك عهدت الخارجية البريطانية إلى لورانس للقيام بمهمة إقناع عبد الله بالتنازل لأخيه عن عرش العراق، وقد ذكر عبد الله أن لورانس قد لوح له بملك سوريا مستقبلا مقابل ذلك إلا أن بريطانيا قد أقنعته بقبول القسم الجنوبى منها (أمارة شرق الأردن) وعندما تولى ونستون تشرشل وزارة المستعمرات (فبراير ١٩٢١) بدأت الخطوط الجدية لتحقيق هذه المطالب وراحت الخارجية البريطانية تعد العدة لتنصيب فيصل ملكا على العراق من خلال سيناريو تم إعداده بعناية من خلال مؤتمر عقد فى القاهرة (مارس ١٩٢١) شارك فيه المندوب السامى فى العراق (برسى كوكس) والمندوب السامى فى فلسطين (هربرت صموائيل) وموظفون مدنيون وعسكريون بريطانيون واقترح المؤتمرون أن يتوجه فيصل إلى العراق مرشحا ملكا عليه من خلال استفتاء شعبى و أبرقت الحكومة البريطانية إلى الحجاز فى



أوائل يونيو ١٩٢١ تدعو فيصل إلى العراق وبوصوله إليها فى الثالث والعشرين من يونيو ١٩٢١ استقبل استقبالا رسميا.

لقد استطاع فيصل وبمساندة ـ سير برسى ـ كوكس المندوب السامى البريطانى تذليل كافة الصعاب التى أوصلته ملكا متوجا على العراق فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١ وهكذا تمكنت بريطانيا من خلق واقع سياسى يحقق لها مصالحها بالدرجة الأولى بصرف النظر عن الوعود التى قطعتها على نفسها أثناء الحرب العالمية الأولى حينما وعدت الشريف حسين بقيام الدولة العربية الكبرى التى من المؤكد أن إقامتها كانت تتعارض مع المصالح البريطانية والفرنسية والصهيونية.

ولعل ما قامت به بريطانيا من تنفيذها لوعد بلفور (نوفمبر ١٩١٧) يعد كافيا لخلق مشكلة استمرت لأكثر من نصف قرن وستستمر لأكثر من ذلك خدمة للصهيونية العالمية على حساب المصالح العربية.

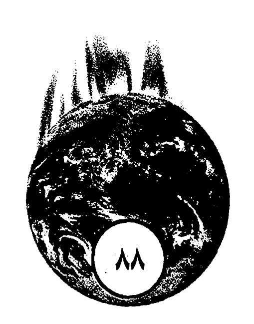


الأمير فيصل والسير برسى كوكس

مصر عند مطلع الحرب العالمية الأولى:

لقد نجحت الدبلوماسية الألمانية فى إقناع الدولة العثمانية فى إبرام معاهدة التحالف والاتفاق العسكرى بينهما فى الثانى من أغسطس ١٩١٤، تلك المعاهدة التى نجحت فيها ألمانيا فى استدراج الدولة العثمانية لكى تساندها فى حربها المتوقعة ضد روسيا وبريطانيا وبذلك أضحت الدولة العثمانية طرفا فى الصراع الدولى.

لقد كانت مصر ولاية مهمة من ممتلكات السلطان العثمانى ولطالما رددت بريطانيا أن فى مقدمة أهدافها المحافظة على الممتلكات العثمانية إلا أن تورط السلطان العثمانى فى التحالف مع ألمانيا قد أحدث وضعا شاذا، حيث وجدت مصر نفسها فى قلب صراع لم تكن طرفا فيه ولا ذنب لها إلا أنها تابعة للسيادة العثمانية.



وعلى هذا فقد أعلن الجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال فى مصر الأحكام العرفية بموجب أمر عسكرى صدر فى الثانى من نوفمبر ١٩١٤ وبصدور هذا القرار اضطربت الأحوال فى مصر اضطرابا كبيرا، فى الوقت الذى وقفت فيه الحكومة المصرية موقفا متخاذلا، حينما اتخذت قرارا فى الخامس من أغسطس ١٩١٤ بمنع التعامل مع ألمانيا ورعاياها ومنع السفن المصرية من ارتياد الثغور الألمانية وحظر التصدير أو الاستيراد مع ألمانيا وتخويل القوات البريطانية حقوق الحرب فى الأراضى والموانى المصرية... إلخ.

وهكذا أصبحت مصر فى حالة حرب فعلية مع ألمانيا دون أن تكون طرفا فعليا فى الحرب ولم يكن ثمة اتفاق بين بريطانيا ومصر يسمح باتخاذ هذا الإجراء.

ويبدو أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن لديها خطط معدة لمواجهة هذا الموقف ولهذا ظهرت عدة سيناريوهات كان على الخارجية البريطانية أن تتخير واحدا منها:

أولا: ضم مصر نهائيا إلى ممتلكات التاج البريطانى.

ثانيا: ضم مصر مع إعطائها شكلا من أشكال الاستقلال.

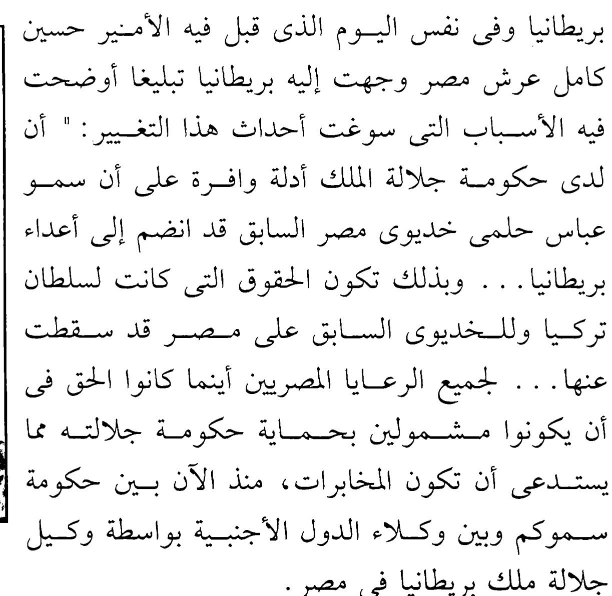
ثالثا: منح مصر الاستقلال الكامل وتوقيع معاهدة تحالف معها.

رابعا: إعلان الحماية، بما يضمن لبريطانيا نفس الامتيازات والحقوق التى كانت تتمتع بها الدولة العثمانية.

ربما رأت بريطانيا أن ضم مصر يعد من أكثر الخطط وضوحا، حيث يمكنها من إنهاء السيادة العثمانية على مصر وعزل الخديوى عباس حلمى الثانى وتعيين من ترتضيه خلفا له وأعدت الخارجية البريطانية مسودة قرار بضم مصر إليها نهائيا وحددت التاسع من نوفمبر ١٩١٤ موعدا لإعلانه، بل أبلغته بالفعل إلى القائم بالأعمال فى مصر.

لقد رأت بعض الدوائر البريطانية أن إجراء من هذا النوع سوف يثير مخاوف حلفاء بريطانيا والدول المحايدة وأبدت فرنسا عدم ارتياحها لمثل هذا القرار ولوحت روسيا بمطالب إقليمية فى منطقة المضايق مقابل ضم مصر إلى بريطانيا، كما أن السياسيين البريطانيين فى القاهرة قد أبدوا عدم ارتياحهم لهذا القرار وأعربوا عن مخاوفهم من النتائج التى قد تترتب عليه، لذا فقد أعادت الخارجية البريطانية حساباتها وفضلت إعلان الحماية بدلا من الضم والاكتفاء بإبقاء الحكم فى أيدى

المصريين ومن ورائهم الإنجليز بنصحهم وتشجيعهم أو كبح جماحهم كلما استدعى الأمر ذلك.



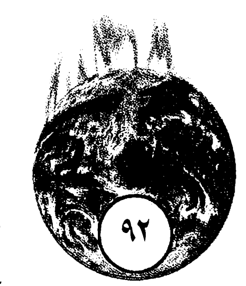
وفى الثامن عشر من ديسمبر ١٩١٤ أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، ومنذ هذا التاريخ دخلت مصر مرحلة جديدة فى الصراع الدائر وبهذا الإعلان حلت الحماية السافرة محل الحماية المقنعة التى فرضتها بريطانيا على مصر منذ عام ١٨٨٢ وفى اليوم التالى لإعلان الحماية -١٩ ديسمبر- أعلنت بريطانيا عزل عباس حلمى الذى كان فى زيارة إلى تركيا وقتئذ وولى بدلا منه الأمير حسين كامل وبررت بريطانيا هذا الإجراء بحجة أن الخديوى السابق قد انضم إلى أعداء بريطانيا وفى نفس اليوم الذى قبل فيه الأمير حسين كامل عرش مصر وجهت إليه بريطانيا تبليغا أوضحت فيه الأسباب التى سوغت أحداث هذا التغيير: " أن لدى حكومة جلالة الملك أدلة وافرة على أن سمو عباس حلمى خديوى مصر السابق قد انضم إلى أعداء بريطانيا... وبذلك تكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديوى السابق على مصر قد سقطت عنها... لجميع الرعايا المصريين أينما كانوا الحق فى أن يكونوا مشمولين بحماية حكومة جلالته مما يستدعى أن تكون المخابرات، منذ الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالة ملك بريطانيا فى مصر.

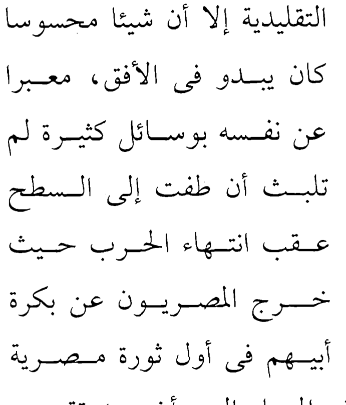
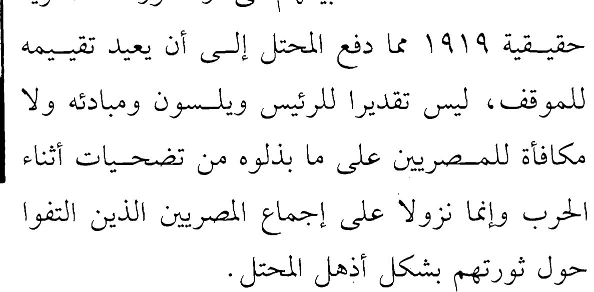


الخديوى عباس حلمى الثانى

وفى نفس اليوم الذى تم فيه عزل الخديوى عباس حلمى وتولية السلطان حسين كامل (١٩ ديسمبر ١٩١٤) أعيد تشكيل وزارة حسين رشدى، التى كانت تتولى الحكم من قبل وبقى جميع الوزراء فى مناصبهم ثم ألغيت وزارة الخارجية وفقا لنظام الحماية وتولت بريطانيا مسئولية الخارجية المصرية.

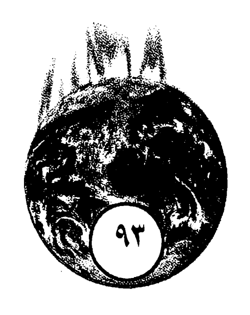
لقد تمت كل الإجراءات التى أحدثتها بريطانيا دون أن يتمكن السلطان الجديد أو مجلس الوزراء المصرى من الحصول على وعد من بريطانيا بشأن مستقبل مصر السياسى ولم يتضمن تصريح الحماية شيئا من ذلك كأن ينص على أن الحماية إجراء مؤقت اقتضته ظروف الحرب وكل ما استطاع السلطان الجديد أن يصرح به من خلال بيانه، الذى أعلن فيه قبوله العرش هو التأكيد على حرصه على بقاء الملك فى أسرة محمد على وأمله فى أن يزيد إشراك المحكومين فى حكم البلاد اعتمادا على دعم بريطانيا ثم حرصه على أن يزيل أى لبث فى العلاقات مع بريطانيا.





التقليدية إلا أن شيئا محسوسا كان يبدو فى الأفق، معبرا عن نفسه بوسائل كثيرة لم تلبث أن طفت إلى السطح عقب انتهاء الحرب حيث خرج المصريون عن بكرة أبيهم فى أول ثورة مصرية حقيقية ١٩١٩ مما دفع المحتل إلى أن يعيد تقييمه للموقف، ليس تقديرا للرئيس ويلسون ومبادئه ولا مكافأة للمصريين على ما بذلوه من تضحيات أثناء الحرب وإنما نزولا على إجماع المصريين الذين التفوا حول ثورتهم بشكل أذهل المحتل.


الزعيم محمد فريد


ثورة ١٩١٩ التى جمعت كل طبقات الشعب المصرى





١- أمين الريحان - ملوك العرب - يروت ١٩٢٤.

٢- أمين سعيد - الثورة العربية الكبرى، القاهرة بدون تاريخ.

٣- أنيس صايغ - الهاشميون والثورة العربية، بيروت ١٩٦٥.

٤- جمال باشا(مذكرات)تعريب عن أحمد شكرى، القاهرة ١٩٢٣.

٥- جورج أنطونيوس يقظة العرب ترجمة ناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦.

٦- د .خيرية القاسمية - الحكومة العربية فى دمشق، القاهرة ١٩٧١.

٧- ساطع الحصرى، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥.

٨- د. عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة ١٩٨١.

٩- عبد الله بن الحسين (مذكراته).

١٠-عبد الرحمن البزاز - العراق من الاحتلال إلى الاستقلال.

١١-محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربى، القاهرة ١٩٨٥.

١٢-محمد صابر عرب الحركة الوطنية المصرية ١٩٠٨-١٩١٤ تحت الطبع.

١٣-محمود صالح منسى، تصريح بلفور، القاهرة ١٩٧٠.

١٤-محمود صالح منسى الشرق العربى الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٩٠.

١٥-محمود على الداود، الخليج العربى والعلاقات الدولية.

الدوريات

١- الأهرام أعداد مختلفة ١٩١٣ وحتى ١٩٢٠.

٢- القبلة (مكة ١٩٢٠).

٣- المنار (القاهرة) مجلد ١٩، ٢٠، ٢٢.

٤- المقتطف تواريخ مختلفة.



مراجع أجنبية

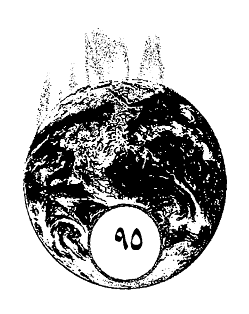
1-Hauley: The, Trucial States London 1970.

2 -Kirk: Short History of the Middle East 1960.

3 -Kelly: Britain and the Persian Gulf London 1968.

4 -Loder: The Truth About, Mesopotamia Palestine S Syria, 1923.

5 -Saldana: Precis of the Affairs of The Persian Coast and Island 1884-1905 Calcutta, 1906.


٩٥


المحتويات





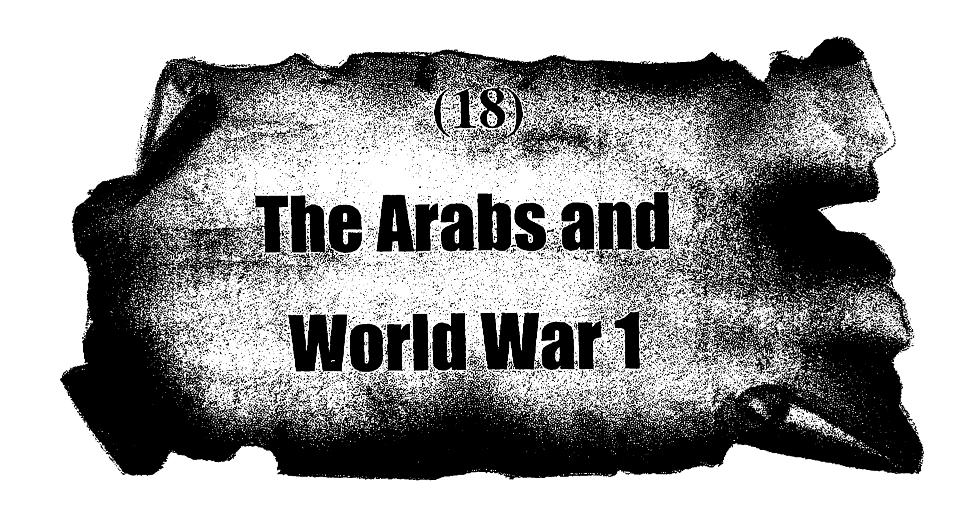
This Study tackles the tragic experience of the Arabs with Britain throughout the first World War, when Britain played off the Arab countries one after the other until they were humilated under its control.

In actual fact, Britain employed the Arabs as a mask to cover up its wicked intrigues in combating the Holy Jihad of the Ottomans, sharing the cake with France, and issuing the Balfour Declaration to satisfy the Zionists.

We should admit that the Arab Leaders baffled by Britain especially Sherif Hussein of Mecca, who revolted against the ottomans.

This work draws attention to the leniency of the Arab Rulers who gave the Big Powers the opportunity to fragment the Arab World in the absence of the voice of their peoples.

Dr. Mohamed Saber Arab



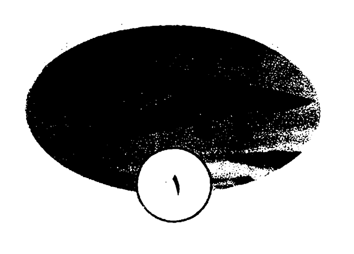
Dr. Mohamed Saber Arab

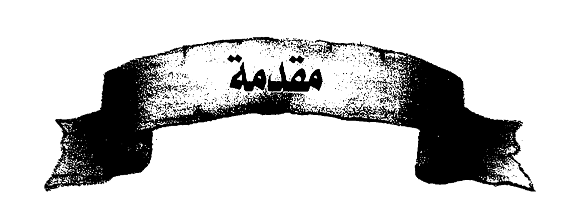




تأليف
أ. د. عاصم الدسوقى
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب - جامعة حلوان



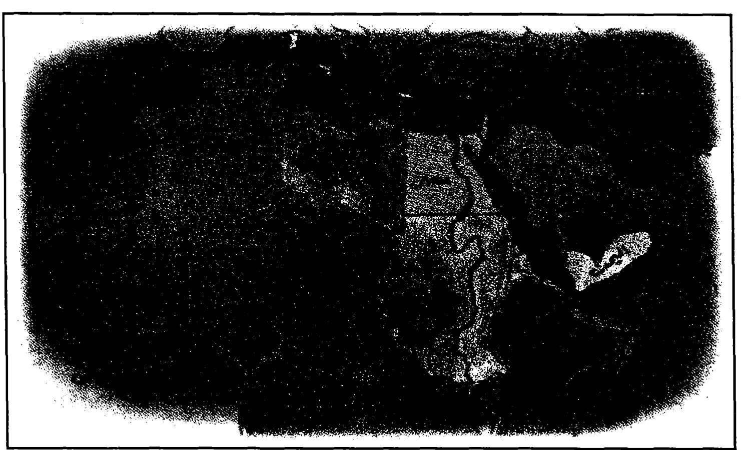




مقدمة

هذه كراسة محدودة الصفحات تختص بمتابعة الوضع السياسى فى البلاد العربية خلال الحرب العالمية الثانية وعلاقات كل بلد بالقوى الدولية المتصارعة وتأثير ذلك الصراع على حركة المطالبة بالاستقلال والتحرر . ولما كانت البلاد العربية تخضع للدول الاستعمارية التى تحالفت معا ضد ألمانيا وإيطاليا بدرجات متفاوتة بين الاحتلال العسكرى المباشر وبين الخضوع السياسى بسبب تشابك المصالح الاقتصادية فقد نما تيار بين عناصر الحركات الوطنية المطالبة بالاستقلال للاتصال بدول المحور عملا بالقاعدة الشهيرة "عدو عدوى صديقى" وذلك للإفادة من التناقض الدولى. غير أن بريطانيا على وجه الخصوص تمكنت من تبديد قوى هذا التيار اعتمادا فى كثير من الأحيان على العناصر المعتدلة التى كانت ترى أن مستقبل مصالحها مع الحلفاء وليس مع المحور ، ومن هنا كانت متابعة هذه الكراسة لمثل هذه الأمور.

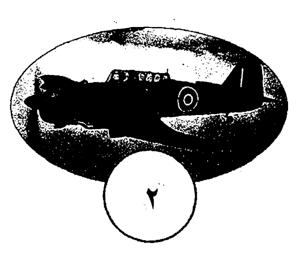
ولما كان العرب يواجهون مصيرا واحدا فقد حرصت على أن تأتى المعالجة على أساس مفهوم الأمة العربية الواحدة وليس على أساس منهج الدول العربية المنفردة .



خريطة الوطن العربى

وآمل أن تلقى هذه الكراسة ضوءا مركزا على هذه الفترة المهمة من تاريخ العرب لأن حوادثها كانت ذات تأثير بالغ على مجريات الأمور بعد الحرب إلى أن تمتعت جميع بلاد العرب بالاستقلال، وإن دخلت مشكلة فلسطين فى الصراع مع الصهيونية العالمية فى نفق مظلم ما زالت تعانى منه حتى الوقت الحاضر.

المؤلف



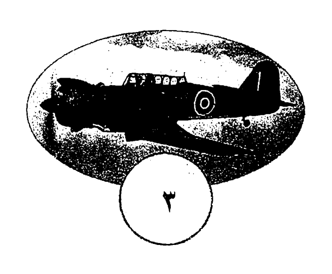
فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهيئة الأمم المتحدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، التى حاولت سد الثغرات التى شابت تكوين عصبة الأمم وإن لم تستطع أن تجنب نفسها من عوامل الضعف التى أدت إلى العديد من الأزمات والتوترات الإقليمية والدولية التى ظل العالم يعانى منها فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ويشتمل هذا الكتاب على ستة فصول، تناول الفصلان الأولان أسباب الحرب العالمية الأولى وما انتهت إليه . وتناول الفصل الثالث معاهدات الصلح التى لم تكن فى حقيقتها سوى شروط إملائية فرضتها الدول المنتصرة على الدول المنهزمة، ومن ثم ركز الفصل الرابع على محاولة ألمانيا على وجه خاص التخلص من القيود والإهانة التى لحقت بها فى معاهدة فرساى مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية بتطوراتها السياسية والعسكرية، التى تناولها الفصلان الأخيران من الكتاب .

بقى أن نشير أخيرا إلى أنه على الرغم من أن هناك مئات من المؤلفات والدراسات التى وضعت عن الحربين العالميتين، إلا أننا نهدف من وراء إعدادنا لهذا الكتاب إثارة اهتمام القارئ وحفزه إلى المزيد من المعرفة والاطلاع على أهم حدثين شهدهما العالم فى تاريخه الحديث والمعاصر .

والله ولى التوفيق،،،

أ.د. جمال زكريا قاسم



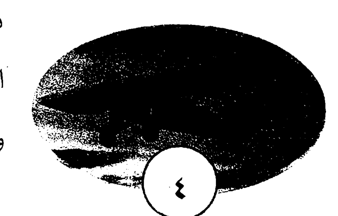


يمكن إرجاع الأسباب البعيدة للحرب العالمية الأولى إلى عام ١٨٧٠ حين نجحت بروسيا فى ذلك العام فى هزيمة فرنسا واستطاعت أن تنهى المرحلة الأخيرة للوحدة الألمانية التى كان من نتيجتها إعلان ولهلم الأول قيصر بروسيا نفسه إمبراطورا على الرايخ الألمانى . وإمعانا فى إذلال فرنسا أجريت احتفالات التتويج فى صالة المرايا بقصر فرساى وذلك عقب دخول القوات الألمانية المنتصرة العاصمة الفرنسية باريس .

وترتب على هزيمة فرنسا عقد معاهدة فرانكفورت بينها وبين ألمانيا فى عام ١٨٧١، وفى تلك المعاهدة استطاعت ألمانيا أن تنتزع من فرنسا إقليمى الألزاس واللورين، كما أبقت جيش احتلال فى بعض المقاطعات الفرنسية ضمانا لتسديد الغرامة العسكرية التى فرضتها عليها . ومن هنا يرى كثير من المؤرخين أن هزيمة فرنسا فى الحرب التى قامت بينها وبين ألمانيا والتى عرفت بالحرب السبعينية هى التى وضعت بذور الحرب العالمية الأولى، نظرا لما تولد عن تلك الهزيمة من الرغبة التى استحكمت فى نفوس الفرنسيين من الانتقام من ألمانيا .

وفى خلال السنوات الممتدة من الحرب السبعينية إلى عام ١٨٩٠ تمكن السياسى الألمانى الداهية أوتوفن بسمارك باعتباره مستشارا للرايخ الألمانى من السيطرة على السياسة الأوروبية . وكان أهم ما حرص عليه طوال عهده فى المستشارية أن يحتفظ لألمانيا بتفوقها العسكرى، وأن يصرف أنظار فرنسا عن الانتقام من ألمانيا، وذلك بتشجيعها على الاستعمار خارج القارة الأوروبية حتى يقحمها فى منافسات استعمارية مع الدول الأخرى بينما يحتفظ لألمانيا بالقوة والتفوق داخل القارة الأوروبية، إذ لم تكن المستعمرات على حد قوله تساوى قلنسوة جندى ألمانى واحد ! .

ومن أجل تحقيق بسمارك لسياسته هذه كان تشجيعه لفرنسا فى فرض حمايتها على تونس فى عام ١٨٨١ حتى يقوم النزاع بينها وبين إيطاليا، كما وقف مؤيدا لإنجلترا فى احتلالها لمصر فى عام ١٨٨٢ لكى يثير النزاع والتنافس بينها وبين فرنسا . وفضلا عن ذلك فقد اتجهت سياسته إلى



فى يولية ١٩٣٦ فرصة للبرهنة إذ أمدت الدولتان (إيطاليا وألمانيا) الجنرال فرانكو بالرجال والعتاد لسحق القوى الديمقراطية والشيوعية وانتصر فرانكو وأقام حكومة عسكرية .

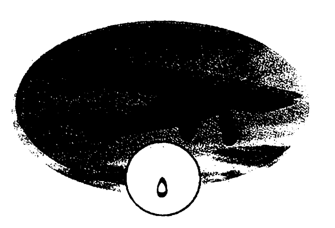
وتلك هى الظروف التى جعلت بريطانيا تحرص على عقد معاهدة مع مصر لتسوية المسائل المعلقة من إعلان ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وتمت فى أغسطس ١٩٣٦ بعد عدة جولات فاشلة من التفاوض ابتداء من ١٩٢٤ ، على حين رفض البرلمان الفرنسى مشروع معاهدة على ذلك النمط مع سوريا ولبنان كان قد تم الاتفاق عليها مبدئيا ، بل لقد رأت السياسة الفرنسية أن فى تأزم الموقف الدولى فرصة للتراجع عن المضى قدما فى طريق استقلال البلدين. وقبيل الحرب أقدمت فرنسا على تعطيل الدستور فى سوريا ، وألغت وزارتى الدفاع والخارجية ، وحولت الوزارات الأخرى إلى إدارات (مصالح حكومية) تحت إشراف مستشارين فرنسيين ، وكذلك عطلت دستور لبنان وعينت مستشارا فرنسيا لرئاسة الدولة .

على كل حال . . بدأ هتلر يسعى ليحيط بالقوى الأوروبية التى تتناقض معه فنراه فى خريف ١٩٣٦ يعقد ميثاقا مع اليابان ضد الشيوعية وهى إشارة للاتحاد السوفييتى انضمت له إيطاليا أواخر ١٩٣٧ ، وأعلن قيام محور برلين-روما الذى عقد حلفا معاديا للشيوعية ضم إلى جانب ألمانيا وإيطاليا كلا من اليابان وأسبانيا والنمسا. وبدأ هتلر يطالب بمستعمرات ألمانيا التى وقع معظمها فى يد بريطانيا بمقتضى تسويات فرساى .

وأمام هذا التحالف الجديد بادرت بريطانيا بتوثيق علاقاتها الخارجية وأعلنت فى ١٩٣٨ أنها ستدافع بقوة السلاح عن فرنسا وبلجيكا والبرتغال ومستعمراتها وكذلك مصر والعراق فيما لو



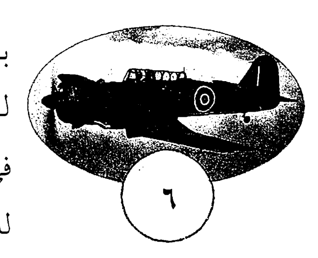
لوحة تمثل النازية (الاشتراكية الوطنية سنة١٩٤١)



تعـرض أى منهـا للعـدوان . لكن هتلر لم يعط فـرصـة لأعـدائه لالتقاط أنفاسهم فنراه وهم مشغولون بالترتيب لمواجهة ما أقدم عليه يفاجئهم بخطوة أخرى وهكذا . . ففى مارس ١٩٣٨ يدخل النمسا ويفرض اتحادا قسريا عليها (١٤ مارس) مقيما بهذا حاجزا قويا بين الاتحاد السوفـييتى وفرنسا ، وبدأ يطالب باسـتعادة إقليم السوديت من تشيكوسلوفاكـيا -وسكانه من أصل ألمانى- وكان قد تم انتزاعه من ألمانيـا فى تسويات فرساى ليكون جزءا من أراضى تشيكوسلوفاكيا الدولة الجديدة آنذاك.

وهنا أدركت بريطانيا وفـرنسا أن طموح هتلر لا حدود له ، وأنه ينوى على الأقل اسـتعادة ألمانيا قوة دولية كبرى ، فلجأت الدولتان إلى أسلوب التهدئة والترضية فالتقى رئيسا وزراء بريطانيا

هتلر يدخل النمسا سنة ١٩٣٨

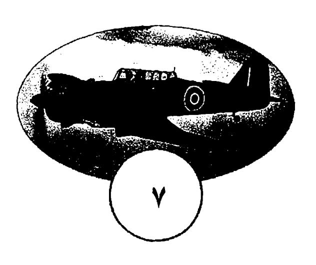


بدعوة الدول الأوروبية المهتمة بالمسألة الشرقية إلى مؤتمر يعقد فى برلين للنظر فى شروط معاهدة سان ستيفانو . وفى خلال انعقاد ذلك المؤتمر فى عام ١٨٧٨ اتضحت سياسة بسمارك فى معارضته الشديدة للمكاسب التى حققتها روسيا، وظهر تأييده واضحا لمطالب النمسا فى جزيرة البلقان، وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق التوازن بين الدولتين. واستطاعت النمسا بفضل تأييد بسمارك لها أن تلحق إقليمى البوسنة والهرسك بـإمبراطوريتها مما أثار غضب روسيا لأن الإقليمين تقطنهما عناصر سلافية .

وعلى الرغم من أن بسمارك استطاع إقناع روسيا بتجديد عصبة الأباطرة الثلاثة، إلا أنه كان يدرك أن تلك العصبة أصبحت على وشك الانهيار، ومن ثم كان عليه أن يختار بين التحالف مع روسيا أو النمسا . وكان من الطبيعى أن يفضل أن تتحالف ألمانيا مع جارتها النمسا، ومن ثم تم عقد تحالف بين الدولتين فى عام ١٨٧٩ صار يعرف بالتحالف الثنائى Dual Alliance . وكان بسمارك حريصا على أن يكون هذا التحالف سريا حتى تظل روسيا مرتبطة بعصبة الأباطرة الثلاثة. وقد نصت شروط ذلك التحالف على أن تساعد كل منهما الأخرى إذا ما تعرضت لهجوم من قبل روسيا، أما إذا هاجمت إحدى الدولتين دولة أخرى - من المفترض أن تكون فرنسا - فعلى الدولة الأخرى أن تحتفظ بالحياد الودى إزاء حليفتها، أما إذا انضمت روسيا إلى الدولة المهاجمة فيتعين على الحليفتين أن يعملا معا . ومن الواضح أن التحالف الثنائى حقق مصالح مشتركة لكل من ألمانيا والنمسا، إذ تمكنت ألمانيا من تأمين حدودها الجنوبية فى حالة قيام حرب بينها وبين فرنسا أو روسيا، كما أتاح ذلك التحالف الفرصة للنمسا كى تقف موقفا أكثر قوة ضد أطماع روسيا التوسعية فى شبه جزيرة البلقان .

لم تقف جهود بسمارك السياسية عند حد نجاحه فى عقد التحالف الثنائى بين النمسا وألمانيا، بل استطاع تحويل ذلك التحالف إلى تحالف ثلاثى Triple Alliance مستغلا موجة الاستياء التى عمت الشعب الإيطالى نتيجة فرض فرنسا حمايتها على تونس فى عام ١٨٨١ لكى يضم إيطاليا إلى التحالف الثنائى فى عام ١٨٨٢ . وهكذا استطاع بسمارك أن يحقق لألمانيا أمنها القومى ضد فرنسا بتحالفها مع إيطاليا، وضد روسيا بتحالفها مع إمبراطورية النمسا والمجر .

غير أن هذا التوازن الذى استطاع بسمارك تحقيقه لصالح ألمانيا لم يلبث أن تعرض للانهيار على أثر الإطاحة به من منصب المستشارية الألمانية عقب وفاة الإمبراطور ولهلم الأول وتقلد ابنه

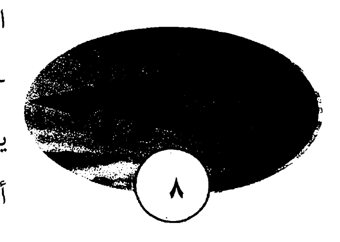


ولهلم الثانى عرش الرايخ الألمانى فى عام ١٨٩٠ . وقد ظهرت بوادر ذلك الانهيار بإعلان روسيا انسحابها من عصبة الأباطرة، وتمكنت فرنسا التخلص من العزلة السياسية التى فرضها عليها بسمارك بإبرامها تحالفا عسكريا بينها وبين روسيا فى عام ١٨٩٢ . وقد اعتبر عقد ذلك التحالف العسكرى حدثا هاما إذ استطاعت كل من فرنسا وروسيا عن طريقه أن تقف فى مواجهة التحالف الثلاثى بين ألمانيا وإيطاليا وإمبراطورية النمسا والمجر. وعلى الرغم من أن إيطاليا لم تكن حليفا موثوقا به نظرا لتعارض المصالح بينها وبين النمسا فى شرقى البحر المتوسط وأطماع إيطاليا فى بعض المناطق التى تسيطر عليها النمسا فى ساحل دالماشيا وإقليم التيرول، إلا أن التحالف الثلاثى ظل مع ذلك أقوى من التحالف العسكرى بين فرنسا وروسيا .

ولم تلبث فرنسا أن استطاعت قطع شوط أكبر فى إنهاء العزلة السياسية التى فرضها عليها بسمارك، وساعدها على ذلك اتجاه ألمانيا على عهد قيصرها الجديد ولهلم الثانى إلى سلوك سياسة جديدة أطلق عليها السياسة العالمية Welt Politik، وكانت ألمانيا مدفوعة إلى تلك السياسة نتيجة إحساسها بتفوقها العسكرى ورغبتها فى تصريف منتجاتها الصناعية واقتسام مناطق النفوذ فى القارات الأخرى مع الدول الاستعمارية. ومن ثم اتجهت فرنسا إلى التقارب مع إنجلترا من أجل تطويق ألمانيا وإعادة التوازن الدولى لصالحها. وبفضل الدبلوماسية الفرنسية الذكية التى اتبعها دلكاسيه Delcasse رئيس الوزراء الفرنسى، تمكنت فرنسا من الوصول إلى حل للعديد من المشكلات الاستعمارية التى كانت قائمة بينها وبين إنجلترا فى كل من أفريقيا وآسيا والعالم الجديد . وكانت إنجلترا ترغب بدورها فى التقارب مع فرنسا لمواجهة ألمانيا التى كانت تتجه بسياستها الجديدة إلى الزحف نحو الشرق Drang Nach Osten عن طريق إنشاء سكك حديدية تمتد من برلين إلى البوسفور ثم تخترق هضبة الأناضول حتى تصل إلى أعالى العراق، ثم تسير محاذية لشواطئ دجلة والفرات حتى تصل إلى بغداد ومنها إلى البصرة والكويت، وبذلك تستطيع ألمانيا عن طريق تغلغلها فى معظم ممتلكات الدولة العثمانية أن تصل إلى الخليج العربى والمحيط الهندى، ومن ثم تصبح منافسا خطيرا لإنجلترا فى أسواق الشرق .



الإمبراطور فلهلم الثانى
سنة١٩١٧



الحرب. ففى يناير ١٩٣٩ رفضت الحكومة المصرية الانضمام إلى حلف سعد-أباد الذى يضم تركيا والعراق وإيران وأفغانستان خشية أن يؤدى ذلك إلى توريط مصر فى حرب حتى ولو وقعت بعيدا عن أراضيها ، وكان ذلك فى عهد حكومة الأحرار الدستوريين برئاسة محمد محمود باشا.

وعند إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ وكانت الحكومة برئاسة على ماهر ، بادرت الحكومة المصرية بدراسة التزاماتها حسب ما تقتضيه معاهدة ١٩٣٦ فوجدت أن المادة السابعة تنص على أن مساعدة مصر "تنحصر فى أن تقدم لبريطانيا داخل حدود الأراضى المصرية جميع التسهيلات التى بوسعها بما فى ذلك استخدام الموانئ والمطارات وطرق المواصلات" . وهذا يعنى أن مصر ليست مكلفة بإعلان الحرب ، ولكن مكلفة بقطع العلاقات مع ألمانيا ، ووضع أموال الألمان فى مصر تحت الحراسة وهذا ما فعلته الحكومة المصرية ، فضلا عن إعلان الأحكام العرفية والرقابة على الأنباء.

النحاس باشا يوقع معاهدة سنة ١٩٣٦

٩

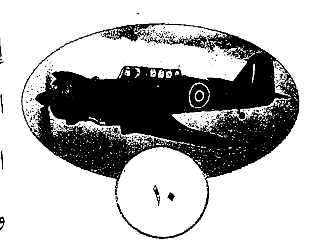
غيـر أن وجود كل من صالح حـرب (رئيس جمـعية الشـبان المسلمين) وعـزيز المصرى (رئيس جـمعـية العهـد العربيـة فى مطلع القرن) فى وزارة على مـاهر وما عـرف عنهما من اهتـمام بالقـضايا العربية والإسـلامية كان لابد وأن ينعكس على مـواقف الحكومة تجاه سياسات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية من الهند شرقا إلى بلاد المغرب غربا وبصفة خاصة انحياز بريطانيـا للحركة الصهيونية. ولهذا كان وجودهمـا من بين أسباب عدم رضـا بريطانيا عن وزارة على ماهر رغم التزامها بالمعاهدة. وآنذاك كان للنزعات النازية بعض الأنصار فى مصر يستمعون إلى الإذاعة الألمانية الموجهة ضد الاسـتعمـار البريطانى ويطلعـون على ما ينشـره مراسلو الصحف الألمانـية من وعود ألمانيـا لتحرير الـعرب. لكل هذا استخدمت بريطانيا جميع وسائل الضغط حتى تمت إقالة عزيز المصرى من منصـبه (رئيس أركـان حرب الجيش) فى فـبراير ١٩٤٠ مما يوضح مدى تعاون على ماهر مع "إنجلترا الحليفة".



على ماهر باشا رئيس الحكومة المصرية

ولما دخلت إيطاليا الحـرب إلى جانب ألمانيا (١٠ يونية ١٩٤٠) تأزمت العـلاقات بين على ماهر وبين السفارة البـريطانية رغم قيام الحكومة بقطع العلاقـات مع إيطاليا (١٢ يونية)، ذلك أن على ماهر طالب بأن تكون الـقاهرة مدينة مفـتوحة وذلك بسـبب وجود إيطاليا على حدود مـصر الغربية (ليبيا)، أى لا يجوز للدول المعادية الإغارة عليها وإخلائها من جميع الأهداف العسكرية، فاعترض الإنجليـز على ذلك لأن القاهرة شبكة مواصلات هامة. ثم تأزمت العـلاقات ثانية عندما وقعت الغارات الإيطالية على الصحراء الغربية وحـدثت مناوشات بسيطة على الحدود وصفها على ماهر بأنها حـوادث لا تعتبر من الحالات التى تـلزم مصر بالحرب حسب مـا قرره مجلس النواب وهى حـالة : انتهـاك الأراضى المصـرية أو إغارة الطائرات علـى مدن مـصرية أو ضـرب أهداف عسكرية مصرية، بل لقد اقترح مجلس النواب سحب القوات المصرية من الحدود الغربية حتى لا تتعرض للاشتباك مع الطليان.

وعلى هذا ضاقت السفارة البريطانية بموقف حكومة على ماهر وأسرع السفير البريطانى إلى إبلاغ القصر الملكى فى ١٩ يونيـة بأن حكومة على ماهر لا تتعاون كمـا يجب مع بريطانيا حسب معـاهدة التحالف والصـداقة، فـتقدم على ماهر والحـال كذلك باسـتقالته بعـد أن فضح الموقف



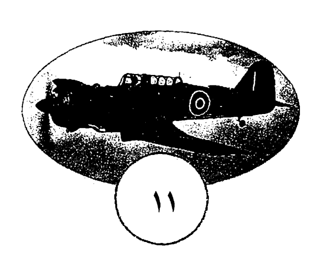
إلى أسواق الشـرق . كما أبدت فـرنسا من ناحيتـها قلقا مـتزايدا إزاء القوانـين الألمانية التى بمقـتضـاها مدت ألمانيـا فترة الخـدمة العـسكرية الإجبـارية إلى ثلاث سنوات مما يؤدى بالتالى إلـى زيادة عدد الجنود . وعلى الرغم من المحاولات التى بذلت للحد من التسلح والتى كان من أبرزها دعـوة الرئيس الأمريكى تيـودور روزفلت فى عـام ١٩٠٧ إلـى مؤتمـر يعقــد فى لاهاى، إلا أن هذا المؤتمر لم يتمكن من أن يضع حدا للتسابق المحموم فى مجال التسلح .

الأزمات الدولية التى سبقت نشوب الحرب

شهـدت السنوات القليلة التى سـبقت نشـوب الحرب العـالمية الأولى سلسلة مـن الأزمات السياسية بين التكتلين المتضادين، وتركزت تلك الأزمات فى كل من مراكش وشبه جزيرة البلقان . وبينما نجمت الأزمات المراكـشية عن الأطماع الفرنسية فى مـراكش وتصدى ألمانيا لتلك الأطماع، كانت الأزمـات البلقانية نتيـجة لنشاط روسـيا فى البلقان ومواجـهة النمسـا لذلك النشاط . ومن الواضح أن كل طرف من أطراف تلك الأزمات كان ينتمى إلى التكتل المضاد للطرف الآخر، فبينما كانت ألمانيا والنمسـا تنتميان إلى تكتل دول الوسط، كانت فرنسا وروسيـا ينتميان إلى دول الوفاق الثلاثي.

الأزمات المراكشية

كانت فرنسـا تعمل على تدعيم نفوذها فى مراكش، وحتـى يصبح المجال مفتوحـا أمامها مضت فى عقد العــديد من التسويات الاستعمارية بينهـا وبين الدول الأوروبية الأخرى التى كانت تطمع بدورها فى مد نفوذها على مـراكش . ففى عام ١٩٠٢ اتفقت مع إيطاليا بألا تعـارضها فى حالة فرض حمايتـها على مراكش مقابل ألا تقف فرنسا فى وجهها فى حـالة إعلانها الحرب ضد الدولة العثمانية بهدف انتزاع ليبيا . وفى عـام ١٩٠٤ اتفقت فرنسا مع إسبانيا على تقسيم مراكش فيما بينهمـا بحيث تترك فرنسا لإسبانيا منطقـة الريف المجاورة لجبل طارق . وفى نفس ذلك العام تم توقيعها الاتفاق الودى مع إنجلترا الذى نصت بعض بنوده - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - أن تكف فرنسا عن معارضـة الاحتلال الإنجليزى لمصر مقابل موافقـة إنجلترا على إطلاق يد فرنسا فى مراكش، وبالتالى لم يبق أمام فرنسا سوى ألمانيا التى كـان من الصعب أن تصل معها إلى اتفاقيات مشابهة .



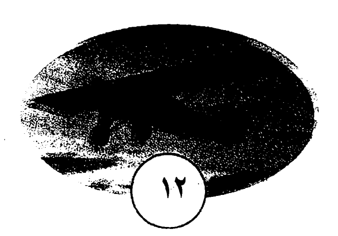
وردا على ما ترتب على تلك الاتفاقيات الاستعمارية من تصاعد فى النفوذ الفرنسى فى مراكش، قام القيصر الألمانى ولهلم الثانى بزيارة إلى ميناء طنجة فى عام ١٩٠٥ . ومن الواضح أن توقيت تلك الزيارة تزامنت مع هزيمة روسيا أمام اليابان، ومن ثم أدرك القيصر أن التحالف العسكرى بينها وبين وفرنسا أصبح يمر بأزمة شديدة نتيجة استياء روسيا من عدم مساندة فرنسا لها فى حربها مع اليابان . ومن ثم وجد القيصر الألمانى الفرصة سانحة أمامه لكى يطلب من السلطان المراكشى المحافظة على استقلال بلاده، وأن يعمل على تطبيق سياسة الباب المفتوح بالنسبة لتعامله مع جميع الدول بمعنى ألا يكون لدولة ما - المقصود بها فرنسا - امتياز فى مراكش من شأنه الإضرار بمصالح الدول الأخرى . كما دعا القيصر الدول الأوروبية إلى حضور مؤتمر يعقد من أجل التباحث فى المسألة المراكشية .

وفى العام التالى ١٩٠٦ وقع الاختيار على الجزيرة الخضراء القريبة من جبل طارق لتكون مقرا لانعقاد ذلك المؤتمر الذى صار يعرف باسم مؤتمر الجزيرة . وكان من الطبيعى ألا تستطيع ألمانيا أن تجنى شيئا من جراء انعقاد ذلك المؤتمر، إذ لم تجد تأييدا لمطالبها سوى من حليفتها النمسا، بينما وجدت فرنسا تأييدا من كل من إنجلترا وروسيا وإيطاليا وإسبانيا نتيجة للمحالفات والتسويات التى سبق أن عقدتها مع تلك الدول . ومن ثم انتهى مؤتمر الجزيرة بالموافقة على إطلاق يد فرنسا وإسبانيا فى مراكش، مما أتاح لهما المجال لزيادة نفوذهما بصورة متصاعدة خلال السنوات التى أعقبت المؤتمر .

وردا على تصاعد النفوذ الفرنسى فى مراكش، بادرت ألمانيا بالقيام بمظاهرة بحرية حين أوفدت فى عام ١٩١١ الطراد الحربى بانتر Panther إلى ميناء أغادير الواقع على الساحل الجنوبى من مراكش بحجة حماية الرعايا الألمان والحفاظ على المصالح الألمانية، وكادت تلك الأزمة أن تتطور إلى إعلان الحرب بين ألمانيا وفرنسا . غير أنه أمكن تفادى الوضع المتدهور بين الدولتين على أثر موافقة فرنسا على التنازل لألمانيا عن جزء من مستعمراتها فى الكونغو ضمته ألمانيا إلى مستعمراتها فى جنوب غربى أفريقيا، وقد أتاحت تلك التسوية الأخيرة الفرصة أمام فرنسا لكى تفرض حمايتها على مراكش فى عام ١٩١٢

الأزمات البلقانية

تعتبر الأزمات البلقانية السبب الرئيسى فى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وذلك على عكس الأزمات المراكشية التى اقتصرت على اضطراب الأوضاع السياسية بين فرنسا وألمانيا . ولعل ذلك مما جعل كثيرا من المؤرخين يطلقون على شبه جزيرة البلقان تعبير مخزن البارود، الذى كان يتهيأ



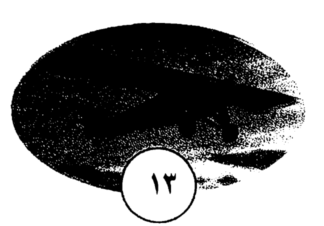


الملك فؤاد الأول

ومن ناحـيـة أخـرى كـان للقصـر الملكى ميـول تجاه المحور حتى من قـبل قيام الحرب وذلك بسبب وجود طليان فى القـصر من أيام الملك فـؤاد الذى نشـأ فى إيطالـيا فـى المنفى مع والده الخديو إسماعيل. وقد ذكر الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا أن سفير مصر فى إيطاليـا (مراد سيد أحمد باشا) اتصل به وسأله عما تفعله إيطاليا إذا وقعت الحرب بينها وبين بريطانيـا ووقفت مصـر موقف الحيـاد بالرغم من وجود معاهدة ١٩٣٦ . . فهل تفعل إيطاليـا شيئا لتأييد موقف مصـر؟. وفى مايو ١٩٣٩ وقبل الحـرب زار مصر الجنرال بالبو أحد القادة العسكـريين الإيطاليين فى ليبيا واستقبلته الحكومة رسـميا وراجت شائعات بأنه اتصل بالقصر لعقد معاهدة عدم اعتداء بين البلدين.

والواقع أن المحور كان يغذى الاتجاهات المعادية لبريطانيا فى مصر فكانت إذاعة برلين العربية تعلن تقديرها لموقف مصر وكيف أنها مجبرة فى تصرفاتها إزاء ألمانيا. وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا صرح مـوسولينى بأنه لن يرتكب عدوانا على الأقطار المجاورة وذكر من بينـها مصر بالاسم، ولو أن إيطاليـا كانت تطلب ثمنا لدخـولها الحرب إلى جانب ألمانيا كما حددته مذكرة شيانو (١٩ يونية ١٩٤٠) وهو أن تحل مـحل بريطانيا فى مـصر بكل امتيازاتها ، وأن يستحدث نظام جديد لادارة قناة السويس بعد أن تحل شركـة القناة. ومن ناحية أخرى كانت ألمانيا قد اتفقت مع إيطاليا واليـابان فى سبتمبر ١٩٤٠ على تقـسـيم العـالم إلى ثلاث مناطق نفـوذ اعترفـت لإيطاليا بشمال وشـرق أفريقية منطقـة نفوذ خـاصة لهـا. وأكثـر من هذا أن ألمانيا آنذاك أحـالت الوطنيين العـرب للتفـاهم مع إيطاليا على مـسـتقبل


أحمد ماهر



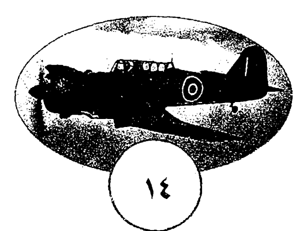
الشرق العربى. لكن هذا الوضع تغير بعد أن فقدت إيطاليا هيبتها العسكرية فى حملة اليونان وأصبحت منذ ١٩٤١ تدور فى فلك ألمانيا.

وفى ضوء هذه الأطماع الإيطالية تجاه مصر نلاحظ أن أحمد ماهر (رئيس الحزب السعدى) حدد موقفه من الحرب وأراد أن يجعل من دخول مصر الحرب مبدأ أساسيا للحزب. ولما كان يتولى رئاسة مجلس النواب فقد بادر إلى دعوة المجلس إلى جلسة غير عادية فى سبتمبر ١٩٤٠ حين توغلت الجيوش الإيطالية فى أراضى مصر حتى سيدى برانى وطلب إلى المجلس إعلان الحرب طبقا لقرار المجلس من قبل. غير أن المجلس صوت ضد هذه الفكرة بأغلبية كبيرة وبهذا التصويت بطل الحديث عن إشراك مصر فى الحرب. ويبدو أن أحمد ماهر فى هذه الفكرة كان يعرض نفسه بطرف خفى على الإنجليز لكى يتولى رئاسة الوزارة ويعلن الحرب على المحور بعد أن رفضت الوزارات المتعاقبة تنفيذ رغبة الإنجليز فى إعلان مصر الحرب.

على كل حال توقف الهجوم الإيطالى باتجاه مصر عند سيدى برانى ولم تحدث معارك حقيقية لغزو مصر ومن هنا رأت ألمانيا ضرورة مؤازرة قواتها لإيطاليا فى الجبهة المصرية لكن الحكومة الإيطالية رفضت تماما تدخل ألمانيا فى منطقة نفوذها. لكن هزيمة إيطاليا أمام اليونان فى محاولتها تحقيق نصر خاطف جعل موسولينى يقبل مضطرا مساعدة ألمانيا على جبهتى اليونان ومصر وأصبحت إيطاليا منذ ذلك الوقت (١٩٤١) تابعة لألمانيا أكثر منها حليفة. وكان الإنجليز قد انتهزوا فرصة تورط إيطاليا فى اليونان وقاموا بهجوم برى على القوات الإيطالية من الحدود المصرية حتى وصلوا إلى بنغازى (٩ ديسمبر ١٩٤٠) ، لكن سرعان ما انسحبوا عند مجىء روميل مع فيلقين إلى الحدود المصرية (أبريل ١٩٤١).


روميل

ولقد صادف هذا التغير فى الموقف الحربى تغيرا فى الموقف السياسى فى مصر إذ توفى رئيس الوزراء حسن صبرى فى نوفمبر ١٩٤٠ وعهد الملك إلى حسين سرى بتأليف الوزارة وهو من المستقلين التابعين للقصر ، ووضع نفسه ووزارته فى خدمة الإنجليز، وبادر إلى إخضاع سفارات الدول المحايدة للرقابة لمجرد أن علاقاتها



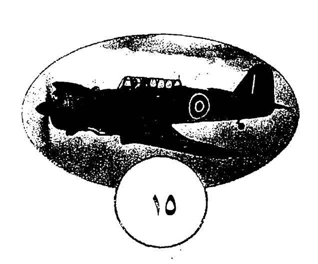
والنمسا وروسيا بعد أن رفضت النمسا تعديل شروط إنذارها أو إحالة البند الثالث إلى محكمة العدل الدولية بلاهاى .

ولم تلبث أن اتسعت دائرة الخلاف بحيث لم يعد مقصورا على صربيا والنمسا وروسيا، حين أعلنت ألمانيا بحكم تحالفها مع النمسا بأنها لن تسمح بالإجراءات العسكرية التى تتخذها روسيا، وطلبت من فرنسا بحكم التحالف العسكرى الذى كان قائما بينها وبين روسيا توضيح موقفها إذا ما وقع اشتباك مسلح بينها وبين روسيا، التى أجابت بأنها سوف تعمل على ما تمليه عليها مصلحتها . وكان واضحا أن فرنسا وجدت من مصلحتها الوقوف إلى جانب حليفتها روسيا، إذ كانت تخشى إذا ما تركت روسيا وحدها فقد يترتب على ذلك هزيمتها، ومن ثم تجد نفسها وجها لوجه أمام القوة المتصاعدة لتحالف دول الوسط .

وكانت إنجلترا ترى بدورها أنه إذا نجحت ألمانيا والنمسا فى الانتصار على روسيا وفرنسا، فقد يترتب على ذلك إخلال خطير بالتوازن الدولى فى أوروبا ولن يمضى وقت طويل حتى تجد نفسها فى مواجهة دول الوسط . ولما كانت الاتفاقيات الودية التى أبرمتها إنجلترا مع كل من فرنسا وروسيا لا تلزمها باتخاذ إجراءات عسكرية، لذا كان يتعين عليها البحث عن ذريعة للتدخل . وسرعان ما وجدت تلك الذريعة حين اتجهت ألمانيا بحشد جيوشها تجاه بلجيكا تمهيدا للهجوم على فرنسا، وذلك باعتبار أن بلجيكا أضعف نقاط الدفاع الفرنسى . ومن ثم طلبت إنجلترا من ألمانيا إعطاءها تعهدا بالحفاظ على حياد بلجيكا، وكان هذا الحياد قد سبق تقريره بضمان إنجلترا وغيرها من الدول الأوروبية فى مؤتمر لندن ١٨٣٩ . وحين رفضت ألمانيا هذا التعهد، بادرت إنجلترا بتوجيه إنذار إلى ألمانيا طالبتها فيه بسحب قواتها من بلجيكا على الفور، وحين رفضت ألمانيا قبول الإنذار أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا وحليفتها النمسا، وأعلنت وقوفها إلى جانب كل من روسيا وفرنسا . وهكذا استطاعت إنجلترا أن تضفى على دخولها الحرب طابعا أخلاقيا وهو الدفاع عن الشعوب الصغيرة، وإن كان السبب الحقيقى لدخول إنجلترا



القوات الألمانية فى الأراضى الواطئة سنة ١٩١٤



الحـرب لم يكن نتيـجـة خرق ألمانيـا لحيـاد بلجـيكا، وإنما يرجع إلى تخوفهـا من القوة العسكرية والاقتـصادية المتصاعدة لألمانـيا وتهديدها لمصالحها .

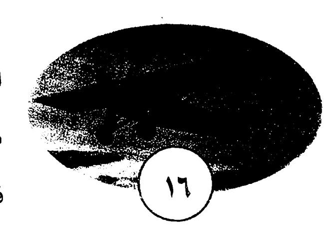
العمليات العسكرية

بدأت العمليات العسكرية من جانب ألمانيا بحركة التفاف واسعة النطاق عبر بلجيكا، بقصد توجيه ضربة عسكرية حاسمة ضد فرنسا تجبرها على الخروج من الحرب . وكان مما يدفع ألمانيا إلى ذلك أنها كانت مـواجهة بجبـهتين فى آن واحد، الجبهـة الشرقية وتمثلهـا روسيا، والجبهـة الغربية وتمثلها إنجلترا وفرنسا . ولما كانت ألمانيا تدرك أن روسيـا لا تستطيع نقل قواتها بسرعة إلى ميادين القتال، فقـد ركزت هجومها على الجبهـة الفرنسية على أمل أن تستطيع أن تكتسح بقـواتها فرنسا والتقدم صـوب العاصمة باريس ثم تتفـرغ بعد ذلك للحرب فى الجبهـة الروسية بمساندة حليفـتها النمسا .

أما عن القيادة العسكرية الفرنسية فقـد انبنت خطتها على تركيز أقوى قواتها العسكرية على جبهة اللورين حتى إذا نجحت تلك القوات فى التصدى للقوات الألمانية، فإن الهجوم الألمانى على بلجيكا سيواجـه بالفشل الذريع . غير أن القوات الفرنسيـة لم تنجح فى الهجوم على اللورين فى الوقت الذى تقدمت فيـه القوات الألمانية داخل الأراضى البلجيكيـة غير أنها سرعـان ما تراجعت نتيجة المقاومة الباسلة التى بذلها الجيش البلجيكى، وكان ذلك مما أعطى الفرصة للقوات الإنجليزية والفرنسية لمواجهة القوات الألمانية، حيث دارت معـركة المارن فى سبتمبر ١٩١٤ التى انهزمت فيها



القوات الألمانية تخرج للحرب



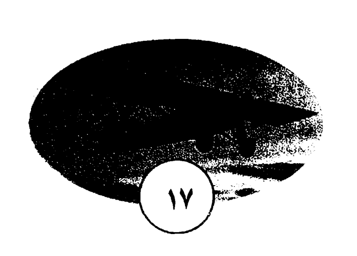

الملك فاروق الأول

جاءت لتحرر البلاد من الاحتلال البريطانى ، وأنها تؤيد استقلال مصر استقلالا كاملا. ورغم هذا فإن النحاس لم يخف تأييده الكامل للحلفاء وأبلغ البرلمان (٢٤ يونية ١٩٤٢) أن حالة بريطانيا أفضل من أى وقت مضى، وأنها تنوى الدفاع عن مصر ، وان مروجى الشائعات المعادية للحلفاء و"للديمقراطية" سينالون جزاءهم.

وعندما أصبح الألمان على مسافة سبعين كيلومترا من الإسكندرية وتوقع الكثيرون سقوط المدينة بادرت الجاليات الأجنبية وخاصة اليهود إلى مغادرة البلاد وتصفية أملاكهم بها ، كما تم إجلاء العائلات البريطانية المقيمة بالدلتا إلى الصعيد ، وذهبت جماعة تمثل أصحاب المصالح الرأسمالية وقابلت رئيس الحكومة وسألته عن موقفه فى حالة تقدم الألمان فى المدن المصرية فأجابهم النحاس بأنه أصدر الأمر إلى محافظ الإسكندرية بأن يسلم المدينة إذا وصلت إليها الجيوش الألمانية منعا للمواجهة وتجنبا للتدمير المحتمل.


الجيش الروسى

ولكن سرعان ما استعاد الحلفاء قوتهم بفضل المساعدات الأمريكية حيث تمكنوا من عرقلة المواصلات البحرية الألمانية. ومما زاد من تحسن موقفهم صمود السوفييت فى ستالنجراد ومن ثم أخذت بريطانيا منذ أغسطس



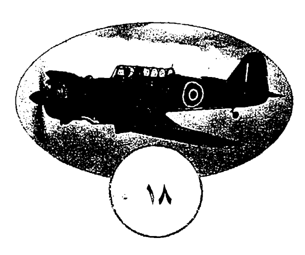
١٩٤٢ تستقدم التعزيزات من مختلف أنحاء الإمبراطورية وتكدس المهمات الحربية فى صحراء مصر الغربية استعدادا للهجوم الكبير. وكانت بريطانيا تخطط له لتخفيف الضغط على روسيا وللتأثير على الوجود الفرنسى فى شمال افريقيا لنزول القوات الإنجليزية- الأمريكية فى المغرب والجزائر. وفى ٢٣ أكتوبر بدأ الهجوم البريطانى بقيادة مونتجومرى الذى انتهى بدخول طرابلس وتلاه نزول الحلفاء فى المغرب (٨ نوفمبر).


مونتجومرى

على كل حال . . عندما ابتعد خطر الحرب عن الأراضى المصرية بعد معركة العلمين قام الملك فاروق بإبلاغ السفير البريطانى (أبريل ١٩٤٤) عن رغبته فى أن يكلف أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى بتأليف الوزارة وإقالة النحاس ، إلا أن الحكومة البريطانية لم توافقه وهذا يوضح أن بريطانيا كانت ما تزال تشعر بخطر الحرب. فلما نزل الحلفاء على ساحل نورماندى خلال يونية أصبح استسلام ألمانيا قاب قوسين أو أدنى وهنا أقدم الملك على إقالة حكومة النحاس (٨ أكتوبر ١٩٤٤) ولم تعترض بريطانيا.

وقع اختيار الملك على أحمد ماهر خصم النحاس لكى يرأس الحكومة وبادر فور توليه الوزارة بإعلان تمسك مصر بمعاهدة ١٩٣٦ وفى فبراير ١٩٤٥ أعلن الحرب على دول المحور ولم يكن ذلك بناء على ضغط بريطانى كما كان يحدث فى السابق ولكن لأن الدول الكبرى الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتى قررت فى يالتا بشبه جزيرة القرم (فبراير ١٩٤٥) أنه يشترط على الدولة التى تريد أن تكون عضوا مؤسسا فى المنظمة الدولية التى سوف تتكون بعد الحرب (هيئة الأمم المتحدة) لا بد وأن تعلن الحرب على دول المحور فى موعد أقصاه أول مارس ١٩٤٥ ومن هنا جاء إعلان حكومة أحمد ماهر الحرب.

غير أن المعارضة السياسية للحكومة وفى مقدمتها الوفد اعترضت على أن تعلن مصر الحرب بدعوى أن هذا سيتطلب إشراك المصريين فى المعارك ، وأن البرلمان الحالى لا يمثل الأمة ، وأنه لا بد من إجراء انتخابات صحيحة لاتخاذ مثل هذا القرار الخطير ، وأن الحرب فى الشرق الأقصى لم تتضح نهايتها إذ لم تكن اليابان قد استسلمت بعد.

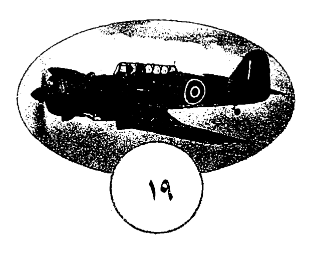


الواقعة فى بحر إيجة، إلى جانب توسيع مستعمراتها فى إريتريا والصومال . وعلى الرغم من أن إيطاليا لم تلعب دوراً مؤثرا فى الحرب، إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أن الحلفاء استفادوا من دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم بتخفيف الضغط على روسيا وذلك بشغل القوات النمساوية بالقوات الإيطالية فى الجنوب.

قيام الثورة البلشفية وانسحاب روسيا من الحرب


استقبال لينين بعد نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧

على الرغم من نجاح دول الوفاق فى إعادة التوازن العسكرى لصالحهم على أثر دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم، إلا أن نهاية عام ١٩١٧ كانت مبشرة بالأمل لدول الوسط نتيجة خروج روسيا من الحرب على أثر قيام الثورة البلشقية بها فى أكتوبر ١٩١٧، والتدهور الذى حدث فى قواتها العسكرية والإحباط النفسى والمعنوى الذى ألم بجنودها، وما ترتب على الثورة من شل فاعلية القوات الروسية وحدوث انقسام بين أتباع النظام القيصرى فيما كان يطلق عليهم الروس البيض، والمؤيدين للنظام الثورى الجديد فيما كان يطلق عليهم الروس الحمر . ولما كان هذا الانقسام قد أدى إلى حرب أهلية طاحنة، فقد أصبح قادة النظام الجديد فى أمس الحاجة لتدعيم نظامهم والتفرغ لمعالجة مشاكلهم الداخلية . ولتلك الأسباب عرض البلاشفة الصلح على ألمانيا مهما كان ثمن ذلك الصلح، وقبلت ألمانيا توقيع الهدنة مع روسيا التى أعقبتها معاهدة برست ليتوفسك فى مارس ١٩١٨ . وفى تلك المعاهدة فقدت روسيا أغنى أقاليمها الزراعية - إقليم أوكرانيا - كما أتاحت لألمانيا فرض سيطرتها على كل من بولندة وفنلندة، بالإضافة إلى ولايات البلطيق الثلاثة إستونيا ولتوانيا ولاتافيا، ومن ثم اعتبر كثير من المؤرخين معاهدة برست ليتوفسك بمثابة إذلال لا مثيل له فى التاريخ الحديث .

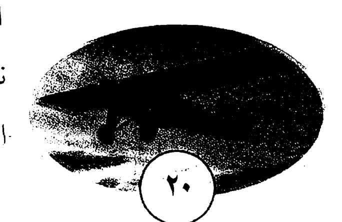


حرب الغواصات الألمانية U Boat Campaign

ركزت ألمانيا جهودها العسكرية فى الجبهة الشرقية على أثر توقف الحرب بينها وبين روسيا على توجيه ضربة قاضية لدول الحلفاء، ووجد قادتها العسكريون أنه يتعين عليهم اللجوء إلى حرب الغواصات بهدف منع الإمدادات عن إنجلترا من مستعمراتها فيما وراء البحار مما يضطرها إلى التسليم . غير أن لجوء ألمانيا إلى ذلك الأسلوب من الحرب كان بمثابة اعتراف من جانبها بتفوق البحرية البريطانية، وأنها لا تستطيع مواجهة ألمانيا فوق المياه، كما أدت حرب الغواصات فى الوقت نفسه إلى استياء الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تقوم سياستها على مبدأ حرية البحار، هذا فضلا عن أنها كانت قد أعلنت حيادها عند نشوب الحرب . وعلى أثر إغراق إحدى الغواصات الألمانية للسفينة الإنجليزية لوزيتانيا، وكان على متنها ألف راكب من بينهم مائة وثمانية عشر راكبا أمريكيا، بادرت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم احتجاج شديد اللهجة إلى ألمانيا مؤكدة فيه أنه إذا ما تكرر هذا العمل فسوف تعتبره عملا عدائيا غير ودى . وعلى الرغم من أن القيادة البحرية الألمانية أصدرت أوامرها إلى قادة الغواصات الألمانية بعدم تفجير البواخر التى تنقل ركابا مدنيين، إلا أنه على أثر نجاح ألمانيا فى بناء أكثر من ثلاثمائة غواصة أصدرت إعلانا جاء فيه أنها لن تسمح بالملاحة بعد أول فبراير ١٩١٧ داخل المنطقة البحرية الممتدة حول السواحل البريطانية والفرنسية والإيطالية، وأنها ستبادر بإغراق أية سفينة تلتقى بها داخل المنطقة التى حددتها دون التفريق بين سفن الدول المعادية والدول المحايدة. ومع أن القيادة العسكرية الألمانية العليا برئاسة هندنبرج ولودندروف Laudendroff كانت تتوقع نتيجة لذلك الإعلان دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، إلا أنها أخذت بوجهة نظر البحرية الألمانية بأنه لو استمرت حرب الغواصات لمدة ستة أشهر فإن هذه المدة كافية لتجويع الشعب البريطانى، مما يجبر بريطانيا على التسليم قبل أن تستطيع الولايات المتحدة تعبئة جيوشها، التى كان من المقدر لها اثنا عشر شهرا على الأقل .

دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب دول الوفاق

كان من الطبيعى أن تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية الإعلان الذى أصدرته القيادة البحرية الألمانية بمثابة تحدى صريح لوضعها كدولة محايدة، ومن ثم قرر الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون Wilson قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، كما أصدر الكونجرس الأمريكى قرارا فى ٢٦ فبراير ١٩١٧ بتسليح البواخر التجارية الأمريكية من أجل الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم يمكن أن تتعرض له من قبل الغواصات الألمانية . وقد اعتبر هذا القرار بمثابة مقدمة للتدخل الأمريكى فى

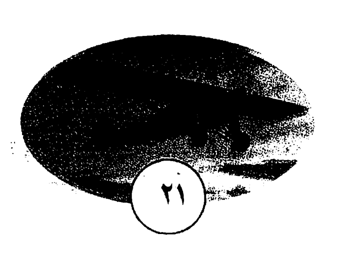


السلطة للعرب وهم ما زالوا بعد أغلبيــة كبيرة فى فلسطين، وقد عاد نيوكومب وهو مقتنع بضرورة فـعل شىء لاسترضاء العرب. غير أنه اصطدم بتشرشل رئيس الحكومة البريطانية المؤيد بالصهيونية العالمية.

وعلى هذا بدأ الكيلانى يجس نبض المحور عن طريق اللجنة العربيــة العليا الفـلسطينية (الحـاج أمين الحسينـى) ، وتم أول اتصال بواسطة ناجى شوكت وزير العدل الذى أوفـد إلى أنقره (تركيا) إثر توقيع فرنسـا الهدنة مع ألمانيا بقصـد بحث مستـقبل سوريا مع الحكومـة التركيـة. وهناك التقى سـرا بالسفيـر الألمانى (٥ يولية ١٩٤٠) وأبلغه أن العرب يحـاولون التخلص من الاستعمار البـريطانى والفرنسى ولكنهم ينظرون إلى إيطاليا بحذر وخشية بوصفها الدولة الاستـعمارية الثالثة فى البلاد العربية (إشارة إلى وجودها فى ليبيا) ، ويرجون مخلصين أن تسارع ألمانيا وحليفتهـا إيطاليا بإعلان بيان مشترك بحسن نياتهما نحو البلاد العربية ، وأنهما توليان قضايا العرب اهتماما خاصا وتعضدان استقلالها استقلالا تاما. لكن السفير أوصى الوزير العراقى بأن يتصل بإيطاليا مباشرة فى مثل هذه الشؤون.

وأسفرت الوساطة مع إيطاليا عن قـيام سفير إيطاليا فى بغداد بتقديم تعـهد كتابى (٧ يولية ١٩٤٠) إلى الكيلانى باسم وزير خارجية إيطاليا الكونت شيـانو جاء فيه أن إيطاليا تستهدف تأمين الاستقـلال التام لكل من سوريا ولبنان والعراق والـبلاد التى تحت الانتداب البريطانى والاحـتفاظ بالكيان السياسى لكل منها ، ولهذا فإنهـا ستقاوم كل ادعاء بريطانى أو تركى لاحتلال أراضى فى سوريا أو لبنان أو العراق.

غيـر أن العراق لم يطمـئن لتصـريح إيطاليا ومن هـنا كان استـئناف السعى لدى الحـكومة الألمانية. وتحقيقا لهذا تم إيفاد السكرتير الخاص للحاج أمين الحسينى (عثمان كمال حداد) فى مهمة سرية إلى برلين خـلال شهرى أغـسطس وسبتـمبر ١٩٤٠ اسـتهدفت إقناع دولتى المحـور بإعلان اعترافـهما بالاستـقلال التام للبـلاد العربية الخاضـعة للانتداب الفرنسى(سـوريا ولبنان) والانتداب الإنجليزى (فلسطين وشـرق الأردن) ، وكذا المستعـمرات والمحمـيات البريطانية (الكويت وعـمان ومسقط وحضرموت وإعادة عدن للمملكة اليمنية) ، وأن تعلنا بشكل قاطع لا مواربة فيه أن ليست لهما أية مطامع استعمارية فى مصر والسودان ، وان تعـترفا أيضا باستقلال مصر والسودان التام ، وتتعهدان بعدم اللجوء إلى أى أسلوب من الأساليب ضد استـقلال البلاد العربية التام ، وتعترفان أيضا بحق البلاد العربية فى تأسـيس وحدتها القومية حسب رغبتـها وبالطريقة التى تراها ، وأنهما لن يتعمدا وضع العراقيل أمام إنشاء هذه الوحـدة ، وكذا حق العرب فى إيجاد حل عادل للقضية



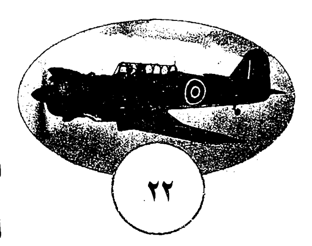
الفلسطينية حسب مصلحة العرب القومية فى مقابل أن يعترف العرب بأفضلية التعاون الاقتصادى مع دول المحور ، وأيضا احترام الوضع الراهن لامتيازات كنائس الإرساليات المسيحية وحرية تمتع المسيحيين فى إقامة طقوسهم الدينية واحتفاظ الكنائس بأملاكها ومؤسساتها الخيرية. ويبدو واضحا من هذه المطالب أن العراق كان يتزعم الدفاع عن قضايا العرب.

ويبدو أن الحكومة الألمانية لم تأخذ الأمور مأخذ الجد ، فبينما كانت المحادثات دائرة أرسلت منشورا سريا إلى سفرائها فى الخارج أشارت فيه إلى أن إعادة التشكيل السياسى للمنطقة العربية أمر من اختصاص حليفتها إيطاليا، ولو أنها (ألمانيا) تحتفظ لنفسها ببعض المطالب فى استغلال النفط العربى وفى طرق المواصلات وبعض الامتيازات الثقافية ، مع التأكيد على كتمان فحوى هذا المنشور عن الدوائر العربية.

ولكن لم يحل شهر أكتوبر حتى كانت تطورات كثيرة قد حدثت فى الشرق الأوسط ساعدت على إصدار تصريح علنى من دولتى المحور (٢٣ أكتوبر ١٩٤٠) بتأييدهما لاستقلال البلاد العربية التام ونضال العرب من أجل هذا الاستقلال :

أما أول هذه التطورات فكانت تجديد وزير العدل العراقى (ناجى شوكت) لاتصالاته بالسفير الألمانى فى أنقرة (فون بابن) ، ووجود شكيب أرسلان الزعيم العربى اللبنانى فى جنيف الذى كان من رأيه إمكانية عقد تحالف عسكرى بين العرب وبين المحور ، وكان يعنى بالعرب العراق والمملكة العربية المقترح إقامتها فى سوريا محل الانتداب الفرنسى (بعد تعيين أحد الهاشميين عليها واسترضاء ابن سعود بشرق الأردن).

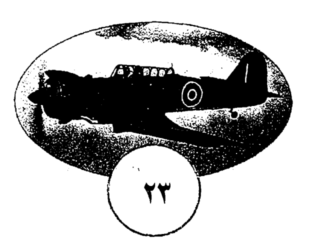
وأما التطور الثانى فيتمثل فى فشل المحادثات التى جرت بين هتلر من ناحية والمارشال بيتان (رئيس حكومة فرنسا المستسلمة لألمانيا) والجنرال فرانكو (إسبانيا) من ناحية أخرى حيث لم تستطع ألمانيا أن تكسب أيا منهما فى صفها بسبب تناقض المصالح الإسبانية الفرنسية فى شمال أفريقية ، إذ كانت إسبانيا تتطلع إلى امتلاك بقية المغرب الذى هو منطقة نفوذ فرنسية بعد أن وضعت يدها بالفعل على ميناء طنجة الدولى. وقد أدرك هتلر أنه لو استجاب لإسبانيا فإنه سوف يغضب فرنسا بلا شك. ووازن بين التحالف الإسبانى وبين إغضاب فرنسا فوجد أن قوة إسبانيا لا تساوى ذلك. وهكذا أصبحت ألمانيا حرة فى أن تعلن تأييدها لاستقلال العرب دون أن تخشى رد فعل لدى الفرنسيين أو الإسبان.



فضـلا عن أن الصلح النهـائى بين ألمانيا والبـلاشفـة - صلح برست ليـتوفـسك -لم يتم إقـراره إلا فى مارس ١٩١٨، ومن ثم كـان على القادة الألمان اتـخاذ احتـياطاتهم بإبقـاء قواتهم العـسكرية فى الجبـهة الروسية توجسا من معاودة روسيا دخولها الحرب من جديد.

لم تلبث معـركة المارن الثانيـة التى وقعت فى الثامن من أغـسطس ١٩١٨ أن سجلت نقطة البداية لانقلاب التـوازن النهائى لصالح الحلفاء، حين استطاع الجنرال فـوش القائد الأعلى للقوات المتحالفة أن يحـرز انتصارا ساحقا ضد القوات الألمانـية، حتى أن القائد الألمانى لودندروف وصف اليوم الذى حـدثت فيه هذه المعركـة باعتباره اليوم الأسـود للجيش الألمانى . وبدا واضحـا عجز الألمان كما كانوا يأملون فى تحـقيق انتصارات على القوات المتحالفة قـبل وصول القوات الأمريكية إلى ميادين القتال، وبذلك يمكن القول أن وصول القوات الأمريكية لم يكن لإنقاذ جيوش الحلفاء، وإنما لاستكمال هزيمة القوات الألمانيـة . وعلى الرغم من انهيار الموقف الألمانى إلا أن القادة الألمان لم يعترفوا بالهـزيمة وتولدت فى نفوسهم الرغبة فى الانتصار أو الاندحـار، ومع أنه كان بوسعهم طلب الصلح قبل أن ينهـار موقفهم تمامـا، إلا أنهم أصروا على المخاطرة بكل شيء ليـربحوا كل شيء ولكنهم خسروا كل شيء!

استطاع الحلفاء أن يحقـقوا فوائد كثيرة من جراء دخول الولايات المتـحدة الأمريكية الحرب إلى جانبـهم، فمن الناحية العـسكرية كان فى وسع الولايات المتحـدة أن تضع فى جبهات القـتال ملايين الجنود، كما كانت الـصناعة الأمريكية على استعداد لتقديم الأسـلحة والذخائر وكافة المواد اللازمة للحرب، إضـافة إلى أن الولايات المتحدة بحكم رئاسـتها لمنظمة الدول الأمـريكية كان فى مقدورها أن تدفع عددا كبيرا من الجمهـوريات اللاتينية فى أمريكا الوسطى والجنوبية للمشاركة فى الحرب . ولم تلبث أن جاءت ساعة الختام حين أخذت ملايين من الجنود الأمريكيين يتدفقون على الجبـهة الفرنسـية وبدأ يظهـر الترنح واضحـا على ألمانيا . وحين أدرك العـسكريون الألمان بأنهم سيخسرون الحرب طلبوا من الحكومة الألمانية التفاوض فى عقد الهدنة مع الحلفاء. وعلى أثر ذلك بادرت الحكومة الألمانية بالاتصال بالرئيس الأمريكى ودرو ويلسون وطلبت إليه وضع شروط للهدنة على أساس المبادئ الأربعـة عشرة التى أعلنها فى رسالتـه السنوية أمام الكونجرس فى يناير ١٩١٨ والتى أكد فيها أن الولايات المتحدة لم تدخل الحرب إلا بهـدف إنهائها وقيام سلام عادل فى عالم



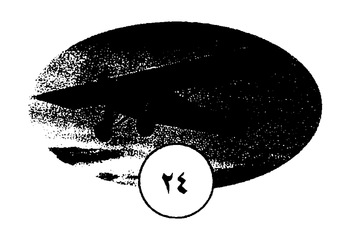
ما بعد الحرب . وقد اشتملت مبادئ الرئيس الأمريكى على نبذ المعاهدات السرية وضمان حرية البحار فى السلم والحرب على السواء وإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول وخفض التسلح وتسوية المشكلات الاستعمارية تسوية عادلة وتعديل الحدود بين الدول الأوروبية بما يتفق ومبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وإنشاء رابطة عامة بين الأمم لتوفير الضمانات المتبادلة لتحقيق الاستقلال السياسى والسلامة الإقليمية . وإلى جانب تلك المبادئ العامة نصت النقاط الأربعة عشرة على إعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا، وإرجاع بلجيكا إلى حيادها واستقلالها، وتسوية المشكلات البلقانية على أساس احترام مبدأ القوميات .

وعلى الرغم من أن العسكريين الألمان أعربوا عن استعدادهم للتفاوض على أساس تلك المبادئ، إلا أن الحلفاء أعلنوا رفضهم التفاوض مع العسكريين الذين اعتبروهم مجرمى حرب، ومن ثم كان إصرارهم على قيام حكومة مدنية تمثل الشعب الألمانى . وعلى أثر ذلك أعلن الإمبراطور ولهلم الثانى تنازله عن العرش وفر إلى هولندا حيث طالب بحق اللجوء السياسي، واستقال القائد الألمانى لودندروف وتبعه عدد كبير من العسكريين . وتشكلت حكومة ديمقراطية اشتراكية فى ألمانيا أعلنت استعدادها لقبول الصلح، ووافق المارشال فوش القائد الأعلى لقوات الحلفاء على عقد الهدنة مع الحكومة الألمانية الجديدة بشرط أن تتحمل ألمانيا تعويضات مالية وعينية عن الخسائر والأضرار التى لحقت بالحلفاء، وأن تنسحب القوات الألمانية من جميع الأراضى التى احتلتها والتراجع إلى ما وراء الراين، كما تسلم سلاحها من المدافع والطائرات والغواصات وتعلن إلغاءها لمعاهدة برست ليتوفسك . وبموافقة

Revolutionstage in Berlin.

Brandenburger Tores.

قوات التحالف في برلين سنة ١٩١٨



لإبعـادهم عن الجيش ، فـرأوا أنه إذا لم يتم لهم تأمين أنفسـهم فى الحال فقـد تضيع الفرصة للأبد. على أنه حين بدأ العقـداء تحركاتهم فى العاصمـة ليلة أول أبريل ١٩٤١ لم يقصدوا إلا إجبـار الهاشمى على الاستقـالة ، وقد حصلوا عليها وبقى أن يصـدق عليها الوصى على العرش ، فلما توجهوا إليه بالقـصر الملكى كان قد غادره لاجئا لقريبه أمير شرق الأردن فتقرر دعوة الـكيلانى إلى رئاسة الحكومة فيما عرف بانقلاب أبريل الموالى للمحور.

بادر الكيلانـى بدعوة مجلس الوزراء القـديم لكى يختـار وصيا على الـعرش بدل الوصى الهارب ووقع الاختيـار على الشريف شرف أحد المسنين من أبناء الأسرة الهاشمـية الحاكمة ، وتم تشكيل الحكومة فى ظروف خاصة تختلف عن الحكومات السـابقة ولهذا وصفت "بحكومة الدفاع الوطنى". وأعلن الكيلانى أن أساس برنامج حكومـته يتلخص فى "عدم توريط البلاد فى أخطار الحرب والقيام بأداء رسالتها القومية ، والمحافظة على تعهداتها الدولية وخاصة المعاهدة مع بريطانيا من حيث الاسـتمـرار فى تنفيذ أحكامـها بروح الود والصـداقة ، وكذا الدوام فى تـقوية الروابط الحسنة مع الدول العربية المجاورة . . ".

ورغم الاعتدال الذى تميز به الكيلانى فإن تشرشل نظر إلى هذا الانقلاب من زاوية المصالح البريطانيـة إذ اعتبـر أن تسلم عناصر مـعروفة بنزعـتها الوطنيـة للسلطة يعد ضـربا لهيبـة بريطانيا الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ومـثلا سيئا قد تحتذيه عـناصر وطنية فى بلاد أخرى. وعلى هذا فـقد طلب فى ٣ أبريل من حكومـة الهند الإسـراع فى إرسال فـصيلة عـسكرية إلى البصـرة ، والقصـد من ذلك كمـا ورد فى مذكـراته ، التحرش بالحكومـة الوطنية الجـديدة أو اختـبار ولاء الحكومة. وقد كان الساسة الإنجليـز يميلون آنذاك إلى الربط بين الأحداث الداخلية فى العراق وبين التقلبات العسكرية فى الميدان الأوروبى ، فذكروا مـثلا أن ثمة تنسيقا بين وقوع انقلاب أول أبريل وبين قيام روميل (الألمانى) بهجومه الأول باتجاه مصر وغزو الألمان للبلقان.

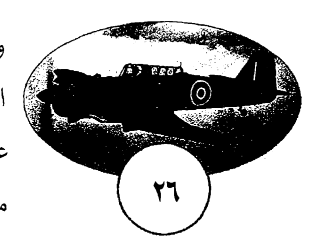
وفى هذا الخصـوص كانت بريطانيا تريد زيادة عـدد قواتها فى العـراق خلافا للمـعاهدة ، وكان موضوع الخـلاف هو هل يجوز لبريطانيا زيادة عدد قواتهـا المرابطة فى العراق أم أن المعاهدة تسمح فقط بالمرور بحيث إنه إذا أرادت بريطانيا إنزال قـوات جديدة للمرابطة فلا بد أن يخرج من العراق عـدد مماثل لعدد القـوات الجديدة ، وكانت تلك هـى وجهة النظر العـراقية. فلـما طلبت

بريطانيا السماح بنزول قوات جديدة إلى البصرة وافق الكيلانى (فى ١٩ أبريل) بشرط سرعة نقل القوات الجديدة وعدم تركزها فى البصرة ، وضرورة الإبلاغ عن قدوم أية قوات أخرى قبل مجيئها بمدة كافية ، وعدم إنزال قوة جديدة فى البصرة إلا بعد خروج القوات التى أنزلت أخيرا إلى العراق.

والحقيقة أن خطة تشرشل من ضرورة إرسال التعزيزات العسكرية إلى العراق كانت تستهدف إنشاء قاعدة للمواصلات فى البصرة وتأمين الطريق الذى يصلها بفلسطين. غير أن الجنرال ويفل قائد عام القوات البريطانية فى الشرق الأوسط اعترض على خطة تشرشل فى وقت يواجه فيه هجوم روميل باتجاه الحدود المصرية ويستعد لإنزال قواته إلى اليونان لمساعد المقاومة فيها ضد قوات المحور. وكان من رأيه أن من الأفضل التفاهم مع حكومة العراق الجديدة. أما تشرشل فكان ينظر إلى المسألة من زاوية الهيبة البريطانية وأصر على ضرورة تخصيص بعض القوات المرابطة فى فلسطين بما فى ذلك الفرقة العربية التابعة لشرق الأردن التى يقودها جلوب باشا لمواجهة التغير الجديد فى العراق. وبعد جدل عنيف بين الرجلين نفذ تشرشل خطته وأنزل تعزيزات أخرى بالبصرة فى نهاية شهر أبريل ١٩٤١ .

وهكذا ووجهت حكومة الكيلانى بتحد صريح من الحكومة البريطانية واتجه تفكير أحد العسكريين فى الحكومة (فهمى سعيد أحد العقداء الأربعة) إلى ضرب حصار على القاعدة البريطانية والاستيلاء عليها بالقوة ولكن الكيلانى رفض الفكرة حتى لا تستغلها بريطانيا. ومع هذا فقد اتخذت بريطانيا من هذا الموقف مبررا لبدء العدوان على القوات العراقية (٢ مايو ١٩٤١) فاحتجت حكومة الكيلانى على العدوان وقررت إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ومع الاتحاد السوفييتى ، وقطعت الاتصال بين السفارة البريطانية فى بغداد وبين الخارج. ومما يجدر ذكره فى هذا الشأن أن المفوضية الأمريكية فى بغداد قامت بدور خطير فى تسهيل المؤامرات التى دبرت ضد الحكم الوطنى الجديد فى العراق.

وفى سوريا ولبنان .. اللتين كانتا خاضعتين للانتداب الفرنسى فنلاحظ أنه عقب إعلان الحرب قامت الإدارة الفرنسية بإيقاف جميع الأحزاب السياسية وتجميد نشاطها وخاصة الحزب القومى السورى الذى اعتبرته من أنصار النازية وذلك لوجود بعض التشابه فى العقائد السياسية وفى تشكيلات الشباب التى ألفها فى الثلاثينيات. ثم لفقت السلطات الفرنسية تهمة تدبير اغتيال

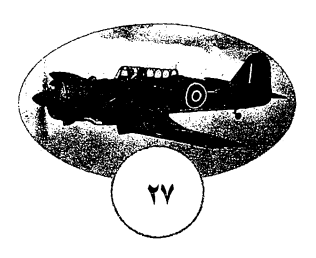


ومعاهدة تريانو مع المجر، ومعاهدة سيفر مع الدولة العثمانية التى تم استبدالها بعد عدة سنوات بمعاهدة لوزان فى عام ١٩٢٣، وكان ذلك على أثر سقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية الحديثة بزعامة مصطفى كمال أتاتورك فى عام ١٩٢٢ .

وقد برز فى مؤتمر باريس عدة شخصيات هامة كان على رأسها جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الذى كان هدفه الانتقام من ألمانيا، حيث كانت تتمثل أمامه الذكريات المؤلمة التى أنزلتها ببلاده فى الحرب السبعينية وأدت إلى إذلالها . والشخصية الثانية التى برزت فى المؤتمر تمثلت فى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وكان أكثر اعتدالا من كليمنصو وكان أكثر ما يكون حرصا على تحقيق التوازن الدولى فى أوروبا، وعدم ترك المجال لفرنسا لكى تنفرد بتوجيه السياسة الأوروبية . ومن ثم كان يرى أن لا تتمادى فرنسا فى فرض شروط تعجيزية على ألمانيا بمطالبتها بتعويضات فادحة والسيطرة على مناجمها وشل قدراتها الإنتاجية، إذ ليس من المعقول على حد ما كان يصرح به فى المؤتمر أن تعامل فرنسا ألمانيا كبقرة تريد أن تأخذ منها اللبن واللحم فى آن واحد! . وفضلا عن ذلك فإن إلزام ألمانيا بدفع تعويضات باهظة يعنى استرجاع إنتاجها الصناعى وقوتها الاقتصادية وما يستتبع ذلك بالضرورة زيادة قوتها العسكرية . أما من حيث نصيب بلاده من غنائم الحرب فقد ركز مطالبه على تحقيق أكبر المكاسب فى الحقل الاستعمارى، إذ لم تكن لبريطانيا مطالب إقليمية أو توسعية يعتد بها فى القارة الأوروبية .

والشخصية الثالثة التى برزت فى مؤتمر الصلح هى شخصية ودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وصاحب المبادئ الأربعة عشرة التى دخلت الولايات المتحدة الحرب على أساسها. ومن ثم كان أكثر تشبثا بتلك المبادئ وإن لم يستطع أن يضعها موضع التنفيذ أمام صلابة جورج كليمنصو وتعنته . ولعل كليمنصو كان يسخر بينه وبين نفسه من تلك المبادئ التى كانت تزيد عن الوصايا العشر التى جاء بها موسى عليه السلام !. ونتيجة للتشدد الذى وجده ويلسون فى المؤتمر لم يجد سبيلا سوى التضحية بمبادئه على أمل أن تستطيع عصبة الأمم تصحيح الأخطاء المترتبة على الشروط القاسية التى فرضت على الدول المنهزمة . وليس من شك فى أن ويلسون كان مسئولا عن انخداع ألمانيا بمبادئه، وعن تعلّق الشعوب المستعمرة بمبدأ حق تقرير المصير الذى لم يستطع الدفاع عنه .

أما المندوب الإيطالى فيتوريو أورلاندو فقد كان همه أن يحصل لبلاده على أكبر ما يمكن أن تحصل عليه من الأراضى والأقاليم النمساوية، وأن يحقق الحلفاء لإيطاليا ما سبق أن وعدوها به فى معاهدة لندن ١٩١٥ والتى على أساسها دخلت الحرب إلى جانبهم. وعلى الرغم من أنها



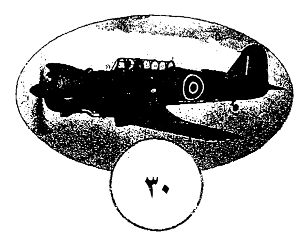
استطاعت أن تظفـر بإقليم التيرول ومـيناء تريستا وأجـزاء من سواحل دالماشيـا، إلا أن تلك المكاسب لم تحقـق طموحات الشـعب الإيطالى التى كانت تلوح فى ذهنه فكرة اسـترجاع إيطاليا لعظمـة الإمبراطورية الرومـانية القـديمة، غـير أن أورلانـدو لم يكن فى وسعـه مـواجهـة كليمنصـو الذى وضحت سـيطرته على مؤتمر الصلح، كـما كان لا يكف عن اسـتهزائـه بإيطاليا وبالدور الهزيل الذى لعبتـه فى الحرب، كما وجدت المطالب الإيطالية فى جزيرة البلقـان معارضة من قبل الرئيس ويلسـون الذى كان يرى فى تلك المطالب تعارضـا مع مبدأ القوميـات وحق تقرير المصير الذى كان يدعو إليه فى مبادئه الأربعة عـشر. وترتب على عدم تحقيق إيطاليا لأطماعها أن خرجت غاضبة من المؤتمر على أساس أنها لم تحصل من غنائم الحرب إلا على الفتات !.

ومع أن اليابان دعـيت للمشاركة فى المؤتمر باعـتبارها من الدول المنتصـرة فى الحرب بحكم التحـالف الذى كان قـائما بينهـا وبين إنجلترا، إلا أن كل اهتـمامـها فى المؤتمر انحصـر فى تأمين المكاسب التى حققتهـا خلال الحرب على حساب المستعمرات التى كانت خـاضعة لألمانيا وروسيا فى الشرق الأقصى.

معاهدة فرساى ١٩١٩

تعد معاهدة فرساى من أهم معـاهدات الصلح التى تم إبرامها عقب الحرب، وترجع أهمية تلك المعـاهدة إلى مـا ترتب عليـهـا من نتـائج خطيـرة . ويمكن القول بـأنه إذا كانت مـعـاهدة فرانكفورت عـام ١٨٧١ التى أعقبت الحرب السبعـينية بين ألمانيا وفرنسا قـد وضعت بذور الحرب العالمية الأولى، فإن مـعاهدة فرساى قد وضعت بلا شك بذور الحرب العـالمية الثانية، إذ إن تلك المعاهدة بما تضـمنته من شروط قـاسية أوغرت صـدور الألمان وجعلتهم يتطلعـون إلى اليوم الذى يستطيعون فيه تمزيقـها، ونظروا إليها باعتبارها هدنة مؤقتة قد تتـيح لهم الوقت الذى يستعدون فيه للانتـقام من فرنـسا والتخـلص من تلك المعاهدة التى فـرضت عليهم والتى وصـفوها بالمـعاهدة الإملائية ديكتات دى فرساى Diktat de Versaille

وقد تعمـدت فرنسا أن يتم توقيع تلك المعـاهدة فى صالة المرايا بقصر فـرساى، وهى نفس القاعة التى شهدت تتويج القيصر ولهلم الأول إمبراطورا على الرايخ الألمانى عقب هزيمة فرنسا فى



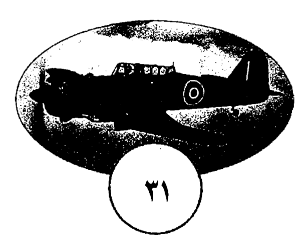
وإعلان الجمهورية التركية فى عام ١٩٢٢ ، وأبدى عدم اعترافه بمعاهدة سيفر بحكم التغير الذى أحدثه فى نظام الدولة السياسى وطالب الحلفاء بإبرام معاهدة جديدة، ووافق الحلفاء على عقد معاهدة لوزان ١٩٢٣ التى بموجبها استعادت الجمهورية التركية سيادتها وأنهت احتلال الحلفاء لمضايق الدردنيل والبوسفور، غير أنها وافقت على حرية الملاحة فيهما وتحييدهما . وأكدت معاهدة لوزان ما سبق أن ورد فى معاهدة سيفر من حيث تنازل الجمهورية التركية عن جميع الولايات العربية والأوروبية التى كانت تابعة للدولة العثمانية، وبذلك انحصرت العناصر الخاضعة للجمهورية التركية على العناصر التركية فى شبه جزيرة الأناضول باعتبارها الموطن الرئيسى لتلك العناصر

عصبة الأمم League of Nations

أدت الخسائر الفادحة التى منيت بها أوروبا خلال سنوات الحرب إلى البحث عن وسيلة لإقرار السلام والأمن الدوليين . ويمكننا تصور الأبعاد المخيفة لما سببته الحرب من كوارث مادية وبشرية إذا ما ألقينا نظرة سريعة على بعض الأضرار التى نجمت عنها، حيث قدرت خسائر الأرواح من العسكريين بما لا يقل عن عشرة ملايين كان أغلبهم بين سن العشرين والأربعين، أى فيمن يطلق عليهم الديموجرافيون بالنفوس العاملة، مما ترتب على ذلك نقص حاد فى الأيدى العاملة فى جميع الدول المنتصرة أو المنهزمة على السواء . كما بلغ عدد الجرحى من العسكريين عشرين مليونا وبعضهم - إن لم يكن معظمهم - وصلت جروحهم إلى حالات من العجز الكلى.

أما خسائر المدنيين التى جاءت نتيجة القصف البرى أو الجوى أو البحرى فقد وصلت إلى درجة من الصعب تقديرها . غير أن الأضرار المادية التى نجمت عن تدمير وسائل الإنتاج من معامل ومصانع أو إغراق للسفن التجارية، وما لحق الأراضى الزراعية فى مناطق العمليات العسكرية من دمار أو إحراق فقد قدرت بأكثر من مائة وخمسين بليونا من الدولارات، كما قدرت تكلفة الحرب بأكثر من ذلك . إضافة إلى تعبئة عشرات الملايين من الأفراد فى العمليات العسكرية وما ترتب على ذلك من خسائر فى الحياة المدنية .

وعلى الرغم مما هو متفق عليه من أن عصبة الأمم ارتبطت بالرئيس الأمريكى ودرو ويلسن وبمبادئه الأربعة عشرة، إلا أنه لم يكن مع ذلك أول من نادى بفكرة قيام مجتمع دولى من أجل السلام، إذ من المعروف أن كثيرا من الفلاسفة والمفكرين السياسيين قد سبقوه فى تلك الدعوة، غير أن ما يحسب له ذلك الدور الذى قام به من أجل إخراج تلك الفكرة إلى حيز التنفيذ، وإصراره

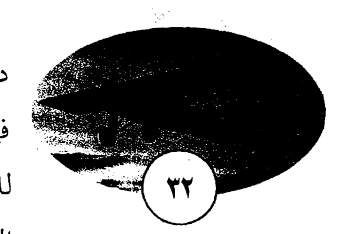


على أن يكون الميثاق الذى وضع للعصبة جزءا لا يتجزأ من معاهدات الصلح .

وقد تم إقرار ميثاق العصبة فى الثامن والعشرين من أبريل ١٩١٩ الذى نص على كونها منظمة دولية تحمى السلام ليس بقوة السلاح وإنما بقوة الرأى العام العالمى، وأن الهدف من قيامها هو تشجيع التعاون بين الأمم والحفاظ على السلام والأمن الدوليين، حيث أوكل للدول الأعضاء فى العصبة تحكيم العقل فى المنازعات الدولية وبألا تقوم أية دولة باتخاذ إجراءات عسكرية ضد دولة أخرى دون عرض النزاع على مجلس العصبة الذى يقرر ما يراه بشأن ذلك النزاع، مع توقيع عقوبات على الدول المخالفة لنصوص الميثاق . وبصدد ذلك ألحق بعصبة الأمم محكمة دولية للعدل اتخذت من لاهاى مقرا لها وذلك للنظر فيما ينشب من منازعات بين الدول يمكن تسويتها بمقتضى أحكام القانون الدولى، مع إلزام الدول المتنازعة باحترام القرارات والأحكام التى تصدر عنها. وفضلا عن ذلك فقد عهد إلى مجلس العصبة الإشراف على تحديد التسلح والحد من القدرات العسكرية للدول بما يكفى فقط المحافظة على أمنها الداخلى . ومن الملاحظ أن نظام العصبة راعى وضعية الدول المنتصرة فى الحرب، حيث نص على تشكيل مجلس للعصبة يتألف من أعضاء دائمين يمثلون الدول المنتصرة إلى جانب جمعية عمومية تضم الدول الأخرى الأعضاء فى العصبة .

ويرتبط بقيام عصبة الأمم إنشاء نظام الانتداب الذى عهدت فيه العصبة للدول المنتصرة فى الحرب إدارة المستعمرات التى كانت تابعة للدول المنهزمة - ألمانيا والإمبراطورية العثمانية - وطبقا لذلك النظام كان من المفترض أن تراعى الدول المنتدبة رفاهية الشعوب المستعمرة والعمل على تقدمها نحو الحكم الذاتى إلى أن تقف على قدميها وتصل إلى المستوى الذى يمكن أن يؤهلها إلى الاستقلال غير أن تلك الأمور لم تتحقق، إذ خالفت الدول المنتدبة تلك الشروط والتى كان من بينها أن تقدم الدولة المنتدبة تقارير سنوية إلى مجلس العصبة عن أعمال انتدابها، وكان من نتيجة ذلك أن تحول نظام الانتداب إلى صورة جديدة من صور الاستعمار .

ولم يقتصر دور العصبة على وضع نظام للانتداب أو محاولة حل المنازعات الدولية، وإنما اهتمت إلى جانب ذلك ببعض الأمور الإنسانية وخاصة فيما يتعلق بتحسين أوضاع العمال وترقية مستواهم الاجتماعى ومنحهم العديد من الامتيازات عن طريق مكتب العمل الدولى الذى ألحق بالعصبة، وعمل على حث الدول على اتخاذ الإجراءات الخاصة بالتأمين الصحى وتحديد ساعات العمل ودفع تعويضات عن حوادث العمل والقضاء على مشكلة البطالة ومنع تسخير النساء والأطفال فى العمل الليلى، أو فى أعمال لا تتفق مع قدراتهم .



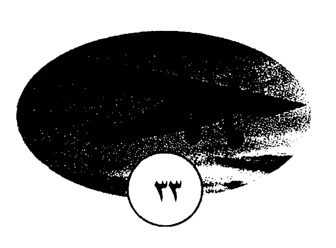
وهكذا . . ففى نهاية شهر سبتمبر (يوم ٢٨) أعلن كاترو قيام دولة سوريا مما فسره البعض بأن ذلك كان رضوخا لتصريح تشرشل فى مجلس العموم. ولكن يبدو أن تأكيد فرنسا للصفة الجمهورية للدولة السورية الجديدة ما يجعلنا نعتقد بأن فرنسا بادرت إلى هذا الإعلان لكى تحول دون تحقيق فكرة الهلال الخصيب التى كان الحديث يتجدد عنها آنذاك والتى من شأن تحقيقها ذوبان النفوذ الفرنسى الضئيل فى المنطقة داخل دائرة النفوذ البريطانى الأكثر اتساعا. على أن السوريين لم يعتبروا هذا الإعلان تقدما حقيقيا نحو الاستقلال ، ذلك أنه اقترن بتعيين تاج الدين الحسنى مفوضا عاما لرئاسة الدولة الجديدة وهو شخصية معروفة بولائها للاستعمار ، وسبق له أن تعاون مع الانتداب وقبل رئاسة الحكومة مرتين فى عامى ١٩٢٨ و١٩٣٤ مما أدى إلى امتناع الوطنيين عن قبول المناصب الوزارية. وفى ٢٦ نوفمبر صدر تصريح مماثل بإعلان قيام دولة لبنان.

غير أن عدة دول بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية تحفظت إزاء الاعتراف بالنظام الجديد فى كل من سوريا ولبنان. ووقفت الحكومة المصرية موقفا مشابها إلى حد ما فذكرت أنها تعترف بالاستقلال ولكنها لا تعترف بالحكومة التى أقامها المفوض العام. كذلك امتنعت تركيا عن الاعتراف بالدولتين لأنهما ما تزالان تتبادلان التمثيل الدبلوماسى مع حكومة فيشى باعتبارها الحكومة الفرنسية الشرعية. كما امتنع العراق ولكن لسبب مختلف وهو ترقب فرصة تحقيق الهلال الخصيب. وعلى العكس بادرت بريطانيا إلى الاعتراف بالدولتين وعينت وزيرا مفوضا لها لدى كل منهما.

على كل حال . . سعى كاترو إلى إعادة العمل بمشروع معاهدة ١٩٣٦ التى كان السوريون قد قبلوها ورفض البرلمان الفرنسى المصادقة عليها. وفى سبيل تحقيق ذلك اتصل كاترو بهاشم الأتاسى أحد الزعماء القدامى للكتلة الوطنية وعرض عليه رئاسة الجمهورية فى مقابل أن يعلن أنه قد تم اتفاق سرى بشأن وضع معاهدة ١٩٣٦ موضع التنفيذ. وقد قبل الأتاسى مبدئيا العمل بالمعاهدة أثناء فترة الحرب ولكنه رفض أن يشترك فى مؤامرة مع الفرنسيين ضد الحركة الوطنية.


هاشم الأتاسى

لقد أصبحت المشكلة إذن خلال عام ١٩٤٣ تدور حول كيفية تكوين حكومة سورية ، ولو أن الوطنيين السوريين كانوا ما يزالون

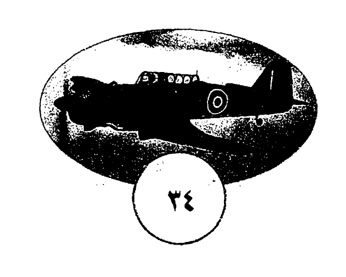


يتشككون فى نيات بريطانيا رغم أنها أظهرت تأييدها لإجراء انتخابات حرة لجمعية تأسيسية تختار رئيسا للدولة بالطريقة التى تراها. وكان هذا سبب ضيق ديجول حتى لقد هدد مرة ثانية بالكف عن التعاون مع الإنجليز والانزواء فى أفريقيا الاستوائية. وكان يشجعه على هذا التهديد صمود الفرنسيين فى معركة بير حكيم بليبيا مقابل استسلام البريطانيين فى طبرق.

ولكن فى أوائل عام ١٩٤٣ تغيرت الأوضاع بعد انتصار الحلفاء فى معركة العلمين فى صحراء مصر الغربية ، وقيام تشرشل بتأييد ديجول لتولى زعامة الفرنسيين فى شمال أفريقيا، وابتعدت ميادين القتال عن الشرق الأوسط فزالت الحجة التى تذرع بها الفرنسيون لتأجيل الانتخابات. وهكذا أصدرت جبهة التحرير الوطنى الفرنسية (اتخذت الجزائر مقرا لها) قرارا فى ٢٤ يناير ١٩٤٣ بإجراء الانتخابات لجمعية وطنية فى كل من سوريا ولبنان.

وعندما جرت الانتخابات النيابية فى سوريا خلال صيف ١٩٤٣ تفوقت الكتلة الوطنية التى كانت أشبه بجبهة مؤتلفة برز فيها جيل جديد يتزعمه شكرى القوتلى الذى حل محل هاشم الأتاسى فى زعامة الكتلة وصار المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية. ومنذ بدء المفاوضات بين الحكومة السورية وبين السلطات الفرنسية تبين اتساع الخلاف فى وجهات النظر. فقد ذكر المفوض الفرنسى أن الانتداب يعتبر قائما ولا يمكن إلغاؤه إلا بعقد معاهدة على نمط المعاهدات التى تربط بريطانيا ببعض الدول العربية ، فضلا عن أن الانتداب صدر عن عصبة الأمم ولا يمكن إلغاؤه إلا بعد قيام منظمة دولية أخرى تحل محلها. غير أن


«هاشم الأتاسى» يسلم على «شكرى القوتلى» بينهما «محسن البرازى» وفى اليمين «فارس الخورى» «عاصم النائلى» وراءه «حسن جبارة»





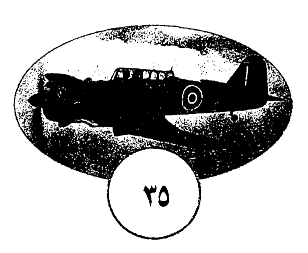
لكى نتفهم الظروف والعوامل التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، قد يكون من الضرورى التعرف على الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية التى كانت عليها الدول الأوروبية فى فترة ما بين الحربين العالميتين .

ولعل أهم ما يميز تلك الفترة هو نمو الأنظمة الشمولية فى بعض الدول الأوروبية، وذلك على الرغم من أن السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى قد تميزت بإعلان المبادئ الديمقراطية، إلا أن تيار المد الديمقراطى سرعان ما انحسر بعد سنوات قليلة من الحرب، حيث نبذت الأفكار الديمقراطية، خاصة فى إيطاليا وألمانيا وعادت دول أوروبا الوسطى إلى تقاليد الحكم الديكتاتورى المستبد، وتركزت السلطة فى يد فرد واحد نصب نفسه ممثلا للشعب والدولة .

ويعد النظام الفاشى الذى ظهر فى إيطاليا، والنظام النازى الذى ظهر فى ألمانيا من أهم تلك التحولات الشمولية التى شهدتها أوروبا فى سنوات ما بين الحربين العالميتين . وليس من شك فى أن تلك التحولات الشمولية كانت وليدة النتائج التى تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى . ويرجع ذلك إلى أن إيطاليا لم تكن قانعة بنصيبها من غنائم الحرب، واعتقدت أن حلفاءها لم يتركوا لها إلا الفتات، فعلى الرغم من المكاسب التى حققتها فى أوروبا وفى المستعمرات الإفريقية، إلا أن الشعب الإيطالى كان يتطلع إلى المزيد . أما ألمانيا فكانت تتحين الفرصة التى تستطيع من ورائها التخلص من شروط معاهدة فرساى التى ظل الشعب الألمانى يعتبرها إهانة وإذلالا لحق ببلاده. ومن الواضح أن عوامل الاستياء التى ظهرت فى كل من إيطاليا وألمانيا كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى قلب الأوضاع السياسية فى هاتين الدولتين واتجاههما إلى الأنظمة الشمولية، فكانتا تتطلعان من ورائها إلى التغلب على ما ساد شعوبهما من إحباط والتطلع إلى مزيد من المكاسب .

الفاشية فى إيطاليا

إضافة إلى الاعتقاد الذى ساد لدى الإيطاليين بأن المكاسب التى حصلت عليها إيطاليا فى الحرب لا تساوى الجهود التى بذلتها، وأن الحلفاء حرموها من ثمار النصر ولم يسمحوا لها إلا

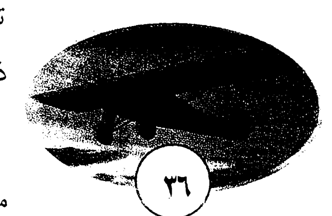


بقدر ضئيل من غنائم الحرب وخاصة فى المجال الاستعمارى، إضافة إلى شعور الاستياء هذا كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية التى تخلفت عن الحرب تسير من سيئ إلى أسوأ نتيجة تفشى البطالة وفشل الجنود المسرحين بعد انتهاء الحرب فى إيجاد عمل لهم، كما أخذت البلاد تعانى الكثير من عدم الاستقرار فى الحكم .

ولعل تلك الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المضطربة ساعدت على تكوين الحزب الفاشستى الذى تزعمه بنيتو موسولينى وعمل على صبغه بصبغة اشتراكية وقومية متطرفة . ولم يكد يمضى وقت طويل حتى أصبح ذلك الحزب هو المسيطر على الأوضاع السياسية فى إيطاليا، إذ استطاع موسولينى بتنظيمه الحزبى الذى أخذ طابعا عسكريا تمثلت بفرق الميليشيا أن يخضع العديد من المدن الإيطالية وبدأ فى الزحف على العاصمة روما، مما اضطر فيكتور عمانويل ملك إيطاليا إلى أن يعهد إليه برئاسة الحكومة الإيطالية فى عام ١٩٢٢ . واستطاع موسولينى بفضل استعانته بحزبه أن ينحو بالبلاد منحى ديكتاتوريا حتى أصبحت الدولة ممثلة فى شخص الزعيم أو فيما كان يطلق عليه الدوتشى Duce .



صور مختلفة لموسولينى



تم تسليم حكومة دمشق الجديدة إدارة المناطق التى كانت تتمتع بحكم ذاتى مثل جبل الدروز وبلاد العلويين.

ولكن بقى موضوع تسليم "الجند الخاص" وهى قوات تتكون من عناصر مختلطة كالشركس والأرمن بالإضافة إلى سكان البلاد الأصليين ، وكانت تتبع قيادة الجيش الفرنسى وتقوم بأعمال الشرطة، وقدر عددها آنذاك بخمس وعشرين ألفا. وقد طالبت الحكومة السورية الجديدة بتسليم فرق الجند الخاص إليها لتكون نواة جيشها الوطنى ولمواجهة الأعباء المتزايدة وخاصة بعد إلحاق منطقة العلويين وجبل الدروز. ولكن بينما قامت فرنسا بتسليم فصيلة من الجند الخاص إلى الحكومة اللبنانية (يونية ١٩٤٤) ربما بقصد إحداث تفرقة جديدة لم تنجح فيها ، احتفظت فى سوريا بالجند الخاص ورفضت تسليمه للحكومة الجديدة حتى وقع الصدام فى العام التالى.

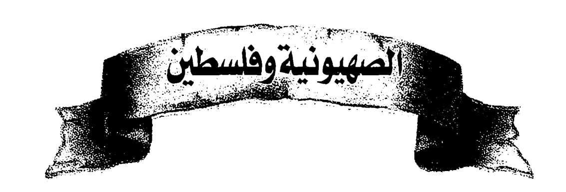
وكان ديجول بعد تحرير فرنسا من الاحتلال الألمانى خلال عام ١٩٤٤ واعتراف الدول بحكومته المؤقتة يفكر فى التصلب من جديد إزاء قضية استقلال سوريا ولبنان. لكن المناخ السياسى العام كان فى صالح سوريا ولبنان إذ اعترفت باستقلالهما كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى اللتين أعلنتا أنهما ترفضان تفوق نفوذ أية دولة أوروبية فى سوريا ولبنان. كذلك تأكد استقلال سوريا ولبنان اقتصاديا عن فرنسا عندما فضل الوطنيون استمرار الارتباط بالإسترلينى حتى لا يتعرض النقد السورى للتقلبات الشديدة التى أصابت الفرنك الفرنسى آنذاك.

غير أن فرنسا كانت تطالب بعقد معاهدة تحتفظ لها بثلاثة أنواع من الامتيازات : استقلال المؤسسات الثقافية ، واستمرار شركات الامتياز فى ممارسة نشاطها ، والاحتفاظ ببعض القواعد الجوية والبحرية. وكان مقررا أن تبدأ المفاوضات حول هذه الأمور وغيرها يوم ١٩ مايو ١٩٤٥ غير أن الحكومة الفرنسية رأت أن تستخدم أسلوب التهديد قبل بدء المفاوضات وأخذت بعض التعزيزات تصل إلى بيروت ابتداء من ١٥ مايو مما أثار احتجاج الحكومتين السورية واللبنانية وأدى إلى قطع المفاوضات.

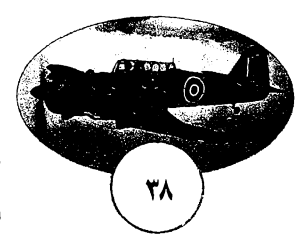
والحق أن الأشهر السابقة على مايو لم تخل من وقوع مناوشات بين قوات الاحتلال وبين الوطنيين ، واتسع نطاق الصدام إلى حد لم يسبق له مثيل بدأ بإضراب عام احتجاجا على إرسال التعزيزات ، ثم وقع اشتباك حول محطة حماة ، ووقعت مصادمات فى حلب وانتهى الأمر بقصف دمشق جوا فى ٢٩ مايو ١٩٤٥ راح ضحيته نحو خمسمائة قتيل وألف وأربعمائة جريح .

وهنا أقدمت بريطانيا على توجيه إنذار لفرنسا (٣١ مايو ١٩٤٥) يفوق إنذارها فى نوفمبر ١٩٤٣ بمناسبة الصدام فى لبنان كما سبقت الإشارة طالبت فيه فرنسا بأن تكف عن إطلاق النار وأن تنسحب قواتها إلى الثكنات ، وأنه حال إتمام ذلك ستبدأ محادثات ثلاثية فى لندن. وقد استخلص السوريون بدورهم من نهاية الحرب نتيجة أخرى مضادة وهى أن الظروف الجديدة تسمح لهم بالمطالبة بالاستقلال التام والجلاء وهو ما كانوا يصبرون عليه مادام الصراع الدولى قائما.

أما فى شرق الأردن.. فكانت الحالة هادئة بفضل ولاء أميرها إلى بريطانيا وحاجته إلى معونتها. ولم يحدث ما يعكر صفو هذا الولاء إلا تمرد الفيلق العربى الأردنى ورفضه التقدم إلى العراق لإخماد حركة الكيلانى فيها كما سبقت الاشارة. وقد أوردت المراجع هذه الحادثة بعدة تفسيرات . . فالجنرال جلوب الإنجليزى قائد الفيلق ينسب هذا التمرد إلى نفر قليل من المهيجين ولا يعترف بتضامن عرب الأردن مع عرب العراق فى مقاومة النفوذ البريطانى. وهناك من يذكر أن قوة الحدود الأردنية تمردت عند وصولها إلى الحدود العراقية ولما أمرها ضباطها الإنجليز بمواصلة السير أدارت رشاشاتها عليهم وتوعدتهم بالرمى إن لم يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها فى شرقى الأردن.



عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية كانت الظروف الدولية مواتية أكثر للحركة الصهيونية ، إذ إن سياسة ألمانيا النازية ضد يهود أوروبا جعلت منهم أصدقاء طبيعيين للحلفاء، وأصبح انتصار هؤلاء يعنى كسبا محققا للصهيونية ، على حين لم تكن الظروف مواتية لعرب فلسطين بل كانت ضدهم، فمثلا لم يترك الانتداب البريطانى مجالا حقيقيا لنمو حكم ذاتى فى فلسطين لأن السياسة البريطانية كانت ترفض تسليم السلطات الفعلية إلى أهل البلاد مادام العرب هم أصحاب الأغلبية الساحقة ، ولهذا لم يكن بوسع العرب سوى اللجوء إلى الثورة المسلحة. وقد شهدت فلسطين أعنف الاشتباكات بين العرب وبين سلطة الانتداب البريطانى فى المدة من ١٩٣٦- ١٩٣٩ .

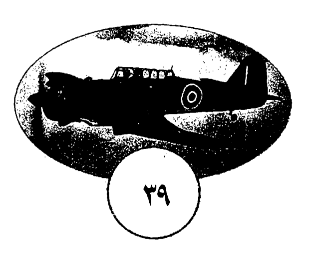


لبرنامج ذلك الحزب الذى وجد استجابة فى نفوس الألمان، إضافة إلى ما كان ينادى به هتلر فى خطبه الجماهيرية الحماسية من استعادة ألمانيا لمجدها له أثر كبير فى التفاف الشعب حول الزعيم أو الفوهرر Fuhrer الذى وعد الجماهير بمستقبل ألمانى مشرق وتحقيق الرفاهية للشعب الألمانى . وظهر تعلق الألمان بالحزب النازى الذى وضع برنامجا له يقوم على تحقيق بعض المبادئ الاشتراكية والاجتماعية وعلى استعادة ألمانيا لقوتها العسكرية ووحدتها السياسية، وأن تسترد الأراضى التى فقدتها فى معاهدة فرساى وأن تعمل على التوسع خارج حدودها. ولعل هتلر كان متأثرا إلى حد كبير بفكرة المجال الحيوى Lebensraum التى أخذها عن بعض علماء الجغرافيا السياسية من أمثال ماكندر، الذى كان يرى أن القضاء على قوة فرنسا هو الذى يتيح المجال لألمانيا للتوسع خارج حدودها الإقليمية .

وإلى جانب ذلك وضعت النازية أيديولوجية لها تميزت بعدائها الشديد للشيوعية وتأكيدها على القومية والعنصرية وعدم الارتباط بالدين كعنصر من عناصر تكوين الدولة . وقد عبر هتلر عن تلك الأيديولوجية النازية فى كتابه الشهير " كفاحى " Mein Kempf الذى وضعه خلال السنوات التى قضاها فى السجن . ويعد ما جاء فى ذلك الكتاب ملخصا للفلسفة السياسية والاجتماعية للأيديولوجية النازية . وعلى الرغم مما تميزت به تلك الأيديولوجية من قدر كبير من الإبهام والغموض، إلا أنه كان واضحا تركيزها بصفة خاصة على المفهوم العرقى وتمجيد العنصر الآرى الذى ينتمى إليه الشعب الألمانى باعتباره أرقى الأجناس، وأن الأمة لا تكون قوية إلا إذا عرفت كيف تحافظ على نقاء عرقها . وبصدد ذلك شن هتلر هجوما عنيفا على اليهود حيث اتهمهم بكونهم مسئولين عن الكوارث التى حلت بألمانيا . وكانوا فى نظره جنسا متدنيا وليسوا إلا أمة من الطفيليين . وتؤكد الأيديولوجية النازية على المكانة التى يتمتع بها الزعيم باعتباره ممثلا للشعب والدولة بينما لا يتمتع الفرد العادى بأية أهمية أو كيان خاص إذ ينبغى أن يكون الهدف هو مصلحة الجماعة وأن الفرد لا يعدو كونه خادما للدولة .

لقد تساءل الكثيرون عن الكيفية التى استطاع بها هتلر أن يصل إلى منصب المستشارية الألمانية ثم إلى رئاسة الرايخ الألمانى الثالث على الرغم من أنه عاش فقيرا قبل الحرب العالمية الأولى وعمل بالرسم وتلوين البطاقات البريدية، وحين نشبت الحرب تطوع كصف ضابط فى الجيش الألمانى ولم يحصل إلا على رتبة رقيب ! .

وللإجابة عن ذلك التساؤل يمكن التركيز على العوامل التالية :



أولا – ما تميز به هتلر من شخصية كاريزمية وإرادة صلبة وطموح يصل إلى حد الجنون.

ثانيا –الظروف الاقتصادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المتدنية التى عاشتها ألمانيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى والتى ترتب عليها تفشى البطالة والانحلال الخلقى .

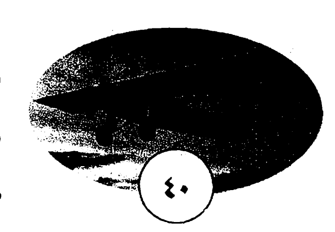
ثالثا– اجتياح التيار الشيوعى دول شرقى أوروبا حتى أصبح يهدد ألمانيا ذاتها، مما دفع كبار الرأسماليين وأصحاب الصناعات الألمان إلى تقديم مساعدات مالية كبيرة للحزب النازى كى يتصدى للخطر الشيوعى، وكذلك التصدى لليهود الذين كانوا يعانون من منافستهم لهم .


هتلر يتخذ الصليب المعقوف رمزا لدول المحور

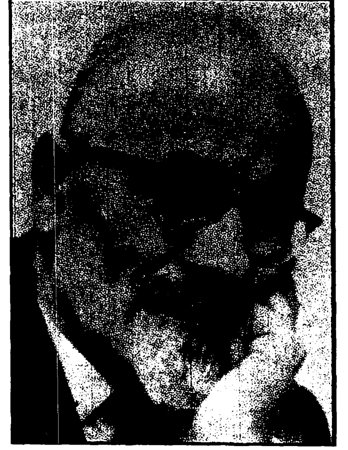
رابعا – الأسلوب الذى اتبعه هتلر فى تنظيم حزبه تنظيما فاشستيا مستفيدا من تجربة موسولينى فى إيطاليا . وقد اتخذ هتلر من الصليب المعقوف رمزا للحزب، كما كان للمنتمين للحزب النازى زى خاص بهم، كذلك استخدم الحزب النازى أسلوب العنف الذى تمثل فى منظمات الكفاح المسلح التى كانت على نوعين :

أولهما، فرق الهجوم أو فيما كانت تعرف بفرق العاصفة S.A، وكان أفرادها من ذوى القمصان الرمادية أو الحديدية .

وثانيهما، فرق الدفاع أو الحرس S.S من ذوى القمصان السوداء . وكان من مهام فرق الهجوم والدفاع التابعة للحزب إضعاف الأحزاب الأخرى وإرهاق أتباعها حتى يصبح الحزب النازى هو الحزب المسيطر . والملاحظ تزايد قوة تلك الفرق والمنظمات من الناحية العسكرية حتى أصبحت تمتلك فرقا للطيران والآليات، إلى جانب شرطة سرية استخبارية وهى ما صارت تعرف بالجستابو Gestapo .



حزب المحافظين عارض الكتاب الأبيض وقال إنه يتعارض مع المادة السادسة من قانون الانتداب الذى أقر تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ولهذا نراه يوقف العمل صراحة بالتزامات الكتاب الأبيض عندما أصبح رئيسا للحكومة البريطانية فى مايو



حاييم وايزمان

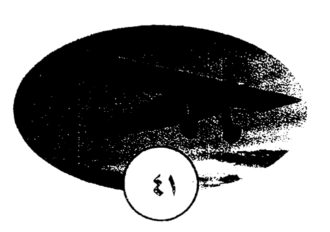
وعلى هذا اتصل حاييم وايزمان بتشرشل فى ديسمبر ١٩٣٩ وعرض عليه مشروعا بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين تتسع لأربعة ملايين مهاجر. ولم يكتف تشرشل بالموافقة عليه بل لقد أوفد وايزمان إلى الولايات المتحدة ليضع خبرته كعالم كيميائى فى خدمة الصناعة الحربية ويلعب دورا فى الخفاء لجر الولايات المتحدة للتحالف مع بريطانيا فى الحرب.

وفى واشنطن نجح وايزمان فى توثيق صلاته بالرئيس الأمريكى روزفلت وأصبح لليهود تأثير قوى على الحكومة الأمريكية اشتد بعد دخولها الحرب. ويبدو مرجحا أن اليهود لعبوا دورا لتوجيه جزء كبير من الجهد الأمريكى نحو شمال أفريقيا وخاصة بعد وصول الألمان إلى العلمين ووجود إيطاليا فى طرابلس ، وهى الخطة التى كانت تلائم المصالح البريطانية وتخدم فى الوقت نفسه قضية الصهيونية ، وكان أن تقرر غزو الجزائر والمغرب فى نوفمبر ١٩٤٢ . وبعد ذلك أخذ وايزمان يفصح عن أن الأطماع الصهيونية لم تعد تقتصر على فكرة وطن قومى بل تريد تحويل فلسطين كلها إلى "كومنولث يهودى" .



بن جوريون

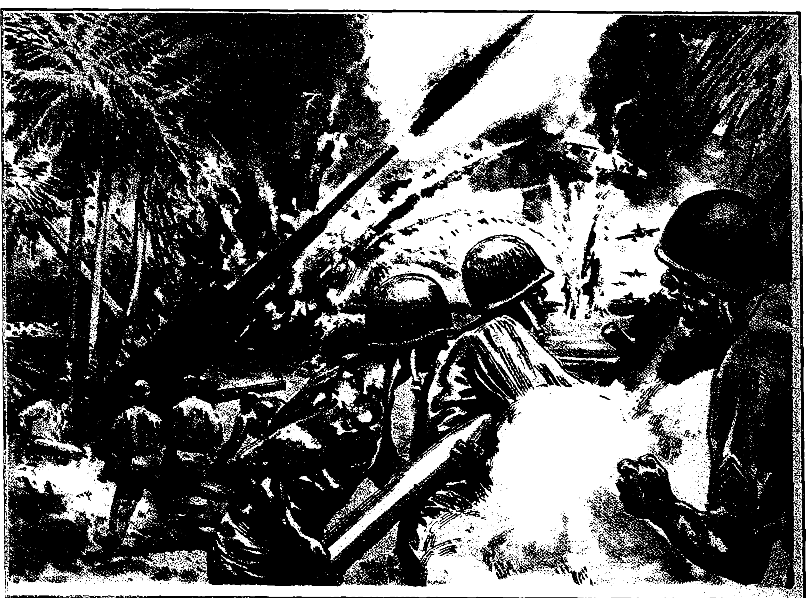
وبينما كانت لندن تعتبر المقر الرئيسى للحركة الصهيونية زمن الحرب العالية الأولى نلاحظ أن نشاط الصهيونية تركز فى نيويورك أثناء الحرب العالمية الثانية. وفى هذه المدينة انعقد أهم مؤتمر فى تاريخ الصهيونية عرف باسم الفندق الذى انعقد فيه وهو فندق بلتيمور ، وكان ذلك خلال مايو ١٩٤٣ أى فى أحلك الأوقات التى كان الحلفاء يمرون بها. وقد حضر هذا المؤتمر نحو ستمائة



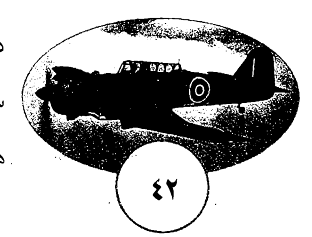
مندوب من المنظمات الصـهيونيـة فى العالم فضلا عن سـبع وستين مندوبا للجـان التنفيـذية المقيمـة فى فلسطين برئاسـة بن جوريون ، وأحد عشـر عضوا من أعـضاء مجلس الشيـوخ الأمريكى من بينهم هارى ترومان الذى سيصبح رئـيسا لأمريكا ١٩٤٥ وهو الذى سوف يعـتـرف بحكومة إسـرائيل المؤقـتـة التى أعلنت فى منتـصف مـايو ١٩٤٨.

وقـــد وضع هذا المؤتمر برنامـجـا جـريئـا نادى بفـتح باب الهجـرة على مصـراعيه دون قـيد وتشـرف على عـــملية الهجـرة الوكالة اليـهودية وليس حكومـة الانتداب البـريطانيـة، وأن تتكون فرق يهودية تقاتل بجانب الحلفـــاء تحت علمـــها الخاص كـما هـو الحال بالنسبة للفرق البولندية والتـشـيكوسلوفـاكيـة وغيرها من الدول التى احتلها الألمان، وتحويل فلسـطين بأســـرها إلى كومنولث يهودى وهذا مـــعناه تجـــاوز فكرة التقسيم التى تدعو إلى إنشـــــاء دولتـين فى فلسـطين إحـــداهمـــا يهـــوديـة والأخـــرى عربية.

هارى ترومان بين تشرشل وستالين بعد الحرب العالمية الثانية



القوات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية

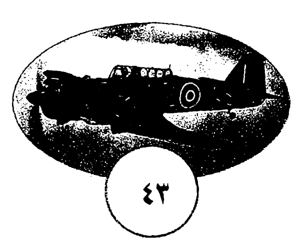


دون أن يتحمل أية خسائر . وعلى أثر ذلك بدأ فى إعادة بناء خط سيجفريد أو فيما كان يعرف بالحائط الغربى لألمانيا والذى كان يمتد من هولندا إلى حدود سويسرا .

المرحلة الثانية ١٩٣٦-١٩٣٩

تميزت هذه المرحلة بتكوين محور روما- برلين - طوكيو الذى كان الهدف منه تقسيم مناطق النفوذ فى العالم بين كل من إيطاليا وألمانيا واليابان . وفى خلال تلك المرحلة عمد هتلر إلى تحقيق نظرية المجال الحيوى لألمانيا حيث اجتاح النمسا وأعلن ضمها إلى ألمانيا وكون ما صار يعرف بالأنشلوص أو اتحاد ألمانيا والنمسا . وتبع تكوين ذلك الاتحاد اجتياحه لإقليم السوديت، وكان

هتلر يدخل فيينا منتصرا



ذلك الإقليم قد ضم إلى تشيكوسلوفاكيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكان تبريره لذلك الاجتياح اضطهاد الحكومة التشيكوسلوفاكية للعناصر الألمانية التى تقطن ذلك الإقليم . ولم يلبث بعد ذلك أن أمر قواته بالزحف صوب العاصمة براج وأعلن ضم تشيكوسلوفاكيا بكاملها إلى الرايخ الألمانى .

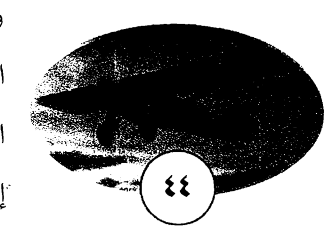
وعلى أثر النجاح الذى حققه هتلر فى ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا، أخذ يتطلع إلى غزو بولندة . وكانت بولندة من بين الدول التى تأسست فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ولما كانت بحكم تكوينها دولة داخلية، فقد قرر الحلفاء منحها منفذا على بحر البلطيق، وكان السبيل إلى ذلك إنشاء ممر يربطها بميناء دانزنج . غير أنه كان من الطبيعى أن يترتب على إنشاء ذلك الممر الذى صار يعرف بالممر البولندى شطر ألمانيا إلى قسمين، فضلا عن إخضاع ميناء دانزنج إلى إدارة دولية واعتباره ميناء حرا بعد أن كان ميناء ألمانيا .

وحين لم يجد هتلر استجابة من الحلفاء فى مطالبته لهم بإعادة النظر فى وضعية ميناء دانزنج وفى الممر البولندى الذى يوصل إليه، أخذ يخطط لاجتياح بولندة بكاملها . غير أنه كان يدرك جيدا أن إقدامه على ذلك سيؤدى إلى تهديد الاتحاد السوفيتى بحكم وقوع بولندة بين الدولتين . ومن ثم بادر بتوقيع ميثاق عدم اعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى فى أغسطس ١٩٣٩ . وقد نص هذا الميثاق على اتفاق الدولتين على تقسيم بولندة فيما بينهما. وطبقا لما نصت عليه بنود ذلك الاتفاق أتيح للاتحاد السوفيتى السيطرة على المقاطعات البولندية الجنوبية المجاورة لحدوده بينما سيطرت ألمانيا على المقاطعات البولندية الأخرى .

غير أنه نظرا للعداء الشديد بين النازية والشيوعية فإن هذا الميثاق على الرغم من أنه أفاد هتلر فى بداية الأمر، إلا أنه لم يستمر طويلا، بل لم يكن موثوقا به منذ البداية، إذ سرعان ما انفصمت عروته ولم يكن قد مضى على توقيعه وقتا طويلا كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

غزو بولندة سبتمبر ١٩٣٩

تميز الغزو الألمانى لبولندة بالهجوم الكاسح على أهدافها العسكرية بما فى ذلك المطارات والقواعد العسكرية ومراكز التدريب وملتقيات السكك الحديدية . وقد استخدم العسكريون الألمان أسلوب المفاجأة بحيث لم تمض سوى أيام قليلة حتى سقطت العاصمة البولندية وارسو أمام جحافل القوات الألمانية، التى كانت تتكون من أربعة وخمسين فرقة مشاة، وسبع فرق آليات وأكثر

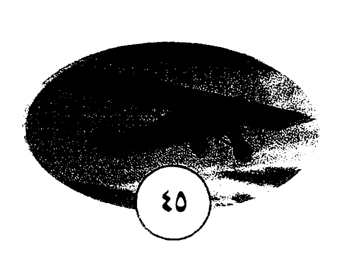


واتخذت منظمة إرجون زفاى ليومى نفس الموقف على حين رفضت الهدنة السياسية جماعة شتيرن. ولكن عندما ابتعد خطر القتال عن الشرق الأوسط عادت الهاجاناه فى عام ١٩٤٣ تهدد باستخدام العنف إذا لم تعد بريطانيا فتح باب الهجرة على مصراعيه ثم عادت إلى سياسة المهادنة فى أكتوبر ١٩٤٣ بعد أن قبلت بريطانيا إشراك كتيبة يهودية فى عمليات الميدان الحربى فى أوروبا. واستمرت العصابات الأخرى فى ممارسة أعمال العنف سواء بمهاجمة القرى العربية أو المؤسسات البريطانية ذاتها.

وهكذا استفادت الصهيونية فائدة كبرى من الحرب العالمية الثانية سواء بواسطة الإجراءات العملية التى اتخذتها داخل فلسطين أم بواسطة التغيرات التى طرأت على الموقف الدولى. ففى داخل فلسطين تكونت نواة جيش إسرائيل وتدرب اليهود على أحدث طرق القتال وانتشرت المستعمرات في أماكن جديدة. ومن الناحية الدولية تضافرت عدة ظروف لخدمتها منها ارتباط الولايات المتحدة نهائيا برسم السياسة العالمية ، ومنها نجاح حزب العمال البريطانى فى الانتخابات التى جرت فى يولية ١٩٤٥ وهو الحزب الذى سبق له اتخاذ قرار فى عام ١٩٤٤ بفتح باب الهجرة وقدم تفسيرا لمعنى الوطن القومى يقوم على جعل غالبية سكان فلسطين من اليهود ومعناه إخراج كثير من العرب من فلسطين يمكن استيعابهم فى البلاد العربية المحيطة.

أما بلاد المغرب العربى (تونس والجزائر ومراكش) .. فقد كانت جميعها تخضع للحكم الفرنسى وكان زعماء الحركة الوطنية فى كل منها عند اندلاع الحرب يقضون أحكاما طويلة بالسجن خارج البلاد بعد أن تم حل الأحزاب السياسية التى أسسوها وهم : علال الفاسى (مراكش) ومصالى الحاج (الجزائر) والحبيب بورقيبة (تونس). أما حكام هذه البلاد فقد أبدوا رغبتهم فى التعاون مع الحكومة الفرنسية تعاونا صادقا وهم : باى تونس ، وسلطان مراكش ، وموظفو الإدارة الفرنسية فى الجزائر من الوطنيين.

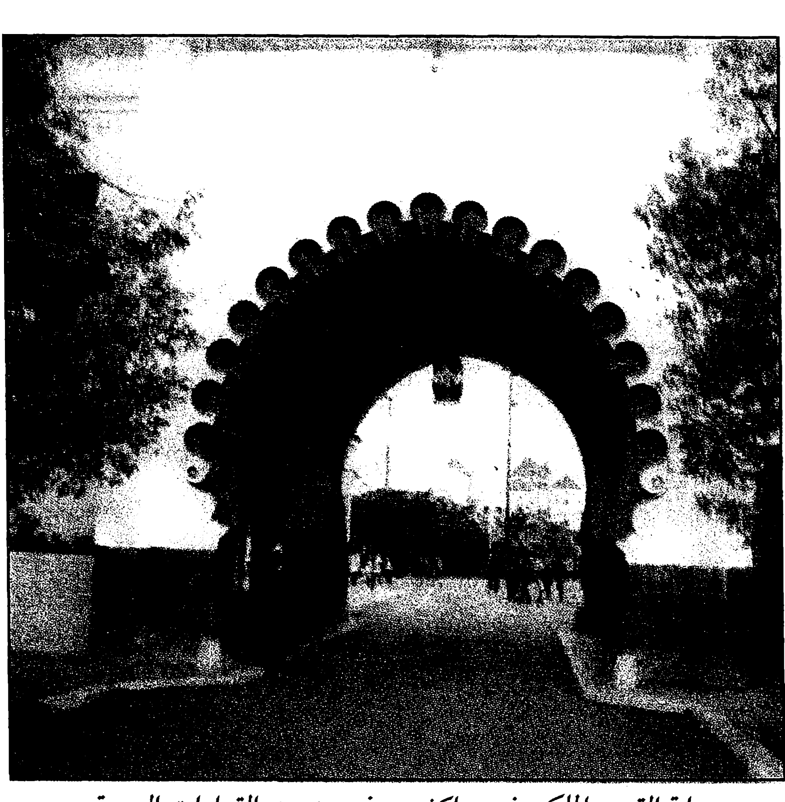
فلما وقعت فرنسا الهدنة فى يونية ١٩٤٠ مع ألمانيا وانتقلت السلطة إلى الماريشال بيتان (حكومة فيشي) جعل من أهم أهدافه المحافظة على مصالح إمبراطورية فرنسا ألا وهى المستعمرات. ومن أجل ذلك ازدادت السلطات الفرنسية فى بلاد المغرب قسوة فى معاملة الأهالى هناك ، ولقيت هذه السياسة تأييدا هائلا من المستوطنين الفرنسيين حتى إنهم اعتبروا حكومة فيشى عهدهم الذهبى ، كذلك تمتع الماريشال بيتان بتأييد الجيش المرابط هناك الذى سمح الألمان لفرنسا



بالاحتفاظ به وقدره مائة وعشرون ألفا لم ينزع سلاحها ، وكانت قوات هذا الجيش موزعة على النحو التالى : عشرون ألفا فى تونس، وخمس وأربعون ألفا فى الجزائر ، وخمس وخمسون ألفا فى مراكش.

وفى مراكش بادر السلطان محمد الخامس عند قيام الحرب إلى التعبير عن ولائه التام لفرنسا وصرح فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ قائلا : من الآن وإلى اليوم الذى تكلل فيه جهود فرنسا وحلفائها بالنصر يجب علينا أن نقدم لها كل مساعدة دون تحفظ ولن نشح عليها بمواردنا ولن نتردد فى تقديم أى تضحية" . ثم يروى أنه تأثر لهزيمة فرنسا فى صيف ١٩٤٠، لكن الطريقة التى عاملت بها حكومة فيشى الوطنيين المغاربة جعلت إحساسه يتغير ولو أن صلته بالحركة الوطنية لم تكن قد توثقت بعد.

وكانت إسبانيا المتعاطفة مع المحور آنذاك تتطلع أثناء الحرب إلى امتلاك كل مراكش بعد أن استولت فعلا على منطقة طنجة الدولية لأنها كانت غير راضية عن نصيبها فى تقسيم البلاد إلى منطقتى نفوذ فرنسية- إسبانية. وقد عرض فرانكو رغبته هذه على هتلر عند لقائهما فى خريف ١٩٤٠ مقابل انضمامه للمحور فى الحرب. وقد وازن هتلر بين انضمام إسبانيا وإغضاب فرنسا فوجد أن من مصلحته إبقاء العلاقات الطيبة مع حكومة فيشى على أمل أن تتحول يوما ما هى الأخرى إلى جانب ألمانيا.



بوابة القصر الملكى فى مراكش- خرجت منه القرارات العربية

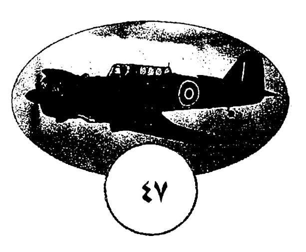
غزو هتلر للدانمرك والنرويج، أبريل ١٩٤٠

على الرغم من نجـاح الغواصـات الألمانية فى إفـشال عمـليات الحصار التى قامت بها البحـرية البريطانية، إلا أن ألمانيا كانت تخشى مع ذلك من تصاعـد تلك العمليات وما قـد يستتبعـها من قطع المؤن والإمدادات عنها . ولعل ذلك كـان سببا فى تطلع هتلر إلى غـزو كل من النرويج والدانمرك حتى يفوت على البحرية البريطانية فرصة الاستفادة من سواحلهما الطويلة لإحكام الحصار البحرى على ألمانيا . ومن ناحـية أخرى كانت ألمانيـا تريد أن تؤمن لنفسها قـواعد بحرية وجوية لتـهديد الجزر البريطانية ذاتها . وقد رسمت الخطة العـسكرية الألمانية لغزو الدانمرك والنرويج باتباع طريقة النزول الجوى والهجـوم الخاطف لتفادى المـواجهة مع الأسطول البريطانى . وبخـضوع كل من الدانمارك والنرويج للغزو النازى أخـذ هتلر بعد ذلك يتطلع إلى غزو الأراضى المنخفـضة فى كل من هولندا وبلجيكا ولكسمبرج ثم التقدم إلى غزو فرنسا .

الهجوم النازى على الأراضى المنخفضة وفرنسا، مايو ١٩٤٠

أتاح توقيع ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتى فى أغسطس ١٩٣٩ الفرصة أمام هتلر لتكثيف الجهود العسكرية فى الجبهة الغربية بعد أن نجح فى تأمين الجبهة الشرقية لألمانيا . ولما كانت القيـادة العسكرية الألمانية تضع فى اعتبارها أن أضـعف نقاط الدفاع الفرنسية تـقع فيما وراء بلجيكـا، فقد بدأ التـحرك النازى صوب الأراضـى المنخفضـة، حيث تم إخضـاع كل من هولندا ولكسمبرج وأخذت القوات النازية تتقدم إلى بلجيكا . وعلى الرغم من المقاومة الباسلة التى قامت بها القـوات البلجيكيـة، إلا أن هجوم الدبابات الألمانية المكثف قـضى تماما على هذه المقـاومة . وبنجاح القوات النازية فى السيطرة على سيدان تمكنت من إيجاد ثغرة كـبيرة أصبحت فيها القوات الإنجليزية والفرنسية التى دخلت بلجيكا مهـددة بأخطار فادحة، وخاصة حين استخدمت الدبابات الألمانية تلـك الثغرة وسـيطرت على إميـان واستطاعت أن تفـصل القوات الإنجليزيـة عن القوات الفرنسـية . ولم تجد القوات الإنجليـزية إزاء هذا الموقف سوى الانسحاب إلى سـاحل دنكرك ليتم نقلها إلى إنجلترا .

وعلى الرغم من أن الإنجليز اعتبروا نجاحهم فى عـملية الانسحاب هذه نوعا من الانتصار، إلا أن وينستون تشرشل Churchil الذى وصل إلى رئاسة الوزارة البريطانية فى عـام ١٩٤٠ اعتبر هذا الانسحاب بمثـابة هزيمة للقوات البريطانية، لأن الانتصار فى الحـروب على حد قوله لا يكون بالانسحاب .

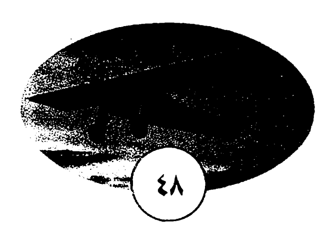


وقد ترتب على انسحاب القوات الإنجليزية أن أصبح الطريق مفتوحا للقوات الألمانية لغزو الأراضى الفرنسية، وفضلا عن ذلك فقد استغلت ألمانيا أخطاء القيادة العسكرية الفرنسية التى غامرت بجميع فرقها العسكرية لمواجهة الهجوم الألمانى على بلجيكا، وأثبتت بذلك تخلفها فى مواكبة التكتيكات العسكرية الحديثة . يضاف إلى ذلك ضعف سلاح الجو الفرنسى إذ لم تتعد الطائرات الفرنسية المحاربة ثلث عدد الطائرات الألمانية، ولم تشأ بريطانيا أن تغامر بسلاحها الجوى لمواجهة الهجوم الألمانى على الأراضى الفرنسية خوفا من فقدانها له، ومن ثم لم تشارك بأكثر من مائة وستين مقاتلة وضعتها تحت تصرف القيادة الفرنسية .

ونتيجة لتفوق ألمانيا فى سلاحها الجوى وقاذفات القنابل وقواتها المدرعة تمكنت من اختراق الحدود البلجيكية الفرنسية والالتفاف حول خط ماجينو، ومن ثم التقدم صوب العاصمة الفرنسية باريس التى سقطت أمام الغزو النازى .


الجنرال ديجول

كان من أهم النتائج التى ترتبت على الاجتياح النازى لفرنسا سقوط الحكومة الفرنسية وتشكيل حكومة جديدة فى فيشى برئاسة الجنرال بيتان، بينما فر كثير من القادة العسكريين الفرنسيين عبر القنال الإنجليزى إلى لندن، وهناك أسسوا حكومة فرنسية فى المنفى عرفت بحكومة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديجول Degaulle، وذلك بعد أن تأكد لديهم أن الحكومة الجديدة التى قامت فى فرنسا أصبحت موالية لألمانيا النازية . وقد ظهر ذلك واضحا حين أقدمت تلك الحكومة على توقيع هدنة منفردة مع كل من إيطاليا وألمانيا . وكانت شروط الهدنة الموقعة بين ألمانيا وحكومة فيشى بمثابة إذلال شديد لفرنسا، حيث نصت على احتلال ألمانيا للمقاطعات الفرنسية الشمالية والغربية، على أن تتحمل فرنسا نفقات جيش الاحتلال النازى وعلى أن تبادر بإطلاق سراح جميع الأسرى الألمان . ويتم نزع سلاح القوات البحرية الفرنسية إلى جانب نزع سلاح القوات البرية والجوية وتسريح أفرادها، وألا يزيد عدد القوات الفرنسية عن مائة ألف جندى يتم تخصيصها فقط لحفظ النظام . ومما يسترعى



إعلان استقلال تونس ودعوة مؤتمر دولى للاعتراف به وهو ما لم تقبله إيطاليا فاكتفت من بورقيبة أن يوجه بيانا فى ٦ أبريل ١٩٤٣ شن فيه حملة على الاستعمار الفرنسى ولكنه أضاف " وعلى الشعب التونسى أن يتنبه للأطماع الأجنبية الأخرى" . وعلى أثر ذلك سمح له بالعودة إلى تونس بعد خمس سنوات تماما من يوم اعتقاله عام ١٩٣٨، وقد رفض العودة إلى أوروبا برفقة قوات المحور المنسحبة.

وبعد أن تمكنت السلطات الفرنسية من تونس مرة أخرى بعد انسحاب الألمان أخذت تعمل على الإيقاع بالوطنيين التونسيين فأخبرت قيادة الحلفاء بأن كلا من الباى والزعماء الوطنيين أعوانا للمحور وعملاء له. وعلى هذا تركت القيادة البريطانية التى دخلت تونس العاصمة الحرية مطلقة للجنرال جيرو لاتخاذ ما يراه من إجراءات لازمة لحفظ الأمن ، فنراه يستصدر أمرا عسكريا فى ١٣ مايو بخلع الباى محمد المنصف وتولية محمد الأمين بايا على العرش خلفا له وهو آخر من تولى حكم البلاد من العائلة الحسينية.

ولكن الباى محمد المنصف رفض توقيع أمر التنازل عن العرش فتم نفيه إلى واحة الأغواط الجزائرية ليذوق فيها عذاب الحبس الانفرادى فى ظروف مناخية سيئة. كما تم تحديد إقامة بورقيبة، وحظر النشاط السياسى على أعضاء الحزب . وأبرق الثعالبى (زعيم الحزب الدستورى القديم) إلى الحكومة المصرية مرحبا بقيام الجامعة العربية طالبا إليها التدخل فى هذه الأزمة ولكن دون جدوى. وظل الثعالبى يطالب بعودة الحاكم الشرعى من منفاه (الباى محمد المنصف) إلى أن قضى نحبه فى منفاه بفرنسا ١٩٤٨ .

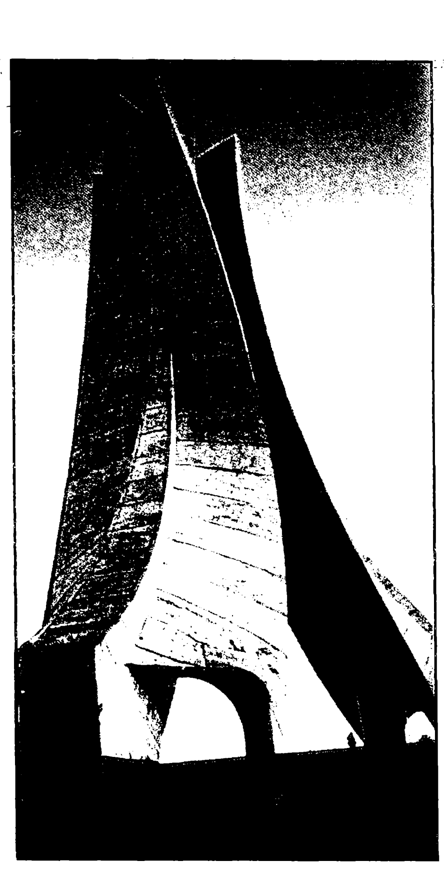


الحبيب بورقيبة مع المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر

وفى الجزائر.. وعند قيام الحرب كان الجزائريون يعتبرون رعايا فرنسيين فطبقت الإدارة الفرنسية عليهم نظام الخدمة العسكرية الإجبارية ،

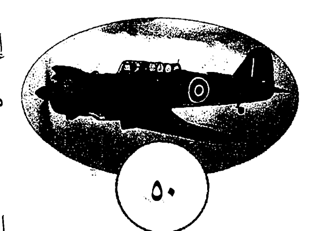
وكان هناك تمييز بين مـواطنين من الدرجة الأولى وآخرين من الدرجة الثانية ، فالأولون هم المستوطنون الفرنسيون يضاف إليهم بضعة آلاف من النخبة المثقفـة الجزائرية وهؤلاء يتمتعون بحقوق سـياسية كاملة ، وأما مواطنو الدرجـة الثانية فهم غالبيـة الشعب الجزائرى ولم يكونوا يتمـتعون بالحـقوق السـياسيـة رغم أنهم من الناحيـة الرسميـة رعايا فرنسـيون. ولم يستثن من هـذه التفرقة المجندون الذين شـاركوا فى الحرب بما فـيهم هؤلاء الذين حصلوا على المواطنة الكاملة بحكم ثقافـتهم. وقد أثرت هذه التفرقة على آراء النخبـة المثقفة التى كانت تنادى بإدماج الجزائر فى فرنسا من قـبل ، ومن هؤلاء فرحات عباس الذى تطوع فى الجيش الفرنسى كصيدلى ورغم تفانيه فى الخدمة فقد حرم من الأوسمة التى حصل عليها زملاؤه.

وعندما نزلت قوات الحلفاء فى الجـزائر فى نوفمبر ١٩٤٢ كان فرحات عبـاس من بين الزعماء القلائل الذين يتمتعون بالحرية خارج المعـتقلات. أما مصالى الحاج زعيم حزب الشعب فكان يقضى حكما بالسـجن لمدة ستة عشر عاما بإحدى واحـات جنوب الجزائر، وأتاح هذا لفرحات وبعض أعضاء مـجلس الوفود المالية قيادة الحـركة الوطنية فـيـما بين عـامى ١٩٤٢-١٩٤٥، ولم يكن أمـامـهم إلا الاتصال بالقيادة الأمريكية للحلفاء فى شمال أفريقية فنرى فرحات عباس مع اثنين وعشـرين من أعضاء الوفود المالية يتقدمـون بمطالبهم إلى القيادة الأمـريكية. ولكن السلطات الفرنسيـة حالت دون النظر فيهـا بحجة أنها قـدمت لقيادة الحلفـاء وهى هيئة غـير مـختـصة بمسألة داخـلية ، ولأن الوطنيين الجزائريين اعتبروا قبول هذه المطالب شرطا لتجنيد الجزائريين فى جيش فرنسا الحرة مما يعتبر نوعا من المساومة غير المقبولة مقدما.



نصب «الشهيد» التذكارى بالجزائر- الذى يرمز إلى الاستقلال والانطلاق

ومع أن أصحـاب العريضـة قدمـوا مذكـرة أخرى ألمحوا فيـها إلى أنهم يريدون المشاركة فى مجـهود الحرب للحصول على الاستقلال فى إطار فرنسى فقد أصرت هذه



إلى تذكير الأجيال المتعاقبة بها وذلك بتجسيمها صوتا وضوءا فى بعض متاحفها .

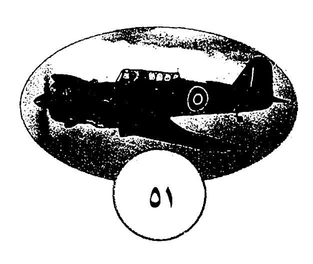
إضافة إلى صمود الشعب البريطانى أخذت قوات الدفاع الجوية البريطانية فى التصدى للطائرات الألمانية المغيرة، ويرجع الفضل فى ذلك إلى التطور الكبير الذى أحدثه العلماء البريطانيون بالتعاون مع العلماء الأمريكيين فى أجهزة الرادار التى استخدمت للمرة الأولى فى الحرب العالمية الثانية . وتمكنت شبكات الرادار من كشف الطائرات الألمانية المغيرة مما أدى إلى فقدان ألمانيا لمعظم مقاتلاتها الجوية، وأخذ التفوق الجوى الذى أحرزته ألمانيا فى بداية المعركة طريقه إلى الانحسار . كما تمكن سلاح الجو البريطانى من السيطرة على الأجواء البريطانية بفضل ما كان يمتلكه من مقاتلات سريعة اشتهرت من بينها طائرات الهوريكان Hurricane، والسبيت فاير Spitfire، إضافة إلى قاذفات القنابل .

وهكذا انتهت معركة بريطانيا الكبرى بفشل الهجوم الجوى الألمانى، وكانت إحدى الأسباب الرئيسية فى هزيمة ألمانيا التى لم تستطع على الرغم من هزيمتها لفرنسا أن تسيطر على الجبهة الغربية، وكان عليها إلى جانب ذلك أن تتصدى للجبهة الشرقية على أثر نقض الاتحاد السوفيتى لميثاق عدم الاعتداء معها ودخوله الحرب إلى جانب بريطانيا.

العمليات العسكرية الإيطالية

وجد موسولينى فى سقوط فرنسا واحتدام معركة بريطانيا فرصة سانحة لكى يحقق أهدافه التوسعية فى حوض البحر المتوسط لكى يجعل منه بحيرة إيطالية، إضافة إلى التوسع فى الإمبراطورية الإيطالية فى شرقى أفريقيا على حساب المستعمرات البريطانية والفرنسية . وبدا واضحا أن الخطة الإيطالية كانت تتجه إلى إيجاد حزام يربط بين المستعمرات الإيطالية فى البحر المتوسط وبين المستعمرات الإيطالية فى شرقى القارة الأفريقية . وتنفيذا لتلك الخطة كان يتحتم على إيطاليا الحرب فى جبهتين فى آن واحد، جبهة البحر المتوسط وجبهة الشرق الأفريقى .

وقد بدأت إيطاليا بفضل استعانتها بالقوات التى حصلت عليها من مستعمراتها فى إريتريا والصومال فى مهاجمة المستعمرات البريطانية، غير أن القوات الإيطالية ووجهت بهزائم شديدة أدت إلى القضاء على إمبراطوريتها فى الشرق الأفريقى،وذلك بعد أن تمكنت القوات البريطانية من غزو إريتريا والصومال الإيطالى وتقدمت إلى أثيوبيا حيث سقطت أديس أبابا فى أيدى الإنجليز الذين بادروا بإعادة الإمبراطور هيلاسلاسى إلى عرشه من جديد .



ولم يكن حظ إيطاليا فى منطقة البحر المتوسط بأقل سوءا، وخاصة بعد فشل الخطة العسكرية الإيطالية التى كانت تقضى بالارتكاز على القواعد الرئيسية فى ليبيا للتقدم نحو الأراضى المصرية بهدف مهاجمة القوات البريطانية . وعلى الرغم من نجاح القوات الإيطالية فى التقدم إلى سيدى برانى، إلا أن المعارك العنيفة التى دارت بين القوات الإيطالية بقيادة جراتزيانى Gratziani والقوات البريطانية بقيادة الجنرال ويفل لم تلبث أن أجبرت الإيطاليين على التقهقر إلى ما وراء بنغازى التى سقطت فى أيدى القوات البريطانية .



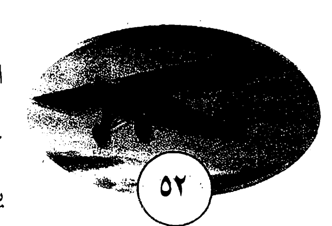
أروين روميل

ترتب على تلك الهزائم العنيفة التى ابتلى بها موسولينى إلى أن يسارع هتلر بنجدة حليفه، حيث كلف القائد الألمانى الشهير أروين روميل Romel بالاتجاه إلى جبهة الشمال الأفريقى لإنقاذ الوضع المتدهور للقوات الإيطالية . وقد استطاع روميل الذى تخصص فى حرب الصحراء وبقدرة كبيرة على المراوغة حتى أصبح يطلق عليه لقب ثعلب الصحراء، أن يحقق نجاحا كبيرا حتى أصبح الطريق ممهدا أمامه للتقدم صوب الأراضى المصرية ومهاجمة القوات البريطانية المرابطة فيها، إلا أن الخطأ الذى وقع فيه العسكريون الألمان هو عدم مدهم روميل بالإمدادات العسكرية اللازمة نتيجة تركيز الهجوم على الاتحاد السوفيتى، ومن ثم أضاعوا الفرصة أمامه كما أضاعوا فى الوقت نفسه فرصة تدعيم القوات الإيطالية البحرية فى البحر المتوسط والتى كان بوسعها قطع خطوط الإمدادات عن القوات البريطانية .

الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتي

عملية باربروسا يونيو ١٩٤١

بدأ هتلر على أثر نقض ميثاق عدم الاعتداء بينه وبين الاتحاد السوفيتى يتطلع إلى غزو الاتحاد السوفيتى، وذلك من أجل تحقيق هدفين رئيسين : أولهما، تحقيق نظريته الخاصة بالمجال الحيوى، وثانيهما، الحصول على موارد تسد آلة الحرب الألمانية لما تتميز به أوكرانيا بصفة خاصة من موارد زراعية وفيرة .



وتوضح قرارات المؤتمر أن السنوسى وضع فى حسبانه الاعتماد التام على بريطانيا فى التخلص من الاحتلال الإيطالى وتعيينه حاكما على البلاد بعد توحيدها وليس بالاستناد إلى حركة وطنية نضالية يقودها . . تقول القرارات :

١- وضع الثقة فى دولة بريطانيا العظمى التى مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسى من براثن الاستعمار الإيطالى الغاشم.

٢- وإعلان الإمارة السنوسية ومبايعة الأمير محمد إدريس المهدى بالإمارة على طرابلس وبرقة.

٣- وتعيين هيئة تمثل القطرين (طرابلس وبرقة) وتكوين مجلس شورى للأمير.

٤- وخوض غمار الحرب ضد إيطاليا وتحت علم الإمارة السنوسية بجانب الجيوش البريطانية.

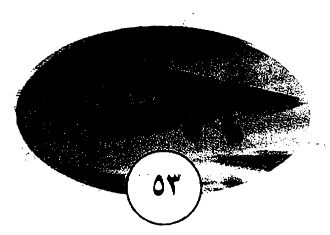
٥- وتعيين حكومة سنوسية تدير الشؤون اللازمة فى الوقت الحاضر مقدما.

٦- والتوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد ولإدارة الحكومة ، وتخصيص ميزانية ، ووضع نظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطنى حسب عوائد وتقاليد العرب.

٧- وتفويض الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية والمالية والحربية التى توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله.



السنوسى

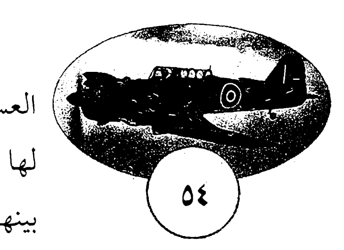


أخذ الليـبيون المقـيمون فى مـصر بعد فتح جـبهة الصـحراء الغربيـة يستـعدون لتـحرير بلادهم إلى جـانب الحلفاء ، وقـد أقيم معسكـر لتدريبهم ضم نحو أربعـة آلاف متطوع اشتركـوا فى معارك الصحراء الغربية منذ ١٩٤٠ حتى تم تحرير ليبيا فى ١٩٤٣ ، وقاموا بأعمال نافعـة خاصة فيما يتـعلق بالإرشاد إلى الطرق ونقل الرسائل وتزويد الجنود بالمؤن حتى لقد أشاد المارشال مونتجومرى بدورهم بعد تحقيق النصر.

وبعد إخراج الإيطاليين من ليبيا صرحت وزارة الخارجية البريطانية فى بيان لها بأنها لن تترك البلاد تقع ثانية فى يد الطليان ، إلا أن هذا التصـريح لم يكن يعنى عودة الحكم للسنوسية ، ذلك أن بريطانيا كانت ترى عرض الأمر على مؤتمر الصلح باعتـبار أن ليبيا من الأراضى التابعة لإحدى الدول المهزومة. وبناء على هذا خضعت البلاد إلى الحكم العـسكرى البريطانى وتم تقسيمها إداريا إلى ثلاث مناطق : برقة وطرابلس تحت الإدارة البريطانية ، وفـزان تحت الإدارة العسكرية الفرنسية بعد أن احتلتها قوة فرنسية عبرت الصـحراء الكبرى قادمة من تشاد (أوائل يناير ١٩٤٣) أخضعتها فورا للقانون العسكرى الفرنسى.

أما بريـطانيا فـقد ترددت فى أى القـوانين تتبع عند بداية عـهدها بإدارة طرابلس وبـرقة ، فالقـانون الدولى لا يجيز تغـيير قوانين بلاد مـفتوحة إلا بعـد عقد الصلح ، لكن الأمـر هنا كان


انتصار المجاهدين الليبيين على الجيوش الإيطالية



ولعل مما تجدر الإشارة إليه فى هذا السياق أن كثيرا من البحوث العسكرية اهتمت اهتماما شديدا بدراسة أسباب الهزيمة التى تعرضت لها القوات الألمانية وأرجعتها إلى العديد من العوامل التى نذكر من بينها :

- اختلاف هتلر مع قادته العسكريين فى وضع الخطط الحربية المثلى، وتكراره نفس الأخطاء التى وقع فيها نابليون بونابرت حين أقدم على غزو روسيا القيصرية فى عام ١٨١٣ .

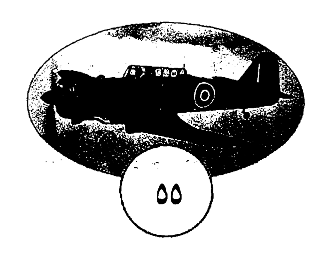
- الشتاء القارص الذى حل بروسيا فى شتاء عام ١٩٤١-١٩٤٢، وما ترتب عليه من توقف الزحف الألمانى لعدة أشهر .

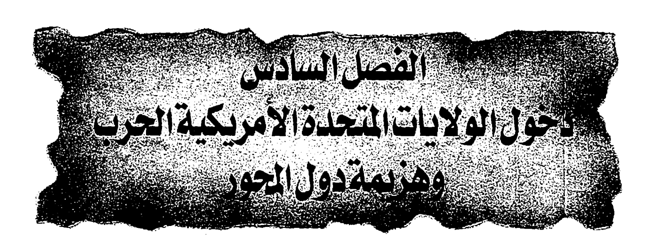
- تبعثر القوات الألمانية على محاور متباعدة بسبب اتساع الجبهة الروسية وامتدادها إلى مسافات بعيدة، إلى جانب ندرة الحواجز الطبيعية مما أعطى ميزات كبيرة للقوات الروسية التى كانت تعمد إلى الانسحاب السريع نحو الداخل بهدف استدراج القوات الألمانية ومن ثم الإيقاع بها.

- الخطط العسكرية الذكية التى وضعها الجنرال زوكوف والتى اعتمدت على تحويل الهجمات النازية إلى حرب استنزافية، واتباعه لسياسة الأرض المحترقة Scourge Land لإعاقة تقدم القوات الألمانية .

- الإمدادات الضخمة من الأسلحة والعتاد الحربى التى أخذت تنهال على الاتحاد السوفيتى من قبل الولايات المتحدة الأمريكية عقب دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء . وكانت تلك الإمدادات تصل إلى الاتحاد السوفيتى عن طريق الخليج العربى وإيران .

وأخيرا يمكن القول إن النازية بأسلوبها العنصرى المتطرف استفزت الشعب الروسى مما جعلته يستميت فى الدفاع والتضحية، كما تشهد على ذلك معارك ليننجراد وستالينجراد وغيرها .



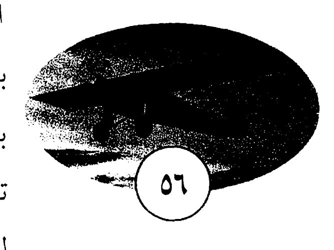


كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد اتخذت موقفا سلبيا عند نشوب الحرب العالمية الثانية ويرجع السبب فى ذلك إلى قانون الحياد الأمريكى الذى صدر فى عام ١٩٣٩ . غير أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير على أثر سقوط فرنسا واحتدام معركة بريطانيا، إذ أدرك الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت أن استمرار تمسك الولايات المتحدة الأمريكية بقانون الحياد هو الذى شجع هتلر على انتهاج تلك السياسة العدوانية واضعا فى اعتباره عدم استطاعة بريطانيا أو فرنسا شراء أسلحة أو ذخائر حربية من الولايات المتحدة الأمريكية إذ كان قانون الحياد الأمريكى يفرض الحظر على شحن الأسلحة والعتاد الحربى إلى جميع الدول المحاربة، وبالتالى فإن هذا القانون لم يكن فى صالح إنجلترا وفرنسا .

ومن ناحية أخرى حتمت المصالح الخاصة بالولايات المتحدة إلى أن تعمل على الحد من قوى المحور، إذ إن سقوط فرنسا واحتمال هزيمة إنجلترا وتقدم اليابان فى الشرق الأقصى سوف يكون من نتيجته تطويق الولايات المتحدة، ومن ثم كان يتعين عليها الوقوف إلى جانب الحلفاء حتى لا تصبح وجها لوجه أمام أكبر تكتل عسكرى عرفه التاريخ .

وتدريجيا بدأ الرئيس الأمريكى روزفلت يعمل على تعديل قانون الحياد، وذلك بإصدار قانون جديد فى نهاية عام ١٩٣٩ عرف بقانون " ادفع واحمل " Cash & Carry . وعلى أثر سقوط فرنسا على أيدى القوات النازية فى يونيو ١٩٤٠ أصبحت بريطانيا تشكل خط الدفاع الأول للولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم كان يتعين على الرئيس الأمريكى بذل أقصى جهوده لمساعدتها . ووضحت تلك الجهود فى إرسال الولايات المتحدة الأمريكية خمسين مدمرة قديمة استطاعت البحرية البريطانية تجديدها واستخدامها وكان ذلك فى مقابل موافقة الحكومة البريطانية على تأجير عدة قواعد عسكرية- جوية وبحرية- للولايات المتحدة الأمريكية تمتد من شبه جزيرة نيوفوندلاند إلى جيانا البريطانية .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية استفادت من قانون " ادفع واحمل " فى شراء الأسلحة والعتاد الحربى إلا أن احتياطى بريطانيا من الذهب والعملات الصعبة أصبح على وشك



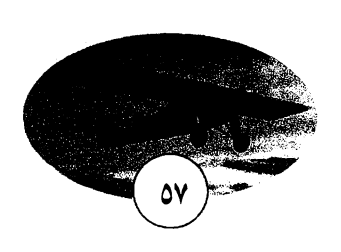
البلدان العربية. ومما زاد المشكلة تعقيدا زيادة استهلاك المواد الغذائية بسبب وجود عدد كبير من القوات العسكرية فى المنطقة حتى وجدت بريطانيا نفسها مضطرة إلى تزويد البلاد بحاجياتها الضرورية حتى لا تثير وراء خطوطها الحربية اضطرابات جماهيرية وتعرض أمن جيوشها للخطر.

وللتغلب على هذه المشكلات اتبعت وسائل مختلفة منها نقل المؤن عن طريق البحر الأحمر والخليج العربى مع ملاحظة أن ذلك كان يستغرق جهدا أكبر من الأسطول التجارى البريطانى فى وقت اشتدت فيه حاجة البحرية إلى استخدام جميع إمكانيات الأسطولين الحربى والتجارى. ومن ذلك أيضا تزويد الأقطار العربية بالخبراء فى مكافحة الجراد ، وفى زيادة مساحة الأراضى القابلة للزراعة ، واستخدام أحدث الوسائل فى الإنتاج الزراعى ، بل إن بريطانيا اضطرت تحت ضغط الظروف إلى تشجيع قيام صناعات خفيفة خلافا لخططها الاستعمارية السابقة التى كانت تقف ضد تصنيع البلاد العربية.

والحاصل أنه بعد أن دخلت القوات البريطانية أراضى سوريا ولبنان واحتلتها (١٩٤١) بعد سقوط فرنسا فى يد الألمان كما سبقت الإشارة أصبحت جميع بلاد الشرق العربى ترتبط بمنظمة اقتصادية واحدة تمثلت فى "مركز تموين الشرق الأوسط" وازداد التبادل التجارى فيما بينها إلى حد كبير فكأن هذا المركز كان خطوة أولى فى سبيل الوحدة العربية. وقد تأسس المركز فى القاهرة فى أبريل ١٩٤١ وأسهمت الولايات المتحدة فى أعماله مباشرة وكان من بين أهدافه الرئيسية الحد من مطالب المدنيين فيما يجب شحنه على سفن الحلفاء ، وأن يشير على القيادة العامة بالتخطيط الذى يمكن بواسطته زيادة المواد والتجهيزات العسكرية وكيفية تدفقها دون حرمان المنطقة من البضائع والمواد الضرورية لحياة السكان المدنيين.

وكان على جميع حكومات المنطقة التى يشرف عليها المركز أن تقدم قائمة بحاجياتها من الواردات خلال ستة أشهر تالية تبين فيها الأولويات لتلك الحاجات حتى يتسنى لبريطانيا أن تختار ما تستطيع نقله إلى الشرق الأوسط. ومن هنا ندرك مدى التبعية الاقتصادية وكيف أنه كان بوسع بريطانيا أن تستخدمها كأداة للضغط على الحكومات المستقلة.

ولقد أثبتت التجربة أفضلية التعامل مع هيئة موحدة بدلا من تضييع الوقت فى التباحث مع كل حكومة على حدة ، لذلك رؤى التوسع فى هذا التنسيق بحيث يشمل الشؤون السياسية أيضا.

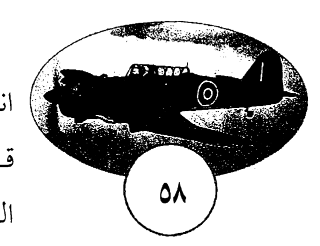


ومن هنا استحدثت الحكومة البريطانية فى يونية ١٩٤١ وزارة بريطانية جديدة أطلق عليها وزارة الدولة لشؤون الشرق الأوسط ووزيرها يعتبر عضوا فى مجلس الحرب ، ويدخل فى اختصاصه شؤون المستعمرات الإيطالية السابقة ومسألة فلسطين ، وكذا الاتصال بحكومة فرنسا الحرة (الجنرال ديجول). وبعبارة أخرى كانت مسئولياته تتركز فى الأقطار التى لم تحدد فيها السلطة الشرعية. أما فى البلاد التى استقرت فيها حكومات وطنية وتتمتع بقسط من الاستقلال مثل مصر والعراق فإن سفراء بريطانيا كانوا يتولون أمر العلاقات معها.

وعلى هذا اعتقد البعض أن تلك المؤسسات البريطانية العسكرية والاقتصادية والسياسية ساعدت على دفع حركة التقارب العربى وتوثيق الروابط بين دولها ، مع أن بريطانيا كانت تستهدف الاعتبارات الإستراتيجية لمصالحها وليس اعتبارات القومية العربية. وأقصى ما يمكن قوله فى هذا المقام أن تلك المؤسسات اضطرت بريطانيا إلى رفع الحواجز التى كانت تتعمد وضعها فى السابق لتفكيك الوطن العربى.

وفى هذا الإطار أيضا يمكن فهم تصريح أنتونى إيدن وزير خارجية بريطانيا فى ٢٩ مايو ١٩٤١ الذى جاء فيه ". . إن لبريطانيا تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب وهى صداقة أثبتتها الأعمال وليست الأقوال وحدها ، ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير كما أن لهم هنا أصدقاء كثيرين. وقد قلت منذ أيام فى مجلس العموم أن حكومة جلالته تعطف كثيرا على أمانى سوريا فى الاستقلال وأود أن أكرر ذلك الآن. ولكنى سأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن العالم العربى قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التى تمت عقب الحرب الماضية ويرجو كثير من مفكرى العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكبر مما تتمتع به الآن ، وإن العرب ليتطلعون إلى نيل تأييدنا فى مساعيهم نحو هذا الهدف ولا ينبغى أن نغفل الرد على هذا الطلب من جانب أصدقائنا. . ويبدو لى أنه من الطبيعى ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية وكذلك الروابط السياسية أيضا، وحكومة جلالته من ناحيتها سوف تبذل تأييدها التام لأية خطة تلقى موافقة عامة. . ".

إن مغزى هذا التصريح يكمن فى التوقيت الذى أعلن فيه ففى ذلك الوقت كانت بريطانيا توشك أن تقمع حركة الكيلانى فى العراق وتعلم أن مثل هذا الإجراء سوف يثير سخط كثير من الوطنيين العرب ، وتتأهب فى الوقت نفسه لحملة على سوريا ولبنان بالاشتراك مع حكومة فرنسا

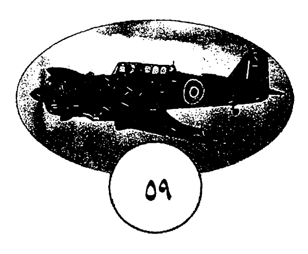


وحـدث فى السابع من ديسـمبـر ١٩٤١ ودون إنذار مسـبق أن انقـضت الطائرات اليابانيـة على مركـز تجمع الأسطول الأمـريكى فى قـاعدة بيـرل هاربور، وترتب على هذا الهـجـوم إغراق أكـبر قطعـه العسكرية - أريزونا وفرجينيا وأوكـلاهوما - واستطاعت اليابان بضربة واحدة أن تقـضى على التفـوق الأمريكى فى المحيـط الهادى . وعلى الرغم من أن البحـرية الأمريكيـة تصدت بعد سـتة أشهـر للأسطول اليابانى حـيث دارت إحدى المعارك البحـرية الهامة فى تاريخ الحرب العالميـة الثانية وهى معركـة ميدواى Midway فى يونيو ١٩٤٢، إلا أن اليـابانيين لم يعتـرفوا بتلك الهـزيمة ومضـوا فى توسعـاتهم فى الأقطار الآسيـوية فأخضعـوا هونج كونج وجزر الهند الشرقيـة الهولندية، واكتسحت قواتـهم الهند الصينية وتايلاند وسنغافورة كـما اخترقت حاجز المـلايو وسيطرت على سومطرة وجاوة وبورنيو وجـزر الفيليبين، وأصبح من المتوقع تقدم تلك القوات لغزو أستراليا، كما وصلت قوات يابانية أخرى إلى سواحل البنغال وأخذت تتطلع لغزو شبه القارة الهندية .

وعلى الرغم من تلك الانتصارات السـاحقة التى حققتهـا اليابان، إلا أن الرئيس الأمريكى روزفلت كـان من رأيه التصـدى لدول المحور أولا فى أوروبا ويبـدو ذلك واضحـا فى خطابه إلى الشعب الأمريكى الذى أكد فـيه أنه توجد بين ألمانيا واليابان خطط مشتركـة، وبالتالى فإن تقويض التفـوق اليابانى فى الشـرق الأقصى لن يجـدى نفعـا إذا ما ظلت أوروبا خـاضعة لسـيطرة هتلر وموسولينى .

اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب

بدأت الولايات المتحدة تستعـد للحرب بتعبئة قوتها البـشرية، حيث أصدرت قانونا بمد سن الخدمة العـسكرية من ثمانية عـشر إلى خمسـة وأربعين عاما، وترتب على تنفيـذ هذا القانون أن وصلت قوائم التجنيد فى السجلات العسكرية الأمـريكية إلى أكثر من ثلاثين مليونا وشملت قوائم التطوع من الرجـال والنساء مـا يصل إلى خمـسة عـشر مليونـا، كما أخـذت المصانع العـسكرية الأمريكيـة توالى جهودها فى إنتاج الطـائرات وبناء السفن الحربية، وتم تجنيـد الجامعات ومـراكز البحوث العلمية لتطوير الأساليب التقنية مما أدى إلى ظهـور العديد من المخترعات الحديثة من بينها أجهزة السونار فضـلا عن التحسينات التى أدخلت على شبكات الرادار. وقدر ما أنتـجته المصانع الحربية خلال الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥ بما يقرب من ثلاثـمائة ألف طائرة مقاتلة وستة وثمانين ألف دبابة وأكثـر من ثلاثة ملايين مـدفع آلى من مختلف الأنواع، وإحـدى وسبـعين ألف قطعة



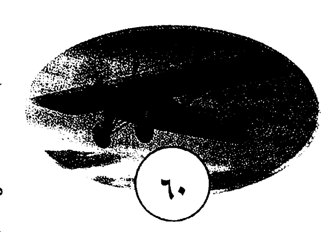
بحرية، بالإضافة إلى ما أنتجته تلك المصانع من المطاط الصناعى والماغنسيوم وألواح الألومنيوم التى استخدمت كمهابط للطائرات . واتخذت الولايات المتحدة الأمريكية والحلفاء قرارا يقضى بتوحيد القيادة العسكرية والتنسيق فى جميع الخطط العسكرية، كما تم الاتفاق على إحكام السيطرة على المحيط الأطلنطى حتى يسهل تقدم القوات الأمريكية إلى جبهات القتال فى الشمال الأفريقى وفى الجبهة الأوروبية .

معركة الأطلنطى

على أثر إعلان الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على دول المحور، أخذت ألمانيا فى تكثيف حرب الغواصات بهدف إعاقة تحرك القوات الأمريكية ومنع الإمدادات العسكرية الأمريكية من الوصول إلى الحلفاء . غير أنه بفضل استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة تمكنت الولايات المتحدة بالتنسيق مع الحلفاء من تطهير المحيط الأطلنطى باستخدام أجهزة السونار لتحديد أماكن الغواصات والألغام، كما استخدمت قنابل الأعماق القنفذية لإغراق الغواصات الألمانية، وتم تزويد السفن الأمريكية بأجهزة إنذار خاصة إلى جانب اتباع طريقة القوافل البحرية التى سبق استخدامها فى الحرب العالمية الأولى، وبتلك الوسائل تم للحلفاء السيطرة على المحيط الأطلنطى وتأمين الملاحة فيه .

جبهة الشمال الأفريقى - معركة العلمين، أكتوبر ١٩٤٢

عهدت القيادة العسكرية العامة للحلفاء إلى الجنرال الأمريكى دوايت أيزنهاور Eisenhower المسئولية فى جبهة الشمال الأفريقي، حيث قام بإعداد خطة عسكرية حملت الاسم الكودى "الشعلة" Torch. وقد ارتكزت تلك الخطة على تطويق القوات الألمانية والإيطالية التى كانت تتقدم بقيادة روميل حتى اخترقت الحدود المصرية ووصلت إلى العلمين على مقربة من الإسكندرية. غير أنها عانت كثيرا من متاعب الصحراء ومن ملاحقة طائرات الحلفاء لها وإمطارها بقذائف مكثفة أدت إلى تدمير معظم دباباتها وشل قدراتها العسكرية مما مكن القائد الإنجليزى روبرت مونتجمرى من اختراق خطوط الدفاع الألمانية والإيطالية، ومن ثم دارت معركة العلمين التى اعتبرت من أعنف معارك حرب الصحراء . وقد انتهت تلك المعركة بتراجع القوات الألمانية والإيطالية غربا حتى وصلت إلى مشارف تونس فى الوقت الذى أطبقت عليها قوات أيزنهاور القادمة من الجزائر وأجبرتها على الاستسلام، بعد أن استولت على أسلحتها ومعداتها، كما بلغ



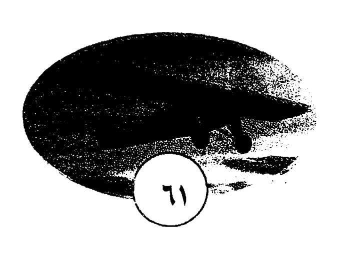
أن بريطانيا هى المسئولة عن إقامة الاتحاد العربى.

وعندما وجه أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى استفسارا عما تم فى مشروع الاتحاد العربى، أتاح ذلك لوزير الخارجية (أنتونى إيدن) أن يوضح رأى الحكومة البريطانية فى الموضوع ، فألقى أمام المجلس بيانا (٢٤ فبراير ١٩٤٣) قال فيه ".. إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة تنشأ بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية ، ولكن من الواضح أن الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع يجب أن تأتى من العرب أنفسهم ، والذى أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذى ينال استحسانا عاما . . ".



الأمير عبد الإله

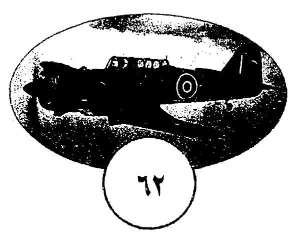
قلعة المصمك التى احتلها ابن سعود لينفرد بالحكم بعد ذلك



وقد ربط بعض الكتـاب بين هذا البيان البـريطانى الثانى عن الوحدة العـربية وبين إجراء المرحـلة الأولى من المحادثات الرسمـية التى بدأت فى ١٩٤٣ بدعوة مـن الحكومة المصرية (حكومـة حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس) لتأسـيس الجامعة العربية. وقالوا إن التصريح الأول (١٩٤١) لم يلق صدى لأن مركز بريطانيا فى الحرب كان حرجا وكان هناك تشكك بين العرب فى نيات بريطانيا كما سبقت الإشارة ، أما فى التصريح الثانى (فبراير ١٩٤٣) فكان وضع بريطانيا قـد تحسن ولاحت فى الأفق بوادر انتصارها فى الحرب فاكتسب التصريح وزنا كبيرا.

لماذا تحولت مصر عـام ١٩٤٣ إلى الارتباط بفكرة الوحدة العربية بعد أن كـانت مترددة عام ١٩٤١ (التصريح الأول) ؟. يفسر البعض ذلك بـأن حكومة النحاس التى تسلمت السلطة بمساعدة الإنجليز (فى ٤ فبراير ١٩٤٢) كانت تتعاون مـع دولة الاحتلال إلى أقصى حد ، وأن اتجاهها إلى فكرة الاتحاد العربى إنما هو مظهر من ذلك التعاون. لكن البعض الآخر يرى أن النحاس كان يؤيد التقارب العـربى منذ وافق على عقد المؤتمر الطبى العـربى والمؤتمر الثقافى العربى فـى القاهرة عام ١٩٤٢ ، وعند قيامـه بزيارة لسوريا ولبنان وفلسطين للتعـرف على أحوالها وإن لم تكن مشـجعة لأنه اطلع على شدة الانقسامات هناك.

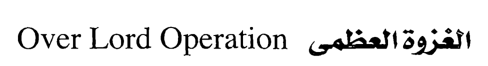
وقد أكد مـصطفى النحاس فى بيان لحكومـته فى ٣٠ مارس ١٩٤٣ أمام مجـلس الشيوخ كيف أن اندفاع حكومتـه نحو حركة الاتحاد العربى ليست مرتبطة أو مـترتبة على تصريح إيدن فى مجلس العموم البريطانى بل إن المسألة أبعد من هذا بكثير . . ففى البيان الذى ألقاه نيابة عنه وزير العدل قال فيه : "إننى مـعنى من قديم بأحوال الأمة العربية والمعاونة على تحـقيق آمالها فى الحرية والاستقلال ، وقد خطوت فى ذلك خطوات واسعة صادفها التوفيق فاتجه الحكم فى بعض الأقطار العربية الاتجـاه الشعبى الصحـيح ، فمنذ أعلن إيدن تصريحه فكرت فـيه طويلا ، ولقد رأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل إلى غاية مرضيـة هى أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية. وانتهيت من دراستى إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية فى هذا السبيل فـتبدأ باستطلاع آراء كل حكومة عربـية على حدة فيما ترمى إليـه من آمال ، ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين مختلف الآراء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك إلى مصر معا فى اجـتماع ودى لهذا الغرض حتى يبدأ المسعى للوحدة العـربية. فإذا تم التفاهم أو



ولعل مما يثير الانتباه أنه على الرغم من أن الهزائم العسكرية كانت تتوالى على ألمانيا، فقد استمر الهر جوبلز Goebbels وزير الدعاية الألمانية يؤكد للشعب الألمانى حتمية الانتصار !. وفى محاولات يائسة جدد الألمان هجماتهم على الجزر البريطانية باستخدام قذائف بعيدة المدى لا تحمل طيارين عرفت بقذائف V كما استخدموا القنابل النفاثة v1 والقنابل الصاروخية v2، غير أن تلك الهجمات لم يكن لها أية جدوى .



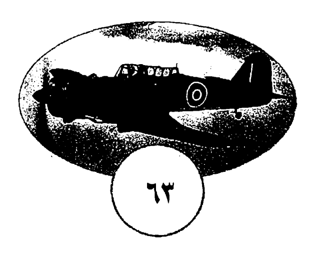
«ديجول» رئيسا لفرنسا



الغزوة العظمى Over Lord Operation

رسمت الخطة العسكرية لتلك الغزوة التى أطلق عليها سيدة العمليات على أساس تقدم قوات الحلفاء من فرنسا إلى ألمانيا، وتم اختيار الجنرال أيزنهاور ليكون قائدا لتلك القوات نظرا لما أحرزه من نجاح فى جبهة الشمال الإفريقى والجبهة الأوروبية فى صقلية وإيطاليا، ولما كان يتمتع به من كفاءة عالية وسمعة طيبة .

وقد بدأت العمليات العسكرية بانتشار قوات الحلفاء على الحدود الفرنسية الألمانية، حيث حائط الدفاع الغربى الألمانى - خط سيجفريد - فى الوقت الذى قامت فيه القوات الجوية باستخدامها طائرات عملاقة من طراز هاليفاكس وسترلنج ولنكستر بقذف المدن الألمانية والنمساوية. وترتب على عمليات القذف هذه تدمير المصانع والسكك الحديدية وحظائر الغواصات، وقدرت القذائف بأكثر من مليون ونصف مليون قذيفة ترتب عليها محو مدن بكاملها ومن بينها همبورج وكولون وبريمن وغيرها . وقد أتاح هذا الهجوم الجوى المكثف للقوات البرية التابعة للحلفاء والمتمركزة حول خط سيجفريد اختراق الحدود الألمانية عند مدينة آخن، فى الوقت الذى تقدمت فيه القوات السوفيتية وأطبقت على ألمانيا من الناحية الشرقية . وتمكن الجنرال زوكوف من التغلغل داخل الأراضى الألمانية وتوجيه هجماته على العاصمة الألمانية برلين إلى أن سقطت فى أبريل ١٩٤٥ . وانتهى أمر هتلر بالانتحار وانتحرت معه عشيقته إيفا براون، كما أقدم جوبلز بدوره على الانتحار، وبهذه الطريقة المأساوية أعلن سقوط الرايخ الألمانى الثالث .



تقسيم ألمانيا

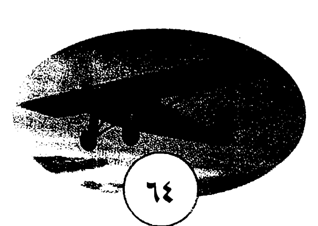
ترتب على سقوط ألمانيا فى أيدى الحلفاء أن اجتمع كل من الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت والرئيس السوفيتى جوزيف ستالين وونستون تشرشل رئيس الحكومة البريطانية فى مدينة يالتا فى شبه جزيرة القرم، وتم الاتفاق فيما بينهم على تقسيم ألمانيا إلى مناطق احتلال بحيث تشرف كل دولة من الدول الثلاث على واحدة من المناطق . كما وافقوا على دعوة فرنسا للإشراف على منطقة رابعة، وتقرر بالإضافة إلى ذلك اتخاذ الإجراءات اللازمة لنزع سلاح ألمانيا والقبض على كبار العسكريين وزعماء النازية تمهيدا لمحاكمتهم كمجرمى حرب، بالإضافة إلى فرض تعويضات تلتزم ألمانيا بدفعها مقابل ما سببته من خسائر وأضرار . وهكذا عانت ألمانيا مرة أخرى من الإذلال والمهانة فضلا عن تقسيمها بين الحلفاء إلى ما صار يعرف بألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية. وقد ظل هذا التقسيم قائما حتى تمكنت ألمانيا فى عقد الثمانينيات من القرن الماضى استعادة وحدتها السياسية وتنطلق كقوة اقتصادية على أمل أن تحقق بالسلام ما خسرته فى الحرب.



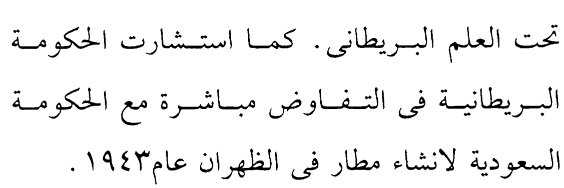
صورة لاجتماع ستالين وروزفلت وتشرشل فى جزيرة (يالتا) سنة ١٩٤٥

استمرار اليابان فى الحرب

على الرغم من انهيار إيطاليا وألمانيا فقد ظلت اليابان - وهى الطرف الثالث فى دول المحور - مستميتة فى القتال . غير أن موقفها صار متحرجا إلى حد كبير نتيجة سقوط حلفائها فى أوروبا والمقاومة الشديدة من الشعوب الآسيوية التى سيطرت عليها . وكانت تلك الشعوب قد رحبت فى بداية الأمر باليابان باعتبارها مخلصة لهم من الاستعمار الأوروبى إلا أنها لم تلبث أن تحولت إلى قوة إمبريالية ضخمة على حساب جيرانها، حيث استغلت موارد تلك الشعوب فى سبيل مصالحها الاقتصادية والعسكرية . وكان من أبرز حركات المقاومة التى واجهتها اليابان تلك الحركة التى تزعمها هوشى منه فى الهند الصينية وماوتسى تونج فى الصين إلى جانب حركات المقاومة الأخرى التى ظهرت فى كل من الفيليبين وجزر الهند الشرقية وغيرها .

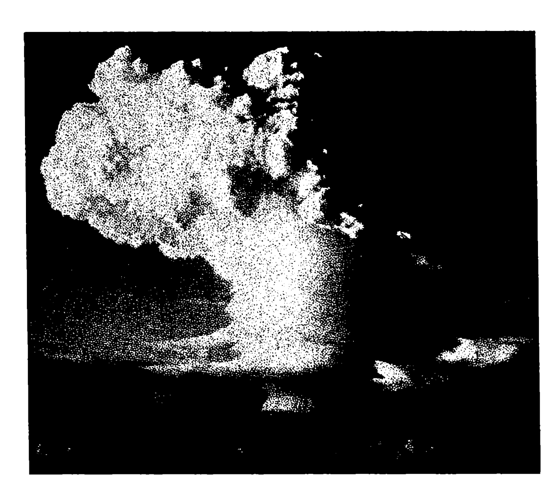


بصحراء مصر الغربية لكى يثير الحماس فى نفـــوس المجنـدين المسـلمين مـن الهـند ليـحـاربوا بإخـلاص


تحت العلم البـريطانى. كمـا استـشارت الحكومـة البـريطانيـة فى التـفـاوض مبـاشـرة مع الحكومـة السعودية لانشاء مطار فى الظهران عام١٩٤٣.



الملك عبد العزيز آل سعود



القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ التى أنهت الحرب العالمية الثانية ألقتها الولايات المتحدة الأمريكية على هيروشيما فى اليابان وأخرى على نجازاكى

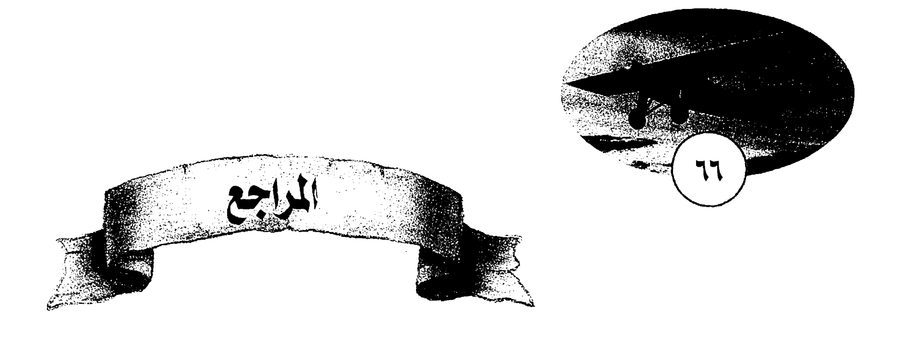


روزفلت بين ستالين وتشرشل اتحاد فى الحرب العالمية الثانية

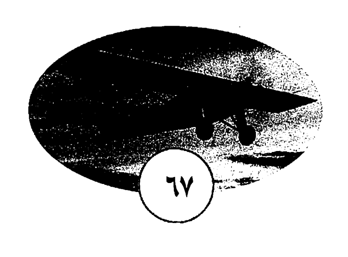
وبدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية طرأ على سياستها تحول تام بالنسبة للشرق الأوسط عامة، ولكى تمنع غزوا ألمانيا محتملا لتركيا أصدر روزفلت تصريحا فى ديسمبر ١٩٤١ قال فيه : إن سلامة تركيا تعد جزءا من أمن الولايات المتحدة. ثم أبدت اهتماما خاصا بإيران لاعتبارها حلقة اتصال مع الحليف السوفيتى، كما ازداد نشاطها الحربى والسياسى فى مصر حيث كانت تقدم المساعدات المختلفة إلى الجيش الثامن البريطانى فى الصحراء الغربية ، وان اقتصر دورها فى هذا الشأن على إنشاء الطرق والمطارات ولكنها لم تشترك بقواتها البرية فى جبهات الشرق الأوسط.

ومن النتائج السيئة التى ترتبت على تدخل الولايات المتحدة الأمريكية فى شؤون الشرق الأوسط تأييدها للحركة الصهيونية وترحيب بريطانيا بعد الحرب بمشاركتها فى حل قضية فلسطين خاصة وقد انتقل مركز الحركة من لندن إلى الولايات المتحدة خلال الحرب.

ولقد أتاحت الحرب ظروفا لم تكن تتهيأ من قبل لإقامة علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفيتى وبين أربع من الدول العربية هى مصر والعراق وسوريا ولبنان جاءت فى إطار تحالف السوفييت مع الدول الغربية على حين أن الاتحاد السوفييتى لم يكن يهتم إلا بدول الشرق الأوسط المتاخمة له وهى تركيا وإيران، ولم يكن من السهل عليه ممارسة نشاط سياسى فى البلدان الخاضعة لنفوذ الدول الاستعمارية الغربية.



- أحمد طربين ، الوحـدة العربية ١٩١٦-١٩٤٥ ، معـهد البحوث والدراسـات العربية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الحبيب ثامر ، هذه هى تونس ، القاهرة ١٩٤٨ .
- رشيد غالى الكيلانى ، أسرار الثورة العراقية ، دمشق ١٩٥٨ .
- سيتون ويليامز ، بريطانيا والدول العربية ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ١٩٥٢ .
- صلاح العـقاد ، الحرب العالميـة الثانية : دراسة فـى تاريخ العلاقات الدولية ، مكتـبة الانجلو المصرية ، القاهرة ,١٩٦٣
- " " ، العرب والحرب العـالمية الثانية ، مـعهد البحوث والدراسـات العربية، القاهرة ١٩٦٦ .
- " " ، المغرب العربى (الجزائر-تونس-المغرب الأقصى) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .
- عاصم الدسـوقى ، مصر فى الحـرب العالميـة الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ ، مـعهد البـحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٦ .
- " " ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ق ١٦- ق ٢٠ ، مؤسسة ابن خلدون للطباعة والنشر ، القاهرة ٢٠٠٠ .
- نيقولا زيادة ، ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .





الموضوع	الصفحة
مقدمة.	١
تمهيد.	٢
بلاد العرب أثناء الحرب	٧
١- مصر.	٧
٢- العراق.	١٨
٣- سوريا ولبنان وشرق الأردن.	٢٥
٤- الصهيونية وفلسطين.	٣٧
٥- بلاد المغرب (تونس والجزائر ومراكش).	٤٤
٦- ليبيا.	٥١
٧- الطريق إلى التضامن العربى.. الجامعة العربية.	٥٥
خلاصة .	٦٣
أهم المراجع.	٦٥
المحتويات.	٦٧



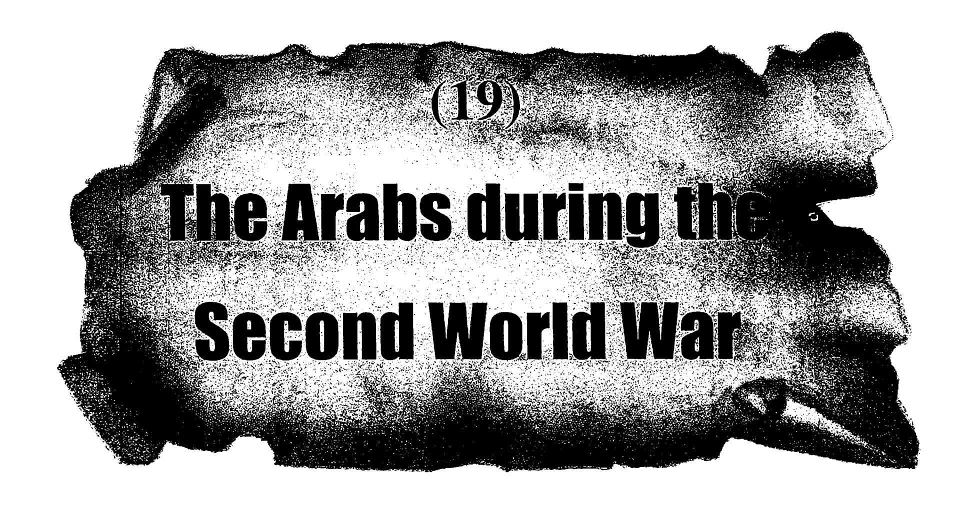
This work examines the impact of the Second World War on both the Arab governments and the National Movements throughout the Arab World.

It is to be noted that at that period the Arab countries were under the control of the Western Imperial Powers, or the Allies, while the nationalists and their supporters were more sympathetic with Axis Powers "Germany and Italy".

Some national figures wanted to make use of the international paradox in the world map during this horrid war. This is why the Allies accused these national groups as being racial and anti- democratic.

Particular emphasis is made of the Zionist Movement, and the ways it exploited the story of Nazism and anti- Semitism, and thus enhanced the existence of the Jewish State in Palestine to the detriment of its indigenous people. However, Britain as usual began to intrigue, and circulated the idea of establishing the Arab League, only for independent Arab States, and thus excluding many Arab countries which were under its imperial control.

Dr. Assem El - Dossoqi



Dr. Assem El- Dossoqi





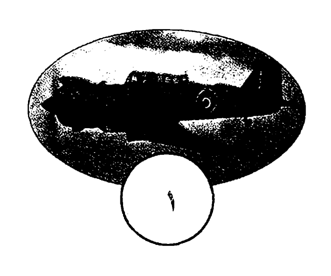
تأليف

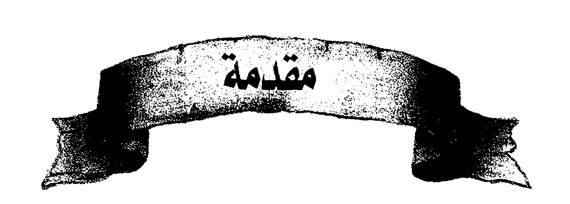
أ. د. جمال زكريا قاسم

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب - جامعة عين شمس







مقدمة

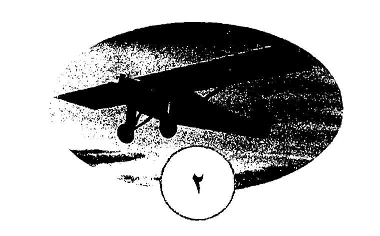
شهد النصف الأول من القرن العشرين وفى خلال جيل واحد حربين عالميتين ذهب ضحيتهما عشرات الملايين من البشر وعانت كثير من الدول - بما فيها الدول المنتصرة والمنهزمة على حد سواء - من آثارهما الاقتصادية والاجتماعية المدمرة .

وقد اهتم كثير من المؤرخين والباحثين بتحليل أسباب هذين الحربين، وبينما أرجع البعض البواعث الحقيقية لنشوب الحرب العالمية الأولى إلى العديد من الأسباب والعوامل التى ارتبطت بالنزعات الاستعمارية وبسياسة المحالفات والتكتلات العسكرية، ألقى الكثيرون مسئولية الحرب العالمية الثانية على ألمانيا النازية بزعامة أدولف هتلر وانتهاجه لسياسة المجال الحيوى، التى أدت إلى قلب التوازن الدولى فى أوروبا ومهدت لاندلاع الحرب العالمية الثانية .

وعلى الرغم من تعدد الأسباب والتحليلات، إلا أنه سوف يتضح للقارئ من خلال هذه الدراسة أن نشوب هذين الحربين ارتبط فى أساسه بالعداء الكامن بين ألمانيا وفرنسا، والذى بدأ بالإهانة التى لحقت بفرنسا عقب انتصار ألمانيا عليها فى الحرب السبعينية وتوقيعها معاهدة فرانكفورت فى عام ١٨٧١ ، وما ترتب عليها من تطورات سياسية وعسكرية مهدت لنشوب الحرب العالمية الأولى التى انتهت بهزيمة ألمانيا وإصرار فرنسا على رد الإهانة إليها ، كما وضح ذلك بصورة جلية فى معاهدة فرساى التى وضعت بذور الحرب العالمية الثانية .

وليس من شك فى أن ما أسفرت عنه الحربان العالميتان من نتائج مدمرة كان يرجع فى أساسه إلى التطور المذهل فى الأسلحة والأساليب القتالية، ففى الحرب العالمية الأولى استخدمت المتفجرات والألغام والطائرات والغواصات، وفى الحرب العالمية الثانية كان أكبر تطور فى الأسلحة القتالية التوصل إلى تصنيع القنابل الذرية وما تلا ذلك من أسلحة نووية وهدروجينية وغيرها، فيما صار يعرف بأسلحة الدمار الشامل .

وقد دفعت النكبات التى حلت بشعوب العالم المجتمع الدولى للبحث عن تنظيمات يكون من أهدافها منع الحروب والمحافظة على السلام والأمن الدوليين . ومن ثم كان قيام عصبة الأمم





تمهيد

عندما دخلت قوات ألمانيا أراضى بولندة فى أول ديسمبر ١٩٣٩ ورفض هتلر الانسحاب منها امتثالا لإنذار بريطانى-فرنسى أعلنت الدولتان الحرب عليه فى ٣ سبتمبر فكانت الحرب العالمية الثانية ، وبات معروفا بين جمهرة الباحثين فيما بعد أن تسويات الحرب العالمية الأولى التى فرضت قهرا على ألمانيا فى فرساى ١٩١٩ كانت وراء تنمية مشاعر الثأر وروح الانتقام لدى قطاع البرجوازية الألمانية التى فقدت أسواقها ومستعمراتها الخارجية ، ووجدت فى شيفونية أدولف هتلر خير أداة لإعادة الاعتبار لألمانيا .


الزعيم الألمانى أدولف هتلر

وكان هتلر قد انتخب فى يناير ١٩٣٣ مستشارا لألمانيا وفور وفاة هندنبرج (٢أغسطس ١٩٣٤) أصبح رئيسا للرايخ (الجمهورية) وتسمى بالفوهرر (الزعيم) ، وحدد أهدافه فى إعادة جمع كلمة الألمان وإقامة دولة كبرى تكون حاجزا ضد انتشار الشيوعية وسيطرتها وذلك من خلال برنامج "الاشتراكية الوطنية" (النازية N. Z). وكانت الاشتراكية الوطنية طريقا للإصلاح الاقتصادى وسطا بين الشيوعية وبين الرأسمالية، ومن هنا اكتسب هتلر عداء كل منهما بل لقد كان هتلر يعتقد أن حماقة الرأسمالية واستغلالها الشديد وراء الشيوعية التى دعا إليها كارل ماركس طريقا للعدل الاجتماعى .

وبدأ هتلر فى اتخاذ الخطوات اللازمة لإعادة القوة لألمانيا باستعادة الأراضى التى اقتطعت منها بتسويات فرساى (الحرب العظمى) . وفى يناير ١٩٣٥ استعاد إقليم السار ، وفى مارس من العام نفسه أعاد نظام التجنيد الإجبارى الذى كان محظورا بفعل التسويات فنراه ينشئ قوة حربية جديدة ويقيم مصانع كبيرة . وهنا أخذت القوى الأوروبية الكبرى (إنجلترا وفرنسا والاتحاد السوفييتى) تراقب خطوات هتلر التى من شأنها هز دعائم التوازن الدولى المستقر منذ تسويات الحرب العظمى وبدأت المناورات والتحالفات من جديد ، فنرى فرنسا تعقد معاهدة ضمان متبادلة

مع الاتحاد السوفييتى (مايو ١٩٣٥) ، وهتلر يعقد معاهدة بحرية مع إنجلترا (يونية ١٩٣٥) .

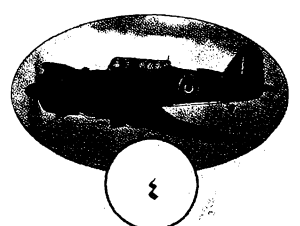
فى تلك الأثناء كانت إيطاليا تحت زعامة موسولينى (الدوتشى) تعمل على استعادة مجد روما القديمة بالتوسع ما شاءت لها قدراتها بعد أن خرجت من تسويات الحرب العالمية الأولى بخفى حنين . ففى أكتوبر ١٩٣٥ تغزو الحبشة ، وتعلن عصبة الأمم أن إيطاليا دولة معتدية وتقرر توقيع عقوبات عليها (نوفمبر ١٩٣٥) ولكن دون جدوى ، إذ تقاعست دول كثيرة عن تنفيذ العقوبات بسبب تشابك المصالح فيتشجع موسولينى أكثر ويعلن ضم الحبشة لإيطاليا (٩ مايو ١٩٣٥) بعد فرار إمبراطورها هيلاسيلاسى (مارس ١٩٣٦) .

الزعيم الإيطالى موسولينى

وأثناء انشغال العالم بالاحتجاج على غزو إيطاليا للحبشة يعلن هتلر تأييده لموسولينى ، ويسرع باحتلال أراضى الراين (٧ مارس ١٩٣٦) ، ويعلن اعتزامه تحصينها وكانت قد جردت من السلاح وفق تسويات فرساى . وكان هذا الموقف إشارة لتقارب إيطالى-ألمانى فى مواجهة القوى الأوروبية الأخرى . ووجد هذا التقارب فى الحرب الأهلية الأسبانية التى اندلعت

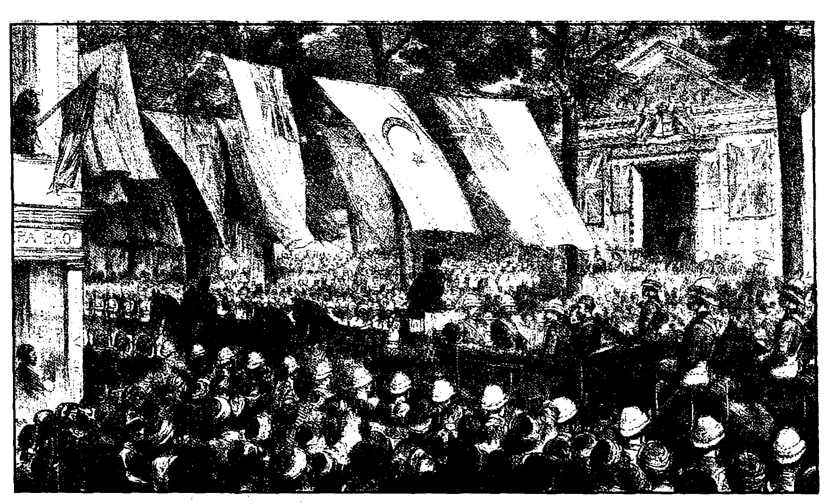


الزعيمان هتلر وموسولينى

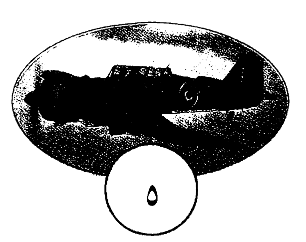


ضرورة عزل فرنسا عن السياسة الأوروبية، وتم له ذلك بعقد مجموعة من المحالفات السياسية والعسكرية مع بعض الدول الرئيسية فى القارة الأوروبية .

وقد بدأت تلك المحالفات بالتقارب الواضح بين ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر، التى كانت فى حاجة شديدة إلى مساندة ألمانيا لها من أجل توسعها فى شبه جزيرة البلقان التى كانت خاضعة آنذاك للدولة العثمانية . وكان من السهل على بسمارك أن يقنع كلا من قيصر روسيا وإمبراطور النمسا والمجر بتوثيق روابطهما مع الرايخ الألمانى لمواجهة التيارات الثورية التى بدأت تنتشر فى فرنسا بعد سقوط الإمبراطورية النابليونية الثانية وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة باتجاهاتها الاشتراكية نتيجة لهزيمتها فى الحرب السبعينية، وما يمكن أن ينجم من جراء تلك التحولات من تهديد لأنظمتهم الأوتوقراطية . وعلى أثر اجتماع حضره الأباطرة الثلاث فى برلين - قيصر روسيا وإمبراطور النمسا والمجر وقيصر ألمانيا - تم الإعلان فى عام ١٨٧٢ عن تكوين ما عرف بعصبة الأباطرة الثلاثة Drei Kaiser Bund .


الخديوى توفيق فى مصر تحت حماية إنجليزية سنة١٨٨٢

غير أن هذه العصبة كانت تحمل فى طياتها بعض عوامل الضعف، نظرا لتعارض مصالح كل من إمبراطور النمسا والمجر وقيصر روسيا فى شبه جزيرة البلقان . إذ لم تكن النمسا راضية عن التحركات الروسية فى البلقان التى اعتبرتها ضارة بمصالحها، وخاصة بعد أن نجحت روسيا فى إثارة شعوب البلقان ضد الدولة العثمانية والانضواء تحت حركة الجامعة السلافية التى تزعمتها نظرا لما يجمع بينها ومعظم الشعوب البلقانية من روابط عنصرية ومذهبية . ومن الواضح أن روسيا كانت تهدف من وراء سيطرتها على شعوب البلقان الالتفاف حول الدولة العثمانية من أجل تحقيق

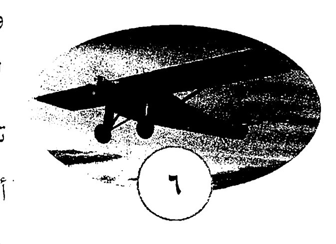


السيطرة على مضايق الدردنيل والبوسفور، لما لهذه المضايق من أهمية حيوية بالغة التى تمكنها من الانطلاق عن طريقها من البحر الأسود شبه المغلق إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض المتوسط .

وعلى أثر اتهام روسيا للدولة العثمانية اضطهادها لشعوب البلقان وقمعها للحركات التحررية لتلك الشعوب فيما صار يعرف بمذابح البلغار فى عام ١٨٧٦، بادرت بإعلان الحرب على الدولة العثمانية وأرغمتها على توقيع معاهدة سان ستيفانو فى عام ١٨٧٧ التى استطاعت بواسطتها أن تحقق نجاحا بالغا لسياستها فى البلقان كما أتاحت لنفسها حرية المرور فى المضايق العثمانية .

ولما كان بسمارك يخشى من أن تؤدى تلك المعاهدة إلى الإخلال بتوازن القوى فى القارة الأوروبية لصالح روسيا، وبالتالى يمكن أن تشكل خطرا قد يهدد ألمانيا فى المستقبل، فقد سارع

الإمبراطور فلهلم الأول سنة ١٩١٢



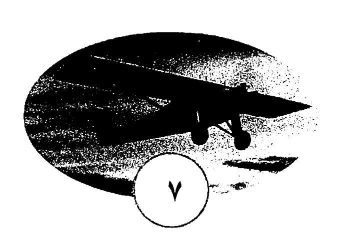
وفرنسا بهتلر الذى طالب بمنح أهالى السوديت حق تقرير المصير حتى لا يضطر لغزو تشيكوسلوفاكيا فأذعنت الدولتان وطلبتا من تشيكوسلوفاكيا التنازل عن السوديت لألمانيا بل والتنازل عن أقاليم أخرى تسكنها أغلبية ألمانية وهو ما عرف باتفاق ميونيخ (٢٦ سبتمبر ١٩٣٨) .

ولقد فهم ستالين الزعيم السوفييتى من اتفاقية ميونيخ أن بريطانيا وفرنسا تنويان إطلاق هتلر ضد الاتحاد السوفييتى . فلما التهم هتلر بقية تشيكوسلوفاكيا فى مارس ١٩٣٩ ، بدأ ستالين يفكر فى كيفية اتقاء خطر ألمانيا الجديدة وخاصة أن بريطانيا وفرنسا تغاضتا عن توسعات هتلر ، كما لم تفعلا شيئا تجاه غزو موسولينى لألبانيا (٧ أبريل ١٩٣٩) سوى الإعلان عن عزمهما تقديم المساعدة لليونان ورومانيا حال غزوهما من إيطاليا، وسوى إعلان بريطانيا ضمان سلامة أراضى بولندة (أبريل ١٩٣٩) .

وعندما عقدت بريطانيا حلفا مع تركيا (مايو ١٩٣٩) للتعاون فى حالة نشوب حرب فى شرق البحر المتوسط وكذلك فعلت فرنسا بعد تسوية نزاعها مع تركيا حول إقليم الإسكندرونة حيث وافقت وهى دولة منتدبة على سوريا على سلخه من سوريا وضمه إلى تركيا ، بادر ستالين بتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع ألمانيا فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ والاتفاق على تقسيم نفوذ كل منهما فى دويلات البلطيق وبولندة وبسارابيا .

كانت معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى التى سعى إليها السوفييت مشجعا لهتلر على تشديد الخناق على بولندة ، وكان أغلب أهالى دانتزج يطالبون بالعودة إلى الوطن الأم ألمانيا ، فبدأت سحب الخطر تتجمع من جديد بعد انقشاعها مؤقتا . وعلى هذا طلبت بريطانيا من هتلر فتح باب المفاوضات مع بولندة لتسوية أية منازعات . وقبل هتلر كارها (٢٩ أغسطس) واشترط أن توفد بولندة مفوضا له صلاحية قبول الشروط على أن يصل فى اليوم التالى. لكن بولندة رفضت الإذعان فما كان من هتلر إلا أن حرك قواته إلى بولندة فى أول سبتمبر ورفض الإنذار البريطانى-الفرنسى بسحب قواته فأعلنت الدولتان الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ وبدأ طريق العنف والدمار والآلام طوال خمس سنوات .

وآنذاك كانت ملامح الصراع الاقتصادى-السياسى على المستوى العالمى قد تحددت بين ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الرأسمالى الذى تمثله أوروبا الغربية بقيادة بريطانيا وفرنسا ، والاتجاه الشيوعى



الذى يمثله الاتحاد السوفييتى ، والاتجاه الوسطى المتمثل فى الاشتراكية الوطنية (النازية) ، وكل من دول تلك الاتجاهات لها نفوذ ممتد خارج حدودها بدرجة أو بأخرى امتد إلى البلاد العربية بدرجات متفاوتة مما كان له تأثيره على حركة الحوادث أثناء الحرب كما سوف نرى فى الصفحات التالية .

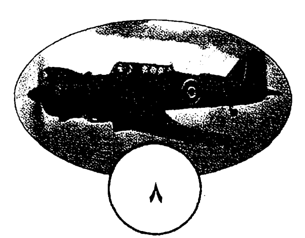
بلاد العرب أثناء الحرب

كانت البلاد العربية عشية اندلاع الحرب تقع أغلبها فى دائرة النفوذ الإنجليزى-الفرنسى بدرجات متفاوتة. ففى دائرة النفوذ الإنجليزى تقع مصر والسودان رغم معاهدة ١٩٣٦ ، وكذلك العراق والأردن رغم الاستقلال ، وأيضا عدن المحمية البريطانية منذ ١٨٣٩ ، وإمارات الخليج العربية ومشيخاته من عمان جنوبا إلى الكويت شمالا ترتبط بمعاهدات حماية متفاوتة الدرجات منذ عشرينيات القرن التاسع عشر. وتقع سوريا ولبنان فى دائرة النفوذ الفرنسى بمقتضى نظام الانتداب ، وكذا تونس والجزائر ومراكش بمقتضى معاهدات حماية فرنسية، وليبيا فى قبضة الاحتلال الإيطالى. ولم يبق بعيدا عن دائرة النفوذ الأجنبى المباشر إلا المملكة العربية السعودية وإمامة اليمن.

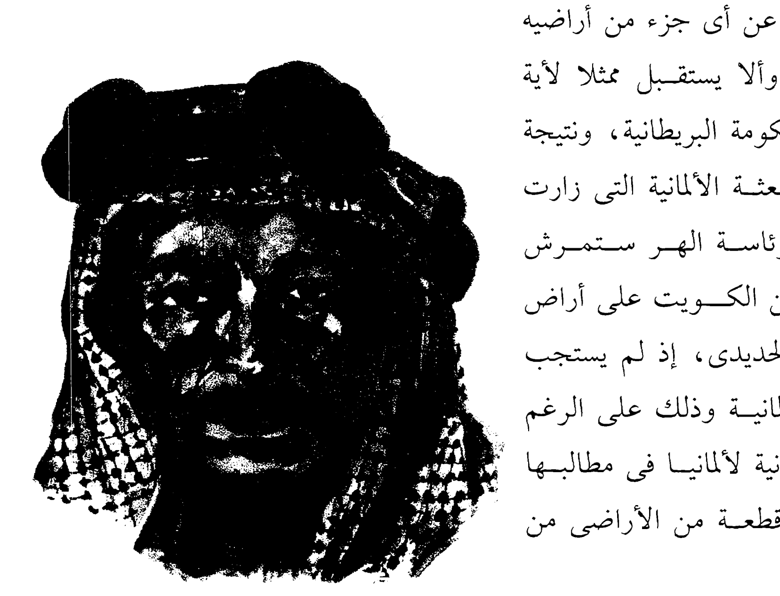
ولقد تأثرت الحركة السياسية فى البلاد العربية بهذا الصراع الدولى بدرجات مختلفة حسب علاقة كل دولة بقوة من قوى الصراع . . فالبعض رأى التفاهم مع قوى المحور للتخلص من الاحتلال الإنجليزى الفرنسى عملا بحكمة: "إن عدو العدو يصبح صديقا" . لكن السلطات الأنجلو- الفرنسية كانت وراء هذه العناصر بالمرصاد ، وحالت دون قيام أية درجة من التفاهم المنشود. وعلى العكس كانت بريطانيا تحرض الحكومات العربية المعنية على إعلان الحرب على دول المحور حتى تقطع خط التفاهم إلى غير رجعة فى الوقت الذى كانت فيه هذه الحكومات تسعى لاتخاذ موقف الحياد دون تورط فى المعارك الحربية والاكتفاء بتنفيذ الالتزامات المقررة فى المعاهدات المبرمة فقط.

وفى الصفحات التالية استعراض للحركة السياسية فى كل بلد عربى تأثرت أوضاعه بظروف الحرب.

فى مصر .. كانت السلطات الحاكمة تسعى إلى تجنيب البلاد التورط فى الانجرار لأى أزمات دولية تفرضها التحالفات بين مختلف القوى المتنافسة والمتصارعة حتى من قبل وقوع



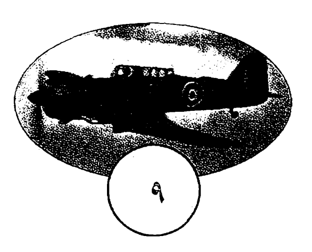
ترتب على مشروع سكة حديد بغداد دخول الكويت فى دائرة الصراعات الدولية، حيث سارعت إنجلترا بالحصول على تعهد من حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح ١٨٩٦-١٩١٥ يقضى بألا يتنازل عن أى جزء من أراضيه وألا يستقبل ممثلا لأية دولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية، ونتيجة لذلك التعهد لم تتمكن البعثة الألمانية التى زارت الكويت فى عام ١٩٠١ برئاسة الهر ستمرش Stemirch أن تحصل من الكويت على أراض لتجعلها نهاية لمشروعها الحديدى، إذ لم يستجب الشيخ مبارك للمطالب الألمانية وذلك على الرغم من مساندة الدولة العثمانية لألمانيا فى مطالبها الخاصة بشراء أو إيجار قطعة من الأراضى من حاكم الكويت .



الشيخ «مبارك الصباح» أمير دولة الكويت قبيل الحرب العالمية الأولى

لم تقتصر مخاوف إنجلترا عند حد مشروع سكة حديد برلين - بغداد، وإنما تزايدت مخاوفها بسبب التقارب الواضح بين ألمانيا والدولة العثمانية ، وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تبدى ترحيبها الشديد بذلك التقارب لحاجتها إلى حليف قوى يمكنها الاستناد عليه لمواجهة الضغوط التى كانت تتعرض لها من قبل إنجلترا وفرنسا وروسيا، وما نجم عن تلك الضغوط من فقدانها للعديد من الولايات الإسلامية والمسيحية التابعة لها، فى الوقت الذى بدت فيه ألمانيا وكأن لم يكن لها أطماع استعمارية مباشرة ، وإن كان من الواضح أن تغلغل ألمانيا فى ولايات الدولة العثمانية الأوروبية والعربية كان يحقق لها فرص الاستثمار والتفوق الاقتصادى .

كان من الطبيعى أن تتفق المصالح المشتركة بين إنجلترا وفرنسا على حتمية تسوية المشكلات الاستعمارية القائمة بينهما، ومن ثم أصبحت الظروف ممهدة لعقد الاتفاق الودى Entente Cordiale بين الدولتين فى عام ١٩٠٤ بما ورد فيه من بنود خاصة بمصر ومراكش، وبموجبها وافقت فرنسا على أن تسلم لإنجلترا باحتلالها مصر مقابل تغاضى إنجلترا عن التطلعات الفرنسية فى مراكش . ولم تلبث فرنسا أن نجحت فى القيام بوساطة لإحداث تقارب بين حليفتها القديمة -

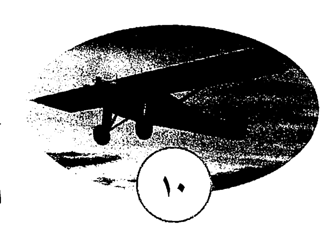


روسيا - وبين صديقتها الجديدة - إنجلترا- وترتب على تلك الوساطة أن تم في عام ١٩٠٧ عقد الوفاق الودى بين إنجلترا وروسيا . وكان مما ساعد فرنسا إلى إحداث هذا التقارب بين الدولتين الهزيمة التى تعرضت لها روسيا أمام اليابان تلك الدولة الصغيرة التى استطاعت بفضل تحالفها مع إنجلترا فى عام ١٩٠٢ أن تحرز انتصارا مؤزرا على روسيا فى الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥ . وبالتالى لم تعد روسيا تثير مخاوف إنجلترا بعد أن استطاعت اليابان أن تهزم ذلك المارد العملاق الذى كانت إنجلترا وغيرها من الدول تحسب له حسابا كبيرا . ومن ناحية أخرى كانت روسيا عقب هزيمتها ترى أنها أصبحت فى حاجة إلى صداقة إنجلترا بدلا من استمرار التنافس والعداء معها فى فارس وأفغانستان وأواسط آسيا، ومن ثم حرصت إنجلترا وروسيا فى الوفاق الودى على اقتسام مناطق النفوذ بينهما بحيث قسمت تلك المناطق إلى قسمين : القسم الشمالى تحت نفوذ روسيا والقسم الجنوبى تحت نفوذ إنجلترا . ومنعا للاحتكاك بين الدولتين تقرر إقامة منطقة محايدة بين المنطقتين عرفت فى المصطلح السياسى باسم المنطقة العازلة أو الحاجزة Buffer Zone .

نتيجة لتلك التطورات التى حدثت فى السياسة الأوروبية فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، أصبح هناك تكتلان يقف كل منهما فى مواجهة التكتل الآخر، وهما : تكتل دول الوسط بين كل من ألمانيا وإيطاليا وإمبراطورية النمسا والمجر، وتكتل دول الوفاق المكون من إنجلترا وفرنسا وروسيا، إضافة إلى الدولة العثمانية التى أبدت تقاربا ملحوظا مع ألمانيا .


تيودور روزفلت

وكان من الطبيعى نظرا لانقسام العالم الأوروبى إلى هذين التكتلين المتعارضين أن تظهر عوامل التوتر بينهما، حين بدأ كل منهما يستعد لمواجهة التكتل الآخر، وهو الأمر الذى بدا فى سباق التسلح، وخاصة بين ألمانيا من جهة وكل من فرنسا وإنجلترا من جهة ثانية . وظهر هذا التسابق واضحا حين أصدرت ألمانيا عدة قوانين استهدفت بها تنمية قواتها العسكرية، كما شرعت فى إنشاء أسطول بحرى تم تدريبه على القيام بعمليات عسكرية فى بحر الشمال بين السواحل الألمانية والبريطانية مما أثار قلق بريطانيا، إضافة إلى نمو التجارة الخارجية الألمانية ووصولها



البريطانى أمام مجلس الشيوخ بقوله : "فوجئت البلاد بطلب تغيير الحكومة باعتبار أنها لا تعبر عن رأى الشعب ولا عن شعور المصريين ولا تصدر عن مصلحة مصر ولا تعمل بروح المعاهدة. وترتب على ذلك أن التجأ ممثل الحليفة مع الأسف الشديد إلى الوسائل العتيقة التى كانت تعرفها هذه البلاد قبل إمضاء المعاهدة".

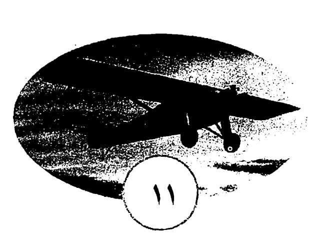
وهكذا أثبت بلاغ ١٩ يونية الإنجليزى بجلاء كيف أن معاهدة ١٩٣٦ لم تمنع التدخل فى شؤون مصر الداخلية. والحق أن موقف مصر من الحرب بعد وقوع حوادث الحدود وتوغل القوات الإيطالية فى الأراضى المصرية أصبح يحتاج إلى تكييف قانونى إذ حسب قرارات مجلس النواب المشار إليها كان يجب على مصر إعلان الحرب. كما أن معاهدة ١٩٣٦ تتعارض وحالة الحياد، ولكن بما أن الرأى العام ضد المشاركة فى الحرب رسميا فقد توصل بعض القانونيين إلى وصف وضع مصر بالنسبة للمحور بانه حالة "عدم المقاتلة". ووضح إسماعيل صدقى الوضع بعبارة أخرى فذكر أن القتال فى الصحراء الغربية يعتبر حربا بين طرفين على أراضى طرف ثالث.

إسماعيل صدقى

غير أن ذلك لم يمنع وجود اتجاهات فى أوساط متعددة أرادت الإفادة من تلك الفرصة لتخليص مصر من الاحتلال البريطانى من ذلك مثلا أن الضباط الأحرار وقد استفزتهم أحداث الحرب فكروا فى القيام بثورة خلال صيف ١٩٤٠ والحاصل أنه عهد إلى كتيبتين مصريتين بالدفاع عن القطاع الجنوبى من الصحراء الغربية بينما يتولى الإنجليز الإشراف على الجبهة الرئيسية المحاذية للبحر، ولكن السلطات البريطانية تشككت فى نيات الضباط المصريين فنزعت سلاحهم وأبعدتهم عن الجبهة فقرر ضباط الكتيبتين الانسحاب إلى العاصمة دون تنفيذ أوامر السلطات البريطانية وفكروا فى القيام بالثورة وجال بخاطرهم مخاطبة على ماهر تقديرا لموقفه تجاه الإنجليز من بلاغ ١٩ يونية، ولما وجدوا الاتصال به صعبا اتجهوا إلى عزيز المصرى.



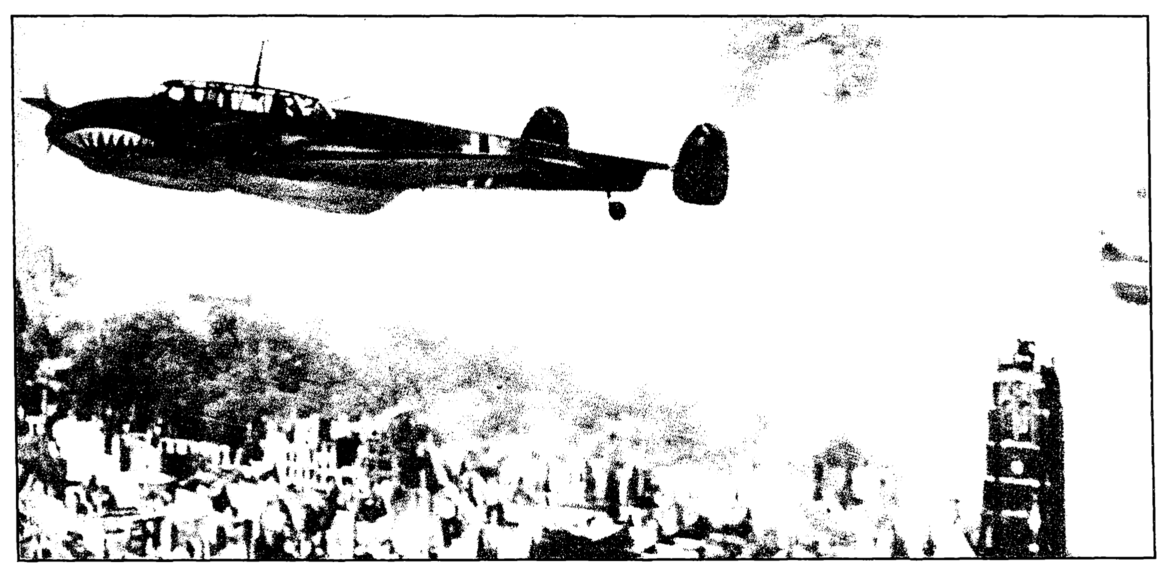
حسن البنا



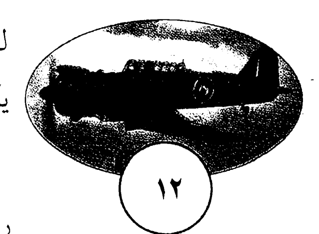
ومن الذين أرادوا الإفادة من فـرصة الحرب ومن قـوة المحور الصـاعدة خلال ١٩٤٠-١٩٤١ جـماعـة الإخوان المسلمـين. وقد علمت المخـابرات البريطانيـة بوجود اتصـال بين حسن البنا مـرشد الإخوان وبين الطليان فطلبت من الحكومة المصرية اتخاذ إجراء ضده وبالفعل تم نقله إلى مـدرسة فى الصعيد ، إلا أنـه عاد إلى القاهرة بناء على ضغط الأحرار الدستوريين من خلال الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف آنذاك.

أما عزيز المصرى فقد كان يرى الفرصة مواتية للإفادة من ألمانيا وخاصة بعد تدخل الجيوش الألمانية فى ليبـيا ربيع ١٩٤١ وفى سبيل هذا كانت خطته اللجـوء إلى ألمانيا ومن هناك يوجه نداء إلى "جيش الـتحرير" . وفكر أولا فى الـسفر عن طريق إسـتانبـول فلم يوفق ، ثم دبر خطة مع الألمان فى ليبيا على أن تهبط إحدى طائراتهم خـفية قرب الواحات وتنقله إلى ما وراء الحدود لكن سيارته تعطلت فى الطريق وعادت الطائرة بعد فـوات الموعد. ثم دبر خطة للخروج بطائرة مصرية بالاتفاق مع الطيـار ذو الفقار صبرى لـكن الطائرة هبطت اضطراريا بعد إقلاعهـا بدقائق وانكشف أمره واعتقل.

وثمة قوة سياسية أخرى وهى الحزب الوطنى أبدى قادته فى كثير من المناسبات وفى مجلس النواب شعور الاستياء من تسخير مصر لحاجات بريطانيا العسكرية وطلبوا الاتصال بالمحور للاتفاق على طريقة لتجنيب البلاد الغارات الجوية.



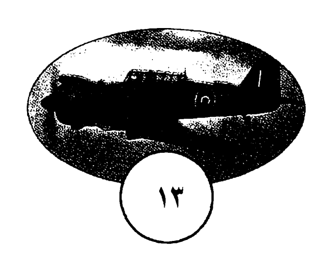
إحدى الغارات الجوية الألمانية على إنجلترا



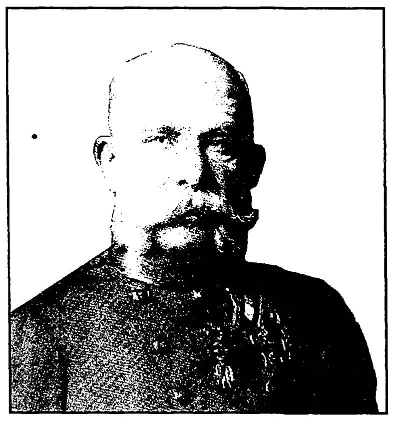
للانفجار بسبب تفاقم العـديد من المشكلات والأزمات المتتالية التى لم يكن ينقصها سوى عود الثقاب الذى يؤدى إلى تفجير الموقف .

وترجع أزمـات البلقان فى أسـاسهـا إلى تضارب المصـالح بين روسيا وإمبراطورية النمسا والمجر ، إذ كانت روسيا تعمل على مساندة الشعـوب البلقانيـة ضد الدولة العثـمانية تحـت شعار حـركة الجامـعة السلافـية، وكان مـن نتيجـة تلك المساندة أن تشـجعت تلك الشعـوب وانتهـزت خروج الدولة العثمانية منهكة من حربها مع إيطاليا بشأن ليبيا فى عام ١٩١٢ لتعلن الثورة عليها . وقد تزعمت صربيا الشعوب السلافية فى البلقان بتـأييد روسيا وعملت على تحرير تلك العناصر من سيطرة كل من الدولة العثمانية والنمسا، وذلك من أجل تحقيق وحـدة الشعوب السلافية أو فيما سمى آنذاك بصربيا الكبرى . ومن ثم أصبح الموقف فى البلقان على حافة الانفـجار نتيجة تأييد روسيا لصربيا ومحاولة النمسا إضعاف صربيا، التى كانت تعمل على تحرير العناصر السلافية فى إقليمى البوسنة والهرسك الذين كانوا تحت سيطرة إمبراطورية النمسا والمجر .

ونتيجة لتـصاعد قوة صربيا اتجهت النمـسا إلى مساندة الدولة العثمـانية لإعادة بسط نفوذها عليهـا، وذلك بالعمل على تقطيع أوصـالها وتوزيع مـقاطعاتهـا على كل من اليونان وروما‌نيا، ووضع مخطط من شأنه تدبير هجـوم مسلح عليها . وعهدت النمسا إلى ولـى عهدها الأرشيدوق فرانز فـرديناند بتنفيـذ تلك المخططات ضد صـربيا . وبينمـا كان يجـرى العمل على تنفـيذ تلك المخططات فوجئ العالم باغتيـال ولى عهد النمسا فى مدينة سيراييفـو فى عام ١٩١٤، وقد اعتبر حادث الاغتيال هذا بمثابة الشرارة التى أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى .



الفصل الثاني
حادثة سيراييفو ونشوب الحرب العظم


فرانز فرناند ولى عهد النمسا

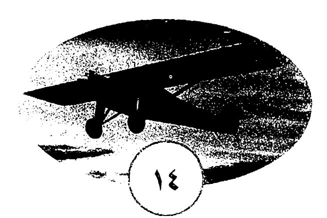
بينما كان الأرشيدوق فـرانز فرديناند وزوجته يتنزهان على إحـدى الجسور الواقـعة فى مـدينة سيـراييفـو فى عام ١٩١٤، أطلق شاب صـربى يدعى "برنزيب " النيـران عليه وأرداه قتـيلا . وعلى أثر وقـوع ذلك الحادث بادرت النمـسا بتوجيه إنذار شديد اللهجة إلى صربيـا، التى اعتبرتها مسئولة مسئوليـة مباشرة عن وقوع حادثة الاغـتيال هذه . وكان هذا الإنذار يشتمل على عشرة مـواد ضمنت فى ثلاثة بنود رئيسية هى :

أولا - أن تبادر صربيا بحل جميع الجمعيات التى تقوم بنشر الدعاية المعادية للنمسا .

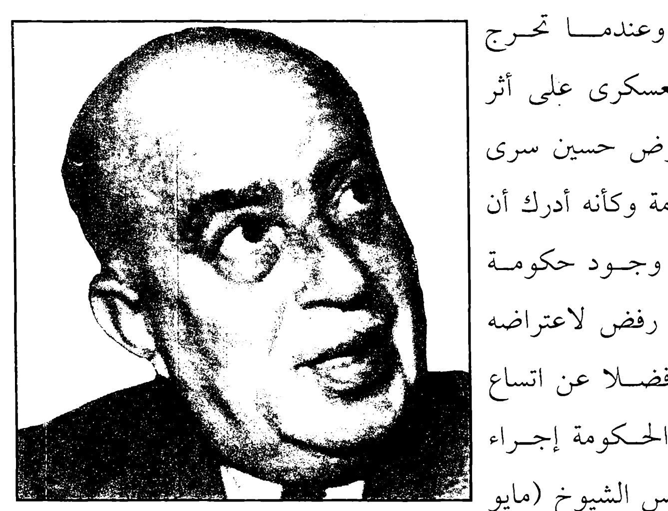
ثانيا - أن تقوم صربيا بتطهـير جيشها وكافـة مؤسساتها من جميع العـناصر التى عرف عنها العداء للنمسا .

ثالثا - أن تبذل صـربيا جـهودها المكثفـة للبحث عن المشـاركين فى الجريمة والقبـض عليهم، والسماح لقضاة نمساويين بالاشتراك فى المحاكم الصـربية عند تقديم المتهمين للمحاكمة، وعلى أن يكون من حق الشرطة الـنمساوية المجيء إلى صـربيا للقضـاء على الحركات المناوئة للنمـسا والتى وصفتها بالحركات الهدامة .

وعلى الرغم من أن صربيا أعلنت قبولها لجميع البنود التى وردت فى الإنذار فيما عدا البند الأخيـر الذى اعتبـرته ماسا بسـيادتها، إلا أن النمـسا اعتـبرت ذلك بمثـابة رفض صريح لإنذارها ومضت فى تعبـئة قواتها العسكرية لـلهجوم على صربيا . وبادرت روسـيا من جانبها- باعـتبارها الدولة المساندة لصربيا- بتعبئة جيوشها . وفشلت المحاولات التى بذلتها إنجلترا للوساطة بين صربيا



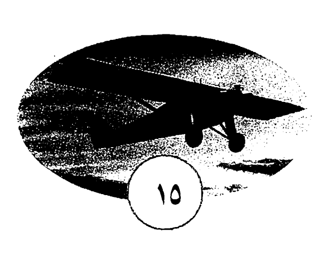
ببريطانيا على غير ما يرام، وكذلك فعل مع سفارات الدول الأوروبية الدائرة فى فلك ألمانيا مثل حكـومة فيشى الفرنسيـة ورومانيا ، ومنع استخدام الشفرة بالنسبة لسفارة اليابان (أبريل ١٩٤١).


حسين سرى باشا

وعندمـا تحـرج المركز العسكرى على أثر وصول روميل إلى الحدود المصرية عرض حسين سرى على حزب الوفد المشاركـة فى الحكومة وكأنه أدرك أن تأزم الموقف الحـربى يتطلب ضـرورة وجـود حكومـة ائتلافية تتـمتع بالشعبية. لكن الوفـد رفض لاعتراضه مبـدئيا على فكرة الوزارة الائتلافـية فضـلا عن اتساع خـلافه مع الـقصـر عندمـا رفضت الحـكومة إجـراء انتخابات للمقاعد التى خلت فى مجلس الشيوخ (مايو ١٩٤١).

على أن حكومة حـسين سرى صادفت منذ صـيف ١٩٤١ صعوبات اقتـصادية ترجع إلى نظام ربط مـصر بعـجلة بريطانيـا ، فلم يكن بوسع مصـر منذ قـيام الحـرب أن تتصـرف فى بيع محصول القطن بحـرية بل لقد تحكمت بريطانيا فى تحديد سعره متظاهرة بأنهـا تجامل مصر بشراء المحصول بأكمله وتواجه صعوبة فى نقله ، كما كانت تحدد سعره بمقدار عشرين ريالا للقنطار أقل من سعره الفعلى فى السـوق مما أفسد العلاقات التقليدية التى تربطها بكبـار الملاك الزراعيين. كما حدث فى الوقت نفسه نقص فى الحبوب فـارتفع سعر الخبز واضطرت السلطات المصرية إلى خلط دقيق القمح بالذرة. وكان طبيعيا أن تعزو الحكومة أزمة الخـبز إلى كثرة استهلاك الجيوش البريطانية كما وضحها إسماعيل صدقى بالأرقام أمام مجلس الشيوخ.

كما واجهت حكومة حـسين سرى صعوبات سياسية من جـراء الغارات التى تعرضت لها مدينة الإسكندرية (يـونية ١٩٤١) وعجزهـا عن إيواء اللاجئين ، وكذلك من جـراء قيامـها بقطع العلاقات مع حكومة فيـشى الفرنسية الموالية لألمانيا استجـابة لبريطانيا (يناير ١٩٤٢) من وراء ظهر الملك مما أدى إلى استقالة وزير الخارجية (صليب سـامى) ، وأخيرا عدم التصدى للمظاهرات التى انطلقت فى أول فبراير ١٩٤٢ تنادى : إلى الأمام يا روميل ، حتى اضطر حسين سرى إلى تقديم استقالة حكومته فى اليوم التالى (٢ فبراير).



وعلى أثر استقالة حكومة حسين سرى نقل السفير البريطانى صراحة إلى الملك رغبة الحكومة البريطانية فى تولية الوفد الحكم فعرض الملك على النحاس باشا تأليف حكومة ائتلافية لكن النحاس تمسك بمبدئه فى رفض فكرة الائتلاف. وعندما علم السفير برفض النحاس أبلغ القصر بأنه ما زال ينصح الملك بدعوة النحاس لتأليف الحكومة. غير أن الملك دعا زعماء الأحزاب فى اليوم التالى للتشاور فبادر السفير بإنذار الملك ببرقية تقول "إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج" . وبينما رؤساء الأحزاب يتشاورون وصلت البرقية فأعربوا جميعا عن احتجاجهم فى مذكرة حملت توقيعهم بما فيهم النحاس وإن لم يتراجع عن رفضه للوزارة الائتلافية.

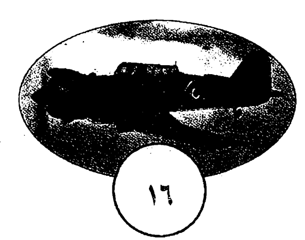
وعندما وصل الاحتجاج إلى السفير أعلن أنه سوف يأتى لمقابلة الملك فى المساء (٤ فبراير) وسبقته إلى هناك قوات بريطانية تحاصر القصر فاضطر الملك إلى تكليف النحاس بتشكيل الوزارة وانتهت الأزمة التى عرفت بأزمة ٤ فبراير.


مصطفى النحاس باشا

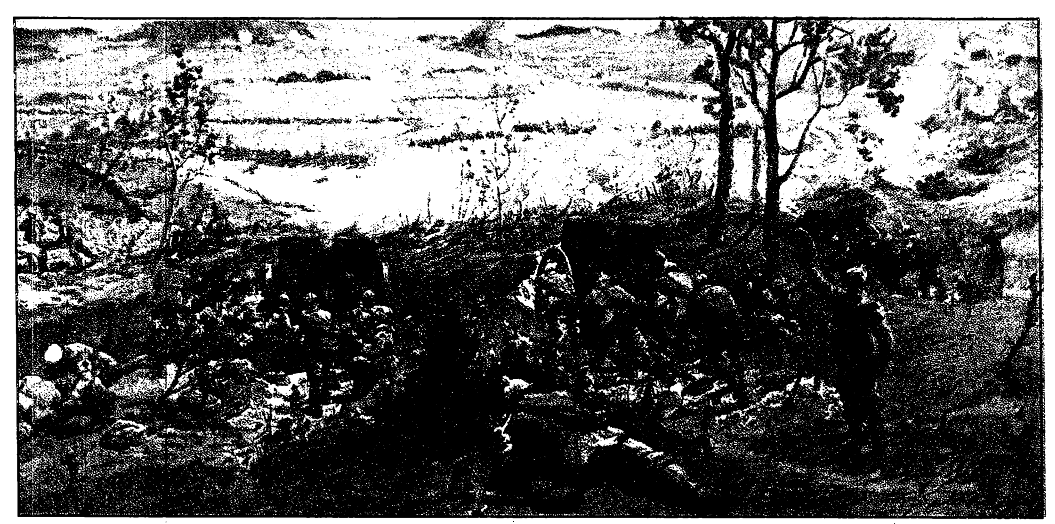
والرأى الشائع أن سبب تمسك بريطانيا بتولى الوفد الحكم أنها تريد المحافظة على الأمن فى البلاد وقت تحرج مركزها العسكرى فى الحرب ، وهى تدرك أن الوفد يختلف عن الأحزاب الأخرى فى أن له جذورا فى مختلف الطبقات بينما الحزبان المسيطران على الوزارة (الأحرار الدستوريون والحزب السعدى) يكادان أن يقتصرا على كبار الملاك ، والموقف السياسى بحاجة إلى وزارة تتمتع بتأييد شعبى.

وعلى أثر تسلم الوفد الحكم طلب النحاس من السفير البريطانى تقديم تعهد بعدم التدخل فى شؤون مصر الداخلية فأجيب إلى طلبه. ثم شرع النحاس فى تهدئة الجبهة الداخلية فقرر رفع الأجور ، ورفع سعر الغلال بنسبة ٥٠٪ مع تثبيت سعر الخبز فأرضى بذلك طبقة ملاك الأراضى الزراعية.

وخلال الأشهر الأولى من حكومة الوفد وقع أخطر هجوم من المحور على الجبهة المصرية إذ نجح روميل فى إسقاط حامية طبرق الكبيرة وأصبح كثير من الناس يتوقعون احتمال جلاء الإنجليز عن الدلتا على الأقل. وأصدرت إذاعة برلين العربية تصريحات متتالية تؤكد أن جيوش المحور



ألمانيا وأنقذت العاصمة الفـرنسية باريس من السقوط فى أيدى القوات الألمانية . ومع ذلـك فقد كـانت الميزة لا تزال للقوات الألمـانية التى كانت تحتل جانبا كبيرا من الأراضى البلجيكية والفرنسية.

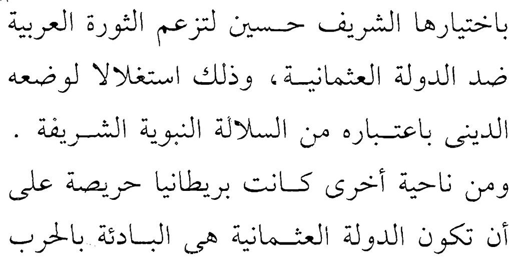


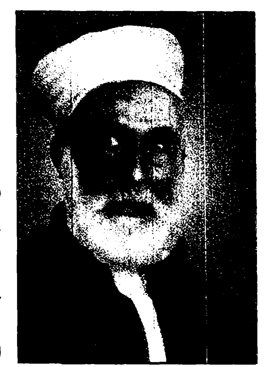
تصوير المعارك بين ألمانيا والنمسا ضد فرنسا وروسيا وإنجلترا

وبينما كانت المعارك لا تزال تجرى فى الجبهة الغربية، تمكن القائد الألمانى هندنبرج من إيقاع الهزيمة بالقوات الروسية فى الجبهة الغربية . وكان لموقعة تاننبرج Tanenberg فى أغسطس ١٩١٤ أهمـيتـها الكبـيـرة، إذ أنقذت ألمانيـا من الهـجوم الروسى ورفـعت هندنبـرج إلى أعلى المراتب العسكرية، كمـا كانت ضربة قاسيـة لإنجلترا وفرنسا اللذين كانا يعـولان على الضغط الروسى فى الجبهة الشرقية لتحقيق انتصار على ألمانيا فى الجبهة الغربية .

دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول الوسط

وجدت الدولة العثمـانية فى نشوب الحرب الفرصة لكى تستـرد الولايات التى انتزعت منها من قبل دول الوفاق الثلاثى . ولم تكن قوة الدولة العثمانية العسكرية مما تحسب لها إنجلترا وفرنسا وروسيا حسابا يذكر، إذ كانت دولة ضعيفة متهالكة، بيد أن إنجلترا بصفة خاصة كانت تخشى من القوة الروحـية لها باعـتبارها دولة الخـلافة الإسلامـية، وما يمكن أن يتـرتب على إعلانها الجـهاد المقدس من تأثير على المسـلمين الخاضعين لإنجلترا فى الهند والخاضـعين لفرنسا فى شمال إفـريقيا ولروسيا فى أواسط آسـيا . ولعل ذلك يفسر المخطط الذى وضعـته بريطانيا لمقاومة دعـوى الجهاد





الشريف حسين

باختيارها الشريف حسين لتزعم الثورة العربية ضد الدولة العثمانية، وذلك استغلالا لوضعه الدينى باعتباره من السلالة النبوية الشريفة . ومن ناحية أخرى كانت بريطانيا حريصة على أن تكون الدولة العثمانية هى البادئة بالحرب حتى لا تظهر بالصورة المعادية لدولة الخلافة الإسلامية إذا ما بدأت بإعلان الحرب عليها .

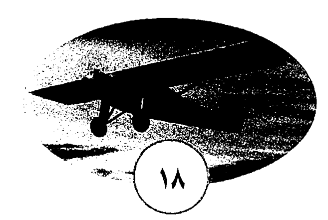
أعلنت الدولة العثمانية الحرب على دول الوفاق فى أكتوبر ١٩١٤ ووقفت إلى جانب دول الوسط، التى اكتسبت من جراء دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانبها فائدة كبيرة كان من أهمها إغلاق مضايق الدردنيل والبوسفور، وبالتالى قطع الاتصال البحرى بين روسيا وحلفائها وحرمانها من الإمدادات العسكرية اللازمة لها، وخاصة أن طريق المحيط المتجمد الشمالى كان من المتعذر استخدامه فى معظم شهور السنة .



حرب الغواصات الألمانية

خروج إيطاليا من تحالف دول الوسط

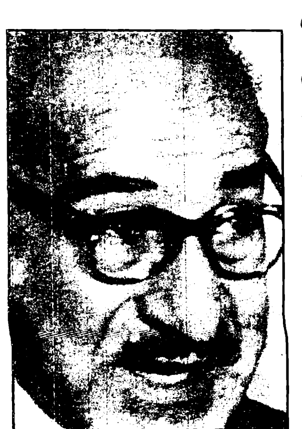
بدخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول الوسط كان على دول الوفاق العمل على إعادة التوازن العسكرى إلى صالحها، ووجدت الفرصة متاحة أمامها لإغراء إيطاليا على فض التحالف القائم بينها وبين دول الوسط. ونتيجة للوعود السخية التى قدمت لإيطاليا بموجب معاهدة لندن ١٩١٥، والتى كانت على حساب إمبراطورية النمسا والمجر لم تجد إيطاليا غضاضة فى إعلان الحرب على حليفتيها النمسا وألمانيا، على أمل أن يحقق لها الحلفاء مطامعها فى إقليم التيرول الجنوبى وتريستا وشمال دالماشيا وجزر الدوديكانيز



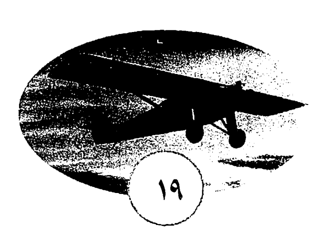
غيـر أن أحمد ماهر لم يأبه لهـذه الاعتراضـات واعتبرها من قـبيل المناورات الحزبيـة وأعلن قرار الحرب أمـام البرلمان فى جلسـة سرية. ولكنه دفع حيـاته ثمنا لحصول مـصر على مقعـد فى الهيئـة الدولية الجديدة مادام هذا لا يتحقق إلا بإعلان الحرب ، فـقد اغتاله محمود العيسـوى أحد المحامين الشبـان الذى كان على صلة بجماعـة مصر الفتاة أو الحزب الوطنى. وفيما بعد تبين أنه كان قد أرسل برقية تهنئة إلى رشيد عالى الكيلانى إثر الانقلاب العـسكرى فى العراق فى أبريل ١٩٤١ ذلك الانقـلاب الذى كان يؤيد الاتصـال بالمحور كما سوف نرى.

وفى العراق .. كان الوضع فيها يشبه الوضع فى مـصر عشية اندلاع الحرب إذ كانت حكومة العراق مـقيدة بمعاهدة تحـالف مع بريطانيا عقـدت فى عام ١٩٣٠ وعندما اندلعت الحـرب كانت بريطانيا قد خففت من وجودها العسكرى هناك فيما عدا قاعدة الحبانية الجوية وقاعدة الشعيبة قرب البصرة ، ومن هنا كانت وطأة الاحتلال فى العراق أخف منها فى مصر مما أتاح للحكومة العراقية حرية كبـيرة فى التصرف. ومن ناحيـة أخرى كان العراق بعيدا عن جـبهة القتال وكـان أكثر تأثرا بقـضايا الدول العـربية المحـيطة به وخـاصة مـشكلة فلسطين وتحـرير سوريا ولبنان من الانتـداب الفرنسى، كذلك كـان الجيش العراقى آنذاك يعتبـر نسبيا أكبـر الجيوش العربية إذ اقـتضت المصالح البريطانية تقـويته لمواجهة نزعات الانفـصال عند الأكراد أو الآشوريين أو الأعمـال الفوضوية التى يقوم بها زعماء القبائل.

على كل حال بادر نورى السعيد (رئيس الوزراء) إلى قطع العلاقات مع ألمانيا ووضع أموال الألمان تحت الحـراسة تنفـيذا لمعـاهدة التـحالف مع بريطانيـا ، ونادى بدخول العراق الحرب مباشـرة بجانب "الحليفة الكبرى" على أن تقوم الحكومـة بإرسال لواءين عـسكريين للمـرابطة على الحدود بين ليـبيـا ومصـر. ولكن عندما بحث الأمر فى المجلس العـالى تبين أن المعاهدة لا تلزم العراق بإعلان الحـرب بل يكفى تقديم التسهـيلات لمواصلات الإمبراطورية البريطانية ، فـضلا عن أن قيادة الجيش كانت ترى أن من الخير الاحتفاظ بالجيش العراقى لخدمة القضايا العربية بصورة مباشرة.


رشيد عالى الكيلانى

ولقد اسـتاء نورى السعيـد لعدم تمكنه من تنفيـذ خطته مع أن بريطانيا لم تكن متـحمسة لإشراك العراق فى الحرب مـثلما كانت تريد



من مصر ، وقـدم استقالته فى فبـراير ١٩٤٠ وخلفه الكيلانى الذى أشرك فى حكـومته رؤسـاء وزارات سابقين فى عـهد الملك فـيصل الأول وهم ناجى السـويدى ونورى السعـيد وناجى شـوكت لتكون أقدر على مواجهة ظروف الحرب ومن ثم عرفت بالوزارة القومية.

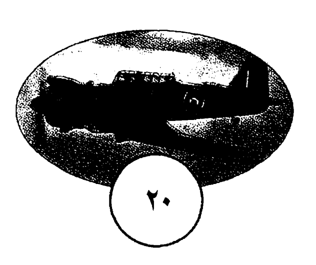
وتقدم الكيـلانى إلى مجلس النواب ببرنامج يؤكد عـلى مبدأ احترام معـاهدة التحالف مع بريطانيا فى إطار تحفـظات معينة أهمها : عدم التـساهل تجاه مطالب بريطانيا التى تخـرج عن نصوص المعاهدة إلا ما كـان فيه مصلحـة مشتركة للطرفـين حسب حالة الحرب أو ما كان فيه ضمان لاستقـلال العراق ووحدة العرب واستقلالهم وخاصة فلسطين وسوريا على أن تعطى فى ذلك عهـود ومواثيق رسميـة ، وتزويد الجيش العراقى بالسـلاح من أى مصدر كان ما دام الإنجليز لا يتمكنون من تقديم جميع ما يحتاجه العراق من سلاح.

والتزامـا بمعاهدة الـتحالف مـع بريطانيا قطعت حكومـة الكيلانى العـلاقات مع حكـومة الدانمرك التى تكونت فى ظل الاحتلال الألمانى ، ولكن الكيـلانى رفض قطع العلاقات مع إيطاليا حينمـا أعلنت الحرب على بـريطانيا رغم إلحاح الـسفيـر البريطانى ، ورأى أن يسـتغل الفـرصة للحصول على بعض المكـاسب من الإنجليز فى مقابل ذلك. واحتـدم الخلاف بين الكيلانى ووزير خارجـيته نورى السعـيد الذى كان يريد قطع العلاقـات مع إيطاليا حتى من قـبل أن تعلن الحرب رسميـا. ومع ذلك لم يكن بوسع الكيلانى أن يخرج السعـيد من الوزارة خشية انـتقام بريطانى ، ولأنه يتـمتع بحمـاية الوصى على عـرش العراق من جـهة أخرى.



تشرشل أثناء زيارته لمصر خلال الحرب العالمية الثانية

وبناء على التـحفظات السـابقـة دخلت حكـومـة الكيـلانى فى مـحـادثات مع بريطانيا من خـلال نيوكومب المبعـوث البريطانى، وطالبت بوضع الكتـاب الأبيض بشأن فلسـطين (١٩٣٩) مـوضع التنفيـذ فى الحال ، أى تسليم

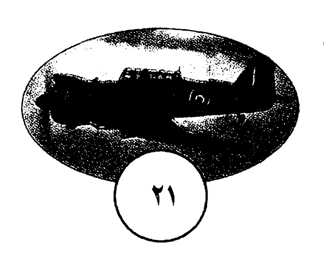


الحرب لأن الأعمال العدائية يمكن أن تحدث فى أى وقت بين باخرة أمريكية مسلحة وإحدى الغواصات الألمانية، وسرعان ما حدث ذلك بالفعل على أثر إغراق إحدى الغواصات الألمانية للباخرة الأمريكية فيجيلنيا Vigilentia، مما كان سببا مباشرا لكى تعلن الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا .


ودرو ويلسن

وعلى أثر إعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا وحلفائها، بادرت بإصدار قرارات خاصة بالتجنيد الإجبارى، حيث بلغ عدد الأفراد المسجلين فى قوائم التجنيد ما يصل إلى خمسة وعشرين مليون جندى، وبات واضحا أن الولايات المتحدة أخذت تنفض عن نفسها طابع العزلة طبقا لمبدأ مونرو، إضافة إلى تغير الظروف التى لم يعد فيها العالم الجديد متباعدا عن العالم القديم .

ويرى كثير من المؤرخين أن هناك دوافع كثيرة دفعت الولايات المتحدة لدخول الحرب، وأن حرب الغواصات لم تكن سوى المحك المباشر وذلك دون إغفال بطبيعة الحال للخطورة الناجمة عن تلك الحرب، التى أدت إلى إساءة بالغة للمصالح الاقتصادية الأمريكية وإلحاق الضرر بالتجار والمزارعين، حيث وجدت على أرصفة الموانئ الأمريكية مئات الألوف من أطنان البضائع المخصصة إلى إنجلترا وفرنسا . كما يرتبط بالنواحى الاقتصادية إقراض المصارف والبنوك الأمريكية وغيرها من المؤسسات الأمريكية الكثير من الأموال لفرنسا وإنجلترا، ومن ثم شكلت تلك المؤسسات قوة ضغط على الحكومة الأمريكية لدفعها إلى دخول الحرب حتى لا تؤدى هزيمة دول الوفاق إلى فقدانها لأموالها . ومن ناحية أخرى شهدت الصناعات الحربية الأمريكية انتعاشا كبيرا نتيجة إمدادها الحلفاء بكميات هائلة من أسلحة الحرب ومعداتها . وإلى جانب تلك العوامل جميعها كانت هناك رابطة الحضارة ووحدة التفكير بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول الحلفاء، هذا فضلا عن إعجاب غالبية الشعب الأمريكى ببطولة الفرنسيين والبلجيك فى مقاومتهم للقوات الألمانية، كما كانت روح التعاظم الألمانية ونظرية السلطة المطلقة فى الحكم لا تجد استجابة أو قبولا من الأمريكيين . ومن ناحية أخرى قدرت الولايات المتحدة



الأمريكية أهمية اشتراكها فى الحرب حتى يكون لها كلمة فى عالم ما بعد الحرب .

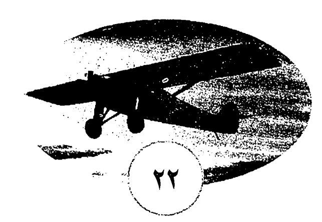
المراحل الأخيرة للحرب

بينما كان الإعداد الأمريكى للحرب يجرى على قدم وساق، كثف الألمان جهودهم على سرعة إحراز انتصارات على الجبهة الفرنسية قبل وصول الإمدادات الأمريكية، كما عملوا على تصعيد حرب الغواصات وتمكنوا من تحقيق انتصارات ضخمة بإغراقهم عددا كبيرا من سفن الحلفاء. وكان من الممكن لإنجلترا بصفة خاصة أن تنهار نتيجة فقدانها لمواردها الضرورية التى كانت تأتيها من مستعمراتها، إلا أن الموقف سرعان ما تغير لصالح الحلفاء حين اتبعوا خططا جديدة لمواجهة الغواصات الألمانية تمثلت فى تسيير سفنهم تحت حراسة المدمرات البحرية، وسرعة العمل على تعويض السفن الغارقة ببناء غيرها، كما استطاعت إنجلترا تحقيق أمنها الغذائى بالتوسع فى زراعة القمح والبطاطس فى أراضيها .

وعلى الرغم من أن الموقف العسكرى لم يعد فى صالح ألمانيا نتيجة لفشل حرب الغواصات، وانهيار الأوضاع الداخلية فى كل من الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا والمجر نتيجة تحريض الحلفاء للشعوب الخاضعة لهما، إلا أن القائد الألمانى لودوندروف كان ولا يزال يراوده الأمل فى الانتصار بعد أن خرجت روسيا من الحرب . ومع أنه كان من الأمور المنطقية أن تتحول القوات الألمانية والنمساوية الموجودة على الجبهة الروسية لتعزيز الجبهة الغربية، إلا أن القيادة العسكرية الألمانية لم تقرر نقل تلك القوات إلا بنسبة ضئيلة، ويرجع ذلك إلى العديد من الأسباب التى كان من أبرزها خوف القادة الألمان من فشل النظام الشيوعى وعودة النظام القيصرى، هذا



هزيمة ألمانيا أمام الحلفاء

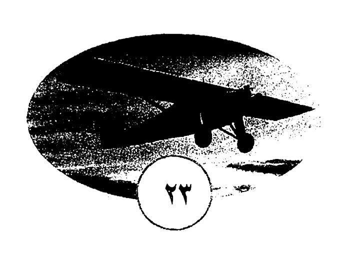


أما ثالث هذه التطورات فكان يتمثل فى عجز إيطاليا عن التوغل فى الصحراء الغربية باتجاه مصر وتوقفها عند سيدى برانى. ومع هذا فلا بد وأن تكون الحكومة الألمانية قد أخذت فى الاعتبار المصالح المشتركة الإيطالية-الألمانية فى المنطقة ، فألمانيا تريد أن تحل محل بريطانيا فى شركة نفط العراق ، وإيطاليا تريد أن تحل محل فرنسا فى حماية الموارنة بلبنان. ولهذا تمت صياغة التصريح فى عبارات عامة لا تتطابق تماما مع المطالب العربية المحددة كما كانت تعبر عنها العراق.

على كل حال عاود مفتى فلسطين إرسال سكرتيره مرة ثانية إلى برلين (يناير ١٩٤١) برسالة إلى هتلر نفسه ذكر فيها أن العرب مستعدون لخوض المعركة ضد بريطانيا فيما لو قدمت ألمانيا مساعدات عسكرية. ورغم هذا لم يبد الألمان استعدادا لتقديم المعونة العسكرية للعراق إلا إذا اتبع سياسة الحياد بمعنى عدم السماح للقوات البريطانية باستخدام الأراضى العراقية. وهنا أدرك العراقيون عبث الاعتماد على ألمانيا.

ثم فكر الكيلانى فى إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى مقابل إصدار تصريح بتأييد الأمانى الوطنية العربية اعتمادا على أن الصداقة الألمانية-السوفيتية بمقتضى ميثاق عدم الاعتداء بين البلدين ستصبح عاملا مساعدا بجانب المحور لتأييد استقلال العرب. أما فى حالة انهيار الميثاق وتحول الاتحاد السوفييتى إلى بريطانيا فإن حكومة موسكو ستصبح فى مركز أقوى لمساعدة العرب حينما ينتصر الحلفاء. غير أن ستالين كان يتفاوض فى ذلك الحين مع هتلر بشأن تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ويطالب بالجزء الممتد من حدود الاتحاد السوفييتى الجنوبية حتى المحيط الهندى ، وسبق أن اعترف بأن الشرق العربى يقع فى منطقة نفوذ إيطاليا ، ومن ثم كان طبيعيا أن يرفض السوفييت إصدار التصريح الذى طلبه العرب.

على كل حال . . فمنذ شرعت حكومة الكيلانى فى الاتصال بألمانيا كما سبقت الإشارة أخذت بريطانيا تثير ضدها الاحتجاجات متهمة الكيلانى بأنه ينوى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ، ومن ثم أخذت تحث أصدقاءها لمشاركتها فى الضغط على حكومة الكيلانى ، فأوعز تشرشل إلى روزفلت بأن يرسل خطابا إلى حكومة العراق يحذرها فيه من مغبة التقارب من المحور ويبين كيف أن ذلك لا يمكن أن يخدم قضية استقلال العراق ، أعقبه خطاب من حسين سرى رئيس الحكومة المصرية ينصح فيه زميله العراقى بمراعاة التحالف مع بريطانيا اختتمه بقوله: " . . وإن لمصر كما للعراق فى ذمة بريطانيا حقوقا تريد أن تقتضيها وعليها قيودا ليس أحب إليها

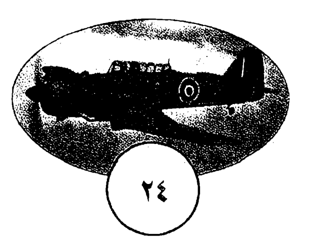


من الفكاك منهـا ولكنهـا توقن بأن تحـقـيق ذلك أيسـر وأهون مع بريطانيا ظافرة منتـصرة منه مع انتصار الأوتوقـراطية التى لن تبقى على حرية أو اسـتقلال وهى لذلك تحـار فى فهم تشـيع الصحف العـراقية الـظاهر لدولتى المحور ؟" . وواضح أن خطاب الحكـومة المصرية إلى العراق جاء بتوجيه من الحكومة البريطانية.

ثم استـخدمت بريـطانيا وسـائل الضغط الاقـتصادى فـامتنعت عـن شراء التمـر وهو من المحاصيل الرئيسية. وقارن الوطنيون العراقيون بين حالتهم هذه وبين وضع تركيا فلاحظوا كيف أن تركيا المحايدة تتلقى المساعدات من الطرفين بينما العراق المتحالف مع بريطانيا يحرم حتى من مجرد الاتجار مع مختلف الدول ، لذلك اتجه الكيلانى إلى فتح باب جـديد لبيع محصول التمر العراقى لدى اليابان وكـانت ما تزال دولة مـحايدة، وانتهـز الفرصـة لكى يطلب من اليابان شـراء أسلحة حديثة بعد أن توقفت بريطانيا عن تزويد الجيش العراقى بالسلاح خلافا للمعاهدة. ولقيت الطلبات العراقيـة ترحيبا حـارا من حكومة اليابان التى أشادت عند ردها بالروابط الآسـيوية التى تربط بين البلدين وقدمت أسعارا أفضل لشراء التمر.

ولما شعـر الكيلانى بأن حكـومته مـحاصـرة من قبل القصـر الملكى من ناحـية ومن وزير خارجيـته نورى السعيد الإنجلـيزى الهوى ومن الإنجليز من ناحيـة ثالثة قدم استقـالته فى ٣١ يناير ١٩٤١ وخلفه طه الهاشمى باعتباره شخصية وسطا بين الوطنيين وبين عملاء الإنجليز. غير أنه بعد توليه السلطة لوحظ ميله المـتزايد إلى تنفيذ رغبات الإنجليـز ، ففى خلال شهر فبـراير كان انتونى إيدن وزير خارجية إنجلترا يقوم بجولة فى الشرق الأوسط واستعدت الحكومة العراقية لاستقباله غير أنه اعتذر فى آخر لحظة وطلب مجيء رئيس الوزراء لمقابلته فى القاهرة ، ففضل الهاشمى أن ينيب عنه وزير خارجيته توفيق السويدى. وفى القـاهرة واجهه إيدن بالمطالب البريطانية ومن بينها قطع العلاقـات مع إيطاليا فـورا والسماح بحـشد القـوات البريطانية فى الـعراق دون قيـد. وكان هذا الموضوع محل جـدل بين الحكومة العراقية وبين بريطـانيا منذ مدة وكان كل جانب يفـسر المعاهدة على النحو الذى يتفق ووجهة نظره.

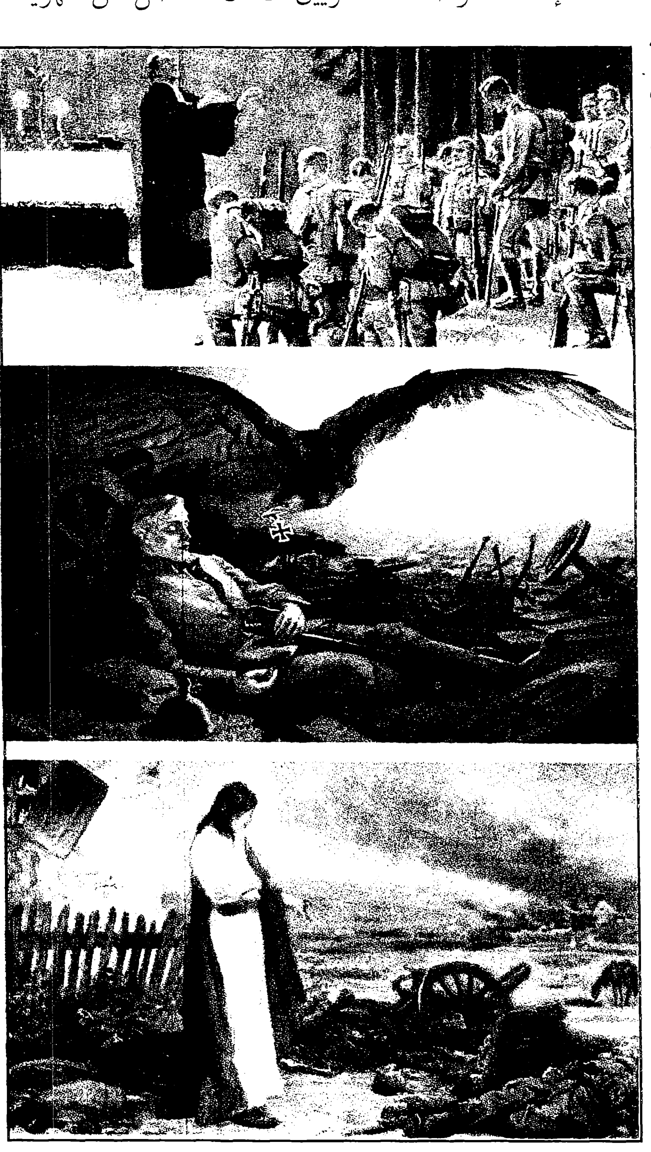
وآنذاك . . خشى الوطنيون أن تضيع هباء الترتيبات التى كانوا يعدون لها منذ عام وقد ازداد نفوذ الحاج أمـين الحسينى لدى الزعمـاء العراقيين ولدى الفئـة المسيطرة على الجيش فى العـاصمة ويتزعـمها أربعـة عقداء (صلاح الـدين الصباغ وفهـمى سعيـد ومحمـود سلمان وكامل شـبيب) ويعرفون بالمربع الذهبى. وقد شـعر هؤلاء العقداء الأربعة بأن بريطانيا تتآمر مع الحـكومة العراقية



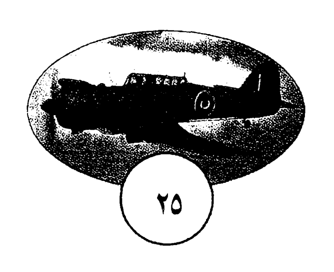
الحكومة الألمانية على تلك الشروط تم توقيع الهدنة بين ألمانيا والحلفاء فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ .

ولعل الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحلفاء هو رفضهم توقيع الهدنة مع العسكريين الألمان وإصرارهم على قيام حكومة ديمقراطية للتفاوض معها، بينما كان من الأجدى أن يستسلم العسكريون الألمان لشروط الهدنة . وكان من نتيجة ذلك الخطأ إتاحة الفرصة للعسكريين الألمان للتنصل من الهزيمة، كما أخذت الأحزاب اليمينية المتطرفة تروج فى السنوات التى أعقبت الحرب لما أسمته "طعنة فى الظهر" . وتقول تلك النظرية أن الجيش الألمانى لم يكن فى نهاية قوته وكان فى وسعه الاستمرار فى الحرب، كما أن الأراضى الألمانية لم تكن محتلة، وأن الحكومة الديمقراطية الاشتراكية التى تشكلت بناء على رغبة الحلفاء هى التى قبلت توقيع الهدنة، غير أن ذلك لم يكن إلا تبريرا للهزيمة بطبيعة الحال.

وبينما كانت شعوب العالم تأمل فى قيام عالم جديد يسود فيه الأمن والسلام بعد نهاية حرب دموية مدمرة استمرت أكثر من أربع سنوات، إلا أن ساسة الدول المنتصرة لم يستطيعوا أن يجردوا أنفسهم من شهوة النصر والرغبة فى الانتقام، مما سوف يجر العالم إلى حرب عالمية ثانية كانت أشد فتكا ودمارا من الأولى .



لوحات تعبر عن الهزيمة للقوات الألمانية فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩





الفصل الثالث
مؤتمر باريس ومعاهدات الصلح

اتخذ الحلفاء من باريس مقرا لعقد مؤتمر الصلح وذلك اعترافا بالدور الذى تحملته فرنسا خلال الحرب وما تعرضت له من كوارث فادحة، إذ خربت مصانعها ومناجمها وشلت وسائل إنتاجها وفقدت أكثر من خمس سكانها . وقد اقتصرت الدعوة لحضور مؤتمر الصلح على ممثلى الدول المنتصرة فى الحرب، وأصبح واضحا أن المؤتمر لم يعقد للمفاوضة مع الدول المنهزمة فى شروط الصلح، وإنما لكى تفرض الدول المنتصرة شروطها على الدول المنهزمة، مستغلة فى ذلك أن تلك الدول كانت فى حالة لا تستطيع معها معاودة الحرب . ويرى كثير من المؤرخين أن حرمان الدول المنهزمة والمحايدة والاتحاد السوفيتى من الاشتراك فى المؤتمر أدى إلى انتقاص كبير فى أهميته واعتبر بمثابة أداة انتقام أكثر من كونه مؤتمرا للصلح . ومن ناحية أخرى فقد أساء الحلفاء اختيار باريس، لما ترتب على ذلك الاختيار أن انعقد المؤتمر فى أجواء كانت ولا تزال تعبق برائحة الحرب وما أنزلته الدول المعادية من كوارث على فرنسا، مما ترك أثره على القرارات التى اتخذها الحلفاء ضد الدول المنهزمة التى وضح فيها شهوة الانتقام والكراهية، ومن ثم كان من الأجدى أن يعقد المؤتمر فى إحدى الدول المحايدة .


Le Petit Journal

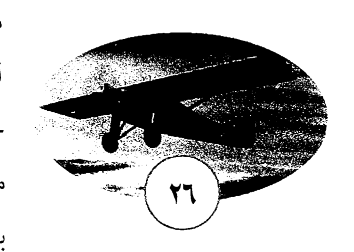
ADMINISTRATION 15 CENT. SUPPLÉMENT ILLUSTRÉ 15 CENT. ABONNEMENTS

DIMANCHE 8 DÉCEMBRE 1918

METZ ET LA LORRAINE RENDUES A LA FRANCE

الصفحة الأولى من جريدة (لوبتيت) الفرنسية تصور انتصار فرنسا على ألمانيا

وقد أقر مؤتمر الصلح مجموعة من المعاهدات، أو على الأحرى مجموعة من الشروط التى ألزمت بها الدول المنهزمة، كان من أبرزها معاهدة فرساى التى فرضت على ألمانيا، ومعاهدة سان جرمان مع النمسا،

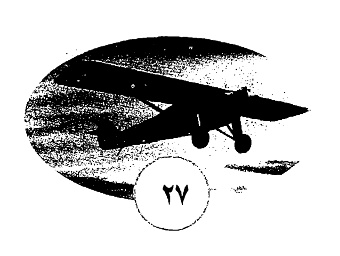


مديرى المصالح الخمسة لتبرر اعتقال بعض العناصر الوطنية وتقديمهم للمحاكمة التى انتهت بسجن البعض والحكم بالإعدام غيابيا على من لجأ إلى العراق ، وأجبرت الحكومة الإدارية القائمة على توقيع معاهدة حسن جوار مع تركيا (مارس ١٩٤٠) وفى ذلك تسليم بالتنازل عن لواء الإسكندرونة لتركيا.

فلما دخلت القوات الألمانية فرنسا وفرضت توقيع هدنة مع حكومة فيشى حدثت بلبلة شديدة لدى السلطات الفرنسية فى الشرق ذلك أن سوريا ولبنان تقعان بعيدا عن مرمى المحور وباستطاعة السلطات الفرنسية فى البلدين أن تستمر مع بريطانيا وليس مع المحور وخاصة أن الجنرال ديجول -المعارض لحكومة فيشى المستسلمة لألمانيا- لجأ إلى لندن ووجه من هناك نداء (١٨ يونية ١٩٤٠) داعيا الفرنسيين إلى نبذ الهدنة واستمرار القتال بجانب بريطانيا.

غير أن إعلان حكومة فيشى أنها تستهدف المحافظة على إمبراطورية فرنسا وسلامة أراضيها جعل بعض المسئولين يلتفون حولها ويعلنون الولاء لها ، ومن هؤلاء المقيم العام فى تونس ومراكش. وعندما تعرض الأسطول الفرنسى (حكومة فيشى) فى وهران بالجزائر لغارة من البحرية البريطانية انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ولذلك كان على بريطانيا أن تحدد موقفها من سلطات فيشى فى سوريا ولبنان وخاصة أن موقع البلدين يؤثر تأثيرا مباشرا على مركز بريطانيا الحربى فى الشرق الأوسط ، فإذا ما تسللت إليهما القوات الألمانية فإن ذلك سيجعل مصر وقناة السويس بين فكى كماشة المحور. ولهذا حرصت الحكومة البريطانية على أن تعلن (٢ يولية) أنها لن تسمح باحتلال سوريا ولبنان بواسطة أية دولة معادية ، أو أن تستخدم كقاعدة للهجوم على أقطار الشرق الأوسط التى تقع على بريطانيا مسئولية الدفاع عنها، أو أن تصبح مركزا لاضطرابات تشكل خطرا على هذه الأقطار ، وأنها تعتبر نفسها حرة فى اتخاذ أية إجراءات للدفاع عن مصالحها ، وإن أى عمل تتخذه لتحقيق هذا الغرض لن يكون له أى تأثير فى المستقبل على الوضع السياسى للأقاليم الواقعة تحت الانتداب الفرنسى.

وبمضى الوقت كانت العلاقات تزداد سوءا بين بريطانيا وبين سلطات حكومة فيشى فأقفلت الحدود بين سوريا ولبنان من جهة وبين الأقطار المحيطة بها الخاضعة للنفوذ البريطانى من جهة أخرى مما أضر بالاقتصاد السورى ضررا بالغا. وشغلت السلطات الفرنسية بإبعاد الأشخاص المعروفين بميولهم الإنجليزية ، ومن هؤلاء عبد الرحمن شاهبندر وغيره من الساسة الذين كانوا ينادون بإقامة ملكية دستورية تتحد فى المستقبل مع العراق أو الأردن واعتبروا لهذا أنهم من أصدقاء الإنجليز. ولذلك نشأ احتمال قوى بأن يكون لحكومة فيشى صلة باغتيال شاهبندر فى صيف ١٩٤٠.



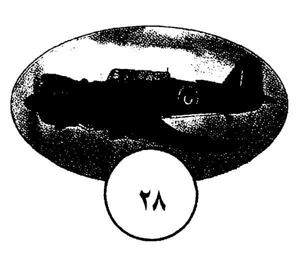
ومما زاد العلاقات توترا قدوم لجان الهـدنة (مع فرنسا) التابعة للمحور إلى سـوريا ولبنان فى سبتمبر ١٩٤٠ للتـحقق من الإفراج عن الرعايا الألمان والطليـان الذين اعتقلوا عند قيـام الحرب ، ورفع إجراءات الحـراسة التى اتخذت ضـدهم ، والتحـقق من أن حكومة فيشى لا تتخذ من المستعمرات قاعدة لزيادة قواتها العسكرية فوق ما تسمح به الـهدنة الموقعـة معهـا. وتلا هذه اللجان تردد بعـض الشخصـيات الألمانيـة على سوريا وبعضها من رجال الأعمال. وفى أوائل ١٩٤١ عينت الخارجـية الألمانية أحد رجالها وزيرا مفوضا فى العاصمة السورية جـمع حوله بعض الزعماء السوريين التقليديين واستـخدم عداء الألمان لليهود لاجتذاب عواطف الناس نحو المحور. ولم يكن يسـعد السلطات الفرنسية هذا التسلل الألمانى إلى مستعمراتها فطلبت إبعاد هذا الوزير عن البلاد واستجابت ألمانيا للطلب وكان قد مضى على تعيينه شهران.


شكرى القوتلى

على أن الصراع الذى دار بين حكومـة فيشى (الخاضـعة لألمانيا) وحكومـة فرنسـا الحرة فى المسـتعـمرات جعـل كلا منهـما فى سـباق لاكتساب ود الوطنيين السـوريين الذين تجدد نشاطهم أوائل ١٩٤١ بعد عودة شكرى القوتلى من المنفى وتزعمه لحركة المعارضة.

والحق أن الأزمة الاقتصـادية كانت تزيد من عوامل السخط على السلطات الفـرنسية ، فـبالإضـافة إلى الحـصار الذى حرم سـوريا من الاتجار مع البلدان المحـيطة بها كـما سبـقت الإشارة ، انخفض سـعر الفرنك انخـفاضا كبيـرا فى عام ١٩٤٠ ورفض كبار الملاك أن يبـيعوا القمح بالفرنك المنخفض وأصروا على بيعه بالعملة الذهبية ، ومن هنا انتشرت السـوق السوداء نتيجة قيـام الملاك والتجار بخزن القمح وهددت المجـاعة سوريا. ولذلك انطلقت المظاهرات فى المدن السـورية فى أوائل ١٩٤١ تنادى "نريد الخبـز والزيت والسكر". وقد عجزت السلطات الفرنسية تماما عن مواجهة الأزمة فلجأ المندوب السامى (الجنرال دنتز) إلى شكرى القوتلى الذى كان نجمه يصعد فى أوساط الكتلة الوطنية ليعينه على مواجهة الأزمة.

وهنا وجد القوتلى فى هذه الظروف فـرصة لا تعوض للتذكيـر بالمطالب الوطنية وهى إلغاء نظام المديرين ، وإعادة العـمل بالدستور ، وإجراء انتخـابات حرة لقيام حكومـة تعبر عن الإرادة الشعـبيـة، فوافق المندوب السـامى مضطرا، ومن ثم دعـا خالد العظم إلى تكوين مـجلس وزراء



الحرب السبعينية . واضطرت ألمانيا إلى التوقيع على تلك المعاهدة تحت تأثير الضغوط الاقتصادية والعسكرية التى كانت مفروضة عليها . ولم يسمح الحلفاء للمندوبين الألمان الذين دعوا للتوقيع على المعاهدة بإبداء رأيهم أو بمناقشة البنود التى تضمنتها. وليس من شك فى أن هذا التصرف من جانب الحلفاء كان مما اعتبره كثير من المؤرخين بمثابة أعظم خرق للياقة والأعراف الدولية .

وتتضح قسوة الشروط التى فرضت على ألمانيا فيما ورد فى بنود تلك المعاهدة، والتى يمكن إجمالها على النحو التالى :

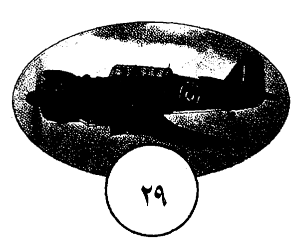
– اعتراف ألمانيا بأنها هى المسئولة عن نشوب الحرب، وما ترتب عليها من خسائر وأضرار بالغة للدول المتحالفة ولأبناء قومها . ومن الواضح أن إجبار الحلفاء لألمانيا على ذلك الاعتراف كان الهدف منه مطالبتها بدفع تعويضات باهظة عن تلك الأضرار والخسائر .

– إجبار ألمانيا على التجرد من قوتها العسكرية بإلغائها لقوانين التجنيد الإجبارى وتحديد عدد أفراد جيشها بما لا يزيد عن مائة ألف جندى يتم تجنيدهم بطريق التطوع، وبشرط أن تكون قواتها العسكرية خالية من أسلحة الطيران والمدفعية الثقيلة، وأن لا تزيد قطع أسطولها البحرى عن ست قطع إضافة إلى تدمير قواعدها البحرية . كما أجبرت ألمانيا على إبقاء جيوش احتلال فى بعض أقاليمها ضمانا لتنفيذها شروط المعاهدة .

– انتزاع إقليمى الألزاس واللورين من ألمانيا وإعادتهما إلى فرنسا . كما قرر الحلفاء تحطيم وحدة ألمانيا بإنشاء ممر يفصل شرق ألمانيا عن غربها وينتهى هذا الممر عند ميناء دانزنج على بحر البلطيق . وقد عرف هذا الممر باسم الممر البولندى وكان الغرض من إنشائه، إضافة إلى تحطيم وحدة ألمانيا وصل بولندة بالبحر . . وترتب على ذلك أن أصبح ميناء دانزنج ميناء دوليا بعد أن كان ميناء ألمانيا .

– ألزم الحلفاء ألمانيا بالتخلى عن جميع مستعمراتها فى أفريقيا والشرق الأقصى، وتم توزيع تلك المستعمرات على كل من فرنسا وإنجلترا وبلجيكا واليابان .

– طلب الحلفاء من ألمانيا تسليم قادتها لمحاكمتهم أمام محكمة خاصة لخرقهم قوانين الحرب وآدابها وقيامهم بأعمال إجرامية ضد مواطنى الحلفاء . كما وجه الحلفاء اتهاما للإمبراطور ولهلم الثانى باعتباره قد ارتكب جرائم شنيعة ضد الفضائل الإنسانية والأخلاق الدولية وحرمة المعاهدات



وطلبوا من ألمانيـا تسليمه إليـهم، غير أن هذا الطلب لم ينفـذ إذ كان الإمبراطور ولهلم قد فر إلى هولندا وطلب منحه حق اللجوء السياسى الذى منحتـه له هولندا، ومن ثم رفضت تسليمـه إلى الحلفاء وتعللت بأن القانون الدولى لا يـجيز للحلفـاء مطالبة دولة محـايدة تسليم من يلجأ إليها .

معاهدة سان جرمان ١٩١٩

قضت هذه المعـاهدة التى تم توقيعـها مع النمسـا على ما كان يعـرف بإمبراطورية النمـسا والمجر، حيث تفككت تلك الإمبراطورية الثنائية إلى جمهوريتين صغيرتين . وقد اقتطع من النمسا مساحـات كبيرة من أقاليمـها وزعت على إيطاليا ورومانيا وعلـى بعض الدول الجديدة التى نشأت بعد الحرب فى شبه جزيرة البلقان وهى تشيكوسلوفاكيا وبولندة ويوغوسلافيا التى ضم إليها إقليمى البوسنة والهرسك.

معاهدة تريانو ١٩١٩

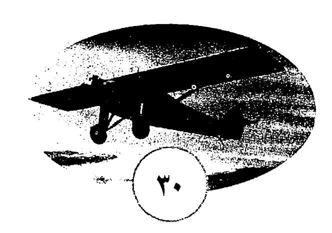
أفقدت هذه المعـاهدة المجر مساحـات كبيرة من أقاليـمها وزعت على كل من يوغوسـلافيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والنمسا .

معاهدة نايبى ١٩١٩

وقعت هذه المعاهدة مع بلغاريا وأفقدتها مساحات كبيرة من أراضيها تم توزيعها على اليونان ويوغسلافيا، إلى جانب تحديد سلاحها ودفعها تعويضات عن خسائر الحرب وأضرارها .

معاهدة سيفر

وقعت هذه المعاهدة مع الدولة العثمانية فى وقت كانت فيه عاصمتها مدينة استانبول خاضعة لقوات الحلفاء . وقـد عمل الحلفاء على تمكين كل من اليونان وإيطاليا وفـرنسا على اقتطاع بعض أقاليم الدولة فى منطقة الأناضول، وفضلا عن ذلك فقـد أجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن جمـيع الولايات العربيـة والأوروبية التى كانت تـابعة لها . وقـد أدت تلك المعاهدة إلى تصـاعد الحركة القوميـة التركية التى تزعمها مصطفى كمـال أتاتورك، الذى استطاع أن يحرز انتصارا على اليونانيين وتمكن من إخراجهم من أزمير، وأعاد سيطرة الدولة على اسـتانبول بعد مواجهته لقوات الحلفاء الـذين اضطروا إلى الانسحـاب منها . ولم يلبث أن أقـدم على إلغاء السلطنة العـثمـانية

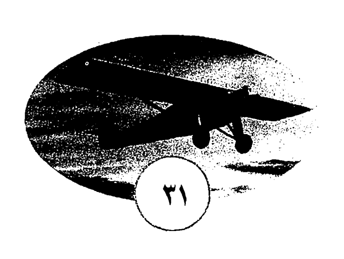


ويبدو واضحا أن أحداث العراق آنذاك كان من شأنها أن تجر بريطانيا إلى التدخل حتى بدون تهديد الجنرال ديجول إذ كانت حكومة فيشى قد وقعت اتفاقا مع ألمانيا (٢١ مايو) كما سبقت الإشارة يسمح لها بتعزيز قواتها فى سوريا ولبنان ، وينص على حق الألمان فى استخدام المطارات الفرنسية هناك بقصد نقل المساعدات إلى العراق ، بل لقد شجعت السلطات الفرنسية السوريين على التطوع للقتال بجانب الحركة العراقية.

وعلى هذا أسرعت الطائرات البريطانية بضرب مطار تدمر (١٤ مايو ١٩٤١) تبعه إعلان الحكومة البريطانية فى مجلس العموم أنها ستضطر إلى التدخل طبقا لتصريح ٢ يولية ١٩٤٠ وأصبحت الحملة الإنجليزية-الفرنسية المشتركة ممكنة فى أوائل يونية ١٩٤١ من الناحية العسكرية بسبب انسحاب الألمان من جزيرة كريت والقضاء على انقلاب الكيلانى فى العراق واعتمادا على تحول ولاء عدد من الفرنسيين إلى الجنرال ديجول (حكومة فرنسا الحرة) وإن لم يتحقق شىء من هذا ، وكل ما هنالك أنه كسب تأييد أهالى سوريا ولبنان الوطنيين على أساس أن الحلفاء سيعلنون إنهاء الانتداب عند بدء الحملة.

وفى يوم بدء الحملة العسكرية يوم ٨ يونية ١٩٤١ أعلن كاترو (حكومة ديجول) فى بيان إلى أهالى سوريا ولبنان قائلا : لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون ، وعلى هذا ستصبحون منذ هذه اللحظة شعوبا مستقلة ذات سيادة وسيكون لكم حرية الاختيار بين أن تؤسسوا لأنفسكم دولا مستقلة أو أن تنتظموا فى دولة واحدة ، وفى كلتا الحالتين سيتأكد استقلالكم وسيادتكم بواسطة معاهدة تحدد فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى فى أقرب فرصة.

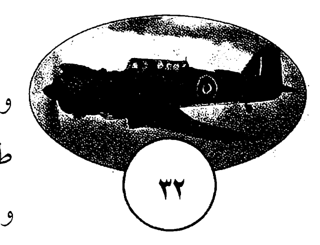
على كل حال . . لم تصادف قوات الحلفاء التى نزلت سوريا مقاومة تذكر إلى أن اقتربت من جنوب دمشق حيث فاجأتها قوات فيشى فاضطرت بريطانيا إلى إرسال تعزيزات جديدة لم تكن متوقعة ومن ثم بدأت محادثات لتوقيع هدنة. وفى أثناء محادثات الهدنة سقطت دمشق فى ٢٤ يونية ١٩٤١ فى يد الحلفاء وتوسطت الولايات المتحدة للإسراع بالهدنة حتى تم توقيعها فى عكا (١٢ يولية ١٩٤١) تناولت تنظيم العلاقة بين حكومة فيشى والحلفاء ، ونصت على ألا تقوم بريطانيا بملاحقة أحد من أهالى سوريا ولبنان ممن قاتلوا بجانب قوات فيشى ، وأن تحتل قوات الحلفاء سوريا ولبنان ، وتتمتع القوات الفرنسية (التابعة لحكومة فيشي) بجميع امتيازات الشرف العسكرى ، وأن يطلق سراح الأسرى منهم ويتم تخييرهم بين الرحيل إلى وطنهم فرنسا أو الانضمام إلى وحدات فرنسا الحرة (حكومة ديجول). أما فيما يتعلق بالمعدات الحربية لقوات فيشى فتسلم لبريطانيا على ألا تمس قوات الحلفاء الموانئ والمطارات ومستودعات الوقود الخاصة بقوات فيشي.



وبعد الاحتلال المشترك الإنجليزى-الفرنسى لسوريا أخذ الصراع بين الفريقين يحتدم استفادت منه الحركة الوطنية فى سوريا ولبنان فى نهاية الأمر. وقد ظهرت بوادر الخلاف يوم إصدار تصريح الاستقلال إذ إن ديجول كان يعتقد بأن بريطانيا ستترك تصريف الشؤون السياسية فى البلدين لسلطات فرنسا الحرة وبناء عليه كان تعيين كاترو مفوضا عاما يوم احتلال قوات الجلاء لدمشق ومن ثم احتج ديجول على أن تكون بريطانيا ضامنة للأوضاع هناك. ولهذا أصدرت بريطانيا بعد الهدنة تأكيدا بأنها لا تتطلع إلى الحلول محل فرنسا فى أى جزء من إمبراطوريتها بل لقد أقرت بالدور التاريخى لفرنسا فى المشرق وبتفوق مصالحها فى الشؤون الثقافية والاقتصادية. وكان ديجول شديد الاستياء لإبعاده عن مفاوضات الهدنة ، بل لقد اتهم القائد البريطانى فى سوريا ولبنان بأنه خدعه حين لم يوضح له شروط الهدنة بصدق، وكان يعنى بذلك البند الخاص بتخيير الجنود بين الانضمام إلى قوات فرنسا الحرة أو الرحيل إلى وطنهم.

ثم نشب خلاف آخر حول اتصال بريطانيا بالعشائر فى منطقة الجزيرة وبالدروز ، ومنعا لاتساع الخلاف تقرر عقد اتفاق بين سلطات فرنسا الحرة (حكومة ديجول) وبين القيادة البريطانية لتنظيم العلاقات بينهما من جهة وبين قوات الاحتلال والسلطات المحلية من جهة أخرى. وهذا هو الاتفاق الذى عرف باسم ديجول-ليتلتون (وزير الدولة البريطانى لشؤون الشرق الأوسط وهو منصب استحدثته بريطانيا لمواجهة مصاعبها فى الشرق الأوسط). وقد تقرر بمقتضى هذا الاتفاق أن تحتفظ بريطانيا بالقيادة العليا فى شؤون الدفاع الخارجى على أن تتشاور مع فرنسا فى جميع الحالات ، وتقوم القوات الفرنسية بالخدمات العامة ، وتكون مسئولة عن الأمن الداخلى بالمشاركة مع مندوب بريطانى.

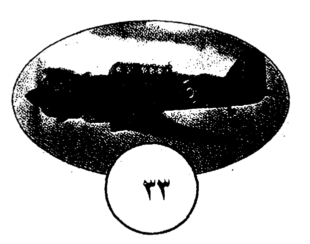
والحاصل أن هذا الاتفاق ولد ميتا فبعد بضعة أيام من توقيعه اتهم كاترو الإنجليز بأنهم يدبرون مؤامرة مع الدروز لينفصلوا عن سوريا وينضموا إلى شرق الأردن ، وكانت السياسة الفرنسية تستهدف فى الأشهر الأولى من الاحتلال إلى الاحتفاظ بجميع امتيازات الدولة صاحبة الانتداب حتى نهاية الحرب. أما بريطانيا فكانت ترى أن إبقاء الوضع على ما هو عليه قد يثير القلاقل فى سوريا ولبنان ويعرقل بالتالى مجهود الحرب ، ومن ثم كانت ترى إجراء تغيير فعلى مع احتفاظ فرنسا ببعض الامتيازات على شاكلة امتيازات بريطانيا مثلا فى مصر أو فى العراق. وهكذا أصدر تشرشل تصريحا فى مجلس العموم (٩ سبتمبر ١٩٤١) جاء فيه "إن سياستنا هى أن ترجع سوريا إلى الذين يجب أن يتمتعوا فى أقرب فرصة بحقوقهم فى الاستقلال والسيادة ، وإننا لا نرى أن إنشاء حكومة مستقلة أمر يؤجل إلى نهاية الحرب" .



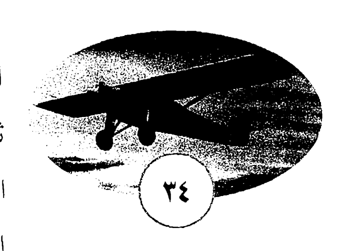
وعلى الرغم من الأهداف المثالية التى نص عليها ميثاق العصبة والمنظمات التى ألحقت بتلك المنظمة الدولية، فإن السؤال الذى يمكن طرحه فى هذا السياق هو: هل نجحت العصبة فى تحقيق أهدافها ؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من التأكيد فى أن العصبة فشلت فى تحقيق أهم هدف أنشئت من أجله وهو منع الحرب والمحافظة على الأمن والسلام الدوليين، وهو أمر أرجعه الكثيرون إلى أنها لم تكن تمتلك القدرة اللازمة لتنفيذ قراراتها . كما يرجع السبب فى ذلك أيضا إلى الضعف الذى شاب تكوينها، إذ رفضت الولايات المتحدة الأمريكية الانضمام إلى عضويتها وآثرت العودة إلى عزلتها، وكان ذلك الرفض مفاجأة غير متوقعة وخاصة أن الرئيس الأمريكى ويلسون كان من أشد المتحمسين لإنشائها. كما أرجع الكثيرون ضعف العصبة إلى قصر عضويتها على الدول المنتصرة فى الحرب والدول المحايدة، بينما لم يسمح للدول المنهزمة وكذلك للاتحاد السوفيتى بالانضمام إلى عضويتها عند إنشائها، ولم يتم قبول ألمانيا فى عضويتها إلا فى عام ١٩٢٦ أى بعد مرور أكثر من ست سنوات على إنشائها، بينما تأخر انضمام الاتحاد السوفيتى إلى عام ١٩٣٤ .

وكان من نتيجة عوامل الضعف هذه أن فشلت العصبة فى إيجاد حلول للعديد من المشكلات الدولية التى واجهتها، ومن بين تلك المشكلات إقدام ألمانيا النازية على احتلال المناطق المنزوعة السلاح فى أراضى الراين، كما فشلت العصبة فى وقف اعتداء إيطاليا الفاشية على الحبشة فى عام ١٩٣٦ . ووضح عجز العصبة فى منع سباق التسلح بين الدول الأوروبية، وعادت كثير من الدول الأوروبية إلى سياسة المحالفات والتكتلات العسكرية التى وجدت فيها ما يحقق أمنها بعيدا عن العصبة . ولعل فرنسا كانت هى المسؤولة عن ذلك، إذ كانت تخشى من أن تستعيد ألمانيا قوتها العسكرية، ومن ثم وجدت فى سياسة المحالفات خير ضمان لأمنها من وجود العصبة ذاتها، كما عملت على زيادة قواتها العسكرية دون أن تأبه لما نص عليه ميثاق العصبة من ضرورة خفض التسلح، فى الوقت الذى اتجهت فيه ألمانيا إلى التخلص من القيود العسكرية التى فرضت عليها فى معاهدة فرساى،ووضح ذلك فى إعادة تشكيلها لهيئة أركان حرب قواتها المسلحة وراوغت فى الالتزام بالشروط المتعلقة بتحديد سلاحها .

ولعل مما أضعف من هيبة العصبة المحاولات التى بذلتها بعض الدول الأوروبية بعيدا عنها من أجل تخفيف حالة التوتر وتحقيق أمنها الجماعى، حيث وقعت كل من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا على معاهدة لوكارنو ١٩٢٥، وبمقتضاها تعهدت تلك الدول باحترام الحدود القائمة فيما بينها والامتناع عن استخدام القوة لتعديل تلك الحدود وإحالة المنازعات التى قد تنشب إلى محكمة



العدل الدولية. وعلى الرغم من أن الاعتقاد ساد بعد توقيع معاهدة لوكارنو بأن السلام الدولى صار مكفولا حتى أصبح يطلق على السنوات التالية من توقيع تلك المعاهدة بعهد الأمل والسلام ١٩٢٥-١٩٣٣، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر عهد الخيال والأوهام، ويرجع ذلك إلى أن الآثار النفسية العميقة التى كانت مترسبة فى كل من الشعبين الفرنسى والألمانى لم تحقق الثقة بين الطرفين . وليس من شك أيضا فى أن الظروف الدولية التى أعقبت الحرب وتداعياتها لم تمكن العصبة من تأكيد فاعلياتها . ومع كل تلك الظروف التى عرضنا لها والتى أدت إلى فشل العصبة فى تحقيق أهدافها، إلا أن الأمر الذى لا شك فيه أنها كانت فاتحة عهد جديد فى السياسة الدولية، وتجربة رائدة فى مجال التنظيمات الدولية .



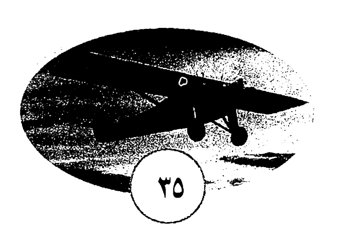
السوريين فندوا هذه الحجج وذكروا أن الانتداب غير صحيح منذ البداية لأن أهل البلاد لم يستشاروا عام ١٩٢٠ طبقا لنظام العصبة ، ثم إن حكومة فرنسا الحرة ليست استمرارا للدولة التى عهدت إليها العصبة بالانتداب ، وليس هناك ضمان لتنفيذ المعاهدة إذا تم التوصل إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة الحاضرة.

أما فى لبنان فكانت فرنسا تعول على صداقته كما كان الحال عام ١٩٢٠ وقد تجلى ذلك فى التصريح الخاص بقيام دولة لبنان فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤١ كما سبقت الإشارة والذى جاء فيه "إن فرنسا تتعهد بالمحافظة على سلامة لبنان ووحدة أراضيه وأنها ستضمن استقلال البلاد فى إطار مشروع معاهدة ١٩٣٦ تلك المعاهدة التى رحب بها اللبنانيون فيما مضى" . وقد اعتبر هذا التصريح فى حينه مناقضا لبيان ٨ يونية ١٩٤١ الذى خير السوريين واللبنانيين بين إقامة دولة واحدة أو تأسيس دول مختلفة. والتصريح الجديد والحال كذلك يؤكد انفصال القطرين ويقطع السبيل على إقليم مثل طرابلس كان معظم سكانه يتطلعون إلى الانضمام لسوريا فى حالة انفصال القطرين.

وكما حدث فى سوريا تم اختيار الفريد نقاش لرئاسة الدولة فى لبنان وهو من المعروفين أيضا باستسلامهم للفرنسيين. وعمدت السلطات الفرنسية إلى إثارة التفرقة الطائفية كما كانت تفعل منذ انتدابها هناك وكادت تنجح عندما أوحت لرئيس الدولة إصدار قانون انتخاب (يونية ١٩٤٣) يؤدى إلى إعطاء المسيحيين أغلبية فى مجلس النواب لا تتفق وعددهم (٣٢ مقعدا مقابل ٢٢ للمسلمين) لولا أن حكومات عربية توسطت فى الأمر وجعلت الرئيس اللبنانى يتراجع عن المضى فى هذه المؤامرة وانتهت المشكلة بحل وسط وهو تخصيص ٢٥ مقعدا للمسلمين و ٣٠ للمسيحيين.

على أن الزعيمين اللذين كانا يتنافسان على زعامة لبنان فى هذه الفترة وهما بشارة الخورى وإميل إده، وكلاهما يمثل وجهة نظر الموارنة اتفقا على مبدأ الكيان اللبنانى الواحد مع فارق أساسى وهو أن بشارة الخورى كان يرى أن الاحتفاظ بكيان لبنان لا يتعارض مع تعاونه مع البلاد العربية فى نطاق محدود، على حين أن إميل إده كان يفهم أن الكيان اللبنانى يعنى انعزاله تماما عن المحيط العربى لذلك كان يحظى بتأييد الفرنسيين.

ولكن عندما أجريت الانتخابات فى شهر سبتمبر ١٩٤٣ فاز أنصار الخورى بأغلبية كبيرة وهكذا انتخبه المجلس رئيسا للجمهورية ، وقام بشارة الخورى باختيار رياض الصلح -أحد



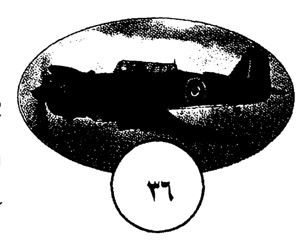
المعروفين بميولهم العربية- لكى يرأس الحكومة مما زاد السلطات الفرنسية سخطا على الوضع الجديد فى لبنان. وأخذ المفوض العام الفرنسى (هيلو) يتحين الفرص للتخلص من الحكومة القائمة حتى إذا طرح على مجلس النواب مشروع بتعديل الدستور فى نوفمبر ١٩٤٣ كانت الشرارة التى انطلقت منها الأزمة اللبنانية.

كان التعديل المقترح ينص على إلغاء المادة الخاصة بتحديد امتيازات الدولة صاحبة الانتداب وإضافة مادة تجعل الوظائف العامة الكبرى مقصورة على الذين يحملون الجنسية اللبنانية ، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، وأن يتغير شكل العلم اللبنانى وكان مرسوما على هيئة العلم الفرنسى المثلث مع تمييز بسيط وهو توسط شجرة الأرز للعلم. واعترض المفوض العام الفرنسى على حق البرلمان فى تعديل الدستور بحجة أن استقلال لبنان لن يكتمل إلا بعد عقد معاهدة مع فرنسا وفق ما جاء بالتصريح الخاص بقيام دولة لبنان. غير أن مجلس النواب مضى فى بحث التعديل ورفض حتى مجرد التأجيل إلى حين عودة المفوض العام من الجزائر حيث ذهب للتشاور مع جبهة التحرير الوطنى الفرنسية.

وبعد عودة المفوض العام إلى بيروت بادر باعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مع معظم أعضاء حكومته عدا اثنين استطاعا الفرار إلى الجبل حيث وجها الدعوة لتأليف جبهة وطنية للمقاومة بينما عرض المفوض العام رئاسة الجمهورية على إميل إده.

وقد أثار هذا الحادث ضجة دولية كبرى بالإضافة إلى بوادر مقاومة مسلحة أخذت تظهر فى لبنان. وقد أعلن تشرشل أن هذا الصدام يؤثر على منطقة العمليات فى الشرق الأوسط وأنه يسىء إلى العلاقات مستقبلا بين بريطانيا وحكومة فرنسا الحرة. ووجهت بريطانيا إنذارا شفهيا إلى السلطات الفرنسية فى ١٧ نوفمبر للإفراج عن الزعماء اللبنانيين وإلا اضطرت إلى استخدام القوة على أساس أنها ضمنت استقلال دولتى سوريا ولبنان ، وأن حل هذه المشكلة يمكن أن يتم بمحادثات دولية تشترك فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بجانب ممثلى الشعبين السورى واللبنانى.

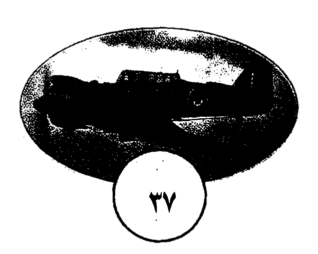
على أن الأزمة انتهت بإعادة تشكيل الحكومة اللبنانية بالوضع الذى كان قائما قبلها ، واستأنف مجلس النواب اجتماعاته ، ولم تجد فرنسا بدا من تسليم السلطات إلى الحكومتين السورية واللبنانية دون عقد المعاهدة بعد أن فشلت تماما خطة الاعتماد على لبنان. ومن السلطات التى تخلت عنها : إدارة شؤون البدو ، والرقابة على الصحف ، وزالت الحجة القائلة أن الشؤون المشتركة بين سوريا ولبنان مثل الجمارك يجب أن تتولاها السلطات الفرنسية منعا للخلاف ، كذلك



وقد تميزت الأيديولوجية الفاشية - مثلها فى ذلك مثل النازية - بعدائها الشديد للشيوعية، والتأكيد على القومية مما يصل بها إلى الشيفونية، ويبدو ذلك واضحا فى انتهاج موسولينى سياسة خارجية كان يستهدف بها إلى إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، واعتبار البحر المتوسط بحرا إيطاليا وذلك على غرار ما كان يطلق عليه الرومان " بحرنا "Mare Nostrum . ومن ثم اتجهت السياسة الإيطالية إلى تدعيم النفوذ الإيطالى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط، وهو الأمر الذى تحقق بنجاح موسولينى فى السيطرة على جزر الدوديكانيز الواقعة فى بحر إيجة وفى توسيع حدود ليبيا التى كانت خاضعة لإيطاليا منذ عام ١٩١١، إضافة إلى إخضاعه لألبانيا على الرغم من كونها عضوا فى عصبة الأمم .

وفى المجال الاستعمارى اتجه موسولينى إلى تعزيز القوات الإيطالية فى إريتريا والصومال بهدف غزو الحبشة وتكوين إمبراطورية إيطالية فى شرقى القارة الإفريقية، وكان مما شجعه على تلك التوسعات الضعف الشديد الذى تردت فيه عصبة الأمم وعدم قدرتها على حفظ السلام أو منع العدوان الذى بدأ يوجهه ضد الحبشة . وعلى الرغم من أن القادة العسكريين الإيطاليين كانوا يتوقعون الكثير من العناء فى إخضاع الحبشة بسبب طبيعتها الجبلية الوعرة، إلا أن تفوق الجيش الإيطالى فى أسلحته وعتاده أدى إلى سهولة وقوع الحبشة تحت الغزو الإيطالى، وخاصة بعد أن عمدت القوات الإيطالية إلى استخدام الغازات السامة - وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الحرب الكيماوية فى الحروب - للقضاء على المقاومة التى أبداها الأحباش للدفاع عن بلادهم . ولم تلبث القوات الإيطالية أن دخلت العاصمة أديس أبابا فى مايو ١٩٣٦، وبادر الإمبراطور هيلاسلاسى بالفرار على إحدى السفن البريطانية إلى إنجلترا، بينما أعلن موسولينى ضم الحبشة إلى المستعمرات الإيطالية فى إريتريا والصومال حيث تكونت بذلك إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية وأضاف لقب إمبراطور الحبشة إلى الملك فيكتور عمانويل، الذى صار يلقب بملك إيطاليا وألبانيا وإمبراطور الحبشة .

ويعد نجاح موسولينى فى غزو الحبشة بمثابة نقطة تحول هامة فى السياسة الأوروبية، إذ إنه على أثر ذلك الغزو أعلن انسحاب إيطاليا من عصبة الأمم فى عام ١٩٣٧ وبدأ التقارب يزداد بينه وبين ألمانيا، وتوج هذا التقارب بتوقيع معاهدة تحالف بينهما فى نفس ذلك العام . وكان قد سبق توقيع معاهدة التحالف هذه معاهدة تحالف أخرى بين ألمانيا واليابان فى نوفمبر ١٩٣٦، وبذلك تشكل ما صار يعرف بدول المحور، أو محور روما برلين طوكيو Axis. ومن الواضح أن دول



المحور كانت متشابهة فى أنظمتها الديكتاتورية، كما اتفقت على تقسيم مناطق النفوذ فى العالم فيما بينها .

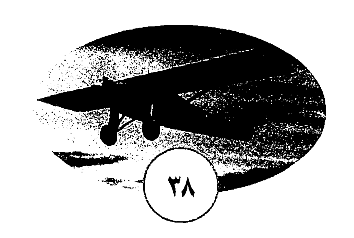
النازية فى ألمانيا

مهدت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية التى عانت منها ألمانيا عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وفرض معاهدة فرساى عليها، لقيام الحركة النازية التى وجدت استجابة سريعة من الشعب الألمانى الذى كان يتطلع إلى الخلاص من عبء تلك الأوضاع السيئة .

وليس من شك فى أن الإذلال الذى تعرضت له ألمانيا من جراء وجود جيش احتلال فى بعض أقاليمها، إضافة إلى التعويضات العينية والنقدية الباهظة التى فرضت عليها، وما صاحب ذلك من شرور الجوع والبطالة والتضخم والصورة القاتمة من العار الذى لحق بها كانت جميعها من العوامل التى جعلت الشعب الألمانى يتطلع إلى زعيم يستطيع أن يعيد لألمانيا كبرياءها الذى فقدته. وسرعان ما وجد الألمان ذلك الزعيم فى شخص أدولف هتلر الذى كون الحزب النازى . وكان



هتلر فى أحد خطاباته النارية



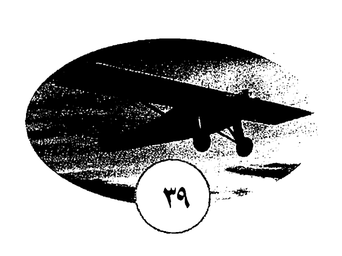
وعندما وقعت الحرب كان معظم الزعماء العرب إما مشردين خارج البلاد أو معتقلين فى جزر بعيدة فى المحيط الهندى بعد أن أصدرت المحاكم البريطانية ضدهم أحكاما بالسجن لمدد طويلة. وكان أمين الحسينى مثلا وهو أبرز زعماء فلسطين يدير حركة الثورة من لبنان، ثم تحرج مركزه بعد قيام الحرب لأن فرنسا أصبحت حليفة لبريطانيا ولم تعد مستعدة للتغاضى عن وجود الزعيم الفلسطينى فى لبنان، فاضطر إلى مغادرة البلاد إلى العراق. وهناك عمل على التقريب بين العرب وبين المحور للوقوف ضد الإنجليز كما سبقت الإشارة مما زاد مركز العرب فى فلسطين حرجا. واستغلت الصهيونية هذه الملابسات للتنديد بالحركة الوطنية فى فلسطين ولقيت نجاحا فى كثير من المجالات الدولية.



ثورة الفلسطينين ضد سلطة الانتداب البريطانى والمستوطنين اليهود سنة ١٩٣٧

وقبيل اندلاع الحرب بأشهر قليلة وفى مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض بشأن استرضاء عرب فلسطين. ويبدو أنه كان جزءا من إقدام بريطانيا على تسوية خلافاتها مع دول المنطقة بالمعاهدات فترة الأزمات الدولية التى بدأت من ١٩٣٥ بهجوم إيطاليا على الحبشة.

وقد حدد الكتاب مرحلة انتقالية مدتها عشر سنوات تسلم بعدها جميع السلطات لأهالى

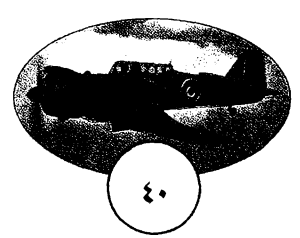



الشيخ أمين الحسينى والمجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر

فلسطين بشرط أن تتأكد بريطانيا من حسن العلاقات بين عنصرى السكان هناك!!، وأن تتمتع كل جماعة بكيان مستقل فى الشؤون الثقافية والاجتماعية والإدارية فى ظل الدولة الجديدة. كما حدد عدد المهاجرين اليهود فى السنوات الخمس التالية بخمس وسبعين ألفا ولا يجوز بعد ذلك قبول مهاجرين إلا بموافقة العرب وبعد التأكد من قدرة البلاد الاقتصادية على استيعابهم. وفى الوقت نفسه قسم الكتاب أراضى فلسطين إلى ثلاثة أقسام : قسم لا يجوز فيه انتقال ملكية الأرض من عنصر إلى آخر، وقسم يكون انتقال الملكية فيه تحت إشراف حكومة الانتداب ، أما القسم الثالث فيجوز فيه البيع والشراء.

والحق أن هذا "الكتاب" كان حلا وسطا لجأت إليه بريطانيا لإسكات كل من العرب واليهود وهى منشغلة بالأزمات وإن استفاد منه اليهود أكثر من العرب. والحاصل أن العرب كانوا يشعرون أن بريطانيا غير جادة فى تنفيذ الكتاب الأبيض رغم أن المكسب الوحيد لهم تمثل فى تحديد عدد نهائى للهجرة اليهودية وهو ما كانت السلطات البريطانية ترفضه باستمرار. وكذلك شعر اليهود رغم سخطهم على تحديد عدد نهائى للهجرة وتحديد مساحة الأراضى الحرة للبيع، وقد علق بن جوريون على الموضوع بمناسبة قيام الحرب وضرورة تعاون اليهود مع الحلفاء قائلا : لننظر إلى الكتاب الأبيض كما لو لم تكن هناك حرب ولنمض فى هذه الحرب بجانب الحلفاء كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض.

أما الإنجليز أنفسهم فقد وقعت فيما بينهم خلافات حول الكتاب الأبيض إذ احتج كثير من نواب مجلس العموم وحجتهم فى ذلك أن أراضى القسم الحر التى يجوز فيه البيع والشراء لا تتجاوز ٥٪ يملك اليهود غالبيتها بالفعل بينما أراضى القسم التى يحظر فيه البيع تبلغ ٦٣٪ من أراضى فلسطين. وكانت الحكومة القائمة حكومة العمال بل إن تشرشل (وزير البحرية) وهو من



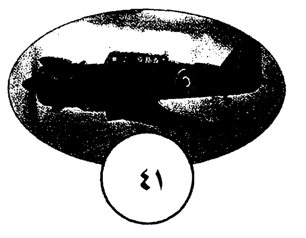
خامسا - نجاح هتلر فى بعث الروح القومية لدى الشعب الألمانى ودعوته إلى التخلص من معاهدة فرساى، إضافة إلى استغلاله سخط الشعب الألمانى على الحكومة العسكرية القيصرية الألمانية لأنها خسرت الحرب، وعلى الحكومة الديمقراطية الاشتراكية التى خلفت الحكومة القيصرية لأنها خسرت السلام، ومن ثم أصبحت البلاد فى أشد الحاجة إلى زعيم قوى يحقق طموحات الشعب الألمانى فى أن تكون ألمانيا فوق الجميع، وكان ذلك إحدى الشعارات الرئيسية التى ينادى بها الحزب النازى .

استطاع هتلر أن يحقق لحزبه نجاحا شعبيا كبيرا حتى أصبح من أقوى الأحزاب فى ألمانيا، ووضح ذلك فى إحرازه فوزا ساحقا فى انتخابات مجلس النواب " الرايخستاج "، مما جعل هندنبرج رئيس الجمهورية الألمانية يدعو هتلر ليسند إليه منصب المستشارية فى يناير ١٩٣٣ . وما كاد هتلر يتولى ذلك المنصب حتى عمل على التخلص من النظام النيابى برمته . وفيما يقال أن أتباعه من النازيين تعمدوا إشعال النيران فى مبنى الرايخستاج، وألقى هتلر مسئولية ذلك الحريق على الشيوعيين مما أتاح له الفرصة للقبض على زعمائهم، كما أقدم على حل جميع الأحزاب ومن ثم أصبح الحزب النازى هو الحزب الوحيد فى ألمانيا . وفضلا عن ذلك أعاد هتلر تنظيم الجستابو لمده بالمعلومات اللازمة التى تتيح له تشديد قبضة يده على الدولة وإلحاق تهمة الخيانة العظمى على كل من يجرؤ على معارضة الحكومة أو يتآمر عليها . وإجمالا فى القول أصبح المواطن الألمانى أحد شخصين إما أن يكون نازيا وإما أن يكون خائنا .

ولم تلبث أن أصبحت الظروف مهيأة لكى يصل هتلر إلى رئاسة الجمهورية الألمانية، وكان ذلك على أثر وفاة هندنبرج فى عام ١٩٣٤، أى بعد عام واحد من توليه منصب المستشارية . وعلى الرغم من أن هتلر أصبح رئيسا للجمهورية ومستشارا للرايخ الألمانى، إلا أنه لم يعر أهمية لتلك المناصب التى كان يفضل عليها لقب الزعيم أو الفوهرر.

مقدمات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٣-١٩٣٦

إذا كان هناك اتفاق بين المؤرخين على إرجاع الحرب العالمية الأولى إلى العديد من الأسباب والبواعث السياسية والاستعمارية، فقد ألقى الكثيرون تبعة الحرب العالمية الثانية على هتلر الذى اعتبر مسئولا مسئولية مباشرة عن اندلاع تلك الحرب، وأرجعوا ذلك إلى سياسته الخارجية أو على الأحرى سياسة المجال الحيوى، وقد مرت تلك السياسة بمرحلتين رئيستين يمكن تتبعهما على النحو التالى :



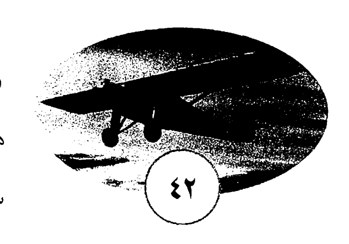
تميزت تلك المرحلة بإعلان هتلر انسحاب ألمانيا من عضوية عصبة الأمم فى عام ١٩٣٣ . وتبدو أهمية ذلك الانسحاب فى أنه أتاح له فرصة التخلص من القيود الدولية التى كانت مفروضة على التسلح، ومن ثم أخذ هتلر بعد انسحابه من عصبة الأمم يعمل على بناء قوات مسلحة على أسس هجومية من حيث السلاح والتدريب .

وليس من شك فى أن إمكانات ألمانيا البشرية والمادية قد ساعدته على ذلك، إذ إن ألمانيا غنية بعنصرها البشرى كما أنها غنية بمواردها الطبيعية وخاصة الفحم والحديد، ومن ثم كان استغلال هتلر لتلك الموارد فى بناء العديد من مصانع الأسلحة الثقيلة بما فى ذلك المدرعات والطائرات والغواصات وغيرها .

وعلى الرغم من أن هتلر كان حريصا على أن يتم تسليح ألمانيا سرا، إلا أن قراره الخاص بفرض الخدمة العسكرية الإجبارية - التى كانت ألمانيا قد حرمت منها فى معاهدة فرساى - كان لا يمكن أن يستمر فى طى الكتمان . وكان مما سهل عليه المضى قدما فى تسليح ألمانيا تعهده لإنجلترا بأن إعادة التسليح سوف يقتصر فقط على القوات البرية والجوية وإنه لن يعمل على زيادة القوة البحرية لألمانيا، وأبدى استعداده لتحديد التسلح البحرى بحيث لا تتجاوز قطع الأسطول الألمانى عن ثلث قطع الأسطول البريطانى .

ترتب على فرض الخدمة العسكرية الإجبارية أن وصل عدد الجيش الألمانى إلى ما يقرب من مليون ونصف مليون جندى وذلك فى خلال السنوات القليلة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية . وقد أبدى هتلر اهتماما شديدا بالجيش حتى وصل به الأمر إلى تقنين كمية الغذاء التى يتناولها الفرد الألمانى لتوفير المؤن الغذائية اللازمة للجيش .

وكانت الخطوة التالية التى قام بها هتلر خلال تلك المرحلة التى نتحدث عنها هى اجتياح منطقة الراين المنزوعة السلاح . ومما هو جدير بالذكر أن إصدار أوامره بذلك الاجتياح تم على الرغم من معارضة قادته العسكريين الذين كانوا يرون أن الجيش الألمانى لم يكن فى حالة يستطيع معها الحرب فى حالة حدوث ردود فعل مضادة من جانب فرنسا . غير أن هتلر لم يهتم بتلك المعارضة اعتقادا منه بأن فرنسا لن تقدم على مواجهة ألمانيا، أما فى حالة إقدامها على المواجهة فعلى الجيش الألمانى أن يبادر بالانسحاب على الفور . وقد حدث ما توقعه هتلر حين تقاعست فرنسا عن رد الهجوم الألمانى، ومن ثم استطاع هتلر بتلك المغامرة أن يضم منطقة الراين إلى ألمانيا

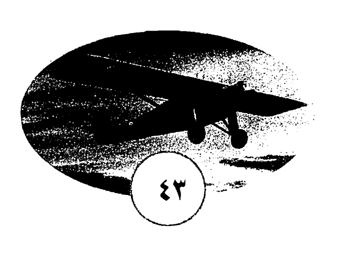


وفى أعقاب هذا المؤتمر عم السخط الشديد البلاد العربية وشعر بذلك الرئيس الأمريكى روزفلت فأراد أن يزيل بعض عوامل هذا السخط وخاصة أن الولايات المتحدة عادت عام ١٩٤٤ إلى سياسة التوسع فى استغلال النفط بالشرق الأوسط ، فنراه يرسل ممثله الشخصى (هارى هوبكنز) ليطوف بالبلاد العربية ليشرح وجهة النظر الأمريكية. وقد ركزت الجولة على الملك عبد العزيز آل سعود لكى يتفق مباشرة مع الرئيس الأمريكى. وقد اعترف ابن سعود نفسه بأنه لا يستطيع وحده التصرف فى هذه القضية كما أنه لم يتخذ موقفا حازما مع الولايات المتحدة فى هذا الشأن من قبل ويدل على ذلك رسالته إلى الرئيس الأمريكى فى نهاية ١٩٤٣ التى قال فيها أنه كان يريد منذ مدة أن يتحدث مع الرئيس بشأن فلسطين "ولكنى أخشى أن أزعج حكومة الولايات المتحدة وقت انشغالها بالحرب".

وكان الرئيس الأمريكى يود لو استطاع ابن سعود أن يدخل فى محادثات مباشرة مع الزعيم الصهيونى وايزمان وأن يتوصل الطرفان لاتفاق. غير أن ابن سعود رفض الفكرة وقال إنه حتى لو قبلها فليس من حقه وحده أن يبت فى هذه القضية. وبهذه المناسبة تروى قصة مؤداها أن روزفلت عرض على ابن سعود عشرين مليون دولار مقابل توطين اللاجئين العرب فى أراضى بلاده الواسعة وهم أولئك الذين سيضطرون إلى مغادرة فلسطين لتمكين الصهيونية من احتلال أراضى اللاجئين ومنازلهم.

على كل حال لقد أراد اليهود أن يضعوا السياسة البريطانية بشأن الهجرة لفلسطين موضع اختبار فأرسلوا فى بداية الحرب ثلاث سفن تحمل لاجئين يهود من البلدان التى احتلها الألمان. ولما كان وصول هذه السفن قد اتخذ شكل التحدى فإن السلطات


إحدى السفن الثلاث التى وصلت باللاجئين اليهود إلى فلسطين

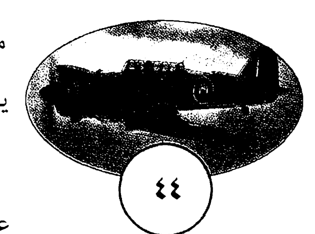


البريطانية أبعدت ركابها إلى جزيرة موريشوس-المستعمرة البريطانية- فى المحيط الهندى ، وفى الوقت نفسه أغمضت عينها عن حالات الهجرة بطريق التسلل حتى قدر عددهم فى العام الأول من الحرب بثلاثة أضعاف النسبة التى حددها الكتاب الأبيض. وقد وفدت تلك الهجرات فى وقت قلت فيه فرص العمل فى فلسطين وبلغ عدد العاطلين من اليهود نحو ٢١ ألفا ، ومن ثم التحق هؤلاء المتسللون وغيرهم بخدمة الجيش البريطانى ليكتسبوا خبرة عسكرية عالية من جانب وليحصلوا على مصدر للدخل من ناحية أخرى (بلغ عددهم ٨٢ ألف رجل وخمسين ألف امرأة).

وكانت خطة بن جوريون تستهدف تشكيل فرق يهودية خاصة تقاتل مع الحلفاء ، إلا أن الحكومة البريطانية ظلت فترة من الوقت تلتزم بالسياسة التقليدية وهى أن تظهر بمظهر الحكم الذى يعدل بين عنصرى السكان !!. . وبناء عليه اشترطت أن تتكون فرق فلسطينية خاصة على أساس التساوى فى العدد بين العرب واليهود. ومن الواضح أن هذا التصور انطلق من مبدأ خاطئ وهو اعتبار أن لليهود حقا مساويا للعرب فى فلسطين. وأكثر من هذا أن العسكريين البريطانيين كانوا غير راضين عن تحفظ السياسيين ويرون أن حالة الحرب تقتضى إهمال الاعتبارات السياسية وبالتالى فلا بأس من تجنيد اليهود باعتبارهم عنصرا مواليا. وكان تشرشل يوافق العسكريين حتى لقد أعلن فى البرلمان (٢٣ مايو ١٩٤٠) عقب توليه رئاسة الحكومة مباشرة انه من العبث إبقاء عشرين ألف جندى للمحافظة على الأمن فى فلسطين بينما تحتاج بريطانيا إلى كل فرد للدفاع عنها ، كما أبدى تعجبه من احتجاز عدة سفن لمراقبة سواحل فلسطين لمنع تسلل المهاجرين اليهود. وترك للجنرال ويفل القائد العام فى الشرق الأوسط حرية التصرف فى مسألة فلسطين.

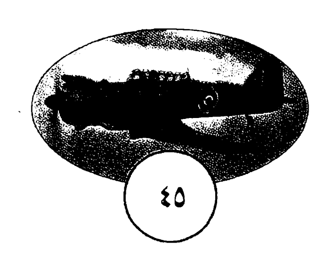
وبناء على هذا تغاضى ويفل عن أوامر وزارة الخارجية وأشرك الكتائب اليهودية فى حملة سوريا ولبنان وتركها تنهب مخازن الأسلحة الفرنسية وتستفيد بها لتسليح العصابات اليهودية. وحينما كان الألمان على وشك الاقتراب من فلسطين فى صيف ١٩٤٢ فى ظروف تردى موقف الحلفاء فى العلمين شجع ويفل اليهود على إقامة مستعمرات جديدة اختيرت مواقعها على أساس إستراتيجى إذ أقيم بعضها على الأرض التى اقترحت لجنة التقسيم الأولى فى عام ١٩٣٧ تخصيصها للعرب ، وأقيمت أخرى بجوار الحدود المصرية.

وآنذاك بادرت الهاجاناه وهى المنظمة الرسمية التابعة للوكالة اليهودية ويرأسها بن جوريون إلى إعلان التعاون مع حكومة الانتداب بمناسبة الحرب وأطلقت على هذا الموقف "هدنة سياسية"



من ألفى طائرة، بينما لم يكن لبولندة سوى فرقة آلية واحدة، وما لا يزيد عن ثلاثمائة طائرة حربية تم تدمير معظمها .

كان غزو هتلر لبولندة بمثابة تحـد صريح لكل من فرنسا وإنجلترا على وجه خاص، باعتبارهمـا الدولتين الضامنتين لاستقلالها، ولذلك بادرا بتقديم إنـذار شديد اللهجة إلى ألمانيـا طالباها فيه بسـحب قواتها خلال أربعة وعشرين ساعة فقط . وعلى أثر رفض هتلر هذا الإنذار أعلنت كل من فرنسا وإنجلترا الحرب على ألمانيا فى الثـالث من سبتمبر ١٩٣٩، الذى اعتـبر تاريخا رسميا لبـداية الحرب العالمية الثانية .



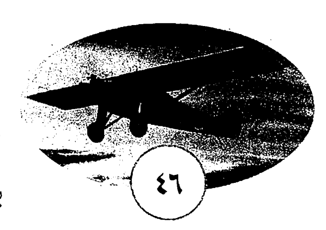


الفصل الخامس
اندلاع الحرب العالمية الثانية ومراحلها الأولى

على الرغم من إعلان إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا فى الثالث من سبتمبر ١٩٣٩، إلا أنه مضت بضعة أشهر دون أن تحدث مواجهة حاسمة بين الطرفين . ويرجع ذلك إلى تعذر إرسال قوات إنجليزية أو فرنسية إلى جبهات القتال نتيجة سيطرة ألمانيا على أراض شاسعة فى القارة الأوروبية، كما لم يكن فى استطاعة الأسطول الإنجليزى أو الفرنسى دخول بحر البلطيق الذى سيطرت عليه ألمانيا . وفضلا عن ذلك لم يكن فى وسع الطائرات الإنجليزية والفرنسية اختراق المجال الحيوى لألمانيا أو حتى الأراضى التى احتلتها نتيجة قوة الدفاع الألمانى الجوى . وحين اتبعت إنجلترا خطة فرض الحصار البحرى على ألمانيا استطاعت الغواصات الألمانية إغراق العديد من السفن والطرادات الحربية التابعة لكل من إنجلترا وفرنسا . ولم تؤد المحاولات التى قامت بها القوات الإنجليزية والفرنسية لاقتحام خط سيجفريد إلى نتائج إيجابية، ومن ثم اكتفت تلك القوات بتعزيز مواقعها الدفاعية وراء خط ماجينو الواقع على الحدود الفرنسية الألمانية . وقد استمر الوضع على ذلك عدة أشهر حتى سئم الجنود القتال وساءت حالتهم المعنوية والنفسية .



وينستون تشرشل



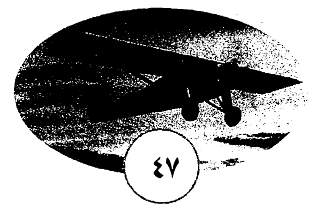
وقد حاولت الحركة الـوطنية الإفادة من التناقض الدولى القائم فى الحرب وخاصة بعـد انقسام فرنسا بين حكومتين تـخضع أحدهما للمحور (حكومة فيشي) والأخرى تتـبع الحلفاء (حكومة فرنسا الحرة بقيادة ديجول) ، فحـدث اتصال ما بين الوطنيين المغاربة وبين المحور عن طريق المنطقة الإسبـانية ، وكانوا يعلقون الآمـال فى الوقت نفسه على تدخل الحلفاء لصالحهم نظرا لما سمعوا عن تصرفاتهم فى سوريا ولبنان.

ومع ذلك قيل إن الأمـريكيين فكروا وقتـا ما فى الاتصـال بعبد الكـريم الخطابى أو علال الفاسى لكى يستخدمـا نفوذهما فى حالة إصرار الفرنسيين على مقـاومة حملة الحلفاء على ساحل المغرب. كذلك قيل إن أنصار ديجول نصحوا الفاسى بالتفاهم مع زعيم فرنسا الحرة (ديجول) على مستـقبل المغرب ، ولكن ديجول بعد أن بلغـته مساعى الولايات المتحـدة وبريطانيا لإطلاق سراح الفاسى تراجع عن تلك الخطة حتى لا تتعرض سياسته المغربية لأى نوع من أنواع الضغط.

وعندما التـقى تشرشل وروزفلت فى يناير ١٩٤٣ بالدار البيـضاء انتهـز الرئيس الأمريكى الفرصة وقابل السلطان بدون وساطة المقيم العام الفـرنسى كما تقضى بذلك معاهدة الحماية. وإلى هذه المقابلة يعزو بعض الكتاب الفرنسيين تحول السلطان إلى مشاركة الزعماء الوطنيين فى كفاحهم فى المرحلة التاليـة حيث شعر بأن لـه شخصيـة دولية ذات شأن. والواقع أن هذا التحـول قد أتى نتيجة نضوج تدريجى فى آراء السلطان محمد الخامس وميوله وليس إلى هذه المقابلة.

وفى يناير ١٩٤٤ وبينمـا كان زعمـاء البلاد فى المنفى أعـاد الوطنيون تشكيل حـزب جديد باسم حزب الاستقلال قـوامه بقايا الحزب الوطنى أساسا مع ضم جمعـيات المدرسين فى مختلف مدن مراكش وكبار الموظفـين فى حكومة المخزن ، وأساتذة جامعة القرويين. وقد اسـتعان بالطلبة الذين كان الحـزب الوطنى قد أوفدهم لـلدراسة بالقاهرة ، وظهـر أحمد بلافـريج كمحـور لهذا النشاط أثناء غياب علال الفاسي.

وعقـد الحزب الجديد (الاستـقلال)مؤتمره العـام فى ١١ يناير واعتبـر نقطة تحول فى تاريخ الحركة الوطنية المراكشية ليس لأنه تمخض عن تأسيس الحزب ، أكبر الأحزاب السياسية فى مراكش خلال السنوات التالية فـحسب ، بل لأنه قرر أيضا العدول عن سياسة الاسـتقلال على مراحل ، فنراه يطالب بإسقاط الحماية مباشرة كشرط مـقدم للتفاوض مع فرنسا. وشهدت مراكش فى الأيام التاليـة لتأسـيس الحزب مظاهرات على نطاق واسع تـلك المظاهرات التى أعقـبتهـا أحداث داميـة



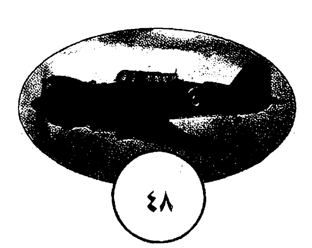
واعتقـال لمن بقى طليقا من الزعمـاء الوطنيين. ومع ذلك لم يتوقف نمو الحزب إذ امتدت فروعه حتى إلى مناطق البربر.

ويتلخص برنامج الحـزب الجديد فى تحقـيق استقـلال المغرب ووحدة أراضـيه، وتوثيق الروابط مـع دول العالم عامـة ومع الدول العربيـة والإسلامـية خاصـة. وفيمـا يتعلق بنظام الحـكم أعلن قادة الحزب أن الأسرة الحـاكمة أسرة وطنيـة يتعين الولاء لها، وفى نفس الوقت نادى بتطبـيق الملكية الدستورية ومنح الحريات الديمقراطية لجمـيع أفراد الشعب. ومنذ ذلك الوقت استبدل الحزب لقب السلطان بالملك وأطلق عليه الملك محمد الخامس.

أما فى تونس فقـد تمكن منها الألمان بعد هزيمة فـرنسا واحتلوها زهاء ستـة أشهر (نوفمـبر ١٩٤٢-مايو ١٩٤٣) كانت لهم فيها السلطة الفـعلية. وفى محاولة من الألمان إعادة ترتيب مناطق النفوذ فى الشمال الأفريقى عرضوا على الباى محـمد المنصف إسقاط الحماية الفرنسية وضم إقليم قسنـطينة (الجزائرى) إلى تونس ولكنه رفض لعـدم ثقتـه بمستـقبل ألمانيـا أو منعا للمـشكلات مع الجزائر. وهذا فى حـد ذاته يبين لنا كيف كانت القـوى الأوروبية الاستعـمارية تتعـامل مع العالم العربى كقطع شطرنج حتى منتصف القرن العشرين.

على أن الباى انتهز فـرصة الاحتلال الألمانى ليستعيـد بعض مظاهر سيادته على البلاد من ذلك مثلا إلغاء نظام الثلث الاستعمارى وهو التعبير الذى كان يعنى العلاوات الهائلة التى يتقاضها الموظف الفرنسى ويمتـاز بها عن زميله التـونسى بمقدار ٣٣٪ رغم أنه يقوم بنفس العـمل، وأقدم على تأليف وزارة فى يناير ١٩٤٣ دون استشارة المقيم العام اخـتار أعضاءها من بين أعضاء الحزب الدستورى بفرعيه القديم والجديد على السواء رأسها محمد شنيق من الدستوريين القدامى نظرا لأن الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستورى الجديد كان معتقلا فى الأراضى الفرنسية.

ومن ناحية أخرى عمل الألمان على تقريب الوطنيين إليهم ببعض الإجراءات من ذلك أنهم قدمـوا تعويضات للأهالى الذيـن فقدوا ممتلكاتهم نتـيجة الغـارات الجوية التى شنهـا الحلفاء على تونس. كما فرضوا على المقيمـية العامة تسليم الوطنيين بعض الوظائف الهامة. وفى أبربل ١٩٤٣ أى قبل انسحـابهم من تونس بشهر واحد قرروا الإفراج عـن بورقيبة وزملائه المعتـقلين فى فرنسا وذهبوا إلى روما فى طريق عودتهم. ورغم ذلك فقد رفض بورقيبة إصدار تصريح بناء على طلب الحكومة الإيطاليـة يحث فيه الشـعب التونسى على التعـاون مع المحور. وكان قـد اشترط مقـدما



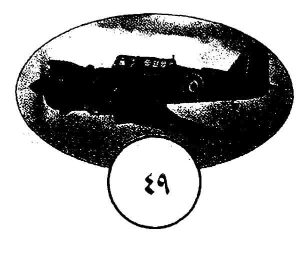
الانتباه أن نفس العدد الذى نصت عليه شروط الهدنة يتطابق تماما مع ما سبق أن فرضته فرنسا على ألمانيا فى معاهدة فرساى .

وليس من شك فى أن الجنرال بيتان رئيس حكومة فيشى كان يعتقد اعتقادا راسخا بأن الحرب سوف تنتهى بانتصار دول المحور، ولعل ذلك مما يفسر موافقته على توقيع الهدنة على الرغم مما تضمنته من شروط قاسية، واتجاهه إلى موالاة النازية حتى يضمن لفرنسا استقلالها عقب انتهاء الحرب فى مقابل وضعها كل إمكاناتها فى خدمة المتطلبات العسكرية للنازية، وأكثر من ذلك فقد تعهد بأن حكومته سوف تتعاون مع ألمانيا من أجل تدعيم النظام النازى فى أوروبا .

موقف إنجلترا فى الحرب بعد سقوط فرنسا

أصبحت إنجلترا تقف بمفردها بعد سقوط حليفتها فرنسا، وأصبح من المتوقع أن تدور الدائرة عليها مما وضعها فى موقف حرج للغاية . غير أنه سرعان ما ظهرت مقدرة تشرشل فى اتجاهه إلى بث الثقة فى نفوس مواطنيه . وتجلت عبقريته الدبلوماسية فى نجاحه فى فض ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتى وألمانيا وفى حفز الشعب البريطانى لتحمل أعباء الحرب وخسائرها، مؤكدا أن بريطانيا سوف تواصل الحرب حتى إذا كانت بمفردها، وإذا فرض وأخضعت الجزر البريطانية أو أجيعت بمنع المؤن والمواد الغذائية من الوصول إليها بسبب إغراق الغواصات الألمانية للسفن البريطانية إلا أن الإمبراطورية البريطانية فيما وراء البحار سوف تستمر فى مواصلة القتال، وأنه لا يستطيع أن يقدم وعودا للشعب البريطانى سوى المزيد من العرق والدم والدموع ! .

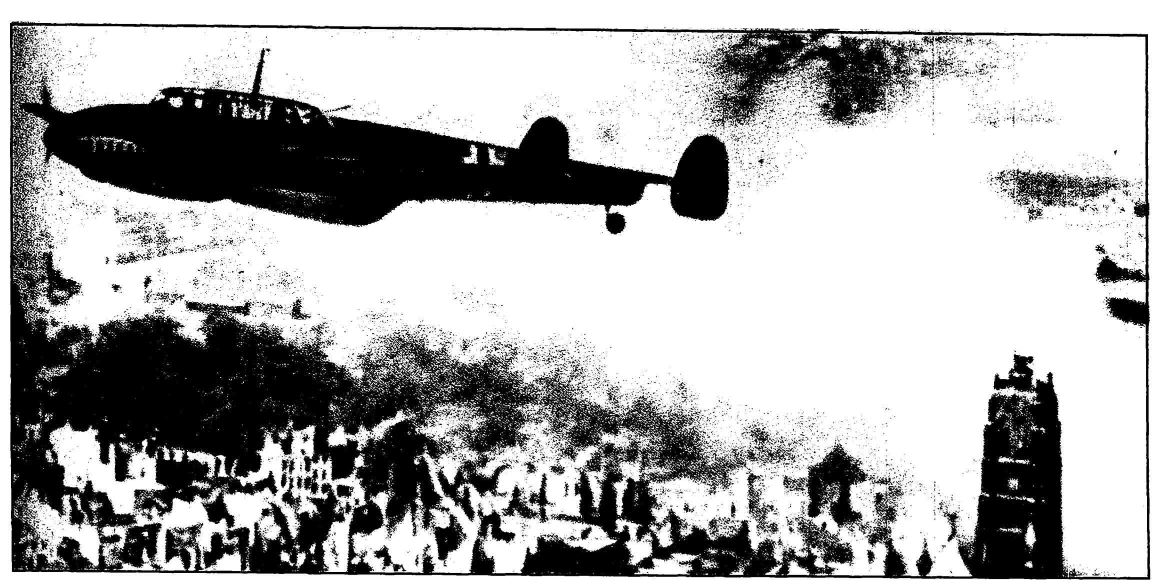
كان تشرشل على قناعة بأن ميثاق عدم الاعتداء الموقع بين الاتحاد السوفيتى وألمانيا لن يستمر طويلا نظرا للتناقض التام بين الأيديولوجيتين النازية والشيوعية . ومن ثم عمل على استغلال ذلك التناقض لإقناع الزعيم السوفيتى جوزيف ستالين بفض ذلك الميثاق والتحالف مع إنجلترا مؤكدا له أن هتلر بعد اجتياحه لفرنسا سوف يتجه حتما إلى الجبهة الشرقية حيث الاتحاد السوفيتى تطبيقا لنظرية المجال الحيوى . ولعل تشرشل ذكر ستالين بما ورد فى كتاب " كفاحى " لأدولف هتلر الذى وردت فيه عبارة تقول " يجب علينا بعد القضاء على فرنسا التى تهددنا فى ظهرنا أن نتوسع فى الاتجاه الشرقى لكى نؤمن المدى الحيوى الذى يجعل من ألمانيا دولة كبرى وقوة عالمية ضخمة" . وفى تبرير تشرشل لتحالفه مع الاتحاد السوفيتى أعلن للشعب البريطانى بأنه على الرغم من شيوعية السوفيت واختلافهم عن المبادئ الديمقراطية التى تسير عليها بريطانيا، إلا أنه مستعد لكى يتحالف حتى مع الشيطان فى سبيل كسب الحرب ! .



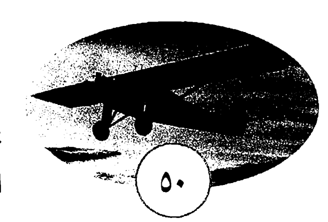
معركة بريطانيا الكبرى

على أثر إخضاع هتلر لفرنسا، أخذ يخطط لغزو الجزر البريطانية عن طريق إنشاء رؤوس جسور ضخمة على ضفتى بحر المانش لعبور القوات العسكرية إلى الجزر البريطانية . وقد عرفت تلك الخطة العسكرية بالاسم الكودى " عملية أسد البحر " . غير أن كثيرا من المحللين العسكريين أكدوا أن هتلر لم يكن فى حقيقة الأمر يهدف إلى تنفيذ تلك العملية لإدراكه بحتمية فشلها بسبب موقع الجزر البريطانية المنيع وإحاطتها بالبحار من جميع الجهات مما يصعب غزوها، فضلا عن تميزها بقوة أسطولها البحري. وفيما يبدو أن هتلر تعمد نشر تلك الخطة كنوع من التضليل أو الخداع حتى يشغل بريطانيا عن الاستعداد لخطته الفعلية التى كانت تقوم على توجيه ضربات جوية ساحقة عليها.

اعتمد هتلر على تفوق سلاحه الجوى فى هجوم مكثف على المدن البريطانية، وخاصة العاصمة لندن والمناطق المحيطة بها . واستمرت الهجمات الجوية ثلاثة أشهر دون انقطاع وترتب عليها تحطيم المئات من المصانع والمطارات والموانئ . وبدأت الغارات الجوية نهارية ثم تحولت إلى غارات ليلية لم تفرق بين الأهداف العسكرية والمدنية مما عرض بريطانيا لخسائر بشرية ومادية فادحة. وعلى الرغم من ضراوة الهجوم إلا أن الشعب البريطانى أثبت قدرة فائقة على الصمود . ولا تزال معركة بريطانيا تعتبر إحدى مفاخر الشعب البريطانى حتى أن الحكومة البريطانية عمدت



الضربات الجوية الألمانية للمدن الإنجليزية

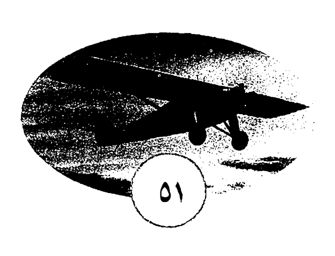


السلطات على رفضها. وهنا لم يجد فرحات عباس بدا من إعلان مطالبه فى بيان عام أصدره فى ١٠ فبراير ١٩٤٣ وصار أنصاره يعرفون بجماعة أنصار البيان. وهذه المطالب تمثل تحول الزعيم الجزائرى من فكرة إدماج الجزائر فى فرنسا إلى إقامة حكومة وطنية جزائرية تتحد اتحادا فيدراليا مع فرنسا ، فهو يدعو مثلا إلى تطبيق مبدأ المساواة والحرية على جميع الجزائريين دون تمييز فى الجنس أو الدين أو اللغة ، وتطبيق سياسة للإصلاح الزراعى ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية ، وفرض التعليم الابتدائى على جميع الجزائريين ، وفصل شؤون الدين الاسلامى عن الادارة الفرنسية كما هو حاصل بالنسبة للكنيسة ، وأخيرا إشراك المسلمين مباشرة فى إدارة البلاد.

وقد أبدت السلطات الفرنسية استعدادا لبحث هذه المطالب الأخيرة بشأن الإصلاحات لأنها لا تمس مبدأ السيادة الفرنسية. ولكن أصحاب البيان قدموا بعد عدة أشهر ملحقا طالبوا فيه بقيام دولة جزائرية تستقل استقلالا ذاتيا ، وتحكم بواسطة دستور خاص تضعه جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا. وقد أقر أنصار البيان بإمكان التمييز بين مطالب عاجلة مثل إقامة سلطة تنفيذية فى مدينة الجزائر يشترك فيها الوطنيون مناصفة مع المستوطنين ، وأخرى يمكن تأجيلها إلى ما بعد انتهاء الحرب مثل صياغة دستور الدولة الجزائرية.

غير أن السلطات الفرنسية رفضت هذا الملحق أيضا وكان الجنرال ديجول قد تسلم السلطة فى شمال أفريقيا وقام بتعيين الجنرال كاترو حاكما عاما للجزائر الذى لم يتحمل إثارة قضية تمس مبدأ السيادة الفرنسية. وحاول أنصار البيان أن يعبروا عن سخطهم على هذا الموقف بالامتناع عن حضور دورة المجلس التى افتتحت فى سبتمبر ١٩٤٣ فما كان من كاترو إلا أن قرر المضى فى الدورة بدون حضورهم فاضطروا إلى الاعتذار وأعلنوا عن أن خططهم هى تطوير البلاد فى ظل أنظمة الدولة الفرنسية.

كان هذا هو الأسلوب الذى قرر ديجول اتباعه فى تطوير الجزائر وخلاصته توسيع دائرة الحقوق السياسية لأكبر عدد من الجزائريين وليس الاستقلال ، ومن ثم صدر مرسوم فى مارس ١٩٤٤ يطلق حق الانتخاب لجميع الجزائريين ولكنه يميز بين نوعين من الدوائر : دوائر مخصصة للمستوطنين ولعدد محدود جدا من الجزائريين بنسبة ٦٠٪ من عدد المقاعد فى المجالس المحلية ، وأخرى تمثل بقية الشعب الجزائرى بنسبة ٤٠٪. وكان هذا "التطوير" يتعارض تماما مع المطالب الوطنية.



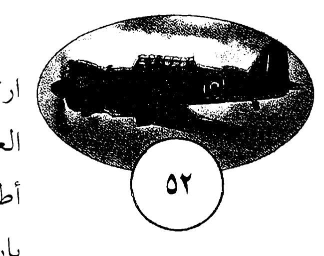
وعلى هذا اتفقت جـميع القوى الوطنية على رفض مـا سمى بالإصلاحات وتقاربت فيما بينهـا رغم تباين مبادئها ، فكان فرحات عبـاس يعبـر عن توجهـات النخبة المثـقفـة ، بينما حـزب الشعب (مصـالى الحـاج) يمثل الطبقـة العاملة وينادى بالاسـتقـلال ويتـخذ شعارات الحزب الشيوعى الفـرنسى ، على حين كانت جماعة علماء الجزائر تناضل من أجل تأكيد شخصية الجزائر العربية الإسلامية.

وبناء على هذا نجح فرحـات عباس فى عقـد مؤتمر يضم هذه القوى المتنافـرة فكان فى حد ذاته كسبا هامـا للحركة الوطنية فى الجزائر. وقد كشف المؤتمر عن قـوة نفوذ حزب الشعب رغم غياب زعيمه مصالى الحاج فى المعتقل ، إذ سيطر أعضاؤه على المؤتمر ، وتصدروا حركة النضال ، وانتقدوا بشدة رأى أنصار البيان فى إقامة حكومة جزائرية تتخذ اتحادا فيدراليا مع فرنسا.

ويبدو أن هذا المؤتمر أثار مـخاوف المستوطنين فـأخذوا يدبرون أمورهم بليل ، وعندمـا كان العالم يحـتفل بالانتصار على دول المحـور نظم الجزائريون فى مدينة سطيف مظاهرات للاحـتفال رددت هتافات الترحيب بقيـام الجامعة العربية فوجد المستوطنون الفرصـة سانحة لكى ينقضوا على المتظاهرين وهم عـزل من السلاح وأبـادوا عددا كـبيـرا منهم (٨ مايو ١٩٤٥) دون تدخل رجـال الشرطة الفرنسيين إن لم يكن بمساعدتهم. وبهذا أغلق باب التفاهم بين العناصر المعتدلة وبين فرنسا إلى أن تغيرت الأمور بعد انتهاء الحرب وانطلقت الثورة فى أول نوفمبر ١٩٥٤ .

أما بالنسبة لليبيا .. فعند قـيام الحـرب جدد إدريس السنوسى نشـاطه من مقـر إقامـته بالإسكندرية فى مصر ، وحـاول أن يجمع حوله العناصر الوطنية على اختلاف نزعاتها. وبتشجيع من السفارة البريطانية بالقاهرة انعقد مؤتمر فى مقر السنوسى بالإسكندرية حضره ممثلون عن جمعية الدفاع الطرابلسية. ولما كان زعماء القبائل البـرقاوية من أنصار السنوسى يشكلون غالبية المجتمعين نراهم يصدرون قراراتهم بإعلان الولاء للسنوسى زعيما للـبلاد مع الإشارة إلى إقامة هيئة شورى إذا ما سمحت الظروف له بالعودة إلى حكم البلاد.

ثم تجدد هذا النشاط على أثر دخول إيطاليا الحرب إذ عقد السنوسى مؤتمرا ثانيا فى أغسطس ١٩٤٠ وانحصـر تقريبا هذه المـرة فى مؤيديه من أهل برقة ، بينـما رأى زعمـاء طرابلس الوقوف بعيدا انتظارا لأحـداث الحرب أو على الأقل لأنهم كانوا لا يريدون التسليـم بزعامة السنوسى دون إجراء استفتاء مقدما.

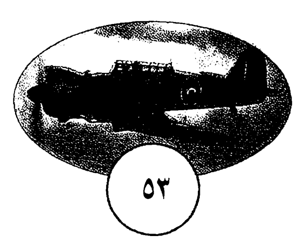



القوات الألمانية فى ستالينجراد

وقد ارتكزت الخطة العسكرية التى أطلق عليها عملية باربروسا الكبرى على شن هجوم خاطف ومكثف على الاتحاد السوفيتى . غير أنه كان من الواضح أن تتعرض تلك الخطة إلى الفشل الذريع بسبب امتداد جبهة القتال الروسية، حيث وجدت القوات الألمانية نفسها أمام مناطق جغرافية شاسعة تمتد عشرات الآلاف من الأميال، مما أجبر القيادة العسكرية الألمانية على توزيع قواتها التى أصبحت متناثرة . وعلى الرغم من ذلك الوضع الاستراتيجى السيئ فقد ظل هتلر مصمما على استمرار شن الهجوم الذى تمكنت فيه القوات الألمانية من تحقيق بعض الانتصارات وبدأت فى التقدم نحو المدن الرئيسية فى كل من موسكو ولينينجراد وكييف عاصمة أوكرانيا، كما تمكنت القوات الألمانية بفضل هجومها الكاسح من تدمير جانب كبير من سلاح الطيران الروسى كما فقدت روسيا ما لا يقل عن مليون جندى من قواتها ما بين قتيل وأسير .

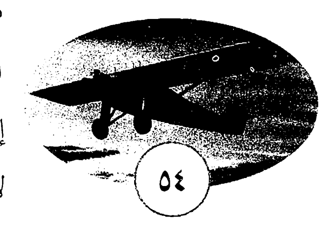
غير أنه بتقدم القوات الألمانية لحصار مدينة ستالينجراد كان فصل الشتاء قد حل وأصبح البرد القارص أكبر حليف لروسيا، وأخذ الجنود الألمان يتعرضون لآلام مبرحة نتيجة البرودة الشديدة التى وصلت فى بعض الأيام إلى أربعين درجة تحت الصفر، مما أحدث أضرارا بالغة بآليات الحرب الألمانية التى أصبحت غير صالحة للاستخدام نتيجة تجمد زيوتها، إضافة إلى تجمد الجنود الألمان أنفسهم وعدم استطاعتهم صد الهجمات التى بدأ الجنرال الروسى زوكوف يشنها عليهم بلا هوادة .

وعلى أثر انتهاء فصل الشتاء عاودت القوات الألمانية تصويب هجماتها على مدينة ستالينجراد، كما استطاعت بعض الفصائل الألمانية اجتياح سيبستابول ومن ثم التقدم إلى منابع النفط فى إقليم القوقاز . وعلى الرغم من ذلك التقدم الذى حازته القوات الألمانية، إلا أن معركة



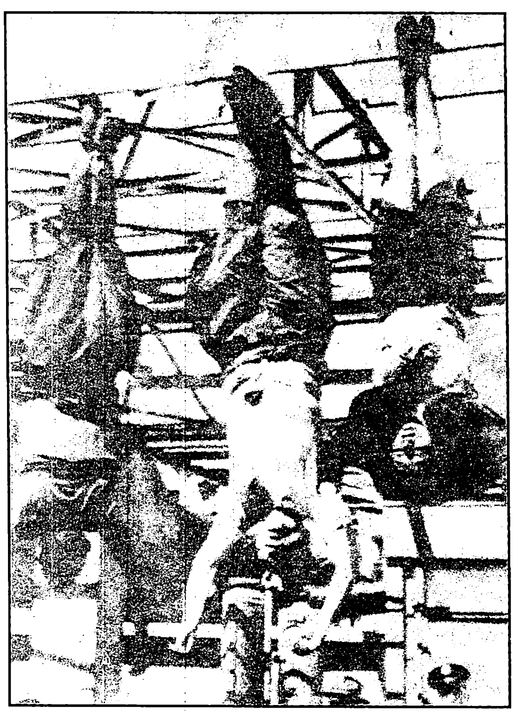
ستالينجراد لم تلبث أن وضعت نهاية لمغامرة هتلر، إذ كان ستالين مصمما على الدفاع عن تلك المدينة على الرغم من تحولها إلى حطام نتيجة خمسة أشهر من الحصار . وأدى الدفاع الأسطورى ومقاومة الشعب الروسى المستميتة للقوات الألمانية من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت إلى إنزال كارثة بالقوات الألمانية الغازية، وإلى جانب ذلك ظهرت براعة القائد الروسى زوكوف الذى عمد إلى تطويق القوات الألمانية مما أجبرها على الاستسلام، وانتهت بذلك أعظم معركة فى تاريخ البشرية وكانت بلا شك نقطة تحول رئيسية فى مسيرة الحرب العالمية الثانية .

القوات الروسية بقيادة زوكوف تنتصر على قوات ألمانيا

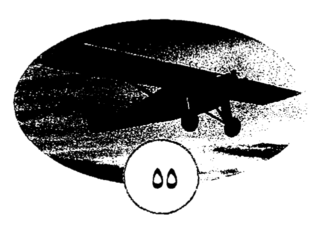


مختلفا لأن البلاد المفتوحة لم تكن طرفا محاربا ، وكان القانون الإيطالى قد فرض عليها فرضا ولا يطالب السكان بأكثر من تغييره ، إلا أن السلطات البريطانية ترددت فى ذلك وخاصة بالنسبة لطرابلس لأنها كانت تنوى تجزئة البلاد ، فنراها تميز فى المعاملة بين برقة وطرابلس ، فبينما تحيزت لأهل برقة وفتحت لهم باب الوظائف فى مختلف الإدارات فى وقت سريع ظلت تستخدم كثيرا من الطليان فى طرابلس.

ومن ناحية أخرى تركت لأهل برقة الحرية فى إنشاء الصحف وشجعت على تعريب التعليم مستخدمة فى ذلك كثيرا من المصريين ونقلت برامج التعليم المتبعة فى مصر آنذاك ، وكأنها تعمد إلى تعميق الفوارق بين المنطقتين تمهيدا للتجزئة. كما مهدت السبيل لعودة السنوسى الزعيم البرقاوى وإن كان قد تردد فى الإسراع بالعودة لأنه كان يريد أن يضمن إجماع الكلمة حوله أولا، ومن هنا قام بزيارة برقة (١٩٤٤) ليجس نبض السكان وهناك شجع الهيئات الاجتماعية الناشئة وخاصة نادى عمر المختار الذى نشأ فى الظاهر كهيئة رياضية وثقافية ثم تحول إلى هيئة سياسية تؤيد إمارة السنوسى. ولكن فى طرابلس ظلت الإدارة البريطانية تعرقل النشاط السياسى فيها فلم تسمح بقيام أحزاب فيها قبل ١٩٤٦ .


نهاية الطاغية موسولينى وبجواره صديقته كلارا.. وأعوانه الفاشيين

على أن عطف الإدارة البريطانية على الجالية الإيطالية فى طرابلس أثار شكوك السنوسيين فى نيات بريطانيا من حيث احتمال موافقتها على تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق نفوذ : برقة لبريطانيا، وطرابلس لإيطاليا ، وفزان لفرنسا. ومما زاد من هذه الشكوك تلك الصلات القوية التى نشأت بين بريطانيا وحكومة إيطاليا الملكية التى تحولت إلى صفوف الحلفاء منذ غزو الأراضى الإيطالية (١٩٤٣) ، وهروب الملك عمانويل الثالث من روما والتجائه إلى الحلفاء حيث قرر أن يعلن الحرب بجانبهم ضد ألمانيا وضد حكومة موسولينى. وكانت بريطانيا تريد

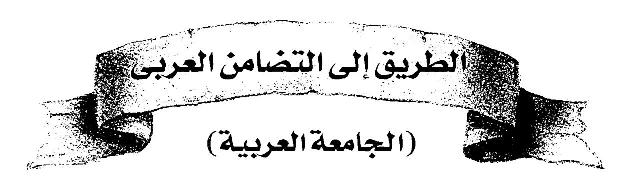


بالفعل أن تدعم مركز الحكومة الإيطـالية الملكية فى نهاية الحرب عن طريق إعادة بعض المستعمرات القديمة لها.

أما فرنسا فقد ترددت بين فكرة تقـسيم ليبيا إلى مناطق نفوذ ثلاث بالاشتراك مع إيطاليـا ، أو أن تستبعد إيطـاليا وتجعل طرابلس منطقـة محـايدة بين البريطـانيين والفرنسـيين ، أو أن تخضع فـزان للحكم الفرنسى المباشر على الطريقة المتبعة فى الصحراء الجزائرية ، وتقيم إمارة عربية فى طرابلس ترتبط بفرنسا بمعاهدة بينما تقيم بريطانيا إمارة تدور فى فلكها فى برقة يمكن أن يتولى حكمها أحد أفراد العائلة السنوسـية أو أحد أعضاء الأسرة الحاكمـة فى مصر ، وتحتفظ بريطانيا بطبـرق كقاعد بحرية تخضع لسيادتها مثل جبل طارق.

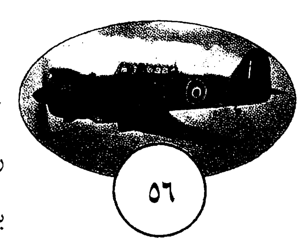
غير أن جـهود فرنسا اقتـصرت على الاحتفاظ بفـزان ولم يدخر الفرنسيون وسـعا لإغراء أهالى فزان لكى يعلنوا رغـبتهم فى البقاء تحت إدارتهم ومـن ذلك أن ديجول يصرح (١٩٤٤) بأن فرنسـا كانت دائمـا صديقـة للمسلمين وقـام بتخصـيص مسـاعدات مالـية كبـيرة لإقـامة بعض المشروعات العمرانية هناك.

فإذا أضفنا إلى خطر التقسيم انقسام القوى الوطنية حول الزعامة والحكم أدركنا مدى الوضع الحرج الذى تعرضت له ليبيا أثناء الحرب العالمية الثانية.



يبدو واضـحا أن الحرب العالميـة الثانية كان لهـا دور فى التقريب بين أجـزاء الوطن العربى المفكك سياسـيا واقتصاديا ، إذ كان كل قطر عـربى يرتبط بعجلة اقتصاد الدولة الأوروبيـة صاحبة النفوذ فيه ، ومن ثم انحسرت حركة التبادل التجارى فيما بين أجزاء البلاد العربية ذاتها بينما زادت حركة الاستيراد والتصدير مع أوروبا ، فالأقطار العربية تصدر المواد الخام التى تنتجها وتستورد من أوروبا المصنوعات والمواد الغذائية.

وقد نتج عن ذلك أن الدول العربية أصبحت تواجه ارتباكـا اقتصاديا خطيرا بعد قيام الحرب وخاصة عندما دخلت إيطاليا المعركـة حيث أغلق طريق البحر المتوسط الذى يصل بين أوروبا وبين



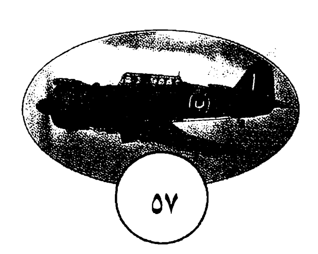
النفاد مع بداية عام ١٩٤١، وبالتالى وقفت الحكومة البريطانية عاجزة عن إبرام عقود لشراء أسلحة جديدة . وكان ذلك مما دفع الرئيس روزفلت إلى أن يستصدر من الكونجرس الأمريكى قرارا يقضى بتفويضه فى منح القروض والمساعدات الخارجية لأية دولة يكون الدفاع عنها ضروريا لأمن الولايات المتحدة الأمريكية . كما نجح فى أن يستصدر من الكونجرس قانونا جديدا عرف بقانون " الإعارة والتأجير " Lend &Lease ، وذلك لإدراكه تأزم الأوضاع الاقتصادية فى بريطانيا وعدم قدرتها على عقد صفقات من الأسلحة فى الوقت الذى كانت فيه فى حاجة شديدة إلى تلك الصفقات. ومن الطريف تلك العبارة التى وجهها لأعضاء الكونجرس من أجل حثهم على سرعة إصدار هذا القانون الذى كان يقضى بإرسال الأسلحة لبريطانيا دون انتظار تسديد ثمنها والتى جاء فيها " إذا رأيت بيت جارك يحترق فمن الأولى أن تقدم له المياه ثم تطالبه بالثمن بعد ذلك ! "

وعلى أثر صدور قانون الإعارة والتأجير بدأ سيل من الدبابات والطائرات ومواد الحرب يأخذ طريقه إلى بريطانيا وحلفائها . ولم يلبث أن تقدم موقف الولايات المتحدة الأمريكية خطوة أخرى حين تقرر عقد اجتماع بين الرئيس الأمريكى روزفلت ورئيس الحكومة البريطانية وينستون تشرشل فى إحدى الجزر القريبة من نيوفوندلاند، وتمخض هذا الاجتماع عن توقيع ما عرف بميثاق الأطلنطى الذى اعتبر مقدمة لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء .

ميثاق الأطلنطى، أغسطس ١٩٤١

وقع كل من روزفلت وتشرشل هذا الميثاق فى الثانى عشر من أغسطس ١٩٤١، وكان أشبه ما يكون بمبادئ الرئيس ودرو ويلسون الأربعة عشرة التى سبق إعلانها فى المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى حيث نص الميثاق على نبذ سياسة التوسع الإقليمى وحرية الشعوب فى تقرير مصيرها وفى اختيار نوع الحكومة التى يرتضونها والتخلى عن استخدام القوة فى فض المنازعات الدولية .

وعلى الرغم من توقيع الولايات المتحدة الأمريكية على هذا الميثاق، إلا أنها ظلت مع ذلك متمسكة بعدم التورط المباشر فى الحرب . غير أنها لم تلبث أن أعلنت بأنها سوف تبادر بضرب أية غواصة ألمانية أو إيطالية تظهر أمام سواحلها، وبالتالى كان من المتوقع وقوع حوادث تؤدى بالولايات المتحدة إلى إعلان الحرب . غير أن اليابان - وهى إحدى دول المحور - تولت هذه

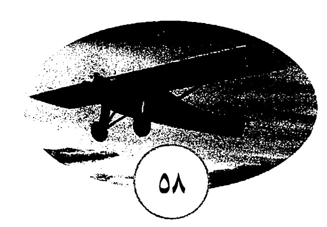


المهمة حين قامت بهجومها الجوى المفاجئ على القاعدة الأمريكية فى بيرل هاربور Pearl Harbour فى إحدى جزر هاواى، وكان هذا الهجوم هو السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء .

الهجوم اليابانى على قاعدة بيرل هاربور، ديسمبر ١٩٤١

نتيجة لتصاعد النزعة العسكرية اليابانية فى فترة ما بين الحربين العالميتين ومحاولة اليابان إيجاد حلول لمشكلاتها الاقتصادية المتأزمة، كان اتجاهها للتوسع العسكرى على حساب الأقطار الآسيوية المجاورة لها حاملة شعار آسيا للأسيويين أو على الأحرى آسيا لليابانيين . ووجدت فى الحرب العالمية الثانية فرصة لذلك التوسع الذى أصبح خطرا يهدد الأمن الأمريكى، وخاصة حين بدأت اليابان تتوغل فى المحيط الهادى .

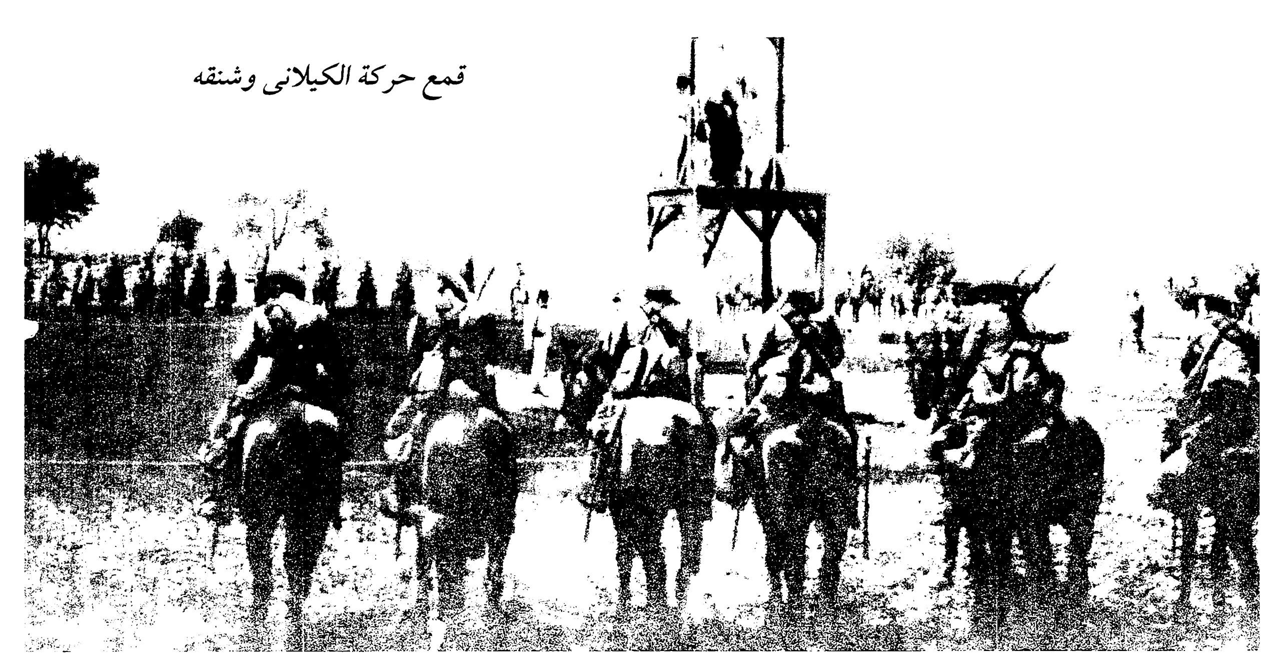
الطائرات اليابانية تضرب الأسطول الأمريكى فى ميناء «هاربور» تحت قيادة (ياماميتو)

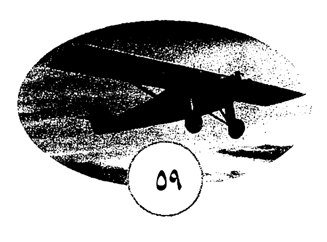


الحرة كما سبقت الاشارة وتريد أن تلقى تأييد شعوب البلاد العربية على الأقل ، ومن ثم نجد أن إيدن يلمح فى خطابه بعبارة الصداقة التى تربط بريطانيا بالعرب، وشدد على فكرة الاتحاد لما تعلمه بريطانيا جيدا من أن هذه الفكرة هى أمنية الوطنيين منذ زمن طويل. ومن ناحية أخرى كانت دولتا المحور- كما سبقت الإشارة- قد أصدرتا تصريحا فى أكتوبر ١٩٤٠ بتأييد استقلال العرب فلعل الحكومة البريطانية رأت أن تسابق المحور فى هذا السبيل. ويدل على ذلك أن إذاعات دول المحور بادرت إلى وصف تصريح إيدن بأنه دعاية مضللة وذكرت بالوعود البريطانية فى الحرب العالمية الأولى التى لم تنفذ (وهى إشارة إلى مراسلات الحسين -مكماهون وإقامة الدولة العربية بالثورة على تركيا حيث انتهى الأمر بتفكيك المشرق العربى وخضوعه للانتداب الأنجلو-فرنسى..). وفى الميدان العسكرى كانت بريطانيا تحارب وظهرها للجدار وموقف الحلفاء الحربى يسير من سىء إلى أسوأ أمام المحور ، ولم تكن كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد انضمتا بعد إلى الحلفاء.

على كل حال .. لم تكن الظروف تسمح لكل الدول العربية تقريبا بأن تلقى شيئا من الاهتمام لهذا التصريح .. فحكومة العراق مثلا كانت منشغلة بإعادة تنظيم شؤونها بعد أن تسلم الوصى السلطة ويسعى للانتقام من خصومه. والحكومة المصرية كانت تواجه أول زحف ألمانى باتجاه حدودها وتعانى من أزمة تموين ، ومع ذلك فإن التصريح أثار عدة مناقشات فى الصحف والمجلات عن هوية مصر وهل وجهتها تكون أفريقية أم عربية أم إسلامية أم بحر متوسطية ، وهى

قمع حركة الكيلانى وشنقه





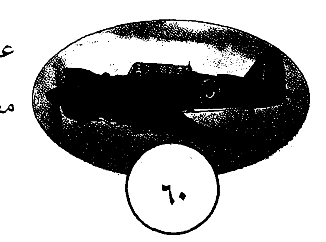
مناقشات قديمة تجددت بمناسبة الحديث عن حركة الاتحاد العربى وكان هناك ميل شديد إلى البدء بتحقيق وحدة وادى النيل.

وفى سوريا ولبنان لم يطمئن الوطنيون إلى السياسة البريطانية بصفة عامة بعد أن رأوا أن سلطات البلاد تسلم لحكومة فرنسا الحرة وليس لأهل البلاد. أما عبد العزيز آل سعود فكان يعتقد بأن أى اتحاد عربى تؤيده بريطانيا لا بد وأن يكون فى النهاية لخدمة مصالح الأسرة الهاشمية (فى العراق والأردن) وكان ابن سعود قد قضى على وجودها فى الحجاز منذ أواخر العشرينيات.

وأما الأمير عبد الله (شرق الأردن) فقد استجاب وحده للتصريح البريطانى ، بل لقد رأى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والخروج بسلطانه عن نطاق إمارته الصغيرة ، وكانت سياسته منذ مدة قد اتجهت إلى استغلال ظروف الحرب لتحقيق ذلك الطموح ، فقد تطوع بإرسال جزء من الفيلق العربى الذى يقوده ضباط بريطانيون للمساهمة فى قمع حركة الكيلانى فى العراق كما سبقت الإشارة. ولما تقررت الحملة البريطانية على سوريا ولبنان عرض الأمير خدماته للمشاركة فيها ، إلا أن بريطانيا فضلت الاستغناء عنها حتى لا يستنتج منها السوريون أن بريطانيا تمهد لعودة الهاشميين إلى البلاد.

وحتى من قبل أن يتم تسليم قوات فيشى فى سوريا ولبنان سارع الأمير عبد الله بإرسال مذكرتين بتاريخ ٢ يوليو ١٩٤١ يعرض فيهما فكرة سوريا الكبرى وكيف أنه يجب أن تندمج إمارة شرق الأردن فى سوريا ويسترد الأمير عرش الهاشميين فى دمشق الذى سقط عام ١٩٢٠ بعد ثورة الشريف حسين ضد الحكم التركى العثمانى (يونية ١٩١٦)، وذلك قبل التفكير فى أى اتحاد عربى على نطاق أوسع. وقد طلبت بريطانيا إرجاء النظر فى الموضوع لأنها كانت تريد ألا تتورط بفرض أى مشروع اتحادى على الأقطار العربية.

فى تلك الأثناء قدم نورى السعيد مشروع الهلال الخصيب فى ديسمبر ١٩٤٢ إلى وزير الدولة البريطانى لشؤون الشرق الأوسط (ريتشارد كيزى). وهو مشروع يختلف عن مشروع سوريا الكبرى فى أنه لا يدعو إلى اندماج تام بين سوريا والعراق ، ولا يطالب بعرش دمشق كما فعل الأمير عبد الله ، وإنما يهدف إلى إقامة اتحاد فيدرالى بين العراق وسوريا ولبنان وإمارة شرق الأردن وفلسطين. وفى رأى واضع المشروع أنه يمكن منح استقلال إدارى لليهود المقيمين آنذاك فى فلسطين لأنهم لن يكونوا خطرا يذكر وسط الدولة العربية الكبيرة المقترحة. ولكن يلاحظ أن كلا المشروعين العراقى والأردنى قدما لجهات بريطانية وكان ذلك اتجاها خاطئا من البداية لأنه ليس من المفروض



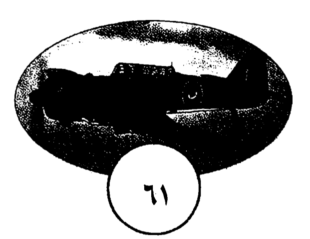
عدد الأسرى ما يقرب من مائتين وخمسين ألف أسير وانتهت بذلك معارك الشمال الأفريقى .

العمليات العسكرية فى الجبهة الأوروبية

على أثر انتهاء معارك الشمال الأفريقى أخذ الحلفاء يتحولون إلى الجبهة الأوروبية، غير أنه قبل أن تتقدم قواتهم إلى تلك الجبهة وصل الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت إلى مدينة الدار البيضاء حيث التقى برئيس الحكومة البريطانية وينستون تشرشل، وفى الاجتماع الذى عقد بينهما قاما بتوجيه دعوة إلى دول المحور بالتسليم دون قيد أو شرط، غير أن دعوتهما هذه لم تلق آذانا صاغية من تلك الدول التى كانت مصممة على القتال حتى النصر أو الموت .

كانت الخطة العسكرية التى رسمها الجنرال أيزنهاور ترتكز على السيطرة على جزيرة صقلية باعتبارها تقع فى منتصف البحر المتوسط، كما تعد فى الوقت نفسه بمثابة رأس جسر لتقدم قوات الحلفاء إلى إيطاليا بهدف إخراجها من الحرب . وقد أدى نجاح الحلفاء فى السيطرة على صقلية إلى زيادة استياء الإيطاليين وسخطهم على زعيمهم الدوتشى الذى غدر بهم حين رسم أمامهم

إحدى السفن الحربية البريطانية (الملك جورج الخامس) أدخلت الخدمة سنة ١٩٤٣



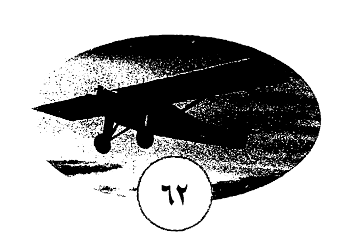
صورة زائفة عن قـوة إيطاليا وحتمية انتـصارها فى الحرب. ولم يلبث الحلفـاء بعد سـيطرتهم على صـقليـة أن اجتـازوا الخطوط الدفـاعيـة الإيطالية وأحـرزوا انتصارا سـاحقا على القـوات الإيطالية فى معـركة مونت كازينو التى على أثرها سقطت العاصمة الإيطالية روما، وكانت أول عاصمة أوروبية تسقط فى أيدى الحلفاء . وبادرت الحكومـة الإيطالية بعـقـد الهـدنة التى كـان من أهم شـروطهـا أن تتـوقف إيطاليـا عـن القتـال وتسـلم أسطولهـا وسـلاحها . أما عن موسولينى فقد انتهى أمره بالقـبض عليـه على أيـدى بعض المتحـمسين الفاشيـست المعارضين له وتم إعدامه فى مدينة مـيلانو بطريقة مـزرية. وتبع ذلك تشكيل حكومـة جديدة فى إيطاليا أعلنت الحرب على ألمانيا وبذلك أصبحت إيطاليا شريكة للحلفـاء فـى المراحل الأخـيـرة من الحرب .



إعدام موسولينى

معركة نورماندى وتحرير فرنسا

وجه الحلفاء اهتـمامهم عقب سقوط روما إلى تحرير فرنسا وإنقاذها من سيطرة النازية . وبتعاون ديجول رئيس حكومة فـرنسا الحرة مع الحلفاء عقب نجاحه فى تكوين جيـش من أبناء المستـعمـرات الفرنسـية فى غـرب أفريقـيا، تم وضع خطة عـسكرية للنزول فى نورماندى . وعلى أثر انتهاء معركة نورماندى بنصر مؤزر للحلفاء تقدمت قواتهم بعد ذلك صوب العاصمة الفرنسيـة باريس فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٩٤٤ .ولا تزال فرنسا تعتبر هذا اليوم عيدا لذكرى التحرير والنصـر، وفى أعقاب ذلك الانتصار تسلم الجنرال ديجول السلطة بعد أن حاز على ثقة الشعب الفرنسى واعترف به الحلفاء رئيسا للجمهورية الفرنسية الرابعة.

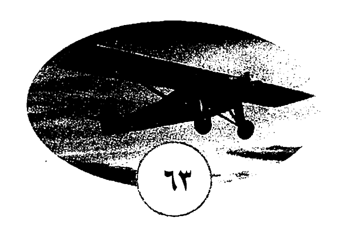


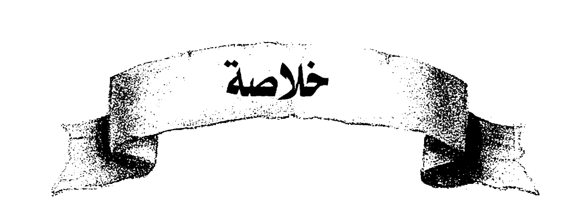
كاد وجب أن يعقد فى مصر مؤتمر برياسة رئيس الحكومة المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه من القرارات محققا للأغراض التى تنشدها الأمم العربية. هذه هى خير السبل للسير فى الموضوع سيرا يكفل له النجاح ويضمن له التوفيق" .

وعندما تم تأسيس الجامعة العربية فى مارس ١٩٤٥ كانت الحاجة إلى مركز تموين الشرق الأوسط البريطانى قد زالت بزوال ظروف الحرب مما جعل البعض يعتقد أن الجامعة هى الشكل الجديد للسيطرة البريطانية على العرب بدلا من المركز. ولكن هذا الاعتقاد فيه تجاهل لحركة القوى السياسية التى طالما دعت إلى العروبة منذ أواخر القرن التاسع عشر ولاحقت عناصرها وقياداتها السلطات العثمانية-التركية بالسجن أو النفى والتشريد.



عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة العربية مع الحاج أمين الحسينى مفتى القدس



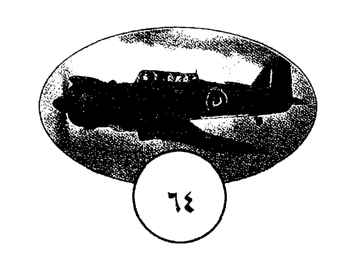


خلاصة

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية باختفاء ألمانيا وإيطاليا من دائرة الصراع على النفوذ فى بلاد العرب ، كذلك فقدت فرنسا نفوذها فى الشرق العربى، على حين لم يطرأ تغيير على طبيعة العلاقات بين بريطانيا من جهة وبين مصر والعراق من جهة أخرى، كذلك احتفظت بريطانيا بمحمياتها على سواحل شبه الجزيرة العربية فى الشرق والجنوب والجنوب الشرقى، وإن لم يمنع هذا من حدوث تغير فى أسلوب السياسة البريطانية للاحتفاظ بالنفوذ فى منطقة الشرق العربى إذ أصبحت بريطانيا أكثر استعدادا لربط الدول العربية المستقلة بمعاهدات ضمان جماعية تحل محل المعاهدات الثنائية غير المتكافئة ، ومن هنا مثلا عرضت على سوريا ولبنان فى ١٩٤٥ معاهدة من هذا النوع بالاشتراك مع فرنسا ، إلا أن الوطنيين رفضوا هذه الفكرة.

كما أحدثت الحرب تغيرا أساسيا فى نظرة الولايات المتحدة الأمريكية إلى الشرق العربى ففى الماضى كان اهتمامها مقتصرا على النواحى الثقافية والاقتصادية حيث أكرهت بريطانيا فى فترة بين الحربين على تطبيق سياسة الباب المفتوح وخاصة فيما يتعلق بامتيازات النفط ، وفى الوقت نفسه كانت تسلم لبريطانيا تسليما تاما بالتفوق فى الشؤون السياسية ، ومن هنا لم تفكر الحكومة الأمريكية مثلا فى إقامة علاقات دبلوماسية مع السعودية قبل ١٩٤١ بالرغم من أن شركات النفط الأمريكية كانت قد حصلت على امتياز التنقيب هناك منذ عام ١٩٣٣ وعندما أرادت شركات النفط الأمريكية أن تستفسر عن موضوع الحدود السعودية نراها تتجه إلى المفوضية البريطانية فى جدة وليس إلى الحكومة فى الرياض.

وتمشيا مع هذه السياسة أيضا أحالت الولايات المتحدة إلى بريطانيا الطلب الذى تقدم به عبد العزيز آل سعود للحصول على قرض مالى (١٩٤٠). وقد تقدت السعودية بهذا الطلب نظرا لانصراف الولايات المتحدة عن استغلال النفط فى أراضى السعودية لصعوبة نقله عبر البحار بسبب الغواصات الألمانية ، وكذا انقطاع موارد الحج بسبب ظروف الحرب. ومن هنا ظلت علاقات السعودية ببريطانيا وثيقة طوال فترة الحرب حتى أن ابن سعود أرسل أحد أبنائه إلى العلمين

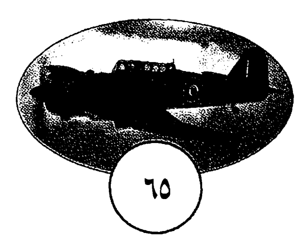




صورة للقوات الأمريكية تضرب الجزر اليابانية

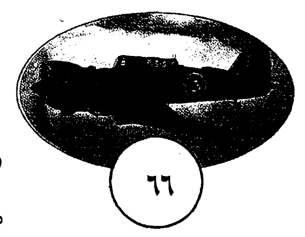
وكان على الحلفاء بعد أن فرغوا من الحرب فى الجبهة الأوروبية أن يركزوا جهودهم على إخضاع اليابان . ولما كانت اليابان بطبيعة تكوينها الجغرافى لم يسبق لها أن تعرضت للغزو فقد كان من المتوقع على الرغم من المصاعب الشديدة التى باتت تواجهها أن تستمر فى الحرب . ومن ثم كان لا بد من استخدام سلاح رادع لإجبارها على الخضوع والاستسلام .

التجربة النووية الأولى



وكانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا قد جندا علماءهما خلال سنوات الحرب لاختراع نوع جديد من الأسلحة الرادعة، وقد عكف أولئك العلماء على تصنيع القنبلة الذرية حيث تكللت جهودهم بالنجاح حين اكتشفوا عنصرا مستمدا من اليورانيوم تقوم عليه عملية تفجيرها، وأصبحت القنبلة معدة للاختبار، حيث تمت تجربتها بنجاح فى صحراء نيو مكسيكو فى السابع عشر من يوليو ١٩٤٥ . وقد صادف ذلك التاريخ انعقاد مؤتمر بوتسدام الذى كان يتدارس فيه الحلفاء الخطط العسكرية التى سوف تتبع بشأن اليابان، وقد دفعتهم الأنباء التى وصلت إليهم عن نجاح تجربة تفجير القنبلة الذرية إلى إصدار ما عرف بإعلان بوتسدام، وفيه وجهوا إنذارا إلى اليابان بالتسليم دون قيد أو شرط أو تعرضها للدمار الشامل . وعلى أثر تجاهل اليابان لذلك الإنذار أمر الرئيس الأمريكى هارى ترومان Truman الذى كان قد وصل إلى رئاسة الجمهورية الأمريكية فى عام ١٩٤٥ خلفا للرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت عقب وفاته فى ذلك العام، بإلقاء القنبلة الذرية على اليابان . ولما كان استخدام ذلك السلاح النووى يعد منافيا للأخلاق والمبادئ الإنسانية، إلا أن الحلفاء سرعان ما وجدوا مبررا وهو أن عدم استخدام ذلك السلاح سيؤدى إلى إطالة أمد الحرب، سيما وأن اليابان كانت مستميتة فى القتال مما قد يكلف الفريقين المتحاربين خسائر فادحة أكثر مما قد تسببه القنبلة الذرية .

صورة طوكيو بعد قصفها سنة ١٩٤٥ وطوكيو الحديثة



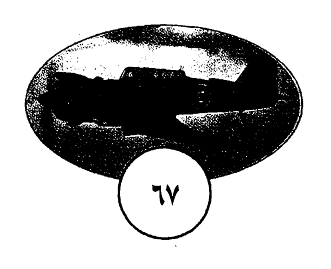
استسلام اليابان

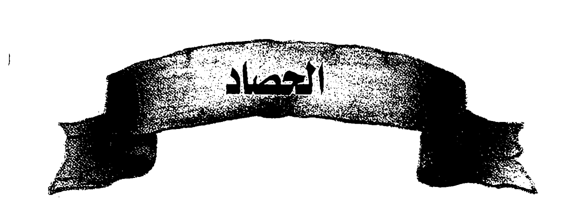
فى السادس من أغسطس ١٩٤٥ قامت القاصفة الأمريكية B29 بإلقاء قنبلة ذرية أطلق عليها من قبيل التهكم Little Boy على مدينة هيروشيما الصناعية، وكان من جراء ذلك أن تعرضت المدينة لأفدح الكوارث فى تاريخ الحروب لما سببته من تدمير ما يقرب من ثلاثة أرباعها ومصرع ما لا يقل عن ثمانين ألفا من سكانها فضلا عن تشويه عشرات الألوف منهم . وعلى الرغم من ذلك لم تستسلم اليابان مما دفع الحلفاء إلى إلقاء القنبلة الثانية على مدينة ناجازاكى أدت إلى تدمير المدينة وسقوط الألوف من سكانها قتلى وجرحى ومشوهين .

وحين أدركت اليابان أخيرا أن مقاومتها صارت لا تجدى وأن استمرارها فى الحرب قد يكلفها مزيدا من الخسائر المادية والبشرية التى لا قبل لها بتحملها، بادرت فى الرابع عشر من أغسطس بطلب الصلح من الحلفاء، واعتبر ذلك التاريخ نهاية للحرب العالمية الثانية، وفيه تم إسدال الستار على أفظع الحروب التى عرفها التاريخ . وهكذا انتهت مقاومة اليابان باحتلال قوات الحلفاء لأراضيها، ووقعت على وثيقة التسليم التى تعهدت فيها تقديم العسكريين للمحاكمة باعتبارهم مجرمى حرب . وقد استمر احتلال الحلفاء لليابان قرابة ست سنوات ١٩٤٥-١٩٥١، عملت الولايات المتحدة الأمريكية التى كان يمثلها الجنرال ماك آرثر فى خلالها على التخلص من الطبقة العسكرية وتسريح الجيش وإصدار دستور جديد لليابان .

وعلى الرغم مما نص عليه الدستور من الإبقاء على النظام الإمبراطورى، ومن ثم استمر الميكادو هيروهيتو قائما على العرش، لما للإمبراطور من قدسية خاصة لدى اليابانيين، إلا أن الدستور حرص مع ذلك على تجريده من سلطاته الديكتاتورية، ووصل الأمر إلى أن يطلب منه أن يعلن أمام الشعب تنازله عن جميع مظاهر التقديس وأنه لا يعدو كونه فردا عاديا من أفراد الشعب.

وعلى الرغم من استسلام اليابان، فإن ما جبل عليه الشعب اليابانى من إصرار ومثابرة وجدية فى العمل، جعلته يعمل على تعويض ما خسرته بلاده فى الحرب بالانطلاق الاقتصادى والصناعى والتقدم التكنولوجى حتى أصبحت اليابان من القوى الصناعية الكبرى التى استطاعت أن تحقق لنفسها مكانة اقتصادية لا يستهان بها وتعم صناعاتها جميع أنحاء العالم بما فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها .





انتهت الحرب العالمية الثانية فى الرابع عشر من أغسطس ١٩٤٥ بعد أن خلفت وراءها خسائر مادية جسيمة وجراحا دامية لا تقاس بما خلفته الحرب العالمية الأولى، حيث فقد العالم فى تلك الحرب الضروس ما لا يقل عن خمسين مليونا قتلوا فى معاركها وأكثر من ثمانين مليونا من الجرحى والمشوهين . أما الخسائر المادية فقد قدرت بأكثر من ألفى مليار من الدولارات إضافة إلى قيمة ما تكلفته تلك الحرب التى شاركت فيها تسعة وخمسون دولة، وفضلا عن ذلك فقد خلفت الحرب مشكلات اقتصادية واجتماعية لا حصر لها عانت منها الدول المنتصرة والمنهزمة على السواء.

هيئة الأمم المتحدة United Nations

دفعت الكوارث البشرية والمادية التى نجمت عن الحرب العالمية الثانية المجتمع الدولى للعمل على إيجاد منظمة عالمية لحماية السلم والأمن الدوليين، ومحاولة تجنب الأخطاء التى وقعت فيها عصبة الأمم التى تأسست عقب الحرب العالمية الأولى . ومن ثم تميزت الأمم المتحدة بأن أتاحت عضويتها للدول المستقلة جميعها، كما شارك فى وضع ميثاقها وفود من ستة وأربعين دولة اجتمعوا فى مدينة سان فرانسسكو خلال الفترة من أبريل إلى يونيو ١٩٤٥ . غير أنه على الرغم من أن ديباجة الميثاق قد استهلت بعبارة " نحن شعوب الأمم المتحدة " الأمر الذى يفهم منه أن الشعوب هى التى أصدرت هذا الميثاق، إلا أن ذلك لم يكن ينطبق على الواقع إلى حد كبير .

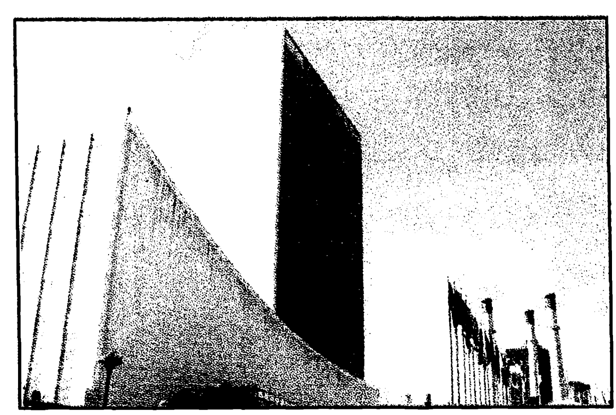
وقد أكد الميثاق الواجبات الأساسية للأمم المتحدة من حيث كونها منظمة دولية تعمل على حفظ السلام الدولى، وتحقيقا لهذه الغاية تتخذ الأمم المتحدة التدابير اللازمة لمنع الأسباب التى تهدد السلام والأمن الدوليين، وعليها أن تتذرع بالوسائل السلمية لحل المنازعات وفقا لمبادئ العدل والقانون الدولى . كما تضمنت مواد الميثاق تنمية العلاقات الودية بين الأمم وتحقيق التعاون الدولى وحل المشكلات السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، والاستعانة بالأجهزة التابعة لها لتحقيق تلك الغايات .

٦٨

الحرب الباردة Cold War

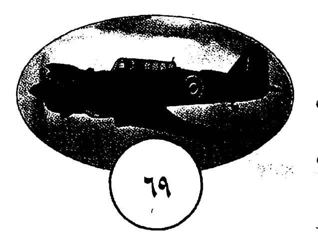
على الرغم من أن الآمال تعلقت بالأمم المتحدة باعتبارها أداة لحفظ السلام العالمى، إلا أن تلك الآمال لم تلبث أن ذهبت أدراج الرياح . ويرجع ذلك فى الدرجة الأولى إلى عدم استطاعة الأمم المتحدة التقريب بين الكتلتين المتنافستين على زعامة العالم ونعنى بهما المعسكر الغربى بزعامة

هيئة الأمم المتحدة- وأحد اجتماعاتها الرسمية









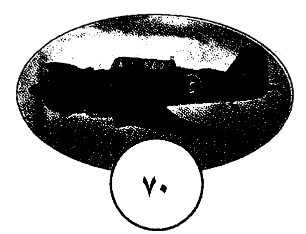
الولايات المتحدة الأمريكية والمعسكر الشرقى بزعامة الاتحاد السوفيتى. ومن ثم تميزت السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية بالتوترات المستمرة بين هذين المعسكرين مما أدى إلى ظهور ما عرف بالحرب الباردة التى كادت تتحول فى بعض الأزمات إلى حرب ساخنة، غير أن ما حال دون ذلك امتلاك كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى للأسلحة الذرية والنووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل .

وقد بدأت عوامل التوتر بين القوتين العظميين حين اتجهت الولايات المتحدة الأمريكية بالإعلان عن مبدأ ترومان فى عام ١٩٤٧، وقد ارتكز على هذا المبدأ مشروع مارشال الذى كان يهدف إلى إعادة الانتعاش لدول أوروبا قبل انهيارها اقتصاديا واجتماعيا نتيجة لما تحملته من أعباء الحرب . وقد عرف هذا المشروع ببرنامج الإنعاش الأوروبى . وقد اعتبر الاتحاد السوفيتى هذا البرنامج بمثابة نوع من الاستعمار أطلق عليه الاستعمار الجديد Neo Colonialism. وردا على الولايات المتحدة الأمريكية أعلن الاتحاد السوفيتى عن تأسيس منظمة الكومنفورم التى استهدف بها تدعيم الأحزاب الشيوعية فى الدول الأوروبية .

ولم تلبث أن تجددت عوامل التحدى بين المعسكرين حين عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تطويق الاتحاد السوفيتى بسلسلة من الأحلاف العسكرية، بدأت بالحلف الدفاعى الأمريكى فى عام ١٩٤٨ ثم معاهدة شمال الأطلنطى التى يطلق عليها اختصارا " الناتو " NATO التى وقعت عليها كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وكندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج والنرويج والدانمرك، والتى نصت على أن أى هجوم مسلح على أية دولة من تلك الدول يعد عدوانا عليها جميعا . وقد هاجم الاتحاد السوفيتى تلك المعاهدة هجوما شديدا واعتبرها بمثابة تنظيم عدوانى موجه ضده، فضلا عن كونها تتناقض مع ميثاق الأمم المتحدة .

ولم تثن معارضة الاتحاد السوفيتى عن استمرار الولايات المتحدة الأمريكية فى إنشاء الأحلاف العسكرية التى كان من بينها حلف بغداد فى عام ١٩٥٥ . وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة لم تنضم رسميا إلى عضوية ذلك الحلف إلا أنه كان يعمل تحت إشرافها وبتوجيه منها . وعلى أثر انسحاب العراق من ذلك الحلف عقب قيام ثورة تموز فى عام ١٩٥٨ أصبح يعرف بالحلف المركزى CENTO وانتقلت قيادته إلى أنقرة . كما أسست الولايات المتحدة حلف جنوب شرقى آسيا أو فيما عرف اختصارا بحلف السيتو SEATO .

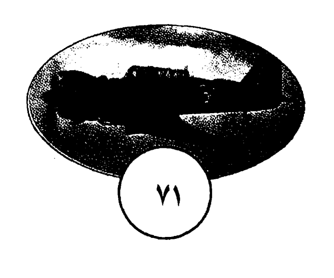
وفى مواجهة تلك الأحلاف الغربية اتجه الاتحاد السوفيتى إلى تأسيس مجموعة من الأحلاف العسكرية المضادة من بعض الدول الشيوعية فى شرق أوروبا كان من أبرزها حلف وارسو الذى



تأسس فى عام ١٩٥٥ . وكان من الطبيعى أن يترتب على تكوين الأحلاف الغربية والأحلاف الشرقية المضادة استمرار التوتر بين المعسكرين، ووضح ذلك التوتر فى مناطق كثيرة من العالم خاصة ألمانيا وكوريا وفيتنام وكوبا وغيرها . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الأزمة التى حدثت فى كوبا فى عام ١٩٥٨ كادت تهدد بحدوث مواجهة شاملة بين المعسكرين، إلا أنه أمكن تفادى الموقف المتصاعد فى اللحظات الأخيرة حين وافق الاتحاد السوفيتى على سحب قواعده الصاروخية من جزيرة كوبا . وتقرر فى أعقاب تلك الأزمة إنشاء ما صار يعرف بالخط الأحمر أو الخط الساخن Hot Line بين موسكو وواشنجتن حتى يمكن الاتصال المباشر بين الرئيسين الأمريكى والسوفيتى لتفادى ما قد يحدث من أزمات سياسية أو عسكرية .

وقد مرت العلاقات بين المعسكرين العظيمين بمراحل متباينة من التأزم والتعايش السلمى حتى شهد عام ١٩٧٢ توقيع الوفاق الدولى D'Entente الذى تم الاتفاق فيه على تحديد مناطق النفوذ فى العالم فى إطار ما صار يعرف بالاستراتيجية العالمية Global Strategy . ولم تلبث التغيرات التى حدثت فى العالم منذ بداية عقد الثمانينيات والتى تمثلت فى استعادة ألمانيا لوحدتها السياسية، واتجاه دول أوروبا إلى تحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية فيما بينها، وتوقيع اتفاقيات الخفض المتبادل للتسلح بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، إلى جانب التطورات الضخمة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى على أثر وصول جورباتشوف إلى السلطة فى عام ١٩٨٦ وإعلانه لسياسة البروسترويكا التى ترتب عليها تفكك الاتحاد السوفيتى فضلا عن تأثيرها على دول أوروبا الشرقية. كان لتلك التغيرات والتحولات الضخمة نتائجها الهامة التى تمثلت فى انهيار النظام العالمى الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية والذى تمثل فى القطبية الثنائية لكى يبدأ نظام عالمى جديد World New Order فى ظل القطبية الواحدة التى تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية .

وعلى الرغم مما قيل من أن النظام العالمى الجديد سيؤدى إلى عهد ملىء بالأمل والسلام، إلا أن العالم لا يزال يعيش فى العديد من الأزمات والتوترات الإقليمية والدولية، كما لا تزال الحقوق المدنية والديمقراطية تنتهك فى أنظمة كثيرة من عالمنا المعاصر .





المصادر العربية

- جرانت وتمبرلى
تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين - ترجمة محمد على أبو درة ولويس إسكندر - الجزء الثانى، القاهرة ١٩٦٧.
- رونوفن (بيير)
تاريخ القرن العشرين، الجزء الثامن من الموسوعة التاريخية- تعريب نور الدين حاطوم، بيروت ١٩٦٩.
- عبد الحميد البطريق
التيارات السياسية المعاصرة، بيروت ١٩٧١.
- فيشر (هـ. أ. ل.)
تاريخ أوروبا فى العصر الحديث- ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط ٥ القاهرة.
- محمد السيد سليم
تطور السياسة الدولية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٢.

المراجع الأجنبية:

Brandenburg, Erich -

From Bismarch to the World War , A History of the German Foreign Policy, London 1927.

-Churchill, Winston

-The Second World War; The Gathering Storm, vol. 1, Cassell University Press, 1948.

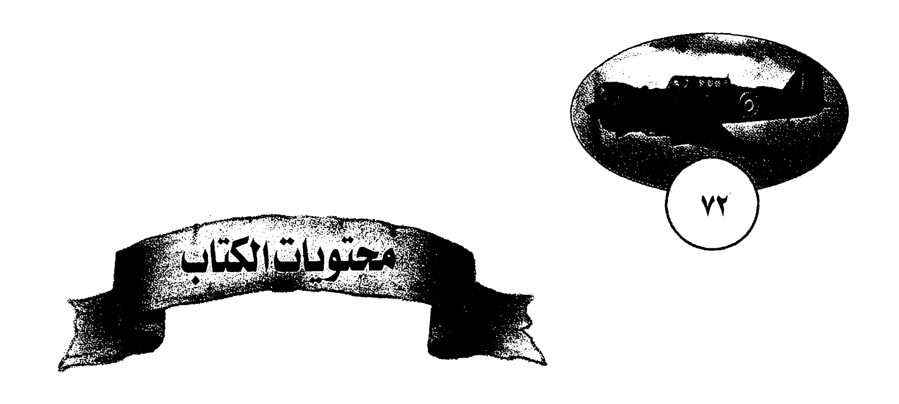
-The Second World War; their Finest Hour, Vol. 2, Cassell University Press, 1949.

-Crutwell, C. R.M.

A History of the Great War, London 1982.

-Gooch & Temperley

British Documents on the Origins of the War (1898-1914) , London 1938.


٧٢
محتويات الكتاب



This book deals with the historical origins, and real motives behind the outbreak of the two world wars. These wars were disastrous to both the victorious and the defeated states. The world suffered from their economic and social aftermath, besides millions of people who lost their life. Obviously, the drastic developments of war weapons led to these catastrophic results.

Many historians, politicians, and militaries have addressed various reasons that led to the outbreak of these wars. In this book, the author stresses on the hostility between France and Germany, and France's desire to revenge from Germany since its defeat in 1870's war.

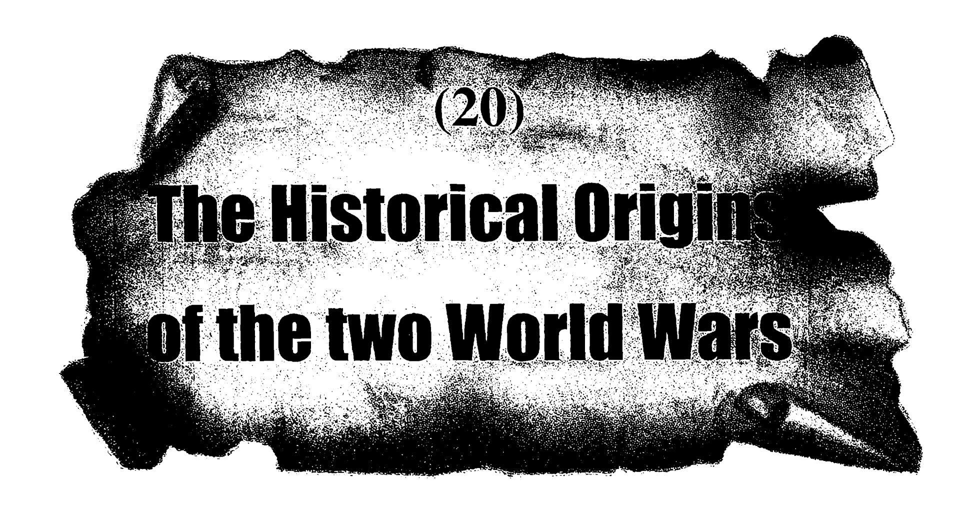
This state of enmity and vengeance led to the First World War, which ended with the defeat of Germany. France's Pursued its interest to revenge from Germany as it was clear in "Versailles Treaty", which sued the seeds of World War II.

The disasters resulting from these wars urged the international society to seek the formation of international organizations that aim at keeping peace and ceasing wars. Two Organizations were established: "The League of Nations" after World War I and "The United Nations" following World War II.

Despite the efforts made by the United Nations to solve international and regional problems, the world is still suffering from various crises.

The author hopes that this book will make the reader more aquatinted with the two major events that the world had witnessed in its Modern and Contemporary History.

Dr. Gamal Zakaria Kassem



Dr. Gamal Zakaria Kassem





The beginning of both European, and Arab Modern and Contemporary history has imposed a large debate among many historians. Some Historians consider the fall of Constantinople (1453 A.D.), the beginning of Modern European history, while others relate it to the European Renaissance, or the Geographical Exploration.

On the other hand, Modern Arab history in view of many historians starts with Ottoman domination over the Arab World (early 16th century), while others relate it to Wahhabi movement, or the Expedition of Bonaparte to Egypt (1798), which rendered an opportunity for the connection between the Arab World and Western Europe.

Regarding the beginning of Contemporary Arab History, many Scholars consider it to be the First World War, while others opt for World War II, since many Arab countries gained their independence on its aftermath.

Dr. Adel Ghoneim

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

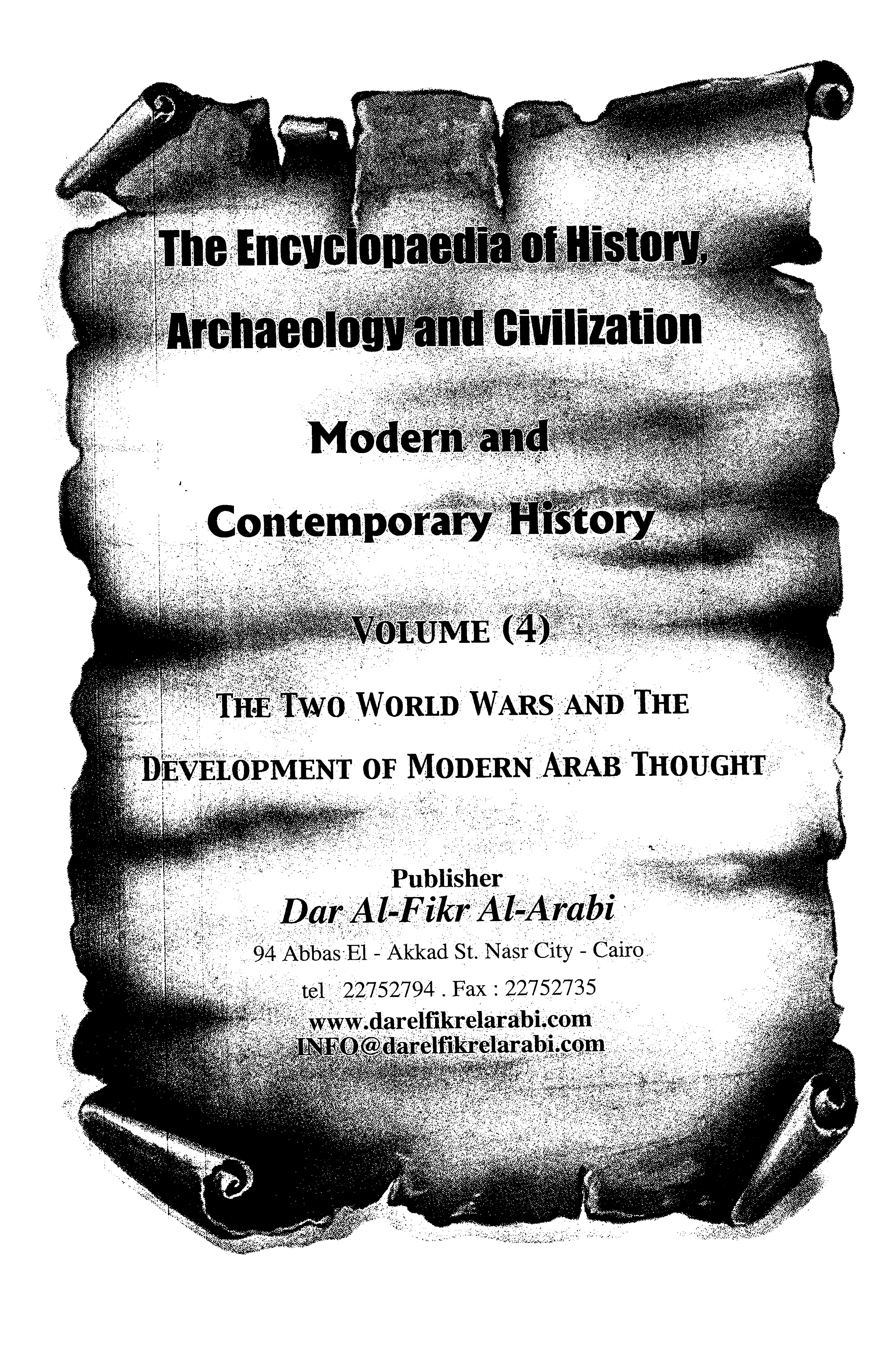
Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com




CONTENTS





The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Modern and Contemporary History

VOLUME (4)

THE TWO WORLD WARS AND THE DEVELOPMENT OF MODERN ARAB THOUGHT

Publisher

Dar Al-Fikr Al-Arabi

94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo

tel 22752794 . Fax : 22752735

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com